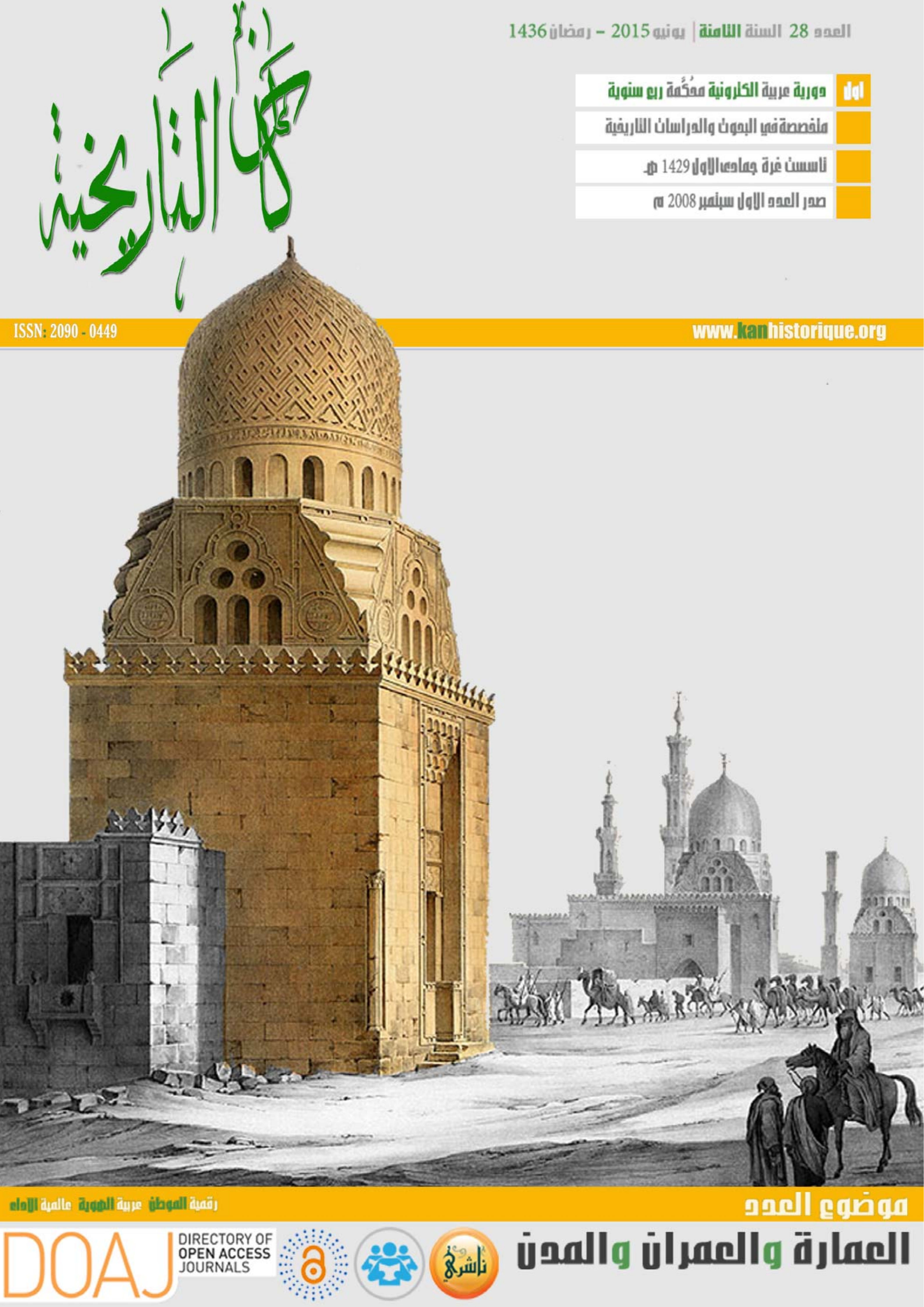


كان التاريخية
العدد 28 السنة الثامنة | يونيو 2015 – رمضان 1436
اول
دورية عربية الكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429 هـ
صدر العدد الأول سبتمبر 2008 م
ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org
رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء
موضوع العدد
العمارة والعمران والمدن
DOAJ
DIRECTORY OF OPEN ACCESS JOURNALS
ناشري









أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر ( أيلول ) ٢٠٠٨

## دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

## موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

## حقوق الملكية الفكرية



## الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

## أعداد الدورية متوفرة عبر:




دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
*www.nashiri.net*




أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
*www.archive.org*

## الترقيم الدولي المعياري للدورية


كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

**ISSN: 2090 – 0449 Online**


## الراعي الرسمي




سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

## علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

## النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

## المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:


**mr.ashraf.salih@gmail.com**


## موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم




**www.kanhistorique.org**
**www.historicalkan.co.nr**

# دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

## السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

### سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

**هيئة التحرير:**

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

**هيئة التحكيم:**

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

### البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية. ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

## إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

**نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام ( التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (١٠٠ - ١٥٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو ( تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة. فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية ( American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

## عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

## عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

## تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

## قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

## حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

## الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

## المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:

**info@kanhistorique.org**

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

**mr.ashraf.salih@gmail.com**

محتويات العدد

# التراث العمراني العربي

التراث العمراني هو كل ما شيّده الإنسان من مدن وقرى وأحياء ومبانٍ مع ما تتضمنه من فراغات ومنشآت لها قيمة عمرانية أو تاريخية أو علمية او ثقافية أو وطنية، وإن امتد تاريخها إلى فترة متأخرة. وتشمل مباني التراث العمراني: القصور والمباني التاريخية والقرى والأحياء التراثية، ومراكز المدن القديمة، ويدخل في ذلك القلاع والأبراج الدفاعية، والمساجد والأسبلة، والمدارس والحمامات، وما في حكمها أو ما يشبهها من مبان كان تأسيسها مرتبطًا بأحداث تاريخية أو دينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو أمنية أو سياسية أو ثقافية أو كان إنشاؤها يعكس نمطًا أو أنماطًا وطرزًا فنية في العمارة أو الفنون الزخرفية المتصلة بها، بحيث تكون ذات دلالة على مدرسة فنية أو حضارة تاريخية لها جغرافية معينة أو فترة زمنية محددة.

والحقيقة؛ أن التراث العمراني وعاء للحضارة، فهو يحفظ الخصائص الجوهرية لكل أمة بما يميزها عن سواها، فيجسد عراقتها، ويسجل تاريخها، ويحفظ هويتها، والتراث العمراني يحوي العديد من القيم والفوائد الاقتصادية كأحد الموارد المستدامة، ووسيلة لتوفير المزيد من فرص العمل، وإحياء المهن والحرف التقليدية، فضلاً عن القيم الثقافية والعمرانية بما حوت من مضامين تاريخية وفنية، وكذلك القيم الاجتماعية بما فيها من توطين واستقرار وتكافل اجتماعي.

ويلاحظ في هذا العصر توجه عالمي متزايد نحو توظيف التراث العمراني المحلي والمحافظة عليه والاهتمام به بكافة الصور، من قِبل الجهات الرسمية وغير الرسمية، من هيئات وجامعات وأكاديميات ومؤسسات إدارية وغير ذلك، فقد أصبحت العناية بالتراث العمراني سمة من سمات الدول المتقدمة، فكلما تقدمت ثقافيًا واقتصاديًا، وارتفع مستوى التحضر بين مجتمعاتها، كلما زادت عنايتها بتراثها العمراني، وعملت على المحافظة عليه، وحمايته، وتأهيله، وتنميته، ثم استثماره اقتصاديًا.

الوطن العربي غني بتراث عمراني أصيل يعكس جوانب حضارية من تاريخ الأمة، وينتشر هذا التراث في مختلف مناطق العالم العربي، فيعكس شخصية كل إقليم أو منطقة، فهو وعاء الحضارة وماعون الثقافة، يحفظ الخصائص الجوهرية للأمة التي تميزها عن سواها؛ فتجسد عراقتها، وتسجل تاريخها.

والتاريخ هو دالة الأمة ومصدر إلهامها، خصوصًا إذا كان هذا التاريخ يستند إلى منظومة حضارية لها تجاربها التي تراكمت عبر العصور؛ فشكلت هويتها ورؤيتها الخاصة، وحددت آفاقها المستقبلية، وفي هذا يقول القائل: حينما تتداعى علينا المشاكل، وترمي بثقلها على صدورنا، وتحبس أنفاسنا، نتجه إلى ذواتنا؛ فننفض الغبار عن تجاربنا الخاصة، وقد نجد خيط الأمل.

إن التراث عامةً والتراث العمراني خاصةً أحد العناصر المهمة لإبراز الوجه المشرق لثقافتنا وتراثنا العربي، وليس نقيضًا للمعاصرة، بل عنصر حضاري نستلهم منه توجهنا نحو المستقبل ونبني على أساسه تفاعلنا مع الحضارات الأخرى. ونحن في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية بالذات أحوج ما نكون إلى استلهام وتأصيل ثقافتنا العريقة وتراثنا المميز، واستيعاب وتطوير هذه المقومات ليعود هذا الجزء المهم من العالم إلى الإسهام من جديد في صناعة التاريخ وتشكيل المستقبل.

**إسراء عبد ربه**

**مديرة التحرير**

# بغداد مدينة الحوار الحضاري
## رحلة ابن فضلان أنموذجًا.. الدوافع والنتائج




**أ.د. وجدان فريق عناد**

أستاذ التاريخ الإسلامي
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد – العراق



### مُلَخَّصْ

لا ينكر أحد الدور التنويري الذي ساهم به الرحالة والأدباء العرب في تجسيد الانفتاح الثقافي والمعرفي على العالم الخارجي خاصةً في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وعلى رأسهم الرحالة العربي أحمد بن فضلان، الذي أرسله الخليفة المقتدر إلى شمال أوروبا. وقد استعرض رحلته "القزويني" في آثار البلاد، و"ياقوت الحموي" في معجم البلدان، و"ابن الوردي" في خريدة العجائب، كما سجل مغامراته بنفسه في كتاب دعاه "رحلة ابن فضلان". وقد استغرقت الرحلة أحد عشر شهرًا في الذهاب، وكانت مليئةً بالمغامرات والمشاق والمصاعب السياسية والانفتاحات على الآخر المختلف ثقافيًا. من هذا المنطلق يستعرض البحث رحلة ابن فضلان (الأسباب والنتائج) من خلال تعريف الرحلة العربية الاسلامية (دوافعها ومراحلها)، فضلاً عن أهمية رحلة ابن فضلان، والواقع السياسي للخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، وتحديدًا عصر الخليفة العباسي المقتدر الذي كانت رحلة ابن فضلان في عهده. ثم يتناول البحث بغداد مدينة الحوار الحضاري بصفتها مركز إشعاع فكري وحضاري إلى مختلف البلدان ومنارًا للمعرفة والعلم، جاء هذا ثمرة للنشاط الإنساني المتميز في جميع الميادين مما جعلها تحتل هذه المكانة بين مدن العالم آنذاك، وأخيرًا يستعرض البحث الحوار الحضاري في الحضارة العربية الاسلامية.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٧ سبتمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ ديسمبر ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

الرحلات العربية، العصر العباسي، الصقالبة، حوار الحضارات، الحضارة الإسلامية

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

وجدان فريق عناد. "بغداد مدينة الحوار الحضاري: رحلة ابن فضلان نموذجًا (الدوافع والنتائج)".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٩ – ١٦.


### مُقَدِّمَةُ

خرجت من بغداد سنة ٣٠٩ هـ، بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله رحلة عُدت من بين أهم الرحلات التاريخية إلى أرض الصقالبة، وكان لأحد أعضائها الفضل في تدوين أخبارها، فعرفت الرحلة باسمه "رحلة أبن فضلان". تلك الرحلة عكست أهمية مدينة بغداد كونها مدينة الحوار الحضاري بكل ما يعنيه هذا المصطلح. إن هذه الدراسة هي محاولة بسيطة لبيان التلاحم بين بغداد والحضارة العربية الإسلامية، وبين بغداد والثقافة العالمية. ورحلة أبن فضلان واحدة من الرحلات التاريخية التي بينت المكانة المهمة لبغداد باعتبارها مركز حضاري وسياسي للبلدان والشعوب التي نظرت إليها بعين الاعجاب والتمست منها العون على الرغم من الحالة السياسية المتدهورة التي كانت تمر بها آنذاك.

وسيحاول البحث من خلال رحلة أبن فضلان أن يحلل النصوص التي تعكس بعض الجوانب من حياة تلك المناطق البعيدة، كما يهدف إلى تقديم نقد موضوعي ربما يكون فيه شيء من الاختلاف عن بعض القراءات السابقة لتلك الرحلة المهمة في موضوعها ووقتها ووجهتها. وعلى الرغم من أن الدراسات والبحوث عن رحلة أبن فضلان لم تكن قليلة، إلا أن الباحث دائمًا يجد فيها مادة بحثية قيمة تستحق الاهتمام بها والتعمق فيها.

## أولاً– لمحة عن الرحلة العربية الاسلامية

**١/١- تعريف الرحلة:**

الرحلة نوع من الحركة، فيها مخالطة للناس، وهي قديمة قدم الانسان إذ عُرفت منذ العصور القديمة، ومع الاختلاف في دوافع الرحيل، واختلاف وسائل السفر، وتوجهات الرحالة الفردية ونزعاتهم الشخصية، فإنها تبقى المرآة للسمات الحضارية للعصر الذي عاشوا فيه، والبلاد التي وصلوا إليها، لذلك هي مصدر مهم لوصف الثقافات الإنسانية.[١]

**٢/١- دوافع الرحلة العربية الإسلامية:**

كان للرحلات العربية الإسلامية دوافع مختلفة، يأتي في مقدمتها أن الدين الاسلامي فيه دعوة للسفر والرحلة والاتصال مع الاخرين،[٢] الحج، السعي في طلب العلم ولقاء العلماء والشيوخ، والتجارة ....الخ.[٣] كانت الرحلة العربية جُهدًا ذاتيًا واجتهادًا شخصيًا، باستثناء بعض الرحلات التي أهتمت بها الدولة وهي الرحلات التكليفية من قبل الحكام مثل الرحلة في عهد الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز(٢٢٧هـ)،[٤] والغرض منها جمع المعلومات والبيانات عن البلدان والشعوب التي وصل إليها الإسلام.[٥]

**٣/١- مراحل الرحلة العربية الإسلامية:**

إن تاريخ الرحلات العربية الإسلامية مع أنه كان تاريخ طويل وقديم، إلا أنه يمكن القول أنه مر بمرحلتين؛ **الأولى**: منذ عصر ما بعد الفتوحات الاسلامية، حيث نشطت مع اتساع العالم الإسلامي، وازدهار الفكر، وتنوع منابع المعرفة، وتلك الفترة امتدت ستة قرون تقريبًا وفيها تنقل الرحالة في أقاليم العالم الإسلامي.[٦] **الثانية**: هي الفترة التي كانت فيها تأثير على الفكر العربي الجغرافي الإسلامي وبدأت مع حركة النهضة العربية الحديثة في (القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادي) وفيه كانت الرحلة إلى الغرب.[٧]

**٤/١- أهمية رحلة أبن فضلان:[٨]**

إن كتب الرحلات من المصادر التاريخية المهمة، لأن كل باحث في تاريخ التجارة، أو النظام السياسية أو التاريخ الاجتماعي للشعوب الإسلامية وعلاقاتها مع الدول الأخرى، لابد له من الاعتماد على ما كتبه الرحالة المسلمون، لأن ما كتبوه يُعَدّ كنز يستطيع الباحث أن يستخرج منه معلومات متنوعة.[٩] كان ابن فضلان أحد أولئك الرحالة، الذي له الفضل في تدوين اكتشافات حضارية نادرة، من خلال تلك الرحلة التي سجلت اسم ابن فضلان بحروف مضيئة في تاريخ التواصل الحضاري بين الإسلام والآخر، فضلاً عن أن الأسلوب الذي دونت فيه يُعَدّ نقلة نوعية في فن كتابة الرحلة العربية التي كانت غارقة في مفاهيم السرد، فنقلها إلى مستوى التحليل الإثنوغرافي لشعوب وقبائل لم يكن العرب والعالم يعرفون عنها شيئًا، لذلك ساهمت رحلة أبن فضلان في إثراء المعرفة الجغرافية، وكانت عونًا للمؤرخ والجغرافي، فضلاً عن أهميتها في مجال الأدب والفلسفة.[١٠]

## ثانيًا: الواقع السياسي للخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني (عصر الخليفة المقتدر)

تولى الخلافة المقتدر بالله (٢٩٠-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٤٠م) وفي عهده تدهورت أحوال الخلافة بسبب صغر سنه وعدم قدرته على إدارة الدولة، وتزايد تدخل العسكر، فضلاً عن الحاشية والحريم في شؤون الحكم، حيث لم يكن عمره قد تجاوز ثلاث عشرة سنة فكان له من الحكم اسم الخلافة ولهم زمام الأمور.[١١] إن حال الخلافة ترك أثر سيء على الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالسلطة بيد مجموعة من المرتزقة والمنتفعين الذين يطلبون الانتفاع بأية وسيلة، لا يهمهم من أمر الرعية والناس إلا خضوعهم، ولا يهمهم من الدين إلا مظهره، لذلك كثرة وتنوعت الأزمات ومنها: (المجاعات، وارتفاع الأسعار، وقلة المحصول، واحتكار القوت والسلع)، فكانت النتيجة الثورة على السلطة.[١٢]

حتى أن السلب والنهب لأموال الناس ومصادرة ممتلكاتهم كانت سبيل السلطة للحصول على المال لتغطية نفقاتهم غير المشروعة، ولتصرف على ملذاتهم أو لاكتنازها، ولا يستثنى من ذلك الفعل حتى الخليفة المقتدر بالله، الذي حين تسلم الخلافة كان في بيت المال خمسة عشر مليون دينار، إلا أنه بددها كلها ومعها الأموال التي كانت تجبى من أطراف الدولة. وذلك أمر يبدو طبيعيًا في ظل تسلط أم الخليفة -شغب- ووصيفاتها على شؤون الدولة، فضلاً عن فساد وطغيان القواد الأتراك، فكانت أموال الدولة تنهب وتختلس وتصرف على الترف،[١٣] بينما عامة الناس عاشوا في البؤس والحرمان والشقاء حتى أنتهى الأمر إلى المجاعة.[١٤]

وعلى الرغم من حالة التدهور تلك؛ نجد أن هناك صورة أخرى مختلفة للخلافة العباسية فهي تحرص على الظهور بما يليق بمكانتها أمام السفارات التي تصل إلى مدينة بغداد لأسباب مختلفة، ويبدو ذلك من الترتيبات الإدارية التي اِتُخذت من أجل استقبال سفارة ملك الصقالبة. ذكر الصولي في أحداث سنة (٣٠٥هـ) ذلك الاستقبال فقال: "وفيها دخل مدينة السلام رسول ملك الروم، غلام حدث ومعه شيخ وعشرون علجا،[١٥] فأنزلوا الدار التي كانت لصاعد. ووسع عليهم في الإنزال والوظائف وغيرها. ثم أدخلوا بعد أيام إلى دار الخلافة من باب العامة، وجيء بهم في الشارع العظيم، وقد عُبي لهم المصاف من باب المخرم إلى الدار. فأنزل الرئيسان من دابتهما من باب العامة. وأدخلا الدار. وقد زينت المقاصير بأنواع الفرش، ثم أقيما من الخليفة على نحو مائة ذراع، والوزير علي بن محمد قائم بين يديه، والترجمان واقف يخاطب الوزير، والوزير يخاطب الخليفة. وأعد من آلات الذهب والفضة والجواهر والفرش ما لم ير مثله. فطيف بها عليه، ثم صير بهما إلى دجلة. وقد أعد على الشطوط: الفيلة والزرافات والسباع والفهود. ثم خلع عليهما وكان في الخلع طيالسة ديباج مثقلة، وأمر لكل واحد من الاثنين بعشرين ألف درهم، وحملا من الشذا مع الذين جاءوا معهما. وعبر بهما إلى الجانب الغربي. وقد مد المصاف على سائر

شرائع دجلة إلى أن مر بها تحت الجسر إلى دار صاعد، وذلك يوم الخميس لست بقين من المحرم".[١٦]

وعلى أثر تلك السفارة كانت رحلة أبن فضلان التي كانت في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٠-٣٢٠هـ)، ذلك العصر الذي كان من الناحية السياسية يمثل مرحلة التدهور للخلافة العباسية بسبب محاولة الجيش التدخل في الأمور السياسية وازدياد قوة ونفوذ الوزراء وتأزم الموقف المالي، في مثل ذلك الوضع تأتي تلك الرحلة لتعطي لبغداد وجه آخر كون أن الضعف السياسي لم يؤثر على الوجه الحضاري فهي قبلة الحضارة والعلم لمَنْ يريد التقدم والتحضر فهي المركز.[١٧]

## ثالثا: رحلة أبن فضلان (الدوافع والنتائج)

### ١/٣- دوافع سفارة ملك الصقالبة:[١٨]

"لما وصل كتاب ألمش بن يلطور ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممَنْ يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدًا، وينصب له منبرًا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب إلى ما سأل من ذلك".[١٩] مع أن المصادر التاريخية لم تحفظ لنا نص ذلك الكتاب، لكن يمكن القول أن السفارة التي وصلت إلى بغداد تقع ضمن السفارات الرسمية التي خرجت بأمر رسمي من قبل ملك الصقالبة، وحملت معها كتاب ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله وفيه عدد من المطاليب يسأله أن يساعده على تنفيذها، وهي: أن يرسل إليه مَنْ يفقهه في الدين، ويبني له مسجدًا، وينصب له منبرًا، ويبني له حصن يتحصن فيه من الاعداء. ومن خلال هذا النص يمكن أن نستنتج الدوافع التالية:

- طلب ملك الصقالبة موافقة الخلافة العباسية على إرسال بعثة رسمية تخرج بشكل رسمي بأمر من الخلافة العباسية إلى تلك الأصقاع البعيدة.
- الدافع الديني المتمثل في الطلب من الخلافة العباسية - باعتبارها الرمز الديني للعالم الإسلامي- المساعدة في النواحي الدينية لحاجتهم لذلك.
- الدافع الاقتصادي الذي تمثل في طلب موافقة الخلافة على إعطاء الدعم المادي للصقالبة بما يساعدهم في بناء مسجد ومنبر وحصن.
- الدافع السياسي الذي يتمثل في طلب موافقة الخلافة على إعطاء الدعم السياسي للصقالبة من أجل الحصول على الدعم المعنوي بكونهم حلفاء للخلافة العباسية.

ذكر أبن فضلان ضعف الجانب السياسي لملك الصقالبة حتى أنه كان يدفع الضرائب، ولم يكن يتمكن من حماية حتى بناته فقال: "وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور".[٢٠] "وأبن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر. وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها فاحتج عليه ورده، فبعث وأخذها غصبًا، وهو يهودي وهي مسلمة، فماتت عنده، فوجه يطلب بنتًا له أخرى. فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك اسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصنًا خوفًا من ملك الخزر".[٢١]

ذكر أبن فضلان: "وسألته يومًا فقلت له: مملكتك واسعة، وأموالك جمة، وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصنًا بمال من عنده لا مقدار له؟ فقال: رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها فالتمست ذلك لهذه العلة. ولو أني أردت أن أبني حصنًا من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين، فسألته ذلك".[٢٢] ومن ذلك يبدو أن الدافع الأهم من وراء البعثة التي أرسلها ملك الصقالبة إلى بغداد، فمن الذي ذكره أبن فضلان في رحلته يبدو أن الصور عن بغداد ومكانتها عند تلك الشعوب كانت كبيرة بحيث أن وصول تلك الرحلة، وانتشار الأخبار في تلك الأصقاع عن وجود صلات وسفارة مع الخلافة في بغداد كان من شأنه أن يعزز قوة ومكانة ملك الصقالبة، ويعطيه قوة يستطيع بها أن يقف بوجه أعدائه ندًا.

### ٢/٣- دوافع بعثة الخلافة العباسية:

لما وصل الوفد إلى بغداد وأستقبل بحفاوة كبيرة، استجابة الخلافة إلى مطالب الوفد، فبدأ التهيئة لخروج وفد رسمي من بغداد ليقوم برحلة من الرحلات الرسمية التي تخرج بأمر رسمي من الخلافة العباسية التي تحملت أعبائها المادية المكلفة. فضلاً عن الاهتمام باختيار الرسل المهمين لمثل تلك المهمة التي يمكن أن نفسر اهتمام الخلافة العباسية بها سواء من حيث استقبال السفارة، أو من حيث الجدية في الاستجابة للمطالب التي حملتها، وفي الحرص على انتقاء أعضاء وفدها[٢٣] الذي سيمثلها أمام ملك الصقالبة، بالدوافع التالية:

١- الدافع الديني الذي تمثل في تعليم الدين الإسلامي، وكان هذا الطلب يقع في صميم واجبات خليفة المسلمين. ويبدو من حوار بين أبن فضلان وملك الصقالبة مكانة الخليفة الروحية عند تلك الأقوام، "فقال للترجمان: قل له تعلم أن الخليفة أطال الله بقاءه لو بعث إلي جيشًا كان يقدر علي قلت: لا قال: فأمير خراسان قلت: لا. قال: أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار قلت: بلى قال: قل له فو الله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني وهو في مملكته وبيني وبينه البلدان الشاسعة".

٢- الدوافع السياسية التي تمثلت باستجابة الخلافة العباسية لطلب رسمي من دولة الصقالبة لإرسال وفد من بغداد على اعتبار أن الخلافة العباسية هي رمز للقوة السياسية الأكثر

تأثيرًا في تلك الفترة موضوع البحث. فالخلافة العباسية على الرغم من الضعف والتدهور السياسي الذي كانت تمر به، إلا أن وصول مثل هكذا وفد يعني أن الخلافة العباسية لازالت بعين تلك الشعوب والأقوام تحتل قدر من المكانة والأهمية، بحيث أن الإعلان عن وجود علاقات سياسية مع الخلافة العباسية كان يكفي أن يعطي قوة ومنعة سياسية من بعض الأخطار الخارجية.

٣- الدوافع الاقتصادية التي تمثلت في حرص الخلافة العباسية على الظهور بمظهر المتمكنة ماديًا لأن طلب المعونة المادية جاء من الناحية الاعتبارية للخلافة العباسية –التي أشرنا إليها في النقاط السابقة- لذلك فهي بنظرهم تملك المال الكافي لتقديم المساعدة للحلفاء.

وكانت الخلافة على يقين أن المشاكل المالية لديها كثيرة، وأن بيت المال لا يملك ما يكفي من أجل ذلك، فجرى الاتفاق على أن يكون المال من ضيعة لأبن الفرات.[٢٤] وكان من الممكن أن يتم الاعتذار عن ذلك الطلب المالي، إلا أن الخلافة رأت أن ذلك يعني أن تخسر هيبتها أمام تلك الأقوام التي تعتقد أن الخلافة العباسية لاتزال في عصرها الذهبي. وهكذا؛ يبدو أن دوافع سفارة الصقالبة وبعثة الخلافة العباسية فيها الكثير من المشتركات التي أعطت إشارة مهمة إلى مكانة مدينة بغداد الحضارية والسياسية.

**٣/٣- نتائج الرحلة:**

كان لتلك الرحلة نتائج مهمة على الصعيد التاريخي والحضاري، فقد تركت أثرها على نواحي مختلفة من الحياة في تلك الاصقاع البعيدة منها:

**(٣/٣)١- النتائج الدينية**

ذكر ابن فضلان: "ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم يعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجدًا من خشب يصلون فيه ولا يعرفون القراءة فعلمت جماعة ما يصلون به".[٢٥] "ولقد أسلم على يدي رجل يقال له طالوت فأسميته عبد الله، فقال: أريد أن تسميني باسمك محمدًا ففعلت وأسلمت امرأته وأمه وأولاده فسموا كلهم محمدًا وعلمته الحمد لله، وقل هو الله أحد، فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه إن صار ملك الصقالبة".[٢٦]

"وكان مؤذنه يثني الإقامة إذا أذن فقلت له: إن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة فقال للمؤذن: اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه فأقام المؤذن على ذلك."[٢٧] "وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي: اللهم وأصلح الملك يلطوار ملك بلغار فقلت أنا له: إن الله هو الملك ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء وقد قال النبي (ﷺ): "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله "فقال لي: فكيف يجوز أن يخطب لي قلت: باسمك واسم أبيك قال: إن أبي كان كافرًا ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر وأنا أيضًا فما أحب أن يذكر اسمي إذ كان الذي سماني به كافرًا، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين فقلت: جعفر قال: فيجوز أن أتسمى باسمه قلت: نعم قال: قد جعلت اسمي جعفرًا واسم أبي عبد الله فتقدم إلى الخطيب بذلك ففعلت فكان يخطب له: اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين".[٢٨]

**(٣/٣)٢- النتائج السياسية**

ملك الصقالبة كان يطمح أن يعلم الحكام في تلك الاصقاع عن وجود صلات بينه وبين الخلافة العباسية، ويبدو أن ذلك تحقق، لأن ملك الصقالبة أخر لقائه بوفد الخلافة العباسية عدة أيام لتلك الغاية حتى يسمع ويرى جميع مَنْ في تلك الأنحاء الأخبار، ويحقق الجانب الإعلامي من وجود صلات مباشرة مع الخلافة العباسية. الأمر الذي يترك أثره في العلاقات والتحالفات السياسية في المنطقة. ذكر أبن فضلان "وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة...... فأقمنا يوم الأحد ويوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب".[٢٩]

**(٣/٣)٣- النتائج الاقتصادية**

إلا أن الأمور لم تسير على ما يرام، لأن الملك نظر إلى أبن فضلان على أنه المسؤول أمامه عن عدم إيصال المال الذي ذكر في الكتب التي حملها إليه من بغداد، كما أنه إتهمه بخيانة الأمانة التي أرسلت معه من قبل الخليفة فقال ابن فضلان عن ذلك: "ولما كان بعد قراءة الكتاب وإيصال الهدايا بثلاثة أيام بعث إلي وقد كان بلغه أمر الأربعة آلاف دينار وما كان من حيلة النصراني في تأخيرها وكان خبرها في الكتاب فلما دخلت إليه أمرني بالجلوس فجلست ورمى إلي كتاب أمير المؤمنين فقال: مَنْ جاء بهذا الكتاب قلت: أنا ثم رمى إلي كتاب الوزير فقال: وهذا أيضًا قلت: أنا قال: فالمال الذي ذكر فيهما ما فعل به قلت: تعذر جمعه وضاق الوقت وخشينا فوت الدخول فتركناه ليلحق بنا فقال: إنما جئتم بأجمعكم وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إلي حتى أبني به حصنًا يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها قلت: هو كذلك إلا أنا قد اجتهدنا فقال للترجمان: قل له أنا لا أعرف هؤلاء إنما أعرفك أنت وذلك أن هؤلاء قوم عجم ولو علم الأستاذ أيده الله أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ علي وتقرأ كتابي وتسمع جوابي ولست أطالب غيرك بدرهم فاخرج من المال فهو أصلح لك فانصرفت من بين يديه مذعورًا مغمومًا وكان رجلاً له منظر وهيبة بدين عريض كأنما يتكلم من خابية فخرجت من عنده وجمعت أصحابي وعرفتهم ما جرى بيني وبينه وقلت: لهم من هذا حذرت، كان مؤذنه يثني الإقامة إذا أذن فقلت له: إن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة فقال للمؤذن: اقبل ما

يقوله لك ولا تخالفه فأقام المؤذن على ذلك أيامًا وهو يسألني عن المال ويناظرني فيه وأنا أويسه منه وأحتج فيه فلما يئس منه تقدم إلى المؤذن أن يثني الإقامة ففعل وأراد بذلك أن يجعله طريقًا إلى مناظرتي فلما سمعت تثنيته للإقامة نهيته وصحت عليه فعرف الملك فأحضرني وأحضر أصحابي فلما اجتمعنا قال الترجمان: قل له يعنيني ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنى الآخر ثم صلى كل واحد منهما بقوم أتجوز الصلاة أم لا قلت: الصلاة جائزة فقال: باختلاف أم بإجماع قلت: بإجماع قال: قل له فما يقول في رجل دفع إلى قوم مالاً لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين فخانوه فقلت: هذا لا يجوز وهؤلاء قوم سوء قال: باختلاف أم بإجماع قلت: بإجماع".[٣٠]

بين أبن فضلان كيف أن لهذه البعثة أهمية في نقل السلوك الحضاري، على اعتبار أن الخلافة العباسية هي رمز للتحضر والمدنية، وأن من واجبها القيام بذلك فقد ذكر أبن فضلان: "فأقمنا يوم الأحد ويوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب فلما كان يوم الخميس واجتمعوا نشرنا المطردين اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه وألبسناه السواد وعممناه وأخرجت كتاب الخليفة وقلت له: لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ على قدميه هو ومَنْ حضر من وجوه أهل مملكته وهو رجل بدين بطين جدًا، وبدأت فقرأت صدر الكتاب فلما بلغت منه سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو قلت: رد على أمير المؤمنين السلام فرد وردوا جميعًا بأسرهم ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفًا حرفًا فلما استتممنا قراءته كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض. ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائم ثم أمرته بالجلوس فجلس عند قراءة كتاب نذير الحرمي فلما استتممته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأته فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئًا شيئًا حتى فرغنا من ذلك ثم خلعت على امرأته بحضرة الناس وكانت جالسة إلى جنبه وهذه سنتهم وزيهم فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم وانصرفنا...".[٣١]

وإن كانت هذه النتيجة جاءت عرضًا عندما لاحظ أبن فضلان جهل الصقالبة بالأساليب الحضارية فيما يجب من التصرفات والترتيبات الإدارية الصحيحة التي لابد أن تصدر من الحكام أمام الرعية، بحيث أنه أعطى النصائح بهذا الجانب لحاكم الصقالبة.[٣٢] وهكذا؛ كانت البعثة ناجحة في أداء مهمتها، وفي الوصول إلى هدفها على الرغم من المصاعب والأخطار التي واجهتها، إنها بينت دور بغداد الحضاري على مدى العصور، وبينت دور العرب في القرن العاشر الميلادي في نصرة البلغار على الخزر، وعون لهؤلاء الأقوام، ضد اليهودية التي هددتهم وسلبت نساءهم وأذلتهم وفرضت عليهم الضرائب. فجأت الرحلة من بغداد لتكون عونًا لهم بكل ما يملكون من وسائل الحضارة مما يعينهم على العيش الكريم، فهي وثيقة سياسية تاريخية، على ما كانت عليه مدينة بغداد في الوقت الذي كان الغرب يتخبط في الجهل والظلام.

**٤/٣- بغداد مدينة الحوار الحضاري:**

الحضارة هي مجموعة الصفات المشتركة للمجتمعات الواسعة والأكثر ما يكون تطورًا، وكل ما أضافه الإنسان للإنسان، وهي مجموعة الظواهر الاجتماعية (الدينية، الأخلاقية، الجمالية، العلمية، التقنية) المشتركة لمجتمع كبير، أو مجموعة من المجتمعات، كما يقال مساحة الحضارة بمعنى المساحة التي يمتد عليها تأثير حضارة ما، وهي مستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي وصلت إليه بعض المجتمعات، والذي يعتبر نموذجًا يفترض بلوغه، وهي مجموع الصفات التي تعود للحياة الثقافية والفنية والأخلاقية والمادية لبلد أو مجتمع ما.[٣٣]

أما الحوار الحضاري، فهو التشاور والتفاعل الثقافي بين الشعوب والقدرة على التكيف مع الأفكار المخالفة والتعامل مع جميع الآراء الثقافية والدينية والسياسية. وتتعدد أهداف الحوار الحضاري منها التعارف والتواصل والتفاعل والاحتكاك الحضاري، كما أنه وسيلة أساسية لتجنب الصراعات، ومن أبرز مجالات الحوار الحضاري، المجال الديني، والمجال السياسي والمجال الاقتصادي... إلخ.[٣٤]

في عالم السياسة اليوم نظريتي صراع الحضارات وحوار الحضارات، وكلتا النظريتين تبحثان في مستقبل ومصير الحضارة الغربية، والذي يهمنا من هاتين النظريتين هو نظرتهما إلى العالم الإسلامي، إذ ترى الأولى أن العالم الإسلامي خطر يهدد الحضارة الغربية وسيكون سبب في انهيارها، والثانية ترى فيه خير مثل يمكن أن يحتذى به من أجل أن تستطيع تلك الحضارة أن تدوم مدة أطول.

ومن بين ما تميزت به الحضارة العربية الإسلامية أنها حضارة الحوار الحضاري، وذلك لأن الدين الإسلامي ينطلق من قاعدة أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس من شعوب وقبائل وجعل التواصل والتعارف قاعدة للتعامل فيما بينهم، وهو بهذا يرتب لمبدأ مهم هو مبدأ الأخوة الإنسانية والعدالة ومبدأ التعارف والتواصل والتعاون، فالإسلام ينظم العلاقات الإنسانية على أساس الوحدة الإنسانية الجامعة لا على أساس المظاهر المفرقة منها التعصب، الغنى، الفقر، الجهل، والعلم، والقرآن أقر بوجود الأخوة الإنسانية المشتركة بين البشر إلى جانب إقراره بالأخوة الخاصة بين المؤمنين، فالعلاقات والروابط بين المسلمين وغيرهم قاعدة للحياة، وأكد الإسلام على المساواة بين النوع الإنساني في الخلق بعيدًا عن الجنس والعرق واللون، ويجب مراعاة المساواة التامة بين البشر، وإن الاختلاف بين الأجناس والألوان والألسنة يجب أن لا يكون سبب في دعم الاتصال والتعارف والتآلف بين البشر، والتعاون في مجال القضايا المشتركة وتبادل الاحتياجات، وليس سبيلاً للتناحر والتنافر والتنازع.[٣٥]

ومن هنا جاء قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".[٣٦] وكذلك قوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ".[٣٧] ومن هذا المنطلق؛ نجد أن رسالة أبن فضلان عكست هذه الحقيقة، فالباحث عن الجذور التاريخية لنظرية حوار الحضارات سيجد أنها قدمت دليل عن الخصائص الحضارية للحضارة العربية الاسلامية المتمثلة بالخلافة الإسلامية وحاضرتها مدينة بغداد.

لم يكن ابن فضلان بتدوينه أخبار رحلته عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها وعن طبائع أهلها ومميزات حضارتها[٣٨] بقصد المفاخرة في بيان تفوق مدينة بغداد كونها رمز للعالم الإسلامي المتحضر، ولم يكن من باب الانحياز إلى العرب والمسلمين، وإنما عكس روح الحضارة العربية الإسلامية في التعامل مع الشعوب الأخرى، والتزامها بواجبها إزاء الآخرين كونها تملك التفوق الحضاري آنذاك. إن رحلة أبن فضلان دليل على مميزات تلك الحضارة، ونجاحها في التعامل مع كل الأقوام والشعوب بعيدًا عن الاستعلاء والتكبر والظلم، لأنه لابد من الأخذ بنظر الاعتبار أن لكل أمة فضائل ومحاسن مثل ما لها رذائل ومساوئ. لذلك إن المقارنة بينهم وبين الشعوب الإسلامية يجب أن يكون بعيد عن أسلوب المفاضلة القائم على عدم النظر إلى الظروف البيئية والتاريخية، وأن لكل مجموعة من الناس كمال وتقصير، وليس على أساس أفضلية العربي والمسلم على الآخرين والتزين لكل ما يتصل بثقافة الذات العربية الإسلامية والتقبيح للعادات والتقاليد غير الإسلامية.[٣٩]

ومن هذا المنطلق دعا المفكر روجيه غارودي مفكري وساسة الحضارة الغربية إلى اتخاذ الحضارة العربية الإسلامية أنموذج للتعامل الحضاري الراقي مع الآخرين.[٤٠] وللحضارة الإسلامية في حوارها مع الحضارات الأخرى مبادئ، هي:[٤١]

- الإيمان بالحقيقة.
- عدم ادعاء احتكار الحقيقة في جانب واحد.
- الاقتناع بأن هناك أخذ وعطاء بين الحضارات والمدارس الفكرية.
- الخضوع والاستسلام للحقيقة بعد أن يظهرها الحوار.

كما أن للحضارة الإسلامية مبادئ للتعارف مع الآخر، هي:

- معرفة الآخر التي هي من الأمور المهمة التي يُبنى عليها التعارف، ويدخل في ذلك معرفة لغة الآخر، معرفة أهدافه وخططه، معرفة إمكانات وطاقات وايجابيات وعلوم ومعارف الآخر.[٤٢] ومن ذلك قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ".(سورة إبراهيم: ٤)
- الاعتراف بالآخر، ويعني الاعتراف بالتنوع والاختلاف الحاصل بأمر الله، وإن المنهج القرآني يقوم على أساس الاعتراف بالآخر المختلف، والإقرار بوجوده والحوار معه، وليس إلغاءه وتهميشه، وعدم الاعتراف به. ولهذا ففي القرآن آيات كثيرة فيها حوارات مطولة مع المشركين وأهل الكتاب وحتى مع الشيطان، فالقرآن رسم لنا المنهج الحواري القائم على الاحترام للإنسانية والشعور والخصوصية، ومحاولة الإقناع واستخدام للحجج والبراهين وعدم الإكراه والحرية في الاختيار،[٤٣] من قوله: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بأس الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا".[٤٤]
- التعاون مع الآخر في ميدان المشتركات، التعاون الذي فيه خير للبشرية جمعاء مبدأ قراني أصيل ومبدأ عام في كل الجماعات الإنسانية والقرآن يأمر بالتعاون ليس مع المسلم فقط، وإنما بالتعاون مع غير المسلم بشرط أن يكون الهدف خدمة البشرية ودفع الظلم وتحقيق مصلحة عامة.[٤٥] وقد قرر القرآن الكريم ذلك بقوله: "... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ".[٤٦]

### ٥/٣- الحوار الحضاري في الحضارة العربية الاسلامية:

لقد حدد القرآن الكريم أسلوب الحوار ولغته، بأن تكون بالحسنى، وذلك لقوله تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ".[٤٧] إن الحوار الذي اعتمدته الحضارة العربية الإسلامية، هو حوار راق وحضاري وإنساني، وذلك انطلاقًا من الشريعة السمحاء التي تؤمن بالحوار ومن الآيات التي توضح احترام الله وأنبيائه لشكل الحوار والفهم المشترك مع أقرب الناس إليه: "إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".[٤٨] "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يأمركم أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ".[٤٩]

إن الحوار الحضاري الذي ترى فيه الحضارة العربية الإسلامية مطلب مهم لإدامة الحياة، لأن صدام الحضارات هو نهاية العالم، وان الحوار الحضاري هو جسر التواصل الحقيقي لاستمرار الحياة".[٥٠] واختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويترك، والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما إنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يومًا أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين.[٥١]

وإن الاختلاف والتنوع واقع في الدين والجنس والعنصر واللغة واللون، وإن هذا الاختلاف هو آية من آيات الله، ودليل على عظمته وكبرياءه سبحانه، وإن الحكمة من وراء هذا الاختلاف والتنوع هي التعارف بين الناس لا التنافر، والتعاون لا التباغض، والتنافس في الخير لا الشر.(٥٢) لقد كانت رحلة ابن فضلان خير مثال يمكن أن يعكس ذلك الحوار بين مدينة بغداد كونها حاضرة تلك الحضارة، وبين الشعوب التي انطوت تحت لوائها، وبذلك كانت بغداد مدينة الحوار الحضاري.

## خاتمة

إن تلك الرحلة التي خرجت من بغداد سنة (٣٠٩ هـ)، بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى بلاد الصقالبة، تُعَدّ من أهم رحلات الحوار الحضاري في العصور الوسطى، لأنها بيّنت دور مدينة بغداد وإشعاعها الحضاري الذي كان يمتد إلى تلك النواحي البعيدة، وكيف كانت تلك الشعوب والأقوام تطمح بأن تكون لها صلات معها. لذلك كانت الخلافة العباسية حريصة على إرسال وفد يليق بتلك المهمة، فكانت رحلة ابن فضلان التي نجحت في أن حفظت لنا صورة مشرقة عن مميزات الحضارة العربية الإسلامية في كيفية الحوار الحضاري مع الشعوب والأقوام المختلفة، فكانت بغداد هي المدينة الرائدة في التجسيد العملي لهذا المصطلح الذي شاع في الآونة الأخيرة. ويبدو أن أبن فضلان كان محور تلك السفارة، لأنه يمتلك من المؤهلات ما كتب النجاح لتلك الرحلة الطويلة والبعيدة والخطرة، والتي قدمت مادة غنية تاريخية وجغرافية واجتماعية عن تلك الأقاليم وشعوبها، فهو بحق كمدينته رجل الحوار الحضاري.

## الهَوامِشُ:

(١) فاروق عمر، **الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٦م)**، ط٢، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧، ص٤٩- ٥٠.

(٢) حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، الكويت، ١٩٨٩، ص٢٠٦.

(٣) وجدان فريق عناد، **إمارة الحج في المغرب العربي والأندلس (١٣٨- ٦٣٥هـ/ ٧٥٥- ١٢٢٧م)**، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠١، ص١٩.

(٤) يُنظر حول الرحلة: أبن خرداذبه ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م). **المسالك والممالك**، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت).

(٥) حسين محمد فهيم، **أدب**، ص٨٩ -٩١.

(٦) المرجع نفسه، ص١٠٥-١٠٦.

(٧) المرجع نفسه، ص١٠٥- ١٠٦.

(٨) **أبن فضلان**: هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان، لم تقدم المصادر التاريخية معلومات عن سيرته، يبدو من ثنايا الرحلة أنه رجل يملك ثقافة دينية وأدب كانت مهمة أحمد بن فضلان قراءة الكتاب وتسليم الهدايا والإشراف علي الفقهاء والمعلمين. يُنظر: ياقوت الحموي، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م). **معجم البلدان**، دار صادر (بيروت، ١٩٥٥)، ج٢/ ٤٨٥؛ ابن فضلان أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، **رسالة ابن فضلان**، تحقيق سامي الدهان، ط٢، مديرية إحياء التراث، دمشق، ص٥١،٥٧،٩٨،٩٩.

(٩) حسين محمد فهيم، **أدب**، ص١٠٨.

(١٠) المرجع نفسه، ص٩٧.

(١١) فاروق عمر، **الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية**، ص٨٩.

(١٢) الصولي أبي بكر محمد بن يحيى (ت.٣٣٥هـ/). **قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣١٥هجرية من كتاب الأوراق**، تحقيق خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٩، ص٢٢.

(١٣) يُنظر: فاروق، **الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية**، ص٩٠.

(١٤) الصولي، **أخبار المقتدر بالله**، ص ٢١،٢٤؛ يُنظر عن الأحوال السياسية للخلافة العباسية في الفترة موضوع البحث: ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت. ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م). **الكامل في التاريخ**، مطبعة البابي الحلبي، ١٣١٠هـ، ج٨/ ٢١؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت. ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد مجي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٩، ص٢٥٢.

(١٥) قسمت المصادر التاريخية الترك إلى: المستقرون، والبدو الأشداء، والبغدادين يعتبرون بدو الترك من البرابرة، وكانوا يسمونهم علوج أو عجم، وهؤلاء عندما دخلوا بغداد لم يكونوا يعرفون كيفية التصرف اللائق عند الدخول على الخليفة. يُنظر: جمال الدين رشيد، **مع رحلة ابن فضلان إلى مدن البلغار والتوران تشع بغداد معالم حضارتها**، بحث منشور ضمن كتاب **بغداد في التاريخ**، جامعة بغداد، ١٩٩١، ص٣٤٢.

(١٦) أخبار المقتدر بالله، ص ١٩٧. هنالك تفاصيل أكثر عن تلك الاستعدادات، يُنظر: مسكويه، أبو علي بن السحني علي (ت.٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، مصر، ١٩١٤، ج٥/ ٥٣.

(١٧) جمال رشيد أحمد، **مع رحلة ابن فضلان**، ص٣٤٢.

(١٨) إن الصلات الحضارية بين العرب والشعوب التي تحدث عنها أبن فضلان تعود إلى عصر الخلافة الراشدة، حيث وصول العرب إلى خراسان في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه).. وزاد الاختلاط عندما وصل

العرب وفتحوا بلاد ما وراء النهر، على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي وغيره خلال العصر الأموي. يُنظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج١٠/ ١٣٧-١٣٩؛ جمال رشيد أحمد، **مع رحلة أبن فضلان**، ص٣٤١.

(١٩) كان الذي حمل رسالة ملك الصقالبة رجل أسمه عبد الله بن باشتو الخزري. ابن فضلان، **رسالة ابن فضلان**، ص٩٨- ٩٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص١٧١.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٧١- ١٧٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(٢٣) ذكر أبن فضلان أعضاء الوفد العباسي، فقال: "والرسول من جهة السلطان سوسن الرسي مولى نذير الحرمي وتكين التركي، وبارس الصقلابي، وأنا معهم ....". وكان دليلهم في تلك الأصقاع رسول ملك الصقالبة. يُنظر: المصدر نفسه، ص٣٢-٣٣؛ ٩٨-٩٩.

(٢٤) **ابن الفرات**: هو أبو الحسن علي بن الفرات، وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله، وتولى الوزارة ثلاث مرات للمقتدر، وكانت نهايته أن سجنه وصادر أمواله. يُنظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا بن اسماعيل (ت. ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، مصر، ج١١/ ١٨٤.

(٢٥) يُنظر: ابن فضلان، **الرحلة**، ص١٦٣.

(٢٦) المصدر نفسه، ص١٦٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٤٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٤٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص١٤٤-١٤٥.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٣٢) المصدر نفسه، والصفحة.

(٣٣) عاطف علبي، **الحضارة العربية الإسلامية دورها في تكوين الحضارة الأوربية**، بيروت، ٢٠٠٩، ص٥.

(٣٤) وجدان فريق عناد، **القرآن الكريم طريقنا لتجاوز العجز الحضاري**، مجلة المصباح، العدد العاشر، صيف ٢٠١٢، ص٢٣١.

(٣٥) غازي سعيد سليمان، **المنهج الإسلامي في التعايش السلمي مع غير المسلمين**، مطبعة هيئة إدارة واستثمار الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٩، ص٤٠.

(٣٦) **سورة الحجرات**، آية (١٣)؛ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت. القرن السادس الهجري)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ، ٩/ ١٣٤.

(٣٧) **سورة الروم**، آية (٢٢)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ٧/ ٢٩٩.

(٣٨) حسين محمد فهيم، ص١٦.

(٣٩) المرجع نفسه، ١٩٥-١٩٦.

(٤٠) وجدان فريق عناد، **القرآن الكريم طريقنا لتجاوز العجز الحضاري**، ص٢٣١.

(٤١) محمد خاقاني، **أصولنا في حوار الحضارات**، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية، جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار، نيسان ٢٠٠٧، ص١٣.

(٤٢) غازي سعيد سليمان، **المنهج الإسلامي**، ص٨٠-٨٣.

(٤٣) المرجع نفسه، ص٨٢-٨٣.

(٤٤) **سورة الكهف**، آية (٢٩)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ٦/ ٤١٤.

(٤٥) غازي سعيد سليمان، **المنهج الإسلامي**، ص٨٣-٨٤.

(٤٦) **سورة المائدة**، آية (٢)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ١٥٢/٣.

(٤٧) **سورة العنكبوت**، آية (٤٦)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ٧/ ٢٨٦.

(٤٨) **سورة المائدة**، آية (١١٢)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ٣/ ٢٦٣.

(٤٩) **سورة البقرة**، الآية (٦٧)؛ الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ١/ ١٣٠.

(٥٠) حميد حمد السعدون، **الغرب والإسلام والصراع الحضاري**، حميد حمد السعدون، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٦٧.

(٥١) غازي سعيد سليمان، **المنهج الإسلامي**، ص٥٤.

(٥٢) غازي سعيد سليمان، **المنهج الإسلامي**، ص٥٤-٥٥؛ وجدان فريق عناد، **المنهج القرآني ونظرية حوار الحضارات**، مؤتمر كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، ٢٠١٣.

# جوانب من التاريخ الاقتصادي للجنوب المغربي
## مدينة نول لمطة نموذجًا




**د. محمد الصافي**

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أكاديمية جهة كلميم السمارة
نيابة كلميم – المملكة المغربية



### مُلَخَّصْ

إن المتتبع لأطوار تاريخ مدينة نول لمطة بالجنوب المغربي يدرك مدى الأهمية التاريخية لهذه المدينة على كل المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكذا الأثرية، فهي تعتبر من أشهر المدن التاريخية القديمة التي لعبت دورًا مهمًا في المنطقة على المستوى المحلي والعالمي، بفضل تداخل بنياتها البشرية مع عوامل اقتصادية وسياسية وأخرى ثقافية، لتراكم لنا بالتالي تجربة تاريخية من خلالها يمكن الاطلاع على تاريخ الجزء الجنوبي من المغرب على فترة تمتد من العصر الوسيط إلى منتصف القرن العشرين. فقد عرفت هذه المدينة مرور واستقرار أجناس بشرية عديدة ابتداء من مرور التجار الفينيقيين ومجاورة اليهود المستقرين في الصحراء الأطلسية، ثم استقرار الجزوليين واللمطيين، وبالتالي إمكانية وجود مسميات جديدة للمدينة حسب التطورات التاريخية لم يصلنا منها إلا اسمي نول لمطة الوسيطي وأسرير المعاصر، ومما يدل على قدم الاستقرار والتأسيس هو ما تؤكده الرواية الشفوية حول المسار التجاري للبلدة الذي يعود لـ ١٤٠٠ سنة، وهو ما يتوافق مع ظهور الإسلام بشبه الجزيرة العربية، ولعل الأدارسة هم الذين أدخلوا الإسلام إليها، حيث أصبحت آخر مدن الإسلام في المغرب. ورغم الامتداد التاريخي لهذه المدينة، فإمكانية تحديد فترة تأسيسها تبقى مهمة صعبة لن يحسم فيها إلا البحث الأركيولوجي للمنطقة، خاصةً أن المصادر والمراجع القديمة لم تتناول موضوع تأسيس هذه المدينة بدقة باستثناء بعض المعلومات حول الأجناس البشرية التي وطئت المنطقة، ويمكن بالتالي اعتبار دخول الإسلام إليها أهم معيار يحدد قدم الاستقرار بها. عمومًا فقد لعب موقع نول لمطة الجغرافي دورًا مهمًا في ازدهارها، إذ يسر قربها من المحيط الأطلسي وصول بضائع إليها من السفن التي ترتاد ميناء مصب وادي أساكا، الذي أسس به الرحالة الفينيقي حانون وكالة تجارية سنة ٤١٠ قبل الميلاد على رأس ستين سفينة، كما أصبحت واحدة من أهم الطرق التجارية للدولة المغربية في العصر الوسيط، واستمر ذلك إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٣١ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٩ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

وادي نون، قبائل صنهاجة، قبائل تكنة، صناعة الدرق، قرية أسرير

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

محمد الصافي. "جوانب من التاريخ الاقتصادي للجنوب المغربي: مدينة نول لمطة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٧ – ٢٤.


### مُقَدِّمَةٌ

تقع مدينة نول لمطة (أسرير حاليًا) في الجنوب الشرقي لمدينة كلميم على بعد حوالي عشرة كيلومترات جنوب الأطلس الصغير، وهي عبارة عن واحة محاذية لجبل صغير تلتصق بسفحه معظم بيوت القرية الحالية، ليقيها من فيضان الأنهار الجارفة التي قد تأتي على الأخضر واليابس، وتقطن بهذه القرية إحدى أهم وأقوى القبائل الودنونية وهي قبيلة أزوافيط التي تتميز بمجموعة من الخصائص الطبيعية والبشرية، تتفاعل فيما بينها من أجل خلق تكامل اقتصادي. فعلى الرغم من نوع المناخ السائد وطبيعة التضاريس تنتشر على مختلف الواجهات أقدم المد اشر والقرى، وتعد مدينة نول لمطة عاصمة المدن الأثرية القديمة، ويعتمد هذا التجمع السكني في موارد عيشه على مياه الآبار والعيون التي تغذي بشكل كبير معظم أراضي المنطقة، وتجعل من الانتجاع النمط

الاقتصادي الغالب، دون أن نغفل النزعة التجارية التي تميزت بها ساكنة المدينة، ولذلك حظيت بعناية كبيرة من لدن الباحثين الأوربيين كمجال خصب لدراساتهم الكولونيالية أمثال: دولاشابيل، مونطاني، وبول باسكون... لتسهيل الهيمنة الاستعمارية على كافة أرجاء المنطقة.

لقد انطبع تحديد الموقع الجغرافي لمدينة نول لمطة باختلاف الرؤى، إلا أنه يمكن القول بأن الباحثين حسموا حديثهم في ذلك واتفقوا على أنه في وسط وادي نون، وبالضبط على ضفاف نهر واركنون بنيت قرية أسرير الحالية.(١)

سنحاول التركيز في هذا البحث على العناصر الأساسية لهذه المدينة التاريخية القديمة، وذلك من خلال التطرق لبعض مناحي الحياة التاريخية والاقتصادية، وسنتناول كلا منها على حدا من خلال رؤية تجمع بين الماضي والحاضر، لعب فيها الاستعمار الدور الأساسي في هذا التحول على جميع المستويات. كما نهدف كذلك تسليط الضوء على بعض الجوانب الأساسية من تاريخ المدينة، وقد ربطنا بين موقع نول لمطة الاستراتيجي وبين بروزها كقوة اقتصادية مهمة في منطقة وادي نون والصحراء خلال تلك الفترة.

## أولاً: الإطار الجغرافي والبشري والتاريخي لنول لمطة

تعتبر منطقة وادي نون من أهم المناطق الجغرافية في الجنوب المغربي، فقد لعبت دور الوساطة التجارية بين الشمال والجنوب، كما تتميز كذلك بكونها آخر المناطق التي خضعت للاستعمار الأجنبي، غير أن هذه المنطقة لم تعرف تلك الأهمية على مستوى الأبحاث التاريخية، باستثناء ما وردنا من دراسات كولونيالية، فالمصادر والمراجع المغربية لم تكن تعنى بالحواضر البعيدة باستثناء المدن الرئيسية كفاس ومراكش والرباط وغيرها. وعمومًا فالمنطقة وبحكم توفرها على شروط العيش والعمل، فقد استقطبت مجموعات بشرية مختلفة الأجناس آخرها اتحادية تكنة، التي تنضوي تحت لوائها مجموعة من أهم قبائل الصحراء. فما هي إذن الخصائص الجغرافية والبشرية والتاريخية لمدينة نول لمطة؟

**١/١- الإطار الجغرافي:**

يعتبر تحديد مجال نول لمطة أمرا محيرا، نظرا لاختلاف الروايات التاريخية والدراسات التي تناولت مكان وجود مدينة نول لمطة بالضبط، ومن خلال الاطلاع على المؤلفات التاريخية التي تناولت نول لمطة نلاحظ أنها متضاربة في تحديد جغرافية المكان، كما أن أغلب المصادر اتفقت على توسطها لمنطقة وادي نون. فالبكري يعطي تحديدًا عامًا للمدينة باعتبارها "تتوسط المسافة الفاصلة بين وادي درعة جنوبًا وسوس شمالاً من وادي سوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل... ومن مدينة نول إلى وادي درعة ثلاث مراحل".(٢)

وقد زاد الحميري على ذلك بالقول أنها تقع على نهر كبير يصب في البحر المحيط،(٣) وباعتماد الخرائط نجد أنفسنا أمام واقع اعتبار نول قد شغلت الموقع الذي تحتله اليوم قرية أسرير الكبرى.(٤) كما أن الباحثة جاك مونيي أشارت إلى أنها تطابق تاغجيجت.(٥) وأبعد من هذا يذهب البعض إلى اعتبار تندوف الحالية هي نول لمطة سابقًا.(٦) أما مصطفى ناعيمي فقد ذكر موقعها على ضفاف نهر وادي نون، حيث يتحدث عن أسرير بقوله: "لقد تم البناء على مقبرة مدينة قديمة معروفة عند المتعلمين تحت اسم مدينة لمطة".(٧) وبذلك فهو يحد المجال في قرية أسرير التي تقع في الجنوب الشرقي لمدينة كلميم على بعد عشرة كيلومترات.

**٢/١- الإطار البشري:**

يعتبر وادي نون من أقدم مناطق الاستقرار في الجنوب المغربي، ويرجع الباحثون أصل ساكنتها إلى لمطة وجزولة، وعمومًا فتاريخ الاستقرار بوادي نون قد يمتد إلى عصور ما قبل التاريخ بدليل كثرة حركات الحيوان والإنسان في فترات قد تمتد إلى سنة ٣٣٩ ق.م،(٨) كما برهنت اللوحات الصخرية على أهمية الطريق الرابطة بين تندوف وأدرار وأوداغوست، إذ أثبتت أنها استعملت منذ أزيد من ١٠٠٠ سنة بين القرن ٧ ق.م والقرن ٤ ق.م.(٩) إلا أنه مع ظهور الإسلام ودخول العرب إلى المنطقة بدأ التفكك والانشقاق يعصف بكيان هاتين القبيلتين (لمطة وجزولة)، ولم يدم ذلك طويلاً، إذ ما لبثت ساكنة القبيلتين أن غيرت نمط عيشها واندمجت مع الوافد الجديد.

وعمومًا فرغم التداخل بين لمطة وجزولة، لم يلبث أن وقع انشقاق بينهما خاصةً بدخول الإنسان العربي المعقلي الذي فرض نفسه في المنطقة كقوة محاربة خلال العصور الوسطى، الشيء الذي دفع باللمطيين والجزوليين إلى الاندماج داخل هذا العنصر، حيث أصبح هناك تفكك في البنية السكانية الأصلية للمنطقة، وبالتالي نتجت عن هذه الاندماجات البشرية وحدات جديدة شكلت كونفدرالية تكنة التي ظهرت تسميتها الأولى في القرن الثامن عشر الميلادي. كما ذُكرت لمطة على لسان المؤلفين العرب منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ويجعلهم اليعقوبي حول زويلة فزان في اتجاه أوجلة وأجذابيا، وهم أول مَنْ فروا أمام هجوم العرب، وحسب ابن خلدون فهم إخوة لصنهاجة وأوربة وجزولة وازداجة، وأبناء عمومة لهوارة من جدهم المشتركة تيسكي العرجاء.(١٠)

ويضيف ابن خلدون أن البعض منهم كان يسكن بجوار صنهاجة الملثمين،(١١) ويذهب محمد حجي إلى القول بأن عناصر من هذه القبيلة دخلوا من بعد إلى السودان حيث أطلق عليهم اسم لمطة. أما لمطة الغرب فقد أشار إليهم الجغرافي ابن حوقل منذ القرن (٤هـ/١٠م) في ناحية واد نون، وكانت عاصمتهم نول لمطة حيث توجد حاليا واحة أسرير قرب كلميم، وقد تركوا ذكرا لهم في إقليم من أقاليم شمال فاس أثناء تحولاتهم مع المرابطين، كما قتل من بقي منهم في البلاد أو انضموا إلى عرب معقل فأصبحوا تكنة بلاد واد نون. وكان مجال لمطة يمتد من سوس شمالاً حتى وادي

درعة جنوبًا، وكانت تحركاتهم لا تتجاوز الأطلس الكبير بفعل الحصار الذي تفرضه مصمودة.[١٢]

ويمكن الجزم بأن لمطة لعبت دورًا رياديًا في تأسيس واحدة من أكبر مدن العصر الوسيط وهي نول لمطة، وكان ذلك على ما يبدو في القرن (٥هـ/١١م)، وقد مزجت لمطة بين عناصر رحل وعناصر مستقرة، وهي تعتبر من أقدم العناصر التي عمرت منطقة وادي نون.[١٣] أما نمط عيش القبيلة فهو المزاوجة بين حياة الترحال وما تقتضيه من ممارسة الرعي والانتجاع من جهة، ومراقبة المسالك التجارية من جهة أخرى. كما اعتبرت فصائلها من أكبر القبائل الرحل التي تستولي على كل طرق الصحراء حتى أدرار الموريتاني، بحكم أنهم يمتلكون الطرق التجارية الآتية من الشمال والذاهبة إلى السودان.

**٣/١- لمحة تاريخية حول نول لمطة**

**(٣/١) ١- إشكالية التأسيس**

من المعلوم أننا نجهل فترة تأسيس هذه المدينة، إلا أن مجموعة من الباحثين والمؤرخين اختلفوا حول الفترة التي بُنيت فيها. ومن خلال ذكره لها يسجل البكري أنه: "من وادي السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل في عمارة جزولة ولمطة، ومدينة نول آخر مدن الإسلام وهي في أول الصحراء، ونهرها يصب في البحر المحيط، ومن مدينة نول إلى وادي درعة ثلاث مراحل".[١٤] كما ورد ذكرها عند ابن خلدون عند قوله: "وعليه أيضًا مسجد ماسة وبلدة تكاوست نول من بلاد السوس وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم، وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل نول ولا تتجاوزه إلا على خطر"،[١٥] وقد سجل كذلك حولها الشريف الإدريسي ما يلي: "فأما مدينة نول فمنها إلى البحر ثلاثة أيام ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة، ومدينة نول مدينة كبيرة عامرة على نهر يأتي إليها من جهة المشرق وعليه قبائل لمتونة ولمطة، وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهرًا ولا أحسن منها صنعًا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها".[١٦]

أما جاك موني فتشير إلى أن آثار وبقايا نول لمطة ما تزال قائمة قرب قصر أسرير، مضيفة في موضع آخر أن المرابطين بنوا موقعا مهما قرب تاغجيجت، والذي حمل بدوره بعد نول لمطة تسمية مدينة "نول".[١٧] وحسب دولاشابيل أيضا فنول لمطة هي مدينة أسرير الزوافيط،[١٨] ويرى البعض أن نول لمطة هذه تكمن في أنقاض تشيت بتغمرت، لتظهر لنا لمطة كوحدة قبلية، بمعنى أنها تضم عدة فروع قبلية، هذه الأخيرة لا يمكن أن تجمعها نفس الروابط العرقية والدموية، ومن هنا شكلت قبيلة لمطة نموذجًا للقبيلة الصنهاجية، فهي تجسيد لشبكة من التحالفات بين مختلف الفصائل والفروع، أي وحدة متكاملة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريا بمعزل عن الروابط العرقية والدموية، وهذا ما ذهب إليه عبد الله العروي في تعريفه للقبيلة الصنهاجية بأنها "عبارة عن تجمعات حزبية وحدتها المصالح المشتركة والدفاع عن النفس".[١٩] وإن عدنا لمصطفى ناعيمي نجد أنه أعطى للفترة الزمنية التي بُنيت فيها المدينة بعدًا لا متناهيا حيث قال: "موغلة في القدم حيث جاءت كعاصمة للمنطقة مكان مدينة أسا بباني الغربية والتي تعتبر الوريثة المباشرة لعيد الأكيال، حيث كان القرطاجيون يتبادلون السلع".[٢٠]

وقد تعددت الروايات حول موقع المدينة والكيفية التي اختفت بها، فهناك مَنْ يقول أنها ارتبطت تاريخيًا بانقراض مدينة أسا العاصمة القديمة لبلاد الجنوب الغربي المغربي، والباحثون يحددونها تارة في قرية أسرير وتارة أخرى في قرية تغمرت، إلا أن الراجح أنها قرية أسرير بناءً على عدة دلائل هي:[٢١]

- وجود بض الآثار التي ما تزال شاخصة في المنطقة.
- اشتهار المنطقة بانعقاد موسمين في السنة بدل موسم واحد، كما هو الشأن بالنسبة للقرى المجاورة.
- كان السكان وحتى عهد قريب جدًا يعثرون على أواني طينية وحلي ذهبية وفضية في بعض الجهات القريبة من الواحة.

وإذا كان كثيرون يعتبرون أن قرية أسرير بنيت على أنقاض مدينة نول لمطة منذ حوالي ستة قرون، فهناك آخرون يرون أن جزءًا مهمًا من بقايا مدينة نول لمطة هو في التلة المواجهة لقرية أسرير على الجانب الغربي للطريق القادمة من كلميم في اتجاه تغمرت، في هذا الصدد يقول ناعيمي: "أنه في وسط وادي نون اكتمل منذ ستة قرون بناء قرية أسرير الكبرى على ضفاف نهر واركنون، وقد تم البناء على بقايا مقبرة قديمة لا تزال معروفة عند المتعلمين تحت اسم مدينة لمطة، غير أن هؤلاء لا يعرفون عنها إلا أخبارًا متوارثة تنقرض بانقراضهم، وعلى إحدى الهضبتين المحيطتين بمدخل أسرير تجثم آثار تحصين قديم نعتقد أنه من مخلفات نول لمطة، على أن وجود بقايا بناء أسفل الهضبة يرجح الاعتقاد بأن جزءًا من المدينة كان يتجاوز الهضبة ليشكل أسفلها".[٢٢]

**(٣/١) ٢- أصل التسمية**

أما فيما يتعلق بأصل التسمية، فنلاحظ اختلافًا يعود إلى التنوع الإيديولوجي والسوسيولوجي لسكان المنطقة أو العابرين لها، وعمومًا نلاحظ خط التقارب بين نول ونون، هذا التقارب قد يكون راجعًا إلى عدة أسباب منها الانتقال من النون إلى اللام، تتجلى في ثقل اتصال حرفي النون واللام في كلمة نول لمطة وبالتالي تم تعويض الكلمة نول لمطة، وهذا أمر شائع بين سكان المنطقة حيث نجد إخفاء حرف وإبداله، من أجل تحقيق السهولة في النطق، وقد يكون سبب التسمية نول لمطة هو عملية الاحتكار الاقتصادي والأهمية الجغرافية التي فرضتها المنطقة على وادي نون. وقد أورد ابن أبي زرع "بلاد نول باللام أو نون بالنون كما هو النطق اليوم".[٢٣]

ويمكن أن يكون سبب التسمية هو وجود هذه المدينة على نهر جاري، ويضيف الحميري: "وهي على نهر كبير يصب في البحر المحيط، وهو أمر يوافق شرح كلمة نول عند ابن منظور باعتبارها الوادي السائل".[٢٤] كما أن هناك روايات للمؤرخين القدامى والتي تدل على وجود جد مشترك وهو وحدة النسب أو الارتباط بالجد الواحد، وعليه نسوق عدة آراء، فالإدريسي يقول: " إن لمط وصنهاج أخوان".[٢٥] كما أن نول لمطة كلمة مركبة من الاسمين الذين فسرناهما، ونصادف أحيانًا أن التسمية في لفظ نول أو في لفظ لمطة كما لدى ابن حوقل، لأنهما كما هو معلوم أرض لمطة "تقال للأرض أو القبيلة معًا"،[٢٦] وإنما سميت لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنونها.[٢٧]

إن لمطة "هي إحدى قبائل صنهاجة حيث تنتشر البطون والأفخاذ"،[٢٨] والكلمة لمطة هي صيغة عربية يستشف منها الاسم الأمازيغي "لمط"، والتي تحتمل عدة معاني منها ما يرتبط بخاصية تميز المنطقة كحيوان اللمط الإفريقي الكثير الانتشار بهذه الأراضي،[٢٩] ومن هنا جرى تسمية المنطقة بلمطة، واللمط هو من فئة الغزلان تصنع من جلده الدرق اللمطية، التي كانت تلعب دورًا حربيًا بارزًا تعكس صلابتها وحصانتها وخفة حمولتها، وبها كان يقاتل أهل لمطة، وقد أكد لمراني محمد أن حيوان اللمط لا يوجد إلا بمجال نول لمطة أو وادي نون،[٣٠] مما يؤكد أن الدرق اللمطية لعبت دورًا دفاعيًا داخل الصراع الذي كانت تتعايش داخله القبائل الوادنونية فيما بينها.

## ثانيًا: جوانب من التاريخ الاقتصادي لنول لمطة

لعل أكبر العراقيل التي تواجه المهتمين بدراسة البنية الاقتصادية لمنطقة وادي نون هو قلة المصادر وندرة الأبحاث المعالجة لهذا الموضوع، حيث لا تولي أي اهتمام مباشر لهذا الجانب، وقد عرف المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهارًا ديموغرافيًا واقتصاديًا راجع بالأساس إلى انعدام الأوبئة والمجاعات، وهو ما انعكس إيجابًا على الحياة الاقتصادية للمنطقة.

إن دراسة بعض جوانب البنية الاقتصادية لمجال وادي نون عامة ونول لمطة على وجه الخصوص يفرض الانفتاح أساسًا على بعض الجوانب المتداخلة في البنية الاقتصادية للمنطقة، فالظروف المحلية آنذاك من خلال تحالف أيت الجمل وزعيمته قبيلة أيت لحسن مع قبائل أولاد دليم على محور الساحل الغربي الرابط بين تكاوست، فرض على قبيلة أزوافيط مسألة مراقبتها للمجال كزعيمة للف أيت عثمان.[٣١]

### ١/٢- النشاط الفلاحي:

يُعَدّ الجانب الفلاحي من أهم ركائز الاقتصاد باعتباره يساهم في العديد من المواد الاستهلاكية، كما يساهم في خلق الرواج التجاري، لكن رغم هذه الأهمية فإنه لم يحظ بأي اهتمام، حيث أن جل الكتابات الوطنية إضافة إلى المونوغرافيات الأوربية لم تول له أي اهتمام يذكر ماعدا بعض الإشارات القليلة.

### (١/٢) ١- الزراعة

اهتم سكان المنطقة بالزراعة خاصةً على ضفاف الأودية وروافدها واستغلوا تلك المساحات للقيام بزراعة بورية مثل المعاذر،[٣٢] هذه الأراضي غالبا ما كانت سبب النزاع بين الأفراد من داخل وخارج القبائل خصوصًا حول ملكيتها والحدود الفاصلة بينها وأحيانًا حق الوريث فيها، وتُعَدّ الحبوب (الشعير والقمح) منتوجًا موسميًا بالغ الأهمية سواء على مستوى الاستهلاك أو التسويق، وارتبطت المساحات الكبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بكبار القواد والشيوخ المحليين.[٣٣]

وتُعَدّ التويزة شكلاً تعاونيًا ذا مدلول اجتماعي أدى إلى تشكل القوى الإنتاجية من بين الأسر وداخل القبيلة بقصد مجموعة من الأعمال الجماعية لصالح كل أسرة في المجال الزراعي، وبالخصوص عملية الحرث والحصاد والدرس دون الاحتياج إلى استعمال النقود كأجور، وذلك للضرورة التي كانت تفرضها الظرفية آنذاك، فحتى طبيعة الأدوات التقليدية المستعملة مثل المحراث الخشبي والدواب ساهمت بدورها في إثبات هذا النوع من العمل التعاوني، لكونه كان يتطلب مجهودًا عضليًا، لكن هذا النظام فقد مضمونه الاجتماعي والاقتصادي مؤخرًا عندما حوله بعض أفراد القبيلة من ذوي السلطة والنفوذ إلى نوع من السخرة الشبه إجباري.[٣٤]

ومما لا شك فيه؛ أن للثروة المائية دورًا مهمًا في توسيع المساحات المستغلة والتي تحقق الاكتفاء الذاتي من الحبوب والتمور والكلأ للماشية، وقد تزداد أهميتها في فترات الجفاف، إضافة إلى دور الساكنة المتمثل في الغرس والتشجير والسهر على الإنتاج الزراعي. ومن المألوف أن يكون بداخل البيت (كانون) بعض المواشي والحيوانات ولو بنسبة قليلة، لأن الارتباط بالفلاحة وعلى الخصوص المسقية كان ضروريًا لتوفير الكلأ.[٣٥]

أما أهم المزروعات التي اهتم بها السكان فهي القمح والشعير، وفي شمال البلاد نجد التبغ والذرة، كما يعتنون ويحافظون على "الصبار الهندي" الموجود بكثرة بين وادي نون ودرعة وفي أقصى جنوب البلاد. ولا توجد أشجار الفواكه المثمرة إلا في منطقتي وادي نون وباني تقريبا، فأشجار النخيل توجد بالخصوص في واحات أسرير، تغمرت، فاصك وتغجيجت، بالإضافة إلى أشجار الرمان والتين وبعض أشجار البرتقال. وتخزن الغلال في "المطامر"،[٣٦] أو تودع في بعض القرى الموجودة بين وادي نون ودرعة، وهي غير محصنة كما هو الشأن بالنسبة لكلميم، ويعين لحراستها شخص واحد لأنه لا خوف عليها من السرقة، فالذين يقومون بالسلب والنهب يفضلون الاستحواذ على قطعان الماشية بدلاً من الحبوب التي يصعب حملها.[٣٧]

### (١/٢) ٢- تربية الماشية

إن أراضي منطقة وادي نون كانت صالحة لتربية الماشية أكثر مما هي صالحة للزراعة ما عدا الواحات بفعل الظروف الطبيعية والمناخية السائدة، لهذا شكلت قطعان الماعز والغنم والإبل أساسا

ثروة الرحل ذوي الإنتجاعات الواسعة.[٣٨] ونظرًا لما توفره هذه المواشي من الحليب واللحوم والصوف، فإن المستقرين خاصة سكان البوادي كانوا يعتمدون عليه في حياتهم اليومية، أما وفرة المياه والكلأ فسهلت عليهم تربية الماشية، غير أن الأوبئة التي سادت خلال القرن التاسع عشر حتمت على الساكنة الاستعانة بقطعانها من الماشية لتحقيق نوع من التكامل الاقتصادي.

كما عرفت المنطقة تربية مواشي ذات نفع اقتصادي بالنسبة لمختلف السكان كالإبل والغنم والماعز والحمير والبقر، وأخرى ذات نفع معنوي أساسًا كالخيول لما لها من دور أساسي في المنطقة. وتمارس تربية الإبل في كل المجال الترابي للقبائل، ولا تكمن أهمية هذا الصنف من الثروة الحيوانية فيما يوفره من مصادر عيش ممتازة ومرغوب فيها (الألبان واللحوم) ومواد أولية تستعمل في صناعة الخيام والضمادات الطبية التقليدية وفي الصناعات الحرفية فحسب، وإنما كان في الأساس وسيلة النقل المثلى ورفيق درب يعول عليه في اجتياز مضارب الصحراء ومهامها.[٣٩] لقد طغت إذن التنمية الحيوانية على حياة الناس الاقتصادية منذ أمد بعيد في هذه المنطقة، فتقلب مصادر الكلأ وتشتتها وندرة المياه السطحية وعدم ملائمة الظروف المناخية، كلها عوامل جعلت الغالبية من سكان منطقة وادي نون تعيش حياة بداوة قائمة على تنمية المواشي وما تستلزمه من حركة مجالية دائبة بحثًا عن الماء والكلأ.

**٢/٢- النشاط الصناعي:**

عرفت منطقة الجنوب المغربي حرفًا وصناعات دقيقة على مستوى كل قبيلة وجهة، وعلى مستوى المدن القديمة، ولقد كانت الصناعة في منطقة وادي نون تبلغ أوج الازدهار خاصةً في العهد السعدي، غير أن هناك تغييرًا بارزًا في هذا المجال، إذ وقع تراجع في الحرف والصناعات بسبب الأحداث المتوالية التي تعاقبت بعد انهيار هذه الدولة خلال القرن السادس عشر الميلادي.

وقد لعبت الصناعة الحرفية دورًا مهمًا في توفير الحاجيات الضرورية للحياتين الرعوية والزراعية من لوازم منزلية وأدوات زينة وأسلحة بيضاء ونارية، وموازاة مع هذا فإن النشاط الصناعي في مدينة نول لمطة قد تطور مع مرور الوقت إلى الحد الذي جاز وصفها في العصر المرابطي بأنها إلى جانب "فاس ومراكش من أهم المدن الصناعية بالمغرب"،[٤٠] ورغم الطابع التقليدي لهذه الصناعات التي تعتمد على أدوات يدوية بسيطة ومواد محلية في الغالب، فإن مهارة الحرفيين بالمنطقة قد سبغت منتوجاتهم بشهرة واسعة في سائر المغرب، فغزت مصنوعاتهم جل الأسواق الداخلية وربما الأجنبية كذلك.

ومن أهم المنتوجات التي اشتهرت بها نول نجد صناعة الدرق، إذ لا تكاد تذكر في الغالب إلا مقرونة بها، وحتى ابن حوقل يكرر ذلك مرتين في نفس الفقرة، فيقول متحدثًا عن نول في شبكة الطرق التجارية: "ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية (...) ومن أوليل إلى لمطة معدن الدرق خمسة وعشرون ميلا"،[٤١]

ويتبعه الإدريسي في ذلك مصرحا أن "بهذه المدينة [نول لمطة] تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعًا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها"،[٤٢] وهو ما وفر للمدينة شهرة أكبر بما أنه لا يخفى علينا قيمة المنتوجات الحربية في عصر كالذي عاشت فيه المدينة، ويتضح أن نول كانت منذ القرن التاسع ذات درق مشهورة تصنع من جلد جنس الضباء يسمى اللمط،[٤٣] وهو حسب البكري والحميري "دابة دون البقر بها قرون رقاق حادة تكون لذكورها وإناثها، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرنه... وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما عمل من جلود الإناث المسنات".[٤٤] هذا بالإضافة إلى مصنوعات أخرى كالسروج وأقنان الإبل،[٤٥] كما يصنع سكان المدينة أيضا ويوفرون كميات من لحوم الخيل والأكسية النسيجية.

**٣/٢- النشاط التجاري**

اهتمت ساكنة وادي نون بالتجارة مستغلة موقع المنطقة الاستراتيجي الذي جعل منها ملتقى للطرق التجارية الرابطة بين المغرب والضفة الجنوبية للصحراء، ونقطة عبور لا يمكن الحياد عنها، الأمر الذي سمح لها بمراقبة الطرق وضمان أمن القوافل. فقد شهدت السواحل المغربية ميلاد علاقات تجارية مبكرة مع فينيقيا، إذ بدأت الإبحارات الفينيقية الأولى نحو أقصى الغرب المتوسطي في القرن ١٢ ق.م، وانتهت في أواسط القرن ٦ ق.م،[٤٦] ولعل أهم مرحلة نشطت فيها التجارة الفينيقية مع كل أقطار البحر الأبيض المتوسط هي القرن ٧ ق.م والنصف الأول من القرن ٦ ق.م. واستطاع الفينيقيون الوصول إلى وادي نون عبر المحيط الأطلسي بعد عبورهم جزءًا صغيرًا منه انحصر عند بلاد تكنة،[٤٧] وبهذه المنطقة كانت مراكبهم تفرغ حمولاتها من البضائع من مرمر وفخار وأواني خزفية.

وبعد الفينيقيين تعامل سكان المنطقة مع قرطاج وريثة الفينيقيين التي أبدت اهتمامًا كبيرًا بالمنطقة تتويجًا لتطلعاتها التوسعية، ولتدعيم وكالاتها بشمال الصحراء حتى إفريقيا السوداء، وقد ضاعف حانون ذلك بتأسيسه لخمس وكالات تجارية من بينها وكالة أساكا[٤٨] في بلاد تكنة، وكان يتوخى من تلك العملية احتكار تجارة الذهب في المنطقة وتحقيق أكبر قدر من الأرباح ، وبعد ذلك عرفت المنطقة قدوم الرومان الذين كان لهم الفضل في تعميم الجمل كمطية حرب وأداة نقل إلى المنطقة، مما انعكس إيجابًا على النشاط التجاري[٤٩] ونتيجة للتعامل مع قوى اقتصادية من هذا الحجم قام سكان وادي نون بتأسيس مراكز تجارية لتمكينهم من استقطاب التجارة الصحراوية، ولعب دور الوساطة بين الأسواق الإفريقية وهذه القوى.[٥٠] وهكذا ظل الطابع التجاري هو السمة الغالبة التي ميزت وادي نون عبر مختلف مراحل تطوره التاريخي، ولعل أوضح مثال ما بلغته نول لمطة في عهد الإمبراطورية المرابطية، حين تمتعت بشهرة واسعة جعلت منها إحدى العواصم الإفريقية بعد سجلماسة.

وعلى الرغم من جهلنا لظروف وملابسات إنشاء هذه العاصمة -نول لمطة- فإن موقعها الاستراتيجي "كآخر مدن الإسلام"،(٥١) أهلها لاحتلال مكانة تاريخية مهمة اقتصاديًا وسياسيًا خلال الفترة المرابطية، "كما شكل الطابع الحيادي للمدينة مسألة حيوية بالغة الحساسية لمختلف الفروع الصنهاجية المراقبة لطرق الصحراء الأطلسية، وانخفاض التكاليف والأمن عاملين أساسيين لإنعاش مسالك المنطقة."(٥٢) إلا أن التراجع بدأ يعصف بها مع وصول الموحدين إلى السلطة، فكانت نهايتها على أيديهم في أواخر النصف الأول من القرن ١٢م.(٥٣) وباندثارها فتح المجال لظهور مركز اقتصادي تمثل في تكاوست التي عرفت ازدهارًا كبيرًا خاصةً بعد تحول الطرق الداخلية نحو الساحل، إلا أن ازدهارها لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ظهر مركز آخر في أواخر القرن ١٨م استرعى انتباه التجار، ويتعلق الأمر هنا بمدينة كلميم التي تمكنت من استقطاب تجارة تمبكتو.(٥٤)

ويعتبر القاسم المشترك بين هذه المراكز الثلاث: نول لمطة . تكاوست . كلميم هو تنظيمها لأسواق ومواسم سنوية كبرى، لعبت دورًا كبيرًا في إنعاش النشاط التجاري في المنطقة، وكان ذلك أيضًا مناسبة لبروز بعض الأسر التجارية في المنطقة التي اكتسبت إشعاعًا تجاريًا كبيرًا بفضل أنشطتها وعلاقاتها التجارية المتميزة مع جهات ومراكز اعتبرت آنذاك من العواصم التجارية الكبرى (تمبكتو-الصويرة).

**(٣/٢)١- الأسواق والمواسم**

ظل النشاط التجاري في كثير من الأحيان موازيًا للنشاط الفلاحي، الأمر الذي مكن الفلاحين من تصريف تدريجي لقسط من محاصيلهم المستمدة من الأرض والماشية في الأسواق والمواسم. وتشكل الأسواق والمواسم مركز الإشعاع التجاري لمختلف البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومجال لتفاعلها، فالمواسم كمركز للتبادل التجاري كان لزامًا أن يحتضنه ولي صالح وتكون فرصة لعقد الصفقات،(٥٥) وفي الوقت نفسه القضاء على بعض الصراعات وعقد تحالفات جديدة، وكذلك فرصة لعرض مجموعة من السلع المتنوعة بين مواد محلية وأخرى من إنتاج حرفيين ينتمون لقبائل أخرى، كما عرفت هذه الأسواق والمواسم استعمال وسائل عدة لتسهيل وضبط المعاملات التجارية. كما تُعَدّ الأسواق والمواسم ركيزة أساسية في اقتصاد المنطقة ومركزًا للتبادل التجاري، ويعتبر موسم أسرير من أقدم المواسم بوادي نون، استمر منذ بداية العهد المرابطي إلى الآن، وكذلك من أكبر المواسم على الإطلاق في واد نون، ويوجد بالقرب من زاوية الشيخ سيدي محمد بن عمرو الأسريري، يسمى كذلك بموسم الولي الصالح سيدي محمد بن عمر اللمطي اللمتوني،(٥٦) وينعقد هذا الموسم مرتين في السنة، الموسم الأول يقام في بداية شهر يونيو وهو موسم تجاري خالص، أما الموسم الثاني (المعيليل) فهو تجاري وديني وينعقد في أواخر شهر يوليوز، وفيه يتم الاحتفال بقدوم الولي الصالح سيدي محمد بن عمر اعترافًا بمكانته، وبهذا الموسم تختتم كل مواسم وادي نون.(٥٧)

**(٣/٢) ٢- المواد التجارية**

نتيجة للتواجد الجغرافي لقرية أسرير وقربها من الموارد المائية، فقد أعطاها ذلك شحنة كبيرة في الربط بين الشمال والجنوب والشرق، وبالتالي تنوع المواد والمبادلات التجارية في أسرير كسوق أو كمركز تصدير السلع وهو أمر أكدته لنا الروايات الشفوية. ويوجد كل شيء في هذا الموسم بدءًا بالأنعام أي الإبل والبقر والماعز والغنم والخيل والحمير، وكل منتوجات الحبوب والصناعات، هذا بالإضافة إلى العبيد والإماء.(٥٨)

وساهم التاريخ التجاري الذي عرفته المنطقة في توافد حشود وافرة من التجار من مختلف المناطق من إفريقيا وموريتانيا والسنغال والجزائر، وكذا التجار المغاربة الوافدين من مختلف المناطق الشمالية للمغرب، ثم كذلك العنصر اليهودي، وانطلاقًا من الروايات الشفوية التي تؤكد أن قبائل الصحراء كلها ترتاد الموسم التجاري بأسرير، وهو أمر قابل للتصديق بقوة بدليل وجود وثائق الحماية والذبح والإخاء بين سكان أسرير وأزوافيط ومجموعة من الفصائل والقبائل والأفراد من خارج القبيلة.

## خاتمة

إن مدينة نول لمطة وبحكم موقعها الاستراتيجي وكذا مؤهلاتها البشرية جعلت منها واحدة من أهم الأقطاب الحضارية بالجنوب المغربي، فقد امتد تأثيرها الحضاري على المنطقة من فترة قديمة تعود لما قبل التاريخ، وهو ما أكدته الأبحاث الأركيولوجية في المنطقة ككل، حيث تم العثور على الخزف الفينيقي والعملات الرومانية، غير أن أهم فترات البلدة كانت خلال العهد الوسيط وبالضبط مع المرابطين، وأسوء حالاتها كانت مع الموحدين خلال العصر نفسه. ويتجلى لنا وجود هاتين الإمبراطوريتين من خلال بقايا قلاعهما في المدينة، غير أن البلدة ما لبثت أن ظهرت من جديد وعرفت العمران والنمو الاقتصادي مع ظهور زاوية الشيخ سيدي محمد بن عمرو اللمطي الأسريري، حيث أن الطابع الروحي للزاوية ساهم بفعالية في إحياء البلدة من جديد.

وعمومًا فرغم المسار التاريخي السلبي الذي عرفته هذه المدينة بسبب تردي الأوضاع السياسية المغربية منذ العصر الوسيط، فقد ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كواحدة من أهم الإيالات المغربية في الجنوب، لتظهر بعد ذلك مدينة كلميم في عصرنا هذا كواحدة من أهم عواصم المنطقة الجنوبية، كل هذا التطور الحضاري الذي عرفته المنطقة زامنه تطور سياسي واقتصادي وعسكري، وكل ذلك راجع إلى الأهمية الاستراتيجية للمنطقة ككل خلال تلك الفترة. وعليه فأهم ما يتجلى لنا من خلال ما سبق هو خضوع المنطقة لسلطة الدولة لاسيما منذ العصر الوسيط، كما يجب أن لا نغفل دور العامل البشري في نهضة المنطقة خاصة قبائل تكنة، وكذلك العنصر اليهودي الذي طبع المنطقة بطابع خاص.

## الهوامش:

(١) جوماني (أحمد)، "**المدينة المغربية في العصر الوسيط: نول لمطة نموذجًا**"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ١٩٩٣ . ١٩٩٤، ص. ٢٧.

(2) El Bakri (Abou Obaid Allah), «Description de l'Afrique septentrionale tred de sulone Maisonneuve», Paris, 1965, p. 306.

(٣) الحميري، "**الروض المعطار**"، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠، ص. ٥٨٤.

(٤) جوماني (أحمد)، المرجع السابق، ص. ٢٩.

(5) Meunié (Jacques), «Le Maroc Saharienne des origines à 1670», Volume I, Paris, 1982, P. 136.

(٦) دندش (عصمت)، "**دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**"، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٢٧.

(٧) ناعيمي (مصطفى)، "**الصحراء من خلال بلاد تكنة: تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**"، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨، ص. ٤٣.

(٨) نفسه، ص. ٢٧.

(٩) نفسه، ص. ٢٩.

(١٠) ناجيه (عمر)، "**البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: قبيلة أيت لحسن نموذجًا**"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، ١٩٩٨ . ١٩٩٩، ص. ٦٦.

(١١) الوزان (محمد حسن)، "**وصف إفريقيا**"، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣، ص. ١٥٣.

(١٢) ناعيمي (مصطفى)، م. س، ص. ٧٧.

(١٣) صداق (سهل)، أرفوف (عبد الله)، "**دراسة تاريخية لقرية أسرير**"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ٢٠٠٥ . ٢٠٠٦، ص. ٢٣.

(١٤) البكري (أبو عبيد الله)، "**المسالك والممالك**"، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيت الحكمة، تونس، الجزء ٢، ١٩٩٢، ص. ٣٢١.

(١٥) ابن خلدون (عبد الرحمان)، "**المقدمة**"، المجلد الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ص. ٢٣.

(١٦) الإدريسي، "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٦٤٩هـ . ١٢٥١م**"، لندن، ١٨٦٤، ص. ٨٥.

(17) Meunié (Jacques), Op.Cit., p. 326.

(١٨) مطيب (مصطفى)، "**قبائل تكنة بالجنوب المغربي: دراسة جغرافية تاريخية واجتماعية للضابط فريدريك دولاشابيل**"، ترجمة وتعليق، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ١٩٨٩ . ١٩٩٠، ص. ٤٢.

(١٩) العروي (عبد الله)، "**مجمل تاريخ المغرب**"، ج٢، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص. ٧٥ . ٧٦.

(٢٠) ناعيمي (مصطفى)، المرجع السابق، ص. ٤٤.

(٢١) اللمطي (عمر)، "**دراسة تاريخية لزاوية سيدي محمد بن عمرو الأسريري بأسرير**"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ٢٠٠٥ . ٢٠٠٦، ص. ٢٤.

(٢٢) نفسه، ص. ٤٢.

(٢٣) ابن أبي زرع، "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**"، تحقيق الهاشمي الفيلالي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص. ٢١٧.

(٢٤) ابن منظور، "**لسان العرب: مادة نول**"، المجلد ١١، بيروت، ص. ٦٨٤.

(٢٥) الإدريسي، المرجع السابق، ص. ٦٣.

(٢٦) الحموي (ياقوت)، "**معجم البلدان: مادة نول**"، الجزء ٥، بيروت، ١٩٨٧، ص. ٢٣.

(٢٧) الحميري، المرجع السابق، ص. ٥٨٤.

(٢٨) ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص. ١٢٠.

(٢٩) المحمدي (علي)، "**السلطة والمجتمع في المغرب: نموذج أيت باعمران**"، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص. ٥١.

(٣٠) المراني (محمد)، "**الدور السياسي والاقتصادي لمنطقة وادي نون في القرن الخامس الهجري**"، ندوة واحات وادي نون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص. ٢٧.

(٣١) ابن عذاري (المراكشي)، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"، قسم الموحدين، تحقيق محمد ابن إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص. ١٣.

(٣٢) هي المناطق المحاذية للروافد والأودية.

(33) Vincent (Monteil), «*Notes sur les Tekna*», Edition Larousse, Paris, 1948, P.118.

(٣٤) كان على كل فرد بالغ وقادر على العمل من الرجال أن يخصص للقائد يومًا من العمل في أراضيهم الزراعية.

(٣٥) ابن خلدون (عبد الرحمان)، "**كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، دار الفكر، الجزء ٦، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص. ١٣١.

(٣٦) **المطمورة**: هي عبارة عن حفرة كبيرة تحت الأرض في البيوت، ويكون لها باب أو منفذ على السطح، وكانت الشكل السائد لخزن الحبوب، ولازال بعضها جاري به العمل إلى حد الآن.

(٣٧) مطيب (مصطفى)، المرجع السابق، ص. ٦٧.

(38) Robert (Montagne), «Les Berbères et le makhzen dans le sud Marocain», Félix Alcane, Paris, 1930, p. 73.

(٣٩) أفا (عمر)، "**مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن ١٩: سوس ١٨٢٢ . ١٩٠٦**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص. ١٩.

(٤٠) حركات (إبراهيم)، "**المغرب عبر التاريخ**"، الجزء الأول، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص. ٢٢٠.

(٤١) ابن حوقل (أبو القاسم)، "**صورة الأرض**"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص. ٩١.

(٤٢) الإدريسي، م. س، ص. ٣٨٤.

(43) Meunié (Jacques), Op.Cit., p. 210.

(٤٤) البكري (أبو عبيد الله)، المرجع السابق، ص. ٣٢١.

(٤٥) الحميري، م. س، ص. ٥٧٤.

(٤٦) بورقية (رحمة)، "**الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل**"، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١، ص. ٦٥.

(٤٧) ناعيمي (مصطفى)، م. س، ص. ٢٢.

(٤٨) نفسه، ص. ٢٤.

(٤٩) البكرفاوي (خديجتو)، "**جوانب من تاريخ أسرير من خلال الوثائق: تخريج وتعليق**"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ٢٠٠٤ . ٢٠٠٥، ص. ٣٤.

(٥٠) المجاطي (علي)، "**تطورات البنية الاقتصادية لتارودانت عبر التاريخ**"، ندوة تارودانت حاضرة سوس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ١٩٩٣، ص. ٨١.

(٥١) البكري (أبو عبيد الله)، "**المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**"، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، ١٩٨٥، ص. ١٦١.

(٥٢) ناعيمي (مصطفى)، م. س، ص. ٨٠.

(٥٣)نفسه، ص. ١٦٨.

(54) Amri (Lahoucine), «Pouvoir, Religion et Société, Etude Anthropologique du Phénomène de la Zaouia au Maroc: le cas de Tazerwalt», Thèse de doctorat, Paris, 1988, p. 145.

(٥٥)أفا (عمر)، "**التجارة المغربية في القرن التاسع عشر: البنيات والتحولات ١٨٣٠ . ١٩١٢**"، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، ٢٠٠٢، ص. ٢٦٣.

(56) Amri (Lahoucine), «Pouvoir, Religion et Société, Etude Anthropologique du Phénomène de la Zaouia au Maroc: le cas de Tazerwalt», Thèse de doctorat, Paris, 1988, p. 145.

(٥٧)مبارك (رشيد)، "**هذه هي أسرير**"، مطبعة شروق، الطبعة الأولى، أكادير، ٢٠٠٥، ص. ٢٤.

(58) Plersch (Albert), «Hiérarchie économique des ksours dans le sud Marocain», B.E.S.M, N 138, 1979, p. 37.

# مدينة فاس التاريخية
## رؤية جديدة في تاريخ التأسيس ودلالات التسمية




**طارق يشي**

باحث دكتوراه - كلية الآداب - ظهر المهراز
مختبر البيبليوغرافيا التاريخية والتوثيق
للتراث المغاربي – المملكة المغربية



### مُلَخّصْ

استطاعت قضية تأسيس مدينة فاس أن تحظى باهتمام عدد كبير من الباحثين، الذين عجزوا عن الحسم في هذه الإشكالية التاريخية بالاعتماد على النصوص المصدرية لوحدها، ويناقش هذا المقال هذه القضية انطلاقًا من مقاربة طبونيمي تاريخية، أي انطلاقًا من دراسة الأعلام المكانية الفاسية، ويؤكد نسبة التأسيس لإدريس بن إدريس، خاصةً أمام التطابق بين ما ورد في بعض الروايات المصدرية من جهة، والأعلام المكانية، التي ما زالت موجودة لحد الآن. وفي نقطة ثانية يناقش المقال قضية التسمية، ليطرح الفرضيات التي وصل إليها الباحثون حول الأصل اللغوي لكلمة "فاس"، بين من ذكر الأصل العربي، والأمازيغي، واللاتني، لنصل في النهاية إلى خلاصة تعيد ترتيب الأحداث التي عرفتها المنطقة قبل وبعد بناء المدينة، والمتمثلة في وجود تجمع سكاني خضع للنفوذ الروماني واستفاد من حقوق المواطنة –إذا رجحنا انتماء كلمة فاس للمعجم اللغوي اللاتني- فسميت المنطقة بـ"Fās"، وجاء فيما بعد إدريس بن إدريس، وأرسل عمير بن مصعب لاختيار موضع لبناء المدينة، فمر من منطقة "عين عمير" الحالية، وترك بصمة تدل على مروره، واختار موضعًا للمدينة التي يحتمل أنها كانت تضم منشآت عمرانية، ولم تكن فارغة تمامًا، خاصةً أن قبيلتي زواغة وبني يزغتن فاوضتا إدريس في بيع أراضيهما -إن صدقت الرواية- وهذا دليل على وجود تجمع سكاني قبل البناء، بل أكثر من ذلك لا زالت الطبونيمية حالية تشهد على تواجد عناصر بالمكان قبل بناء المدينة، ومنها عناصر مجوسية، حيث ضمت الشيبوبة بيت نارهم، وقام هذا الأمير ببناء مدينة جديدة، فانطلق من الضفة اليمنى للوادي، إلا أنه وجد مشكلة قلة المياه وصعوبة انتقال مياه النهر إلى هذا المكان، فاحتفظ به ونقل مركز قراراته إلى الضفة اليسرى.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٤ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ يناير ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

إدريس بن إدريس، إدريس بن عبد الله، المسكوكات المغربية، عين عمير، الروايات المصدرية

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

طارق يشي. "مدينة فاس التاريخية: رؤية جديدة في تاريخ التأسيس ودلالات التسمية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٢٥ – ٣٣.


### مُقَدِّمَةُ

تعتبر قضية تأسيس مدينة فاس وما رافقها من روايات متعددة، محط تساؤل من قبل العديد من الباحثين الذين لم يحسموا في هذه القضية التاريخية بعد، خاصة أمام تأخر المصادر التي اهتمت بهذه القضية من الناحية الزمنية[1]، وما رافق هذا التأخر من تعدد الروايات واختلافها، الأمر الذي يجعل من قضيتي تأسيس المدينة والدلالة التاريخية واللغوية لاسم "فاس" قضيتين تاريخيتين يلفهما الكثير من الغموض، وبالرغم من التراكم الكمي للدراسات التي اهتمت بهذا الأمر، إلا أن مسألة الحسم في هذا الرأي أو ذاك تبقى مسألة صعبة. لذلك سنسعى من خلال هذا المقال إلى رصد حصيلة البحث في هاتين القضيتين من جهة، وطرح فرضيات جديدة يمكن أن تفتح نقاشا أوسع من جهة ثانية، وسننطلق من الإشكاليتين التاليتين: إلى أي حد سيمكننا رصد مختلف الروايات التاريخية، وآراء الدراسات الحديثة من الحسم في تاريخ تأسيس المدينة؟ وإلى أي حد ستمكننا الطبونيمي (الأماكنية)

الفاسية من رصد فرضيات جديدة حول هذه القضية؟ وما الدلالات التاريخية واللغوية لاسم "فاس"؟

## أولاً: قضية تاريخ تأسيس مدينة فاس، ودور الطبونيميا في طرح نظريات جديدة

إن الحديث عن طرح فرضيات جديدة بخصوص تأسيس مدينة فاس يفرض علينا الوصول أولا إلى حصيلة البحث في هذه القضية، سواء من خلال تصنيف الروايات المصدرية حسب فترة ورودها الزمنية من جهة، وحسب رأي أصحابها حول الشخصية التي قامت ببناء المدينة من جهة ثانية، ثم تحليلها والمقارنة بينها فيما بعد، وأيضًا من خلال الدراسات المهتمة بهذا الجانب، لنصل في النهاية إلى طرح فرضيات جديدة بالاعتماد على زاوية نظر مستجدة، وهي علم الأماكنية أو ما يسمى بالطبونيميا.[٢]

**١/١- الروايات المصدرية التي اهتمت بقضية التأسيس:**

**ابن حوقل (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠-٩٩١م)، صورة الأرض**

"وفاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل، ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة أحدثها إدريس بن إدريس.."[٣].

**أبو الحسن النوفلي انطلاقًا من البكري (قبل البكري ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)**

"قال النوفلي ومات إدريس ولا ولد له وجارية من جواريه حبلى..."، وبعدما تكفل راشد بإدريس الثاني "أخذ بيع البربر له يوم الجمعة السابع من ربيع الأول سنة سبع وثمانين وماية وهو ابن احدى عشرة سنة.. ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين وأقام بها شهرا وذلك سنة اثنتين وتسعين وماية وكانت عدوة القروين غياضا في أطرافها أبيات من زواغة فأرسلوا إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القروين سنة ثلاث وتسعين..."[٤].

يستشف من هذه الرواية أنها من بناء إدريس بن عبد الله، على الأقل عدوة الأندلس، بحيث أن النوفلي أشار إلى نزول إدريس بعدوة الأندلس، بمعنى أن هذه العدوة كانت موجودة من قبل.

**أبو عبيد الله البكري (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)**

".. وأسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين وماية وعدوة القروين في سنة ثلاث وتسعين وماية في ولاية إدريس بن إدريس ومات إدريس بمدينة وليلى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب"[٥].

**مؤلف مجهول (ق٦هـ/١٢م)، الاستبصار في عجائب الأمصار**

"ومدينة فاس محدثة، أسست عدوة الأندلس في سنة ١٩٢، وعدوة القروين سنة ١٩٣ في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي، ومن ذريته إلى بفاس إلى اليوم ونحن في سنة ٥٨٧هـ [١١٩١م]".[٦]

**ابن سعيد (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)[٧]، انطلاقًا من كتابي مسالك الأبصار وصبح الأعشى**

"وثم فائدة لابأس بذكرها والتنبيه عليها ذكرها ابن سعيد في المغرب وهي أن فاسا القديمة هي أيضًا مدينتان، أقدمهما المعروفة بمدينة الأندلسيين، بنيت في زمان إدريس بن عبد الله الحسني أحد خلفاء المغرب، ثم المعروفة بمدينة القروين بنيت بعدها"[٨]. "قال ابن سعيد في المغرب، وهي مدينتان، إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب، وتعرف بعدوة الأندلس، والأخرى بنيت بعدها، وتعرف بعدوة القروين."[٩]

**الروض المعطار، للحميري (توفي حوالي ٧١٠هـ/١٣١٠م)**

نقل نص صاحب الاستبصار حرفيًا.[١٠]

**رواية ابن أبي زرع بخصوص تأسيس مدينة فاس (تأليف الكتاب ٧٢٦هـ/١٣٢٥-١٣٢٦م)**

يرتبط تأسيس مدينة فاس -عند ابن ابي زرع- بالوفود التي وفدت على إدريس بن إدريس سنة ١٨٩هـ، بعد أن "توطأ له الملك، وكثر سلطانه، وعظمت جيوشه وأشياعه..وضاقت بهم المدينة، عزم على الانتقال عنها، وأراد أن يبني مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه دولته.."[١١]، فبرزت بذلك الفكرة، وانطلق إدريس بن إدريس في بحثه عن موضع يلاءم هذه المدينة، فاختار بداية منطقة "بسنده [زلاغ] مما يلي الجوف"[١٢]، ولكنه عدل عن فكرته بعدما رأى الأخطار التي تهدد المنطقة والمرتبطة باحتمال وجود سيول يمكنها أن تهدد التواجد هناك، بل إن ابن أبي زرع يسوق رواية ابن غالب الذي يتحدث عن وقوع سيل "هلك فيه خلق كثير"[١٣].

ثم انتقل إدريس إلى مواضع أخرى فاختار منطقة وادي سبو "ثم نظر إلى وادي سبو وكثرة ما يأتي به من المدود العظيمة"[١٤]، فتراجع عن فكرته ثانية، وأرسل وزيره ابن عمير، وكلفه باختيار منطقة تلائم اقامة مدينة، وهنا تبرز أول إشارة طبونيمية عن مدينة فاس، ويبرز نوع من"الهم الطبونيمي" عند ابن أبي زرع عندما ذكر نسبة عين عمير إلى هذه الشخصية[١٥]، واستطاع هذا الأخير أن ينجح في مهمته، فاختار موضعا كانت تستوطنه قبيلتي زواغة وبني يزغتن، وهنا تبدأ الإشارات الطبونيمية في الورود بشكل أكبر، فتم الاتفاق بين إدريس والقبيلتين، وتراضيا على بيع موضع عدوة الأندلس في البداية "من بني يزغتن بألفي درهم وخمسمئة درهم.. وذلك سنة إحدى وتسعين ومئة.. ثم اشترى موضع عدوة القروين من بني الخير الزواغيين بثلاثة آلاف درهم وخمسمئة درهم، وشرع في بنائها"[١٦]، وهنا نجد أن ابن أبي زرع يرجح رواية بناء إدريس الثاني للمدينتين، إلا أنه لا يذكر سبب هذا الفصل.

**الجزنائي (٧٦٦هـ/١٣٦٤-١٣٦٥)**

هذه الرواية هي رواية ابن أبي زرع نفسها، مع اختلافات بسيطة، حيث لا يورد الجزنائي توجه إدريس بن إدريس إلى نهر سبو، وسعى أيضًا إلى توخي الاختصار مقارنة مع ما قام به ابن أبي زرع من تفصيل.

**الحسن بن محمد الوزان الفاسي (توفي بعد ٧٩٥هـ/١٥٥٠م)، وصف إفريقيا**

"أسس مدينة فاس أحد الشيعة أيام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٥ للهجرة.."[١٧] "وعزم على أن يغادر الجبل ويؤسس مدينة يستقر فيها، وقد جمع لهذه الغاية عددًا من المعماريين والمهندسين فحصوا بدقة كل السهول المجاورة للجبل ونصحه ببناء المدينة في الموقع الذي بنيت فيه، كانت هناك عيون عديدة ونهر كبير ينبع من سهل لا يبعد كثيرًا عن تلك العيون، ويمر بين تلال صغيرة لينحدر إلى شعاب في غاية الجمال، بعد أن يقطع السهل ويسيل بهدوء وسكينة على مسافة ثمانية أميال، كما كانت هناك غابة كبيرة في الجنوب تنفع المدينة كثيرا وتسد حاجاتها، هذا هو السبب الذي من أجله بنيت على الضفة الشرقية للوادي مدينة صغيرة تضم حوالي ثلاثة آلاف كانون.. ولما مات إدريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية."[١٨]

تضم هذه الرواية مجموعة من المعطيات التي اعتبرها كل من محمد حجي ومحمد الأخضر خاطئة، وأن الأمر اختلط على الوزان الفاسي، وهذه الأخطاء حسب المترجمين، تبدأ من تاريخ بناء المدينة حسب الوزان، الذي لم يورده أحد من المؤرخين السابقين، وتتضح بشكل أكبر عند حديثه عن بناء العدوة الغربية من قبل أحد أبناء المولى إدريس الثاني.

**ابن القاضي(ق ١٠هـ/١٦م)، جذوة الاقتباس**

إن رواية ابن القاضي في كتابه الجذوة، هي نفسها رواية ابن أبي زرع، فتأسيس المدينة حسب الطرفين مر بثلاث مراحل، المرحلتين الأوليتين كانتا فاشلتين، بينما نجحت الثالثة، بعد تكليف عمير بن مصعب الأزدي بهذه المهمة.[١٩]

**أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني(ق١٩م)، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**

"وأسس - رضي الله عنه - المدينة الكبرى التي هي مدينة فاس، وكان مبدأ تأسيسه لها صبيحة يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة اثنين وتسعين ومائة، ورفع يديه عند إرادة الشروع في بنائها.."[٢٠].

إن هذه العملية الأولى تظهر لنا بوضوح اختلاف المصادر في تحديد الشخصية التي اهتمت بتأسيس مدينة فاس، هل هو إدريس بن عبد الله أم إدريس بن إدريس؟ ويوضح الجدول التالي النتائج التي تم التوصل إليها:

| الروايات المصدرية التي تؤكد بناء المدينة من قبل إدريس بن عبد الله | الروايات المصدرية التي تؤكد بناء المدينة من قبل إدريس بن إدريس |
|---|---|
| - النوفلي (قبل ٤٨٧هـ/٩٩٠م)<br>- ابن سعيد (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) | - ابن حوقل، صورة الأرض، (٣٨٠هـ/٩٩٠م)<br>- البكري، المسالك والممالك، (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)<br>- مؤلف كتاب الاستبصار (٥٨٧هـ/١١٩١م)<br>- الحميري، الروض المعطار (٧١٠هـ/ ١٣١٠م).<br>- ابن أبي زرع، القرطاس، (٧٢٦هـ/١٣٢٥-١٣٢٦م).<br>- الجزنائي، جنى زهرة الآس، (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤-١٣٦٥م):<br>- الوزان، وصف إفريقيا، (ق١٠هـ/١٦م).<br>- الكتاني، سلوة الأنفاس، (ق١٣هـ/١٩م). |

نستخلص انطلاقًا من هذا الجدول: أن معظم المصادر التاريخية تؤيد فكرة تأسيس بناء مدينة فاس من قبل المولى إدريس بن إدريس، وليس من قبل إدريس بن عبد الله، الأمر الذي يطرح عدة إشكالات تاريخية، خاصةً أمام وجود مدينتين منفصلتين، وكيف يمكن لأمير أن يشيد مدينتين في الوقت نفسه؟ وهل استطاعت الدراسات الحديثة أن تحسم في هذه الخلافات المصدرية بناءً على دلائل تاريخية أخرى غير النصوص المصدرية؟

**٢/١- الدراسات والأبحاث المعاصرة وآراء أصحابها في قضية التأسيس:**

لقد سعت الدراسات التي اهتمت بقضية تأسيس مدينة فاس، إلى البحث عن مخرج من هاتين الروايتين المصدريتين، فتباينت بذلك ردود الفعل بين مؤيد للرواية الأولى وآخر مؤيد للرواية الثانية[٢١] التي اعتبرت رسمية، وأضحت المسألة محسومة في أمرها على الأقل بالنسبة للتاريخ المدرسي[٢٢] والوثائق السياحية، وكذلك أيدها مجموعة من الباحثين سواء منهم المغاربة[٢٣] أو المستشرقين[٢٤]، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود بعض الباحثين خاصةً المستشرقين منهم، الذين سعوا إلى تأكيد أسبقية إدريس بن عبد الله في قضية تأسيس المدينة، ونشير في هذا الصدد إلى الباحث ليفي بروفنسال، الذي انطلق من إشكالية رئيسة، وهي التساؤل عن السبب الذي جعل إدريس بن إدريس يقوم بتشييد مدينتين عوض مدينة واحدة، وخلق ازدواجية حضرية "غير طبيعية"، وبذلك طرح احتمال تأسيس عدوة الأندلس من قبل إدريس بن عبد الله، وأكد على ذلك بالاعتماد على:

- نقود مؤرخة (des monnaies datées): حيث ذكر أن المكتبة الوطنية بباريس تضم درهما ضرب في فاس سنة (١٨٩هـ/٨٠٥م)، أي قبل سنتين من تأسيس المدينة حسب الرواية الرسمية، ودرهما آخر محفوظ في متحف (kharkoff) مؤرخ في سنة (١٨٥هـ/٨٠١ م)،[٢٥] إلا أن هذا الدليل ضحده باحثون آخرون، حيث أوضح كل من سعيد النجار وأحمد اليابوري، أن هناك تناقضا في نظرية بروفنصال، فدانييل أوسطاس(D.EUSTACHE) الخبير في المسكوكات المغربية، أثبت عدم وجود نقود إدريسية عثر عليها تحمل اسم فاس، وأن القطعتين الواردتين عند بروفنصال ليست من ضرب الأدارسة، فالدرهم الأول يحمل تاريخ ١٨٤هـ وليس ١٨٩هـ، ولم يضرب في فاس، أما الدرهم الثاني، فإن دار الضرب غير واضحة عليه، ومن المحتمل أن الأمر يتعلق بتدغة وهو يحمل فوق هذا اسم قيس ابن يوسف.[٢٦]
- نصوص مصدرية: ويسوق في هذا الصدد روايات تاريخية لمجموعة من المؤرخين الذين أكدوا أن إدريس بن عبد الله هو الذي أسس مدينة فاس وهم: أبو بكر أحمد بن محمد الرازي القرطبي[٢٧] (ت٣٤٤هـ)، وابن سعيد المغربي[٢٨] (القرن ١٣)، ونصين لأبي الحسن النوفلي، ونص خامس لمؤلف مجهول في "الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة".

وكملاحظة رئيسة من خلال هذه النصوص؛ يتضح أن ليفي بروفنسال اعتمد على النصوص التي لم تصل إلينا بشكل مباشر لتبرير فرضيته وانطلاقًا من هذه النصوص الخمسة استخلص ثلاث مراحل لتاريخ تأسيس مدينة فاس:

- مرحلة أولى تأسيس عدوة الأندلس من قبل إدريس بن عبد الله.
- مرحلة ثانية: تأسيس عدوة القرويين من قبل إدريس بن إدريس.
- مرحلة ثالثة: هجرة الأندلسيين وتخفيف الطابع البربري لعدوة الأندلسيين.[٢٩]

وفسر بروفنصال الخلط الذي وقع في الرواية الرسمية بمجموعة من المبررات، التي ارتبطت بالتطابق بين اسمي إدريس بن عبد الله، وإدريس بن إدريس، بالإضافة إلى التصحيف الذي يمكن أن يطال كلمة سبعين وتسعين.

وقد ذهب لوطورنو مع هذا التوجه، الذي يؤكد بناء المدينة سنة ١٧٢هـ، أي قبل وصول إدريس بن إدريس بكثير، وتساءل بداية عن سبب بناء مدينتين،[٣٠] ولم يجد أي تبرير لهذا القرار"المدهش"، مما حذا به إلى الاقتناع برأي بروفنسال، وأضاف تبريرات خاصة به، حيث اعتبر أن إدريس بن عبد الله هو الذي تكفل بتأسيس مدينة فاس، سنة (١٧٢هـ/٧٨٩م)، وبناها البربر وعمروها، ونظرا لانشغالات إدريس بن عبد الله بالحروب في تامسنا وتادلا فإنه لم يهتم بتطوير المدينة، وبعد وفاته ووفادة العرب من القيروان والأندلس، كان انتقال إدريس بن إدريس إلى المدينة التي بناها أبوه، والتي رأوا أنها همشت حتى أصبحت عبارة عن قرية، فعزم إدريس الثاني على تشييد مدينة حقيقية إلى جانب المدينة السابقة، في موقع أكثر ارتفاعًا ولكنه أغنى ماء، واستخلص في الأخير أن الفاصل الزمني بين المدينتين يبلغ عشرين سنة، لا سنة واحدة، وقد تكونت الأولى بربرية بكاملها على يد إدريس الأول والثانية معربة على يد إدريس الثاني.[٣١]

انطلاقًا من هذين الرأيين يتضح أن الدلائل التي اعتمدها المستشرقون في التأكيد على أن إدريس بن عبد الله هو أول مَنْ قام ببناء المدينة تتمثل في الروايات المصدرية، والنقود المؤرخة بفترة قبل سنة ١٩٢هـ، وبما أن الباحث دانييل أوسطاس (D.EUSTACHE) الخبير في المسكوكات المغربية،[٣٢] نفى هذا الأمر فإن الدليل المتبقي هو الروايات المصدرية، ليعاد السؤال من جديد، مَنْ قام ببناء هذه المدينة؟ لقد أثبت الاعتماد على النصوص المصدرية لوحدها عدم إمكانية الحسم في هذه القضية التاريخية، وأمام عجز ميدان النميات أيضًا، وصعوبة الاعتماد على البحث الأثري نظرًا لاستمرارية الاستقرار في المدينة، وصعوبة القيام بحفريات تاريخية، تبرز الطبونيميا كمصدر آخر من مصادر التأريخ، فكيف يمكن أن تساهم في حل هذا الإشكال التاريخي؟

**٣/١- "عين عمير" ودورها في إثبات رواية تأسيس المدينة من قبل إدريس بن إدريس:**

إذا ما اقتنعنا بنظرية تأسيس المدينة من قبل إدريس بن عبد الله، فهذا يلغي تمامًا الرواية الثانية التي تورد المحاولة الأولى والثانية لإدريس بن إدريس، وإرساله في المرة الثالثة لوزيره عمير بن مصعب الأزدي من أجل اختيار موضع مناسب، إلا أن الدلائل الطبونيمية تؤكد قيام عمير بهذه الرحلة، وتوقفه بمنطقة "عين عمير" الحالية، التي تنسب إلى الوزير عمير بن مصعب الأزدي[٣٣]، ونجد بأن تسمية هذه العين ارتبطت بحدث تاريخي، حسبما تورده المصادر[٣٤]، ألا وهو حدث تأسيس مدينة فاس، وبالضبط إرسال المولى إدريس لهذا الوزير ليرتاد موضعا للمدينة[٣٥]، حيث يذكر الجزنائي "واستشار وزيره عمير بن مصعب الأزدي ليرتاد له موضعًا للمدينة فسار عمير في جماعة من قومه لينظر ما طلب، فاخترق تلك النواحي، إلى أن نزل على عين ماء غزيرة مطردة في مروج نضرة، فتوضأ منها هو ومن كان معه، وصلى بهم حولها، ثم دعا الله تعالى أن يهون عليه مطلبه، وأن يدله على موضع يرتضيه لعبادته، فسميت العين عين عمير إلى الآن.."[٣٦]، ومن محاسن الصدف احتفاظ المكان باسم عين عمير لحد الآن، وهذا الاحتفاظ دال على أن هذا الوزير قام بهذه العملية، وقام بالبحث عن موضع يصلح لبناء المدينة، وفي خضم هذه العملية مر من هذا الموضع فنسب له، وبقي دليلاً على قيامه بهذه الرحلة التي كلفه بها إدريس بن

إدريس، وبذلك نجد تطابقًا بين ما ورد في الروايات المصدرية من جهة، والمعطيات الطبونيمية من جهة ثانية، وانطلاقًا من هذه المعطيات يمكن أن نقبل بفرضية تأسيس المدينة من قبل إدريس بن إدريس، ليعود السؤال حول بناء مدينتين للواجهة، فما السبب الذي دفع إدريس إلى بناء مدينتين عوض واحدة؟

**في هذا الإطار يمكن أن نطرح فرضيتين:**

- الفرضية الأولى: الانطلاق من فكرة بناء مدينة واحدة، يمر في وسطها نهر، وبما أن المصادر التاريخية التي أوردت إشارات بخصوص تأسيس مدينتين جاءت متأخرة، وجاءت بعد فترة الصراعات بعد وفاة إدريس بن إدريس، وبالضبط في الفترة الزناتية والصراع بين الفتوح وعجيسة، وبذلك يعتقد أن بناء الأسوار بين المدينتين، كان في فترة الصراع، وليس في المرحلة الأولى للبناء.
- الفرضية الثانية: أن إدريس بن إدريس قام بالاستقرار بعدوة الأندلس وبنى بها منشآت عمرانية، وأحاطها بالأسوار، إلا أنه واجه مشكل عدم كفاية المياه، وصعوبة وصول مياه النهر إليها[٣٧]، التوجه إلى الضفة الأخرى من الوادي، والتي سمحت وضعيتها الطبغرافية بمرور المياه في كل أنحائها، وقام مرة أخرى بتسوير المدينة التي اعتبرها المدينة الرئيسة، وترك المدينة الأولى للأجناد والخيول، وبذلك يمكن اعتبار بناء عدوة الأندلس مجرد محاولة من بين المحاولات التي قام بها الأمير، مع استحضار المحاولة الأولى التي كانت بسفح جبل زلاغ، والثانية التي كانت بسبو، إلا أن استقرار الأندلسيين بالعدوة والصراع الذي نشأ بين الأمراء اللاحقين من جهة ثانية أدى إلى تقوية هذه العدوة وتطورها.

خلاصة القول؛ إن اعتماد الباحث على المعطيات المصدرية لوحدها في الحسم في هذه القضية التاريخية لن يساهم في إعطاء نفس جديد للبحث، بل سيكون هناك تكرار لما سبق، لذلك وجب البحث عن معطيات مصدرية أخرى، ولعل المعطيات الطبونيمية تُعَدّ وسيلة أساسية لترجيح هذا الرأي أو ذاك، والاعتماد على العلم المكاني "عين عمير" الذي لا زال موجودًا لحد الآن، استطعنا من خلاله الاقتناع برواية إرسال إدريس بن إدريس لوزيره عمير بن مصعب، وبذلك ترجيح بناء المدينة من قبل هذا الأمير لا أبيه.

## ثانيًا: الدلالة اللغوية والتاريخية لاسم "فاس"

من بين الإشكاليات الرئيسة التي تواجه الباحث في مدينة فاس، دلالة اسم "فاس"، حيث لازال الباحثون يطرحون عدة فرضيات بخصوص هذه الدلالة، ولم تستطع لحد الآن لا الروايات المصدرية ولا المعاجم اللغوية الحسم في هذه القضية، ولكن ماهي أهم هذه الفرضيات المستنتجة من الروايات المصدرية؟ وما الفرضيات التي قدمها الباحثون بخصوص هذه الدلالة؟ تعددت الروايات المصدرية التي تحدثت عن دلالوة اسم فاس، ومن أهم هذه الآراء:

**١/٢- روايات مرتبطة بالفأس:**

رواية ابن سعيد المغربي: "وقد ذكر ابن سعيد انها سميت فاس لأنهم لما شرعوا في بناء أساسها وجدوا فأسًا فسموها به"[٣٨]. أما رواية ابن أبي زرع، وهي روايتان:

- الأولى هي أن "إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيديه مع الصناع والفعلة والبنائين تواضعًا منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب، فصنع له بعض خدمته فأسا من ذهب وفضة، فكان إدريس رضي الله عنه يمسكه بيده ويبتدئ به الحفر. .." ولكثرة تردد الفأس على ألسنة الصناع"هاتوا الفأس، خذوا الفأس، احفروا بالفأس، فسميت فاس لأجل ذلك"[٣٩]
- الثانية هي أنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة" وجد في الحفير فأسًا كبير طوله أربعة أشبار، وسعته شبر، وزنته ستون رطلاً، فسميت المدينة به"[٤٠].

**٢/٢- رواية تنسب الاسم إلى مدينة قديمة اسمها "ساف":**

ابن أبي زرع: وهي رواية ارتبطت بالمؤرخ ابن غالب في تاريخه، حيث ذكر هذا الأخير إن إدريس بن إدريس التقى براهب كبير السن، لما عزم على بناء مدينة فاس، وأخبره ببشرى سمعها من راهب قبله "توفي منذ مئة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربت منذ ألف وسبعمئة سنة، وأنه يجددها ويحيي داثرها ويقيم دارسها رجل من آل النبوءة يسمى إدريس، يكون لها شأن عظيم وقدر جسيم.."[٤١]، ويبرر ابن أبي زرع صحة هذه الرواية عبر ذكر رواية البرنسي الذي أورد أن هناك رجلا من اليهود" احتفر أساس دار يبنها لسكناه بقنطرة عزيلة من المدينة المذكورة.. فوجد في الأساس دمية رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالقلم المسند (هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة للعبادة )"[٤٢]، وعندما أتم إدريس بناء المدينة سئل عن اسمها فأجاب: "نسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب أنه كان هناك مدينة أزلية من بنيان الأوائل فخربت قبل الإسلام بألف وسبعمائة سنة، وكان اسمها مدينة ساف، ولكن اقلبوا اسمها الأول وسموها، فقلبوه فأتى منه فاس فسميت مدينة فاس، وهذا أصح في تسميتها"[٤٣]

**٣/٢- رواية تنسبها لاسم العلم البشري "فارس":**

ابن أبي زرع: الرواية الثالثة التي تذكر أن خاصة الأمير إدريس بن إدريس سألوه عند بداية تأسيسها "كيف نسميها ؟ قال: سموها باسم أول رجل يطلع عليكم" فمر رجل اسمه فارس ولكنه كان "ألثغ" فنطق اسمه على شكل فاس بعد أن أسقط الراء.

### ٤/٢- رواية تنسبها لجماعات من "الفرس":

ابن أبي زرع، وهي الرواية الرابعة لهذا المؤرخ، والذي ربط سبب التسمية بالفرس الذين استوطنوا في المدينة حين تأسيسها "فسميت مدينة الفرس، ثم خفف الناس الاسم فقالوا مدينة فارس ثم أسقطوا الراء من اللفظ اختصارا فقالوا مدينة فاس"(٤٤).

### ٥/٢- رواية أخرى:

رواية الحسن بن محمد الوزان الفاسي: "وسميت هذه المدينة فاسًا لأنه عُثر في أول يوم شرع في حفر الأرض لإرساء الأسس على كمية من الذهب تحمل بالعربية اسم فاس"(٤٥)، وقد رفض مترجما الكتاب هذا الرأي، واعتبراه خاطئا.

إن كل رواية من هذه الروايات تثير العديد من التساؤلات:

بالنسبة **للرواية الأولى** المرتبطة بالفأس، فإن هناك تناقضًا ظاهرًا، فإدريس حاول أن يساهم بنفسه في تشييد المدينة "تواضعًا منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب"(٤٦)، وفي المقابل نجد بأن هذا الثواب لم يكتمل خاصةً مع صنع فأس خاص لإدريس الثاني من الذهب والفضة، وقد تنبه إلى هذا الأمر كل من الجزنائي وابن القاضي.(٤٧) ووجود الفأس بذلك الحجم هو أمر بعيد نسبيًا عن الواقع، وقريب من خيال الفرد والمجتمع، الذي سعى إلى تضخيم مسألة بناء المدينة.

**الرواية الثانية**: يبدو أن هذه الرواية مستنبطة من السيرة النبوية والمرتبطة بالراهب بحيرا الذي تنبأ بمستقبل الرسول (ﷺ)، ويبدو أن هذه الرواية تسعى إلى وضع شخصية إدريس بن إدريس في مكانة دينية مميزة، باعتباره هو الأمير الذي سيعيد بناء هذه المدينة، والشخصية التي تنبأ بها الراهب، أكثر من كونها تخبرنا بمدينة ساف، ولم نستطع الوصول إلى مدينة في التاريخ القديم تحمل هذا الاسم، أو على الأقل تتحدث عن وجود مدينة في المنطقة، إلا أن ذلك لا ينفي وجودها.

**الرواية الثالثة**: هل يمكن لإدريس بن إدريس أن يعتبر تسمية المدينة التي اختطها مجرد أمر ثانوي، حتى يغامر ويترك الأمر للصدفة والحظ المرتبط بمرور أول شخص؟

**الرواية الرابعة**: إن العدد القليل للفرس الذين توافدوا على المدينة مقارنةً بباقي الفئات الاجتماعية، يجعل هذه الرواية مشكوك في أمرها.

وأمام انسداد أفق البحث بالاعتماد على النصوص المصدرية، توجه العديد من الباحثين إلى الدراسة اللغوية اللسنية، فوضع احتمال نسبة الكلمة للغة غير اللغة العربية، وبما أن العناصر التي كانت تقطن في المنطقة قبل الشروع في البناء، وبعده أغلبها أمازيغية، فكانت معظم الاجتهادات تصب في هذا الصدد، وهكذا قدم الباحث محمد شفيق احتمال اشتقاق كلمة "فاس" من كلمة "أسيف" التي تعني النهر باللغة الأمازيغية، وهي عامة الاستعمال، وفي بعض الأحيان تنطق سيف في الزناتية، جمعها (إسَّافَن) بتضعيف الفاء وتصغيرها (تاسيفت وتانسيفت)(٤٨)، إن هذه الفرضية تأخذ مبرراتها من وجود النهر الكبير وسط فاس، فهل بالفعل كلمة فاس مشتقة من أسيف ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف تحولت هذه الكلمة؟

أورد محمد حمام اقتراحًا آخر، فاعتبر اشتقاق الاسم من جذر (فس) الذي تكونت منه كلمتا إفْسَ، وتافوست، فالأولى تعني الانفتاح فيقال إفْسَ أوُجَدِّيكَ أي انفتح الزهر وأينع، أما تافْسُوتْ فهو فصل الربيع الذي تتفتح فيه الأزهار، فاس تتميز بالانبساط والانفتاح، وبذلك تكثر الأزهار.

اقتراح آخر من قبل الباحث نفسه، وهي كلمة (أفاسي) التي تعني الأيمن، أي المدينة الأولى (عدوة الأندلس) التي بُنيت على الضفة اليمنى للنهر الذي يحمل الاسم نفسه، علمًا بأن الزناتيين كانوا ولا يزالون يسقطون ألف البداية في الأسماء الأمازيغية. وربما بمرور الوقت كذلك لم تعد تنطق الياء مكسورة وتم الاحتفاظ بكلمة فاس مجردة من ألف البداية وياء النهاية.(٤٩)

إن عمل الباحثين هذا ركز على البحث على كلمات أمازيغية مشتقة من الأحرف المكونة لمدينة "فاس" أي الفاء والألف والسين، وهذا الطريق الذي سلكه الباحثون كان بعدما عجزوا عن العثور على كلمة متطابقة تماما مع اسم المدينة، وإذا بحثنا في القاموس اللغوي الأمازيغي يمكن أن نجد احتمالات أخرى غير كلمة أسيف وفس وأفاسي، وهذه الاحتمالات الواردة في الجدول أسفله يمكن أن تطرح فرضيات جديدة، وقد يجد الباحث في هذه القضية علاقة محتملة بين جل هذه المصطلحات من جهة ومدينة فاس من جهة ثانية، خاصة أن هذه المدينة كانت عاصمة سياسية وثقافية واقتصادية وغيرها، وهذا يجعل سهولة ربط وصف للمدينة بدلالة كلمة أمازيغية معينة، وهنا نطرح بعض النماذج:

| الكلمة الأمازيغية | ترجمتها بالعربية | علاقتها المحتملة بالمكان المدروس |
|---|---|---|
| **امسانف**(٥٠) | محايد | |
| **أسيليف**(٥١) | الحركة | يحتمل أن تكون المدينة قد شهدت حركية اقتصادية كبيرة مما جعل هذه الصفة تنطبق عليها، لتحرف الكلمة فيما بعد إلى فاس. |
| **إفوس**(٥٢) | الجنوب | هل يمكن أن تكون المنطقة قد حملت هذا الاسم؟ والذي يحتمل أنه أطلق من قبل مجتمعات كانت موجودة في شمالها، ثم عرف تحولا من إفوس إلى فوس ومنها إلى فاس. |

| الكلمة الأمازيغية | ترجمتها بالعربية | علاقتها المحتملة بالمكان المدروس |
|---|---|---|
| تافسوت(٥٣) | فصل الربيع | |
| آفلس(٥٤) | الإيمان | هل هناك علاقة بين عدد الأولياء الكبير، الذين اتصفوا بإيمانهم، واسم مدينة فاس؟ |
| أفارس(٥٥) | الإنتاج، ويقال مثلا: أفارس نتكرزا أي الإنتاج الفلاحي. | أشارت المصادر التاريخية(٥٦) إلى وفرة الإنتاج الفلاحي بهذه المدينة وأحوازها، فهل لهذا الأمر علاقة باسمها. |
| افس(٥٧) | صفق | |
| تافلست(٥٨) | الثقة | |
| تاسفسيت(٥٩) | الفولاذ | |
| أفتاس(٦٠) | الميناء | هل كان نهر فاس يضم ميناء؟ |
| أفوس/إفاسن(٦١) | اليد/الأيادي | |
| اسوفسن(٦٢) | الريف | |
| تافلاست(٦٣) | الأمان | |
| أسياف(٦٤) | الجزاء | |
| تاسافوت(٦٥) | مشعل | |
| تافوناست(٦٦) | البقرة | |
| أسف/ وسفان(٦٧) | اليوم/ الأيام | |

إن الملاحظة الأولية من خلال هذا النموذج هي كثرة الاحتمالات والفرضيات التي يمكن أن يقع فيها الباحث في هذه القضية، خاصةً أمام غياب كلمة فاس بهذا النطق بالمعجم الأمازيغي، وعدم تأكيد وتوحيد الرؤى المصدرية حول دلالة اسم فاس، وكان الهدف الأساسي من وراء وضع هذا الجدول هو إثارة انتباه الباحثين إلى احتمالات لغوية جديدة، يمكن أن يكون له ارتباط باسم "فاس"، وإذا صدق احتمال اشتقاق الكلمة من اللغة الأمازيغية، فإن مسألة التحريف التي ترافق نقل اسم العلم من لغته الأصلية إلى لغة أخرى تبدو واضحة، وكان هذا المشكل سببًا في وضع هيئة الأمم المتحدة لدليل من أجل توحيد كتابة الأسماء.(٦٨)

وكما ذكرنا سابقًا يعجز المعجم العربي والأمازيغي عن مدنا بكلمة "فاس"، مما يفرض علينا اختيار طريق لغوي آخر، وبما أن الحضارة الرومانية قد مرت من المغرب، واستقرت في مدينة وليلي، التي كانت غير بعيدة عن موضع "فاس"، فإن احتمال نسبة هذه الكلمة للمعجم اللاتيني يبقى واردا، فماهي الإمكانيات التي يمكن أن يوفرها هذا المعجم؟

بالعودة إلى المعجم اللاتيني الفرنسي الصادر سنة ١٩٣٧، نجد كلمة لها نفس نطق كلمة فاس، (Fās) والتي ترجمت بالحق الإلهي،(٦٩) وهناك مَنْ يترجمها بالحق فقط، وهذا يحيلنا على حقوق المواطنة التي كانت تمنحها السلطات الرومانية لبعض سكان المستعمرات، سواء في المدن أو البادية، وبذلك يحتمل أن المنطقة كانت تضم تجمعًا سكانيًا إما عبارة عن قرية أو مدينة، وخضع أهلها إلى السلطة الرومانية، التي أعطت السكان حق المواطنة، على حساب مناطق مجاورة أخرى، فاشتهرت المنطقة باسم (Fās)، وجاء الأدارسة فيما بعد ليحتفظوا بالاسم نفسه، وربما تجد هذه الفرضية ما يؤيدها في المصادر، خاصةً ما ورد عند ابن أبي زرع، بكون المنطقة كانت تضم مدينة قديمة تسمى ب"ساف".(٧٠)

## خاتمة

انطلاقًا مما سبق؛ يمكن أن نعيد ترتيب الأحداث التي عرفتها المنطقة قبل وبعد بناء المدينة، والمتمثلة في وجود تجمع سكاني خضع للنفوذ الروماني واستفاد من حقوق المواطنة –إذا رجعنا انتماء كلمة فاس للمعجم اللغوي اللاتيني- فسميت المنطقة ب"Fās"، وجاء فيما بعد إدريس بن إدريس، وأرسل عمير بن مصعب لاختيار موضع لبناء المدينة، فمر من منطقة "عين عمير" الحالية، وترك بصمة تدل على مروره، واختار موضعًا للمدينة التي يحتمل أنها كانت تضم منشآت عمرانية، ولم تكن فارغة تمامًا، خاصةً أن قبيلتي زواغة وبني يزغتن فاوضتا إدريس في بيع أراضيهما -إن صدقت الرواية- وهذا دليل على وجود تجمع سكاني قبل البناء، بل أكثر من ذلك لا زالت الطبونيمية حالية تشهد على تواجد عناصر في المكان قبل بناء المدينة، ومنها عناصر مجوسية، حيث ضمت الشيبوبة بيت نارهم،(٧١) وقام هذا الأمير ببناء مدينة جديدة، فانطلق من الضفة اليمنى للوادي، إلا أنه وجد مشكلة قلة المياه وصعوبة انتقال مياه النهر إلى هذا المكان، فاحتفظ به ونقل مركز قراراته إلى الضفة اليسرى.

## الهَوامِشُ:

(١) أو على الأقل عدم وصول المصادر التاريخية التي كُتبت في فترة التأسيس، أو في مرحلة قريبة منها.

(٢) يقصد **بالأماكنية** "العلم الذي يدرس أسماء وأعلام الأماكن ذات العلاقة بالإنسان: سكانًا وارتيادًا بغية الوصول إلى فهم علاقة الاسم بالمسمى وتفسيرها، وإدراك الصلات التي يقيمها الانسان مع هذه الأماكن"، من خلال البحث عن معانيها وتفسيراتها، وضبط تحولاتها، وتحديد قيمتها التراثية والفكرية، وملامح التغير في أنساقها اللغوية، والطبونيميا هو مصطلح يوناني، مشتق من كلمتين (topos) وتعني مكان، و (onoma) وتعني الاسم، وبذلك فهو علم يعنى بدراسة أسماء الأماكن، من حيث أقدميتها أو تاريخها، دلالاتها اللغوية والتاريخية، أصولها، تطوراتها.. وتندرج الطبونيميا ضمن فرع الأونوماستيك، الذي يهتم بدراسة أسماء الأعلام بصفة عامة، وينقسم إلى قسمين، الطبونيميا، والأنتروبونيميا، هذا الأخير يهتم بدراسة الأعلام البشرية وتحديد دلالاتها وأصولها.. وقد ذهب مجموعة من الباحثين المغاربة إلى استعمال مصطلح الأنوماستيك للدلالة على حقل علم الأماكنية، باعتبار أن هذا التخصص العلمي قد تضخم، وأن جل الدارسين بشمال إفريقيا عامة وبالمغرب خاصة استعملوا هذا المصطلح للدلالة على الأعلام الجغرافية، وهذا أمر يتعارض مع الأصول اللغوية للكلمات الإغريقية، فكلمة (Onomastique) مشتقة من الاسم الاغريقي (Onoma) والتي تعني الاسم، وبذلك فهو علم دراسة الأسماء بصفة عامة، وفي هذا الصدد يستعمل أحد الباحثين الأوائل الذين درسوا أماكنية فرنسا كلمة (toponomastique)، وذلك لتخصيص علم أسماء الأماكن عوض (ONOMASTIQUE)، وقد عرفها المعجم (larousse) بكونها فرع من فروع اللسانيات، الذي يدرس أسماء الأعلام، ويؤكد أيضًا أنه ينقسم إلى قسمين، قسم الطبونيميا الخاص بدراسة أسماء الأماكن، والأنتروبونيميا الخاص بدراسة أسماء الأعلام البشرية.(٢) وهذا الأمر يفرض على الباحث الالتزام بالمصطلحات حسب أصولها اللغوية، وإذا كان معظم الباحثين في التاريخ القديم قد استعملوا هذا المصطلح، فإن الباحثين في باقي الحقب التاريخية يستعملون مصطلح الطبونيما.(٢) وللإشارة فإن معظم الدراسات الفرنسية الحديثة تستنتج التعريف نفسه، وتحتفظ بالمفهوم الأصلي لكلمة (Onomastique)، والتي تتفرع عنها كلمة (Toponymie).

وتسعى "الطبونيميا" أو علم "الأماكنية" إلى الإجابة على مجموعة من الأسئلة من قبيل: كيف ظهرت أسماء الأعلام المكانية؟ وما المقاييس الثقافية التي تحكمت في اختيار اسم دون آخر؟ ما طبيعة التطورات التي شهدتها؟ وما المعايير التي تؤدي إلى هيمنة اسم على حساب الآخر؟ ما الدلالات اللغوية والتاريخية الماضية والآنية للعلم المكاني؟ وإلى أي حد تمكننا هذه الدلالات من وضع نسق متكامل لأعلام مكانية موحدة حسب الإطار الزمني أو المجالي أو السياسي..؟ ما التطورات التي شهدتها لغة المتن الأماكني؟ وهل يمكننا من خلال رصد هذه التطورات تلمس خصائص اللغة المتداولة في فترة زمنية محددة؟ ما الخصائص الثقافية للمجتمع المدروس انطلاقا من الدراسة التصنيفية لهذه الأعلام المكانية؟

انظر في هذا الصدد: عبد الإله بلمليح، **محاضرات في مجزوءة الطبونيما**، سلك الماستر، ٠٥-٠١-٢٠٠٩، غير مطبوعة.- محمد البركة وآخرون، **الطبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية، مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٢، ص١٤.- عبد العزيز أكرير، **المقاربة الأونوماستية مالها وما عليها، أعلام وطبونيميا المغرب القديم**، تنسيق عبد العزيز أكرير، كلية الآداب، بني ملال، ٢٠١٢، ص١٧-٣٤، ص١٨.

Longnon AUGUSTE, Les noms de lieu de la France, Leur origine, leurs signification, leurs transformations, Paris, 1920-1929, p16.- http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/onomastique/56059

انظر أيضًا: الدراسة التي قام بها الباحث الفرنسي (Xavier GOUVERT) في إطار عمل الدكتوراه حول موضوع إشكالات ومناهج العمل الطبونيمي.

Xavier GOUVERT, Problèmes et méthodes en toponymie Française. Essais de linguistique historique sur les noms de lieux du roannais, these pour obtenir le grade de docteur, Universite Paris, 2008, p32.

(٣) أبي القاسم بن حوقل النصيبي (ق٤هـ١٠م)، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص٨٩.

(٤) أبو عبيد الله البكري (ت٤٨٧هـ)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من **كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٨٥٧، ص١٢٣.

(٥) أبو عبيد الله البكري، م.س ، ١١٥.

(٦) مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، د.ت، ص١٨٠.

(٧) لم يصل إلينا كتاب ابن سعيد الخاص بالمغرب، والذي هو جزء من كتاب "المُغرب في حلى المغرب"، انظر:- تقديم شوقي ضيف لكتاب **المغرب في حلى المغرب**، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥، ص ح.- محمد عبد القادر خريسات وآخرون، **في تحقيق كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري، ج٤، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠١، الهامش ١، ص١٠٧.

(٨) أحمد بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨، ص١١٨.

(٩) نقلاً عن: أبي العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ١٤جزء، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥، ج٥، صص١٥٣ - ١٥٧.

(١٠) محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، ١٩٧٤.

(١١) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ط١، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٣٥.

(١٢) المصدر نفسه والصفحة.

(١٣) نفسه، ص ٣٦.

(١٤) نفسه، ص ٣٧.

(١٥) المصدر نفسه والصفحة.

(١٦) نفسه، ص ٣٩.

(١٧) الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢١٨.

(١٨) نفسه، ص ٢٢٠.

(١٩) أحمد ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣-١٩٧٤، ج١، ص ٣٩.

(٢٠) محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمَنْ أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ٣ أجزاء، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ج١، ص ٧٥.

(٢١) أي الرواية التي تؤكد تشييد المدينة من قبل ادريس بن ادريس.

(٢٢) مجموعة من المؤلفين، فضاء الاجتماعيات، كتاب التلميذ، السنة الثانية من التعليم الثانوي الإعدادي، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة.

(٢٣) انظر في هذا الصدد رأي: محمد حجي، **قضايا في سيرة ادريس الأزهر وتأسيس مدينة فاس**، مساهمة ضمن متنوعات محمد حجي، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٧٧-١٨٤. وقد أثار هذا الباحث إشكاليتين للنقاش في مساهمته هاته، الأولى تساءلت عن كيفية تعلم إدريس بن إدريس للعربية بالرغم من أنه بربري المولد والمنشأ، والإشكالية الثانية وهي التي تهمنا، انتقد فيها رأي بروفنسال، وأشار أنه لابأس في إنشاء مدينتين من قبل أمير واحد خاصةً وأن هذا الأمير توافدت عليه العديد من الأسر من القيروان والأندلس بوليلي فكان رأيه وضع كل فريق في جهة، بالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نفسر هذا التقسيم بطبيعة موقع مدينة فاس الذي يفصل بين العدوتين النهر الأمر الذي يحتم بناء مدينتين.

(24) Gaillard HENRI, UNE VILLE DE L'ISLAM : FÈS. Esquisse historique et sociale, J. ANDRÉ, ÉDITEUR, Paris, 1905, p4.

تم تحميل الكتاب من الموقع الإلكتروني التالي:

http://www.archive.org/stream/unevilledelisla01gailgoog/unevilledelisla01gailgoog_djvu.txt

بالإضافة إلى (GAUTIER) الذي سار مع الرواية الرسمية، انظر رأي بروفنصال في هذه المساهمة:

- E.Levi - PROVENCAL, les historiens des Chorfa ,suivi de la fondation de Fès, Maisonneuve Larose, Paris, 2001,p8.

(25) E.LEVI - PROVENCAL,ibed ,p9.

(٢٦) سعيد النجار وأحمد اليابوري في ترجمتهما لمقال ليفي بروفنسال، **تأسيس مدينة فاس**، تعريب سعيد النجار وأحمد اليابوري، مجلة البحث العلمي، العدد ٣١، السنة ١٦، الرباط، ذو الحجة ١٤٠٠/أكتوبر ١٩٨٠، ص ١٥٧ - ١٨٤، هامش ٢٠ ص١٦٥.

(27) E.LEVI - PROVENCAL, op.cit ,p12.

(28) op.cit,p13.

(29) op.cit ,p16.

(٣٠) روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٧.

(٣١) روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية. مرجع سابق، ص٦١.

(٣٢) سعيد النجار وأحمد اليابوري في ترجمتهما لمقال ليفي بروفنسال، **تأسيس مدينة فاس**، تعريب سعيد النجار وأحمد اليابوري، مجلة البحث العلمي، العدد ٣١، السنة ١٦، الرباط، ذو الحجة ١٤٠٠/أكتوبر ١٩٨٠، ص ١٥٧ - ١٨٤، هامش ٢٠ ص١٦٥.

(٣٣) انظر ترجمته: عبد الكبير الكتاني، **زهر الآس في بيوتات فاس**، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، جزآن، ط١، مطبعة منشورات النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ج٢، ص ٢١٨-٢٢٠.

(٣٤) الجزنائي، **جنى زهرة الآس**، مصدر سابق، ص١٨. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، م.س، ص٢٩.

(٣٥) الجزنائي، المصدر السابق، ص١٨.

(٣٦) نفسه.

(٣٧) عبد الرحمان ملولي ادريسي، **النسق المائي بمدينة فاس إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي**، دراسة تاريخية ميدانية وثائقية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف د. مولاي هاشم العلوي القاسمي، ثلاثة أجزاء، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية ١٩٩٧-١٩٩٨، ص٩١.

(٣٨) أحمد بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. مصدر سابق، ص١١٨.

(٣٩) **القرطاس**، ص ٥٣ - ٥٤.

(٤٠) نفسه، ص ٥٤.

(٤١) علي بن أبي زرع، م.س، ص ٤٦.

(٤٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٤٣) نفسه، ص ٥٤.

(٤٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٤٥) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا. مصدر سابق، ص٢١٨.

(٤٦) **القرطاس**، م.س، ص ٥٣.

(٤٧) رفض كل من الجزنائي وابن القاضي أمر تسمية فاس إلى هذه المسألة، بحكم أن إدريس لا يجهل تحريم مثل ذلك الفأس واستعماله، انظر: الجزنائي، م.س، ص ٢٤، ابن القاضي، م.س، ج١، ص ٣٦.

(٤٨) محمد شفيق، "**في أن أسماء الأماكن في المغرب جلها مازيغية**". مجلة البحث العلمي، السنة ١٤، ع٢٧، يوليو ١٩٧٧، ص٣٣٣.

(٤٩) محمد حمام، "**بعض مظاهر الحضور الأمازيغي في المدينة المغربية: نموذج مدينة فاس خلال العصر الوسيط**"، الندوة الوطنية بفاس ١٠ - ١١ - ١٢مارس ٢٠٠٥، سلسلة مؤتمرات وندوات -٢-، كلية الآداب، فاس، ٢٠٠٥، ص ٤٤ - ٥٧.

(٥٠) الأرضي مبارك، **المعجم الأمازيغي العربي الوظيفي**، عربي أمازيغي، ط١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص١٢.

(٥١) **الأرضي مبارك**، م.س، ص١٦.

(٥٢) نفسه، ص٢٤.

(٥٣) نفسه، ص٢٧.

(٥٤) نفسه، ص٣٧.

(٥٥) نفسه، ص١١٨.

(٥٦) **القرطاس**، ط١، م.س، ص٤٣-٤٤.

(٥٧) **الأرضي مبارك**، م.س، ص١٠٤.

(٥٨) نفسه، ص١١٥.

(٥٩) نفسه، ص١٢٥.

(٦٠) نفسه، ص١٣٤.

(٦١) نفسه، ص١٤٨.

(٦٢) نفسه، ص١٥٠.

(٦٣) نفسه، ص١٧٧.

(٦٤) نفسه، ص١٨٠.

(٦٥) نفسه، ص١٨٤.

(٦٦) نفسه، ص٢٠٠.

(٦٧) نفسه، ص٢٠٦.

(٦٨) **دليل توحيد الأسماء الجغرافية على الصعيد الوطني**، إعداد فريق الخبراء المعني بالأسماء الجغرافية التابع للأمم المتحدة، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، الشعبة الإحصائية، منشورات الأمم المتحدة، نيويورك، ٢٠٠٧.

(69) F. GAFFIOT, Dictionnaire Latin Français, Hachette, paris, 1934, p654.

(٧٠) علي بن أبي زرع، م.س، ص ٤٦.

(٧١) ابن أبي زرع، **القرطاس**، م.س، ص٣٩.

# المنستير
# رائدة الرباطات في العصر الوسيط

**د. إكرام شقرون**



أستاذة باحثة في تاريخ الإسلام وحضارته
وجدة – المملكة المغربية

**مُلَخَّصْ**

احتلّت مدينة المنستير التونسية مركزًا مرموقًا في إشعاع الحضارة الإسلامية، فكانت أعظم معقل للدفاع عن السواحل التونسية، وأداء فريضة الجهاد ضدّ الغزاة البيزنطيين، ومهوى أفئدة العلماء والفقهاء والزهّاد الذين قصدوها من كلّ حدب وصوب، هذا إلى جانب الأدوار العمرانية والحضارية التي اضطلعت بها، والتي جاءت في سياق يرتبط بخصوصياتها المقدسة التي لازمتها في العصر الوسيط، والتي جعلت منها مركزًا روحيًا مُشعًا وقلعة من قلاع السُنّة المالكية.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ١٠ سبتمبر ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٨ ديسمبر ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

الرباط الإسلامي، الحضارة الإسلامية، مؤسسات الحرب، الغرب الإسلامي، الآثار الإسلامية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

إكرام شقرون، "المنستير: رائدة الرباطات في العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص٣٤ - ٤٢ .

## مُقَدِّمَةُ

كان الرباط في أرض إفريقية مؤسسة من مؤسسات الحرب بغرض الدفاع عن دار الإسلام، وكذا من القنوات التي انتشرت بها العلوم والمعارف، فاستُخدم كمكان للتدريس، وذلك لتمكين عقيدة أهل السنّة والجماعة في نفوس المرابطين. ولقد ارتبطت مدينة المنستير بنشاط المرابطة الذي عرف ازدهارًا منقطع النظير في العصر الأغلبي، حيث أضحت تضم ما لا يقل عن خمس أربطة متجاورة هي: (القصر الكبير، وقصر سيدي ذويب، وقصر السيدة، وقصر ابن الجعد، وقصر سقانص)، فغدت بذلك مجمع أربطة على غاية من القداسة لأهل إفريقية، ومركز إشعاع حضاري يؤمها المرابطون من مختلف الأصقاع يدرسون العلم احتسابا للّه تعالى وللجهاد في سبيله. لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نسلّط الضوء على مصطلح المنستير، وأهم التطورات التاريخية التي عرفتها هذه المدينة، وكذا أهم الخصائص المعمارية للرباطات التي اشتهرت بها عبر التاريخ.

## أولاً: مصطلح "منستير"

**المنستير:** لفظة شائعة الاستعمال في اللغة الإغريقية (Monasterion) ثم اللاتينية (Monasterium)، كانت تطلق على المؤسسة النصرانية التي يؤمها الرهبان، والتي تسمى بالعربية: الدير[١]، قال الشهاب الخفاجي: المنستير «لفظ رومي معناه عندهم خانقاه للرهبان على الطريق ينزل فيه أبناء السبيل»[٢]، وهو ما يؤيده مخلوف الذي يذهب إلى أن «بالقرب من القصر -(قصر المنستير)- شرقيه جزيرة منحوت بها بيوت كانت قبل الفتح الإسلامي مقر الرهبان والمنقطعين للعبادة فيه، وبالقرب منه بالقراعية داموس منحوت في جبل على شاطئ البحر يعرف الآن بالكحيلة كان أيضًا مقرًا للرهبان، وقيل كان مقرًا في المصيف لبعض أمراء الرومان».[٣] لذلك فنحن لا نستبعد وجود دير مسيحي قديم بالمنستير، لكنه لم يوجد بالضرورة في موضع قصر الرباط، وما من شك أن المسلمين لم يجدوا من هذا الدير شيئًا ذا بال غير الاسم الذي أعطي للموقع، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار تدهور الحياة العمرانية في أواخر العهد البيزنطي[٤].

وقد أثبتت الأسبار التي قام بها المهندس الفرنسي ليزين في أسس الرباط، أن المعلم أقيم على أرض بكر عكس نظيره رباط سوسة.[٥] ويذهب حسن حسني عبد الوهاب إلى أن العرب أطلقوا لفظة «منستير» على الوحدة المعمارية المشتركة بين الحصن والدّير التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي وقبل استعمال كلمة «رباط» في مدلولها العربي الخاص، وأنهم أخذوها عن البيزنطيين الذين كانت لهم منشآت كبيرة على النحو المشترك بين الأديرة والحصون الحربية، وهو لذلك لا يستبعد أن تكون لفظة «منستير» شائعة الاستعمال في المشرق العربي خاصة بسواحل سوريا وفلسطين.[٦] إلا أننا نجد أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على بعض المواضع في الغرب الإسلامي وخاصة بإفريقية. حيث يذكر ياقوت الحموي في هذا السياق أن اسم المنستير كان يطلق على:

- **المنستير**: وهو موضع بين المهدية وسوسة من أرض إفريقية، بينه وبين كلّ واحدة منهما مرحلة، وهو مَعْبدٌ يجتمع فيه الزُهّاد والمنقطعون للعبادة، وفيه عدة قصور مبنية (...)، وأهل إفريقية يحسنون مراعاة سكّانه بالبرّ ويُمدّونهم بالقوت والكفاية.[٧]

- **منستير عثمان**: موضع آخر بإفريقية، بيْنه وبيْن القيروان ستة مراحل، وبينه وبيْن باجة ثلاثة مراحل، وهو بلد فيه جامع وفنادق كثيرة وأسواق وحمّامات، وبئر لا تنزف، وقصر للأول مبني بالصخر كبير. وأهله قوم من قريش، ويقال إنّ أوّل من بناه الربيع بن سليمان عند دخوله إفريقية.[٨]

- **منستير الأندلس**: يقع في شرقها بين لقنت وقرطاجنة،[٩] ويرجع تاريخ تأسيسه إلى سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م) حسب نقيشة تذكارية محفوظة بالمتحف الأثري بمرسية تمّ العثور عليها سنة ١٨٩٧م، وقد أشرف على بنائه بعض النازحين من إفريقية ممّن كانوا في خدمة الدولة الأغلبية.[١٠] واستمرت الأبحاث وعمليات التنقيب حول هذا المعلم، حيث تمكن باحث الآثار (Rafael Azuar-Ruiz) من اكتشاف ما يصل إلى اثنين وعشرين مسجدًا صغيرًا مجمّعة في أعلى الكثبان على الساحل بجوار مدينة كواردمار (Guardamar) الساحلية، على الضفة اليمنى الجنوبية، عند مصب نهر شقورة (Ségura)، أطلق عليها اسم رباط الخلافة.[١١]

ولا يفوتنا في هذا الصدد الإشارة إلى ما ذهب إليه الباحث الإسباني (Mikel de Epalza) في إحدى دراساته من أن لفظ «المنستير» ليس اسم مكان من أصل يُوناني-لاتيني، بقدر ما هو اسم المؤسسة الإسلامية ذاتها التي انتشرت في الغرب الإسلامي انطلاقًا من منستير إفريقية. وما عبارة «رباط المنستير» سوى تجميع إعلامي لمصطلحين عربيين يعنيان حقيقة واحدة في عصور مختلفة: «المنستير» إلى حدود القرن الحادي عشر الميلادي، و«الرباط» انطلاقًا من القرن الحادي عشر الميلادي، واستند في ذلك إلى وجود «منستير شرق الأندلس».[١٢] وبالإضافة إلى هذه المواضع التي ذكرها ياقوت الحموي، نجد صاحب الاستبصار يذهب إلى أن «النصف الثاني من غابة قفصة يسقى من عين عظيمة خارج المدينة تسمى "عين المنستير"، وهي عين كبيرة معينة عذبة يخرج منها نهر كبير. وهذه العين من أحسن ما يرى من العيون، وهي في جانب النهر المسمى بوادي بايش».[١٣] كما أنه بالقرب من مدينة غار الملح التونسية توجد «عين المنستير» و«رأس المنستير» ما بين بلدتي سُونين ورفراف، وحسب الزركشي فإن هذه الأخيرة كان لها «محرس» (رباط).[١٤]

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الرباط الإسلامي ليس تقليدًا للمنستير (Monastère) عند النصارى كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين، باعتبار أن هذا الأخير كانت مهمته مقصورة على العبادة والنسك والانقطاع عن الناس، وهو بهذا نوع من دور انقطاع الرهبان، في حين ترتكز فكرة الرباط الإسلامي إلى أصل قرآني جهادي، باعتبار أن الرباط في الإسلام قاعدة حربية قوية لصد أعداء الله وقتالهم.[١٥] وهو ما أكده الدكتور العدوي بقوله: «عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة، وهي الأماكن التي انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سويا لخدمة مطالبهم مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل. ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك أشباه أولئك الرهبان المقيمين في الأديرة المسلحة في العمليات الحربية التي قامت بها الدولة البيزنطية».[١٦] في حين اجتذبت الرباطات البحرية الأتقياء المتحمسين الحريصين على الجهاد لحماية بيضة الإسلام ورد عادية المعتدين. بل إن أحد كبار المؤرخين الإسبان المحدثين أ.كاسترو ذهب إلى أنه «قبل ظهور النظم الديرية العسكرية لدى النصارى بقُرون، كان لدى المسلمين الرباطات التي كان يعتكف فيها الزهاد للعبادة والدفاع عن الحدود. وهكذا؛ فإننا نجد اليوم في كل من إسبانيا والبرتغال أماكن كثيرة تحمل اسم (Rabida, Rapita) وما احتفاظ الإسبان والبرتغاليين بأسماء هذه الأماكن سوى دليل على وجود رباطات إسلامية هناك كانت تحمل هذا الاسم من قبل».[١٧]

## ثانيًا مدينة المنستير عبر التاريخ

تُعَدّ مدينة المنستير واحدة من أهم المدن التونسية، تقع في الوسط الشرقي للبلاد على مشارف البحر الأبيض المتوسط، على بعد (160) كلم عن العاصمة تونس و(24) كلم عن مدينة سوسة. ومدينة المنستير الألفية تاريخها ثري بالأحداث، فقد كانت قبل الإسلام معقلاً من معاقل النصرانية الكبرى، شُيّدت على أنقاض المدينة القديمة رُوسْبينا: (Ruspina) المدينة الحالية أو هنشير تنّير، تلك المدينة التي نالت شهرة خارقة أيام الحملة التي شنّها الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر (Jules César) على منافسه Pompée، فاحتلت مكانة مرموقة، وأصبحت قاعدة عسكرية للإمبراطور الروماني.[١٨]

أما في العصر الإسلامي، فيذهب محمد صالح الصيادي إلى أنه عند قدوم عقبة بن نافع وإنشاء القيروان الحالية أصبحت المنستير محرسًا خارجيًا لها،[١٩] وفي سنة 180هـ قام القائد هرثمة بن أعين والي الخليفة العباسي هارون الرشيد على إفريقية ببناء القصر الكبر

بالمنستير،[٢٠] الذي أصبح بحكم شهرته مركز نشاط وجذب لكثير من العباد الصالحين والمجاهدين، وبذلك عرف نشاط المرابطة ازدهارًا منقطع النظير ابتداءً من القرن الثالث الهجري (العهد الأغلبي)، حيث دُعم هذا الرباط برباطات أخرى، فغدت مدينة المنستير مجمع أربطة على غاية من القداسة ومركزًا روحيًا مُشعًا يضم «محارس خمسة متقنة البناء معمورة بالصالحين»،[٢١] ناهيك أنها انفردت من دون حصون إفريقية برعاية الفاطميين، فأصبحت ملجأ لجموع من أهل السُنّة الفارين من الاضطهاد الفاطمي، وأخذ الناس يبتنون المنازل والأسواق بقرب القلاع، مما أدى إلى اتساع رقعة الأحياء الجديدة التي أشعرت بضرورة حمايتها وراء سور، فبُني السور في ذلك العهد أو بعده بقليل وسميت المجموعة الجديدة «البلد».[٢٢]

وقد سلمت مدينة المنستير من الزحف الهلالي، وحظيت باهتمام الزيريين الذين رأوا في رعايتها خير ما يثبت لأهل إفريقية تمسكهم بالمذهب المالكي، فتعدّدت بها المساجد كالجامع الكبير قبلي الرباط ومسجد الإمام المازري غربه، بالإضافة إلى مسجد السيدة أم ملال، ومسجد التوبة الذي يعود إلى القرن الخامس الهجري،[٢٣] وبذلك أصبحت المنستير مزارًا دينيًا يؤمه الناس من كلّ ناحية، ونالت من القداسة ما جعل الناس يرغبون أن تكون معبرهم إلى الآخرة، حيث يذكر الإدريسي أنه «بهذا المكان أعنى المنستير، يدفن أهل المهدية موتاهم، يحملونهم في الزوارق إليها فيدفنونهم بها، ثم يعودون إلى بلدهم»،[٢٤] لذا تعتبر المقبرة البحرية بالمنستير متحفًا كبيرًا لتاريخ مجتمع إفريقية، بما خلفته من نقائش يعود قسمها الأكبر إلى العهد الزيري، ولعلّ من أجل دفناء هذه المقبرة الإمام المازري (ت.536هـ) حبر من أحبار العرب في صقلية، والذي صار رمزًا للمنستير وأهلها.[٢٥]

وبعد الغزو النورماندي والفتح الموحدي، خسرت مدينة المنستير مكانتها المميزة بسقوط العاصمتين المجاورتين لها القيروان والمهدية، وبانتقال مركز الثقل السياسي إلى العاصمة الجديدة تونس،[٢٦] فتحولت إلى مدينة كلاسيكية استعادت إشعاعها تحت الحكم الحفصي، حيث نجد أثارًا لتحصينات واسعة النطاق تعود إلى القرن (7هـ/ 13م)، وذلك من خلال بابيْن أُعدّا في السور الداخلي هما: باب السور وباب الدرب، هذا الأخير يرجع تاريخه إلى سنة 658هـ، حيث بُني لا محالة في نفس الوقت الذي بُني الجامع المجاور له.[٢٧] وبعد فترة من الاستقرار خلال العهد الحفصي امتدت إلى حدود القرن (10هـ/ ١٦م) تمكن الجيش الإسباني سنة 1550م من احتلال مدينة المنستير التي استعادت دورها الجهادي ضد الإسبان الذين حاولوا تنصير البلاد، وبعد خروجهم منها، استقر بها العثمانيون الذين أحكموا تحصينها واهتموا بتوسيع أرباضها وسورها، مما أدى إلى تواصل نموها العمراني».[٢٨]

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي شهدت مدينة المنستير حيوية اقتصادية بفضل مينائها، ولعبت دورًا بارزًا في التجارة الدولية، إلا أنه بعد ثورة الساحل سنة ١٨٥٤م التي اقترنت باسم زرّوق ومجاعة ١٨٦٧م دخلت المدينة وأهلها في دوامة الفقر والاضطهاد،[٢٩] ثم كان أمر الحماية الفرنسية سنة١٨٨١م، فأهملت المنستير التي قُسّمت إلى عدة قيادات، وتمّ عزلها اقتصاديًا وهدم سورها سنة ١٩٠٣م على يد سلطات الحماية، وبذلك دخلت المدينة في طور من الركود إلى أن تمّ استقلال تونس سنة ١٩٥٦م على يد واحد من أبناء المنستير، هو الحبيب بورقيبة الذي حرّر البلاد من قيود الاستعمار الفرنسي، فاستعادت المنستير بعد الاستقلال دورها الريادي وتواصلت بها مظاهر الازدهار الاقتصادي والنمو العمراني.[٣٠]

## ثالثا: أشهر رباطات مدينة المنستير

لقد ارتبطت المنستير بنشاط المرابطة الذي عرف ازدهارًا منقطع النظير في القرن الثالث الهجري، حيث أصبحت تضم ما لا يقل عن خمس أربطة متجاورة، هي:

- **القصر الكبير:** (صورة رقم١ و٢) الذي يُعَدّ من من أقدم المعالم المؤرخة في إفريقية الإسلامية ويمثل النموذج الأول المدروس لدور إقامة المرابطين التي خُطّطت أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد.[٣١] أقامهُ القائد هرثمة بن أعين بالقرب من سوسة ليرابط به الجند والمدافعون عن البلاد لردّ الأعداء عن الثغر في حدود سنة (١٨٠هـ/ ٧٩٦م) حسب نقيشة كوفية كانت مثبتة في مسجد القصر،[٣٢] وذلك بعد استشارته للبهلول بن راشد عابد زمانه، مما يدل على المكانة التي حظي بها العلماء والزهَّاد لدى هرثمة باعتبارهم يمثلون بحق صدى لاتجاهات الرأي العام في ولاية إفريقية وحواضرها، حيث تذكر كتب الطبقات أنه أرسل إلى البهلول بن راشد نائبه زكرياء بن قادم ليأخذ رأيه فيما اعتزم تنفيذه في ساحل المنستير، وليشرح له جهود هذا القائد في مجال تحصين ثغور دار الإسلام، فاستحسن البهلول المشروع وحثّ عليه وفضّله عمّا سواه بقوله لمخاطبه: «ما ذكرت شيئا إلاّ والمنستير أفضل منه».[٣٣]

وفحوى ردّ الزاهد القيرواني البهلول بن راشد هو إشارة استحسان من بعض وجوه القوم وفضلائهم لبعث مشروع عام النفع كهذا في المنستير، تحيا بمقتضاه فريضة الجهاد في سبيل الله، بعد انصراف الجند عن تنشيطها ضدّ قلاع الروم. كما أنّ اختيار منطقة الساحل لزرع منشأة دفاعية في عمق ولاية إفريقية، وهي القصر الكبير، اختيار موفق، لم يخل من مغزى، فالأخطار من هذه الناحية كانت محققة وملموسة، ولطالما تعرضت المنطقة أثناء مسيرة الفتح الإسلامي، وحتى بعد استقراره لغارات بيزنطية مفاجئة خاصة من صقلية التي ظفرت بمركز ممتاز في استراتيجية الدفاع والهجوم.[٣٤] وكان المشرف على بناء رباط المنستير زكرياء بن قادم الذي يعدّ من خواصّ هرثمة بن أعين الذي نفذ في ساحل إفريقية نفس السياسة التي جرى اختيارها في أكثر من منطقة ثغرية ببلاد

المشرق، وأضاف بذلك إلى إفريقية قاعدة بحرية جديدة تسندها في مهامّها الدفاعية.[٣٥]

وقد ذكر لنا البكري وصفا لهذا الرباط فقال: «وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين الفارسية ومواجل الماء، وهو حصن عالي البناء، متقن العمل، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر. وقال محمد بن يوسف: هو قصر كبير عال داخله ربض واسع، وفي وسط الربض حصن ثان كبير، كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض، وفي القبلة منه صحن فسيح، فيه قباب عالية متقنة البناء، تنزل حولها النساء المرابطات تعرف بقباب جامع، وبها جامع متقن البناء وهو آزاج معقودة كلها وأقباء لا خشب فيها، ولها حمامات كثيرة».[٣٦]

ومع مرور الزمن أصبح رباط المنستير أشبه بمدينة مسوّرة تحوي قصورًا ضخمة ذات طبقات تشمل العديد من الغرف، مما يدل على أن هذا الرباط قد أدخلت عليه عبر التاريخ عدة تعديلات عقدت تخطيطه الأصلي وغيّرت معالمه، ومع ذلك فإنه يمكننا التعرف على العناصر الأساسية لهذا المعلم. إذ يتكون مخطط هذا الرباط الذي يشبه في تصميمه التحصينات البيزنطية من حصن صغير مربع تقريبا أضلاعه (٣٢.٨٠م×٣٢.٤٠م)، تقوم في زواياه أبراج نصف دائرية، عدَا بُرج الزاوية الشرقية فهو مربع تقريبا، وترتكز عليه ابتداء من مستوى سطح القصر منارة أسطوانية يتناقص غلظها في الارتفاع، قطرها عند القاعدة (٦.٣٧م) وينتهي عند الشرفات إلى (٤.٥٨م)، وارتفاعها (١٦.٣٥م) (عدا ارتفاع القاعدة المربعة تحتها)، وقد قُسّم سطحها الخارجي بثلاثة أفاريز بارزة وبسيطة. ويُصعد إليها من مدخل يفتح على سطح مسجد القصر يؤدّي إلى سلّم دائري (في شكل حلزوني) يشتمل على (٨٩) مرقاة، وتتسرب إليها الإضاءة من كوىً صغيرة موزعة على ارتفاعات متباعدة.[٣٧] وقد اتُّخذت هذه المنارة التي تشرف على خليج المنستير كبرج لمراقبة تحركات العدوّ، فكانت الإشارات الضوئية تنبعث ليلا منها ومن عدة مواقع للحراسة، وخلال النهار ينطلق الحمام الزاجل منها محملا بالرسائل نحو القلاع والحصون الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن منارة قصر الرباط بالمنستير أقيمت سنة (١٨٠هـ/٧٩٦م)، وتميزت بشكلها الأسطواني الذي يدفعنا إلى إثارة أكثر من تساؤل، ذلك أن إفريقية عرفت قبلها الصومعة المربعة الشامية الطراز التي قدمت مع الولاة الأمويين من دمشق، ومازال أقدم نماذجها يأخذ مكانه في المسجد الجامع بالقيروان، وقد استمر استخدام مسقط هذه المنارة المربع في سائر بلاد المغرب والأندلس حتى أصبح من خصائص مدرسة العمارة في الغرب الإسلامي. حيث يذهب إبراهيم شبوح في هذا السياق إلى أنه «إذا كان طراز الصومعة المربعة في إفريقية والمغرب اختص بالمساجد، فإن الطراز الدائري اختص–ابتداء من قصر هرثمة- بقصور المرابطة، مرتبطاً بوظيفة عسكرية واضحة».[٣٨] وعليه؛ فإن هذا العنصر المعماري يعتبر عراقيا في إطاره الجغرافي الإسلامي، وربما كان ثمرة علاقة قديمة بأبراج الإشارات البحرية التي وصلتنا بعض نماذجها «الأسطوانية» من العصر الروماني.[٣٩] وهو ما أكده أيضا مراد الرماح الذي أشار إلى تأثيرات بلاد الرافدين في عمارة منارة رباط المنستير.[٤٠]

ويتميز هذا الرباط كذلك بمدخل بارز قائم الزوايا يقع في محور الضلع الجنوبي الشرقي (القبلي)، ويفتح على دهليز مستقيم يؤدي إلى الصحن.[٤١] وتزين كُنّة هذا المدخل خمسة مشاك مسطحة منتهية بأقواس نصف دائرية يعتليها إفريز من الأشكال النباتية، وهو تنسيق زخرفي يميز الأسلوب الفاطمي-الزيري.[٤٢] أما المدخل الرئيسي الموجود في الجناح الغربي للرباط، فيتكون من بوابة منعرجة تعلوها نقيشة حفصية مكتوبة بخط نسخي، وهي تؤدي إلى فناء يسمح بالولوج إلى الرباط الأصلي.[٤٣] ويشتمل الدور الأرضي على غرف صغيرة مقبية تصطف على أسواره الأربعة، يتقدمها رواق يفتح على الصحن، عدا مجموعة جدار المدخل القبلية فإنه يتقدمها رواقان.[٤٤]

وعلى هذا الجانب من الدور الأول مسجد صغير يقع محرابه فوق المدخل، به سبع بلاطات عليها أقبية طولية تتعامد على جدار القبلة، وترتكز على دعائم مستطيلة تقسّم القاعة طوليا إلى قسمين، وتنفتح هذه الأقبية على بعضها بواسطة عقدين جانبيين في كلّ بلاطة.[٤٥] وهو ما يؤكده أيضًا مراد الرماح الذي يذهب إلى أن رباط المنستير يضم في الداخل فناءً محاطًا بأروقة تنفتح عليها الغرف. ويأوي الطابق الأول قاعة للصلاة تتألف من أسكوبيْن وسبع بلاطات، وهي مسقوفة بقبواب نصف أسطوانية، باستثناء البلاط الأوسط الذي غطي نصفه الجنوبي بقبيبة كروية الشكل منخفضة وبدون حنيات ركنية، وهو يتميز بعرضه الكبير مقارنة مع البلاطات الأخرى. وسوف يصبح هذا الترتيب المعماري المطبق لأول مرة في قاعة للصلاة أمرًا ثابتًا في جميع المساجد بإفريقية.[٤٦] ويتقدم هذا المسجد في اتجاه الصحن ممرّ مكشوف يقوم فوق الرواق الثاني بالدور الأرضي. وكان يصطف على الجوانب الثلاثة الأخرى للقصر مجموعات من الغرف ترتكز على غرف الدور الأرضي، يتقدمها ممر مكشوف هو سطح الأروقة التحتية. وقد أزيلت هذه الأقسام بعد الزيادات التي أضيفت للقصر في عصور مختلفة، وبقي الجزء القبلي وحده بكامل عناصره.[٤٧]

أمّا اليوم فيوجد بفضاء رباط المنستير متحف علي بورقيبة للفنون الإسلامية الذي يرجع تأسيسه إلى سنة ١٩٥٨م، وأعيدت تهيئته سنة ١٩٩٣م، وهو يضم كنوزًا نادرة وصورًا ثمينة تصوّر العصور الذهبية التي عاشتها هذه المدينة الشامخة، ومن بينها مخطوطات غاية في الإتقان كُتبت بخط كوفي جميل، وتحفًا من المنسوجات القديمة خاصة المصرية منها، وأواني بلورية وأخرى من الخزف تعود إلى العهدين الأغلبي والفاطمي، وقطعًا نقدية، وتحفة

من العاج المنقوش يعود تاريخها إلى العهد الأموي، ودمية خشبية من مخلفات الدولة العباسية، وكذلك عقود زواج محرّرة باللغة التركية بتاريخ القرن (١٢هـ/ ١٨م)، وآلة فلكية لقياس ارتفاع الكواكب تمّ صنعها بقرطبة سنة ٩٢٧م، وعشرات التحف الأخرى التي تجعل من المتحف- على صغر حجمه- مجمعا تاريخيا يُجاور الرباط.(٤٨)

-**رباط سيدي ذويب:** (صورة رقم ٣) الذي يوجد بالقرب من رباطي القصر الكبير وقصر السيدة أم ملال عمّة المعز بن باديس، يرجع تاريخ تأسيسه إلى سنة 240هـ على يد أحد أفراد العائلة الأغلبية دؤيد بن إبراهيم، مثلما تؤكده نقيشة تذكارية مكتوبة بخطّ كوفي مازالت موجودة بسقف مسجده.(٤٩) وهو يتكون من بناية حجرية طولية (40×٣٤م)، تتخلّل سورها الخارجي أبراج نصف دائرية تدعم الأركان ووسط الجدار، ويفضي الباب البارز الوحيد إلى باحة سماوية تحفّ بها الغرف من كل الجهات، في حين تتوسط بيت الصلاة التي وقع اختصار مساحتها في فترة لاحقة الجناح الجنوبي.(٥٠) ويذهب مخلوف إلى أنّ زاوية سيدي ذويب «فيها قبر معروف به يقال إنّه من بيت ملوك بني الأغلب، وفيها مسجد عتيق يظهر أنه أقدم من مسجد السيدة، ولم يبق من هذا القصر إلاّ هذه الزاوية وباقيه هو الآن دور.. وكان بين هذين القصرين داموس تحت الأرض- أي نفق- ممتدّ إلى الجهة الغربية لا يعرف له حدّ، وبعض الدور ومواجلها مقتطعة منه»،(٥١) لذا حرصت إدارة الآثار على تهيئته. وتؤكد المصادر التاريخية أنّ رباط سيدي ذويب استُعمل في القديم كمدرسة للعلوم الدينية، ثم استُغلّ في بداية الستينات كَمَبيت للطلبة، قبل أن يُوظّف في التظاهرات الثقافية، حيث يحتضن اليوم مقرّ الجمعية القرآنية الجهوية.(٥٢)

- **رباط ومسجد السيدة:** (صورة رقم ٤) نسبة إلى السيدة أم ملال بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي عمّة المعز بن باديس (ت414.هـ) التي يوجد ضريحها إلى جانب المسجد، يعود إحداث قصر السيدة (الرباط) إلى العهد الصنهاجي، لكن بعد أعمال التنقيب التي أُجريت في عين المكان، اتضح أنّه أُقيم على أنقاض منشآت تعود إلى الحقبة الأغلبية، وكان يتكون من طابق واحد ولا يتوفر على برج للمراقبة، ويضم عدة غرف لإيواء النساك المحاربين، يتقدمها رواق يرتكز على سارية مربعة المقطع. كما أن القسم المكتشف من هذا الرباط يظهر أبراجًا مضلعة عند الزوايا على عكس الأبراج الدائرية التي اشتهرت بها معظم الرباطات التونسية.(٥٣) ويذهب مخلوف إلى أن قصر السيدة «لم يبق له أثر ومحله الآن دور بعض بيوتها عتيق جدا باقية على حالها إلى الآن، ومن مشمولاته مسجد يشبه في البناء والقدم مسجد السيدة به مغارة تحت الأرض ومقصورة بها قبر، والأقرب أنه قبر بعض ملوك صنهاجة، ويعرف هذا القبر بسيدي عامر يزار حتى الآن... ومن مشمولاته أيضا مسجد يشبه في البناء والقدم مسجد السيدة، يعرف هذا المسجد بمسجد الدز، والأقرب أنه حرف وأصله المعز. ومن مشمولاته أيضًا قبة فيها قبر أبي الحسن علي السراج».(٥٤) وتتفق معظم النصوص على وجود تربة الزيريين بالمنستير ويفترضون أنها تقع في رباط السيدة، لكن الملاحظ أن الجزء الباقي من هذا القصر، والذي وقع الكشف عنه في حفريات الستينات لا يحمل أي أثر لقبور، وإنما يتعلق الأمر بغرف منتظمة معدة للإقامة، لذلك يرجح أن الزيريين كانوا يدفنون موتاهم خارج رباط السيدة وليس داخله، ويبدو أن تربتهم كانت محاذية لهذا القصر من الجهة الشرقية.(٥٥)

ويشكل المسجد التابع للرباط الجزء الذي تمت المحافظة عليه نسبيًا، وهو يتألف من قاعة للصلاة مستطيلة (٩.٩٢×٦.٧٥م) مقسمة إلى ثلاث بلاطات وأسكوبين. ويتميز بمحرابه المضلع الذي نسج على منواله في الجامع الكبير بالمنستير وفي كثير من المساجد الأخرى، وقد بُني هذا المحراب في عمق قاعة الصلاة، وهو يتكون من نصف قبة منحوتة بإحدى عشر أخدودًا تعلو إفريزًا نقش عليه بالخط الكوفي المورق نص يضم آيات من القرآن الكريم يمكن تأريخه في القرن (٥هـ/ ١١م).(٥٦)

- **قصر ابن الجعد:** (صورة رقم ٥) يوجد قبالة قصبة المنستير من الجهة الشرقية، حيث توجد جزيرة سيدي الغدامسي نسبة إلى دفينها أبي الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي (ت.٣٤٩هـ)(٥٧) المرابط بقصر ابن الجعد الذي مازالت أطلاله قائمة بهذا الموقع. وينسب هذا القصر إلى أحد كبار التجار بالقيروان يعرف بابن الجعد، قدم المنستير وأراد أن يبني بها قصرًا، فاستأذن مكرم المتعبد بالقصر الكبير، الذي أذن له بذلك وحدّد له مكان مبناه، «فبُني القصر في ذلك المكان الذي ذكره مكرم فسُمّي "قصر ابن الجعد"»،(٥٨) وذلك في أواسط القرن الثالث للهجرة. وكان المشرف على بنائه ومتولي الإنفاق فيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبادة السوسي.(٥٩) ويتكون مخطط قصر ابن الجعد من قصبة تشكل مثل أغلب الحصون الأغلبية بناية طولية تدعمها أبراج نصف دائرية، في حين أن السّتارة الحالية يمكن لنا تأريخها من العصر الحفصي. ويتكون داخل المعلم من مجموعة من الغرف المتمحورة حول باحة سماوية، لكن لا يوجد أي أثر للمدارج التي تؤدي إلى الطابق الأول مثلما هو الشأن في باقي الحصون.(٦٠)

**قصر سقانص:** الذي يذكر ابن حوقل أنه يوجد بين رباط المنستير والمهدية وهو «حصن منيع، وبه أيضًا أمة مقيمة على صيد البحر، وهما –رباط المنستير ورباط سقانص- قصران عظيمان على حافة البحر للرباط والعبادة، عليهما أوقاف كثيرة بإفريقية والصدقات تأتيهما من كلّ أرض».(٦١) ويذهب مخلوف إلى أن قصر سقانص لا أثر له الآن، ولم يبق بهذا الموضع سوى أثر بلدة رومانية بعضها غمره البحر والباقي هو بساتين تابعة للمنستير تعرف بالقديمة.(٦٢)

## خاتمة

وهكذا؛ يتضح أن مدينة المنستير أصبحت لها مكانة استراتيجية ودينية مهمة، وذلك بفضل الدور الكبير الذي قامت به رباطاتها في المجال العسكري الدفاعي والديني، فكانت ملجأ لصدّ هجمات

الأساطيل البيزنطية، ومراكز للعبادة يؤمها الناس من كل حدب وصوب، وملتقى لكبار العلماء والفقهاء، ممّا جعل منها مركزًا روحيًا مشعًا ودعامة قوية للحضارة الإسلامية.

**الملاحق**:



صورة رقم (١)

رباط المنستير- الواجهتان القبلية والغربية



صورة رقم (٢)

رباط المنستير- القسم الذي بناه هرثمة. (القرن ٢هـ)



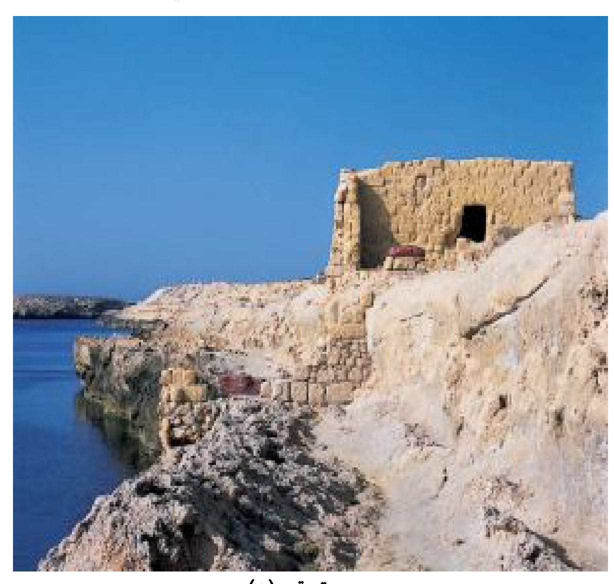
صورة رقم (٣)

رباط سيدي ذويب- منظر خارجي




صورة رقم (٤)

مسجد رباط السيدة- منظر خارجي



صورة رقم (٥)

أطلال وبقايا رباط سيدي الغدامسي بالمنستير

## الهوامِشُ:

(1) Asin (Jaime Oliver): « Les Tunisiens en Espagne, à travers la toponymie », in : **les Cahiers de Tunisie**, Tome XVIII, N°69-70, 1er et 2ème trimestres 1970, p. 17.

وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير: ماضيها ومعالمها التاريخية، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت، ص: ٣.

(٢) مخلوف (محمد بن محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، القسم الثاني، ص: ١٨٩.

(٣) نفسه، ج ٢، ص: ١٩٠.

(٤) المرابط (رياض)، "إشكالية نشأة مدينة المنستير العربية"، مجلة الحياة الثقافية، السنة ٢٢، العدد ٨٣، مارس ١٩٩٧م، ص: ٢٦. وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٣.

(5) Lézine (Alexandre), Le Ribat de Sousse suivi de notes sur le Ribat de Monastir, Direction des Antiquités et Arts en Tunisie, Notes et documents XIV, Imprimerie la Rapide, Tunis, 1956, p. 35

(٦) عبد الوهاب (حسن حسني)، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، جمع وإشراف: محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار، تونس، ١٩٧٢، القسم الثالث، ص: ٤٠٣-٤٠٤.

(٧) الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله)، كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، ط.٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٤٠٤.

(٨) نفسه، ص: ٤٠٤-٤٠٥. والبكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق وتقديم: أدريان فان ليُوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات: بيت الحكمة- تونس، ودار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٢، ج ٢، ص: ٧١٨.

(٩) ياقوت الحموي، كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، م.س، ص: ٤٠٥.

(10) Codera (Francisco): « Inscription arabe de Guardamar », in : **Boletin de la Real Academia de la Historia**, Madrid, Tomo XXXI, 1897, p. 31-33.

وحسب هذه النقيشة فإن الذي أمر ببنائه هو: أحمد بن بهلول بن بنت الواثق بالله، وهو أمير عباسي من أصل مشرقي، استقرت أسرته بالقيروان في خدمة الدولة الأغلبية.

(11) Azuar Ruiz (Rafael) (éd), La Rábita califal de las dunas de Guardamar (Alicante): Cerámica, Epigrafia. Fauna. Malacofauna, Diputacion Provincial de Alicante, Alicante, 1989, p : 9, p : 13-17, p : 208-215. Azuar Ruiz (Rafael): « Una Rábita hispanomusulmana del siglo X (Guardamar del Segura, Alicante, Espana » in : **Archéologie Islamique**, N°1, 1990, p : 109-122.

(12) Epalza (Mikel de): « Al-Munastir d'Ifriqiya et Al-Munastir de xarq-Al-Andalus », in : Actes du VII colloque universitaire tuniso-espagnol sur : **Le Patrimoine Andalous dans la culture arabe et espagnole**, cahiers du C.E.R.E.S, Tunis, 1991, p :100-101.

(١٣) ابن عبد ربه الحفيد، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص: ١٥٢.

(١٤) الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص: ١١٦.

Gafsi Slama (Abdelhakim): « Des autres al-Monastir en Tunisie ? », in: **La rábita en el islam: Estudios Interdisciplinare, Actas de los congressos internacionals de Sant Carles de la Ràpita (1989, 1997)**, Ajuntament de Sant Carles de la Ràpita, Universidad d'Alicante, Alicante, 2004, p: 296.

(١٥) الكتاني (يوسف)، مدرسة الإمام البخاري في المغرب، دار لسان العرب، بيروت، الجزء الثاني، ص: ٤٨٠-٤٨١.

Epalza (Mikel de): Al Munastir d'Ifriqiya et al-Munastir de Xarq al-Andalus, op.cit, p100-101.- Marçais (Georges): « Notes sur les ribats en Berbérie » in: **Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman**, Imprimerie officielle du Gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1957, Tome I, p. 31-32.

(١٦) العدوي (إبراهيم أحمد)، الأمويون والبيزنطيون: البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، ط.١، دار رياض الصالحين، الفيوم، ١٩٩٤م، ص: ٦٨.

(17) Castro (Américo), The structure of Spanish History, Trans. Edmund L. King. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1954, p. 203-204.

(١٨) زبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٣.

Zbiss (Slimane-Mostafa), Inscriptions de Monastir, Préface de : H.H.Abdul-Wahab, éd. Institut National d'Archéologie et d'Art, Tunis, 1960, p : 7-8.

(١٩) الصيادي (محمد صالح): "أضواء حول مدينة المنستير"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، السنة ١٨، العدد 66، ١٩٨١م، ص: ٥٠.

(٢٠) الرقيق القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق :عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص: ١٦٨. والبكري، المسالك والممالك، م.س، ج ٢، ص: ٦٩٢. وابن عذاري المراكشي (أحمد بن محمد)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة :ج.س، كولان وإ.ليفي بروفنسال، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠، الجزء الأول، ص: ٨٩.

(٢١) البكري، المسالك والممالك، م.س، ج ٢، ص: ٦٩٢.

(٢٢) زبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٥. والمرابط (رياض)، إشكالية نشأة مدينة المنستير العربية، م.س، ص: ٢٨.

(٢٣) نفسه، ص: ٥- ١٠. وزبيس (سليمان مصطفى)، الفنون الإسلامية، م.س، ص: ١٣٩.

(٢٤) الشريف الإدريسي (أبو عبد الله محمد الحمّودي الحسني)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤، المجلد الأول، ص: ٢٨٢.

(٢٥) زبيس (سليمان مصطفى)، بين الآثار الإسلامية في تونس، منشورات دار الثقافة، تونس، ١٩٦٣، ص: ٥٧. وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٥. وص: ٩.

(٢٦) المرابط (رياض)، إشكالية نشأة مدينة المنستير العربية، م.س، ص: ٣٠.

(٢٧) برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م)، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، ط. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، الجزء الأول، ص: ٣٣٩. وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٦.

(٢٨) الصيادي (محمد صالح): أضواء حول مدينة المنستير، م.س، ص: ٥٠- ٥١. وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٦.

(٢٩) نفسه، ص: ٥١.

(٣٠) نفسه، ص: ٥١- ٥٣. وزبيس (سليمان مصطفى)، بين الآثار الإسلامية في تونس، م.س، ص: ٥٧.

(٣١) الرقيق القيرواني، تاريخ، م.س، ص: ١٦٨. والبكري، المسالك والممالك، م.س، ج٢، ص: ٦٩٢. وابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ج١، ص: ٨٩. وابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥، مج٦، ص: ١٣٩. ومقديش (محمود)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، مج١، ص: ٣٢١.

Marçais (Georges), Notes sur les ribats, op.cit, p. 24.- Lézine (Alexandre), « Deux ribâts du Sahel Tunisien », **Les Cahiers de Tunisie**, N°15, T4, 3e trimestre 1956, p. 285-288.- Golvin (Lucien), Essai sur l'architecture religieuse musulmane, Archéologie Méditerranéenne V, Editions Klincksieck, Paris, 1974, Tome 3, P. 208.

(٣٢) شبوح (إبراهيم)، «حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية»، مجلة افريقية **Africa**، المجلدان: الثالث والرابع، ١٩٦٩-١٩٧٠، تونس، ص: ٦. ويذكر أن هذه النقيشة الفريدة أُزيلت - جهلا- أمام الترميمات التي أجريت سنة ١٩٥٧.

(٣٣) ذكر البهلول بن راشد أنه بلغه عن النبي (ﷺ) أنه قال: «إنه باب من أبواب الجنة».* وقد ورد في كتب الطبقات مجموعة من الأحاديث حول فضل إفريقية والمنستير، للمزيد من المعلومات انظر: -أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني)، طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، ط.٢، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص: ٤٣-٦٤. والمالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، كتاب رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكّوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، ط.٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ج١، ص: ٥-٩. والدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه: ابن ناجي التنوخي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ج١، ص: ٣٩-٤١. والتجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)، رحلة التجاني، تقديم وتحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨، ص: ٣٠-٣٣. ومقديش، نزهة الأنظار، م.س، مج١، ص: ٥٠٠-٥٠٢.* وتجدر الإشارة إلى؛ أن هذه الأحاديث الواردة في فضل إفريقية والمنستير هي أحاديث موضوعة، والهدف منها هو التحريض على الجهاد والمرابطة والترغيب فيهما، لما يترتب عليهما من مصلحتي الدنيا والآخرة.- انظر: المطوي (محمد العروسي)، فضائل إفريقية في الآثار والأحاديث الموضوعة، ط.٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص: ٢٦-٣١ وص: ٤٧-٥١ وما بعدها. ومخلوف، شجرة النور الزكية، م.س، ج٢، ص: ١٩٠.

(٣٤) لقبال (موسى)، «أوضاع ولاية إفريقية، وبناء القصر الكبير في المنستير ١٨٠هـ/٧٩٦م، نتائج وآفاق»، حوليات جامعة الجزائر، العدد (٤)، ١٩٨٩-١٩٩٠م، الجزائر، ص: ٢٢-٢٣.

(٣٥) نفسه، ص: ٢٣. وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٤-٧.

Zbiss (Slimane Mostafa), Inscriptions de Monastir, op.cit, p. 8-9.

(٣٦)البكري، المسالك والممالك، م.س، ج٢، ص: ٦٩٢.- يذهب رياض المرابط إلى أن هذا النص يحتوي على وصفين مختلفين لمعلم واحد، استقاهما البكري دون شك من مصدرين غير متزامنين. يتعلق الأول برباط القرن الثالث للهجرة، بينما أخذ الثاني عن محمد بن يوسف وهو يتحدث عن رباط القرن الرابع للهجرة على الأقل بعد أن أدخلت عليه تعديلات كبيرة. ويذكر أن الفقرة الثانية من هذا النص تتعلق بالفعل بما يشاهد الآن في القطاع القبلي من إضافات تعود للقرن الرابع في مستوى الطابقين السفليين على الأقل حيث يبدو الرباط بسببها كأنه معلم كبير بداخله معلم آخر متعدد العناصر والإضافات. انظر: المرابط (رياض)، إشكالية نشأة مدينة المنستير العربية، م.س، ص:٢٨- ٢٩.- بينما يذهب ناجي جلّول إلى أن الربض الواسع الذي تحدّث عنه الوراق أُحدث سنة (٢٢٤هـ/ ٨٣٩م).- انظر: جلول (ناجي)، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، (السلسلة التاريخية :عدد ٩)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٩٩م، ص: ١٠٧.

(٣٧) شبوح (إبراهيم): حول منارة قصر الرباط بالمنستير، م.س، ص: ٦.- بينما يذهب ليزين إلى أن رباط المنستير هو حصن مربع أضلاعه ٣٢.٨٠م × ٣٢.٨٠م. انظر:

Lézine (Alexandre) : Deux ribât du Sahel Tunisien, op.cit, p : 285-288.

- أما بخصوص منارة رباط المنستير فيذكر مخلوف أنها: «منارة سامية الارتفاع قامت كأنها عمود مخروط يستطلع منه المستطلع فيرى ما يملأ النفوس بهجة وحسناً، فيرى المدينة وما حولها من حدائق الزيتون والبساتين الملتفة كأنها بسيط أخضر جميل المنظر... ويرى مدينة سوسة العروسة القريبة منها بنحو أحد عشر ميلا بحراً ويشاهد مبانيها الأنيقة».- انظر: مخلوف، شجرة النور الزكية، م.س، ج٢، ص: ١٩٥.

(٣٨) شبوح (إبراهيم): حول منارة قصر الرباط بالمنستير، م.س، ص: ٧.

(٣٩) نفسه، ص: ١٥. إذن فمنارة رباط المنستير تمثل نموذجا للتأثيرات المشرقية على العمارة المغربية.

(40) Rammah (Mourad), « Les Villes ribat » in : **Ifriqiya : Treize siècles d'art et d'architecture en Tunisie**, Musée sans frontières, Editions : Déméter-Edisud, Aix- en- provence, 2000, p. 189.

(٤١) شبوح (إبراهيم)، حول منارة قصر الرباط بالمنستير، م.س، ص: ٦.

(42) Rammah (Mourad), Les villes ribat, op.cit, p. 189.

(43) Ibid, p : 190. Lézine (Alexandre), Deux ribât du Sahel Tunisien, op.cit, p : 287.

(٤٤) شبوح (إبراهيم)، حول منارة قصر الرباط بالمنستير، م.س، ص: ٦.

(٤٥) نفسه.

(46) Les villes ribat, op.cit, p : 189.

(٤٧) شبوح (إبراهيم)، حول منارة قصر الرباط بالمنستير، م.س، ص:٧.

(٤٨)بوزقندة (عمر)، «متحف الفنون الجميلة برباط بالمنستير»، مجلة الحياة الثقافية، العدد (٥٧١)، أبريل٢٠٠٩، تونس، ص: ٧٣-٨٥. وعبد اللطيف (محمد الصادق)، «الرباطات: دورها وأهميتها التاريخية»، مجلة المنهل، العدد ٥٧١، المجلد ٦١، العام ٦٦، شوال- ذو القعدة ١٤٢١هـ/ يناير- فبراير ٢٠٠١م، ص: ٨٥.

(٤٩)عبد الجواد (لطفي)، "قراءة جديدة في نص الكتابة التخليدية برباط "سيدي ذويب" بالمنستير (٢٤٠ هـ/ ٢ جوان ٨٥٤-٢١ ماي ٨٥٥م)"، مجلة افريقية Africa، العدد (١٦)، ١٩٩٨، تونس، ص: ١-١١.- ونص النقيشة: (بسم الله بركة) من الله ممّا (أمر) به دؤيد بن إبراهيم سنة أربعين ومائتين على يدي مسرور مو(لاه).

(٥٠)جلول (ناجي)، الرباطات البحرية بإفريقية، م.س، ص: ١٠٧. ومخلوف، شجرة النور الزكية، م.س، ج ٢، ص: ١٩٢

(٥١)شجرة النور الزكية، م.س، ج٢، ص: ١٩٢

(٥٢)زبيس (سليمان مصطفى)، بين الآثار الإسلامية في تونس، م.س، ص: ٥٨.

(٥٣) زبيس (سليمان مصطفى)، الفنون الإسلامية في البلاد التونسية: من قيام الدولة الأغلبية إلى قيام الدولة الموحدية (١٨٤- ٥٥٥هـ/ ٨٠٠ - ١١٦٠م)، مع لمحة عن فنون النرمان بصقلية، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، ١٩٧٨، السلسلة الثالثة، المجلد الثاني، ص: ١٥٢.- والمرابط (رياض)، إشكالية نشأة مدينة المنستير العربية، م.س، ص: ٢٦. وزبيس (سليمان

مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٩.- حيث يذهب زبيس إلى أن رباط السيدة أصله من القرن الثالث، ولكنه بُني فوق مسجد أقدم منه (يرجع إلى القرن ٢هـ).

(٥٤) شجرة النور الزكية، م.س، ج ٢، ص: ١٩٢.

(٥٥) الهلالي (عفاف): "نقيشة زوجة المنصور بن بلكين: مؤشر جديد لوجود مقبرة الزيريين بالمنستير"، ضمن أعمال ندوة :حركية الإنسان والأفكار عبر المتوسط (٩ -١١ مارس١٩٩٩م)، تجميع النصوص وإشراف على النشر: عبد اللطيف المرابط، ط.١، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، ودار محمد علي، صفاقس، ٢٠٠٣م، ص: ١٩.

(56) Marçais (Georges), Manuel d'Art musulman, l'Architecture : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile (du IXe au XIIe Siècle), Editions Auguste Picard, Paris, 1926, Vol I, p : 110-112.

وزبيس (سليمان مصطفى)، المنستير، م.س، ص: ٨. وزبيس (سليمان مصطفى)، الفنون الإسلامية، م.س، ص: ١٣٩.

(٥٧) المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، كتاب رياض النّفوس، م.س، الجزء الثاني، ص: ٤٤٠- ٤٥٤.

(٥٨) نفسه، ج ١، ص: ٤٢٠.

(٥٩) نفسه، ج ٢، ص: ١١٦-١١٧. وعبد الوهاب (حسن حسني)، ورقات، م.س، ط.٢، ١٩٨١، القسم الثاني، ص: ١٣٩-١٤١.

(٦٠) جلول (ناجي)، الرباطات البحرية بإفريقية، م.س، ص: ١١٢- ١١٣.

(٦١) ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص: ٧٥.

(٦٢) شجرة النور الزكية، م.س، ج ٢، ص: ١٩١.

# بـــادس
# حاضرة بلاد الريف في المغرب



**د. عُمر أشهبار**
دكتوراه التاريخ الحديث – جامعة ابن طفيل
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي - وزارة التربية
المملكة المغربية

**مُلَخَصْ**
يستعرض هذا المقال جوانب من تاريخ حاضرة بادس الإسلامية، وهي مدينة سادت ذات يوم وكانت منارة من منارات شواطئ المتوسط في المغرب الأقصى، والتي ساهمت في صياغة فصول من تاريخ الغرب الإسلامي، وانفتاح المغرب على الخارج، خاصةً بلاد الأندلس. وقد تميزت المدينة بمختلف الجوانب التي تؤكد على حضارتها، حيث شهدت عمرانا ضم المرافق التي ميزت المدن الإسلامية خلال العصر الوسيط، كما اشتهرت بإشعاعها الديني والعلمي، واستقبال هجرة أندلسية مهمة، ونشاط اقتصادي بارز. مما يؤكد على الحضارة التي أنشأها سكان هذه المنطقة من المغرب الأقصى عبر تاريخهم الحافل بالمآثر والمعالم. وتزامن أفول إشعاع مدينة بادس مع الاحتلال الأخير لجزيرتها سنة ١٥٦٤م من قبل الإسبان.

**بيانات المقال:**
تاريخ استلام البحث: ٢٦ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**
القوطيين، صناعة السفن، الأندلس، الدولة المرينية، الاحتلال الإسباني

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
عُمر أشهبار. "بادس: حاضرة بلاد الريف في المغرب".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص٤٣ - ٤٨ .

يندرج هذا الموضوع في البحث عن إحياء المعالم الحضارية المندرسة بمنطقة الريف،[١] شمال المغرب، التي لعبت في السياق العام للتاريخ الوطني المغربي دورا بارزا، خاصةً قبل وقوع مدينة بادس في الأسر الأجنبي. تعتبر بادس أهم مدينة نشأت بساحل الريف الأوسط. ووقع اختلاف حول تأسيسها، لكن تتفق جل المصادر على أن لهذه المدينة أبعادًا حضارية أعطت لها إشعاعًا متميزًا في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد استفادت المدينة من جزيرة بادس التي شكلت مرسى لها.

## أولاً: التأسيس والموقع

ذكر مارمول كاربخال أن تأسيس المدينة كان على يد القوطيين، وأنها تعرضت بعد ذلك للتخريب،[٢] غير أن نظرة مارمول تلك لا تستند إلى أساس مرجعي، ما لم يقع تحقيقها من الدراسات المتعلقة بالعصر القديم، وهي وحدها التي تملك الفصل في هذا الموضوع. في حين تحدث الحسن الوزان عن احتمال تأسيس مدينة بادس على يد الأفارقة، حسب تعبيره،[٣] وهو يعني بذلك في الغالب إرجاع الحدث إلى الفترة الإسلامية الأولى. وبدورنا نرجح هذا الرأي الأخير، كما نعتقد أنه قد جدد بناء المدينة أثناء الفتوحات الإسلامية مثل عدد من المدن المغربية الساحلية. لكن هذا يضعنا في الموقف الصعب لمعرفة تاريخ ذلك. ولا يمكننا أن نقبل بسهولة ما نقله أبو القاسم الزياني حين ذكر أن بناء بادس الإسلامية تم سنة (٩٠هـ) من لدن أحد أمراء لواتة الذي يحمل اسم بادس.[٤] وقد أشار أبو عبيد البكري عند حديثه عن مدينة بادس إلى كونها أحد مراسي بلد النكور الغربية.[٥] وتعتبر النكور أول إمارة إسلامية في الغرب الإسلامي.

ويبدو أنه في مقابل تراجع مكانة إمارة النكور ازدادت أهمية بادس، لاسيما بعد تخريب النكور سنة (٤٧٣هـ/١٠٨٠م) على يدي المرابطين. غير أن الشريف الإدريسي (٤٩٣هـ - ١١٠٠م/٥٥٩هـ . ١١٦٦م) قال بعد نصف قرن من سقوط النكور: "وكانت بادس فيما سلف مدينة كبيرة لكنها خربت ولم يبق لها رسم".[٦] وإذا كانت مدينة بادس لم يبق منها شيء في منتصف القرن السادس الهجري،

حسب الإدريسي، فإن هناك من الإشارات المصدرية ما يفيد أن حكم الإدريسي كانت تنقصه الدقة، بل هو حكم يتناقض مع ما ذكره الشاهد عيان، أبو بكر علي الصنهاجي، الشهير بالبيدق، حينما أشار إلى مرور الجيش الموحدي ببادس سنة (٥٣٦هـ) مع عبد المومن الموحدي. وقد تحدث الشاهد عن قصبة بادس التي حل بها الجيش الموحدي أثناء تراجعه عن غمارة الساحلية واتجاهه شرقا نحو الريف، في طريقه إلى مدينة مليلة.[٧]

وكيفما كان الأمر، فإن مرحلة إشعاع بادس انطلقت مع التدمير النهائي لإمارة النكور من لدن جيوش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين، أواخر القرن الخامس الهجري، إلا أن معلوماتنا عن بادس المرابطية والموحدية تبقى شحيحة إلى حد ما، بسبب قلة المصادر. ولا نعرف من حكام بادس ما قبل القرن العاشر سوى المدعو يعيش، عامل الناصر الموحدي، وهو الذي بنى سور بادس وقصبتها سنة٦٠١هـ، خوفا من فجأة البحارة الأجانب.[٨] ولازالت آثار هذا السور واضحة إلى اليوم، كما توضح الصورة الموالية. ولكننا نعرف أن حضور بادس كمرسى متوسطي لمملكة فاس امتد إلى القرن العاشر الهجري (١٦م)، حتى قام التنافس بين عثمانيي الجزائر والإسبان من أجل السيطرة على جزيرتها كموقع استراتيجي للقرصنة البحرية.

تنامت أزهى فترات بادس مع حكم الدولة المرينية، شأنها في ذلك شأن مراكز أخرى على ساحل الريف، كغساسة والمزمة. فعن العصر المريني وصلتنا معطيات بأسماء حكام بادس من قبل المرينيين، مثل ياسين بن الوزير الوطاسي، الذي كان يتحكم في بلاد النكور كلها سنة ٦٥٠هـ، ويحيى بن الوزير الوطاسي حاكمها سنة ٦٩١هـ وذلك قبل أن يحكم المرينيون سلطتهم الكلية على بلاد الريف ويطردون بني عمومتهم بني وطاس من حصن تازوطا،[٩] على عهد أبي يعقوب يوسف (٦٠٩- ٦٨٥هـ). وسيستمر التحكم الوطاسي، خلفا للمرينيين إلى عهد محمد البرتغالي (١٥٠٤-١٥٢٤م).

تتميز مدينة بادس بموقعها الجغرافي الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط عند حدود قبائل الريف الأوسط، حيث تقع على الجزء الساحلي الشمالي من قبيلة بني يطوفت، وتحدها من جهة الشرق قبيلة بقّوية، ومن جهة الغرب قبيلة بني بوفراح. ولا شيء يمنع من أن نقدر أن ظهور مدينة بادس كانت مبادرة بني يطوفت، انطلاقًا من قدم استقرار القبيلة في المكان والحدود نفسها، ولعل ظهور المدينة كان نتيجة لزحف سكان القبيلة نحو الساحل، على غرار باقي قبائل الحوز البادسي الساحلي. ومما لا شك فيه؛ أن الموقع الاستراتيجي لبادس ساهم في الأدوار التاريخية والحضارية التي لعبتها هذه المدينة، كما استفادت بادس من ميناءها بالجزيرة المجاورة لها، المسماة جزيرة بادس.[١٠]

## ثانيًا: البعد الحضاري لمدينة بادس

تعلو مباني المدينة في المساحة المنبسطة الضيقة الوحيدة المنحصرة بين القسم الأخير من مصب واد يطلق عليه حاليا اسم "إزلافن"، المعروف قبل القرن السادس عشر بواد بادس، ابتداء من نقطة التقاءه برافده واد كركر، ويحمي تلك المساحة من جهة الشرق ثلاث مرتفعات (٣٠٠ متر) شديدة الانحدار، تفصل بينها مسيلة صغيرة يسير مجراها بمحاذاة السور الغربي، وهناك عدوة الصف مقابل عدوة الركيبة.[١١] كانت مدينة بادس تضم مجموعة من المرافق العسكرية والدينية والحرفية والتجارية، كما كان يوجد فيها حصن، وكان بابها الرئيس يطل على الزاوية الجنوبية الغربية.[١٢] لكننا في الوقت الراهن لا نستطيع تقديم تفاصيل دقيقة عن تلك المرافق للحالة الرديئة التي توجد عليها. إلا أننا عثرنا على رسم يظهر سور مدينة بادس وبعض مرافقها الأساسية.

كما تميزت بادس باحتضانها لعدد من الأسواق،[١٣] أما المرافق التجارية الأخرى فتجلت في الدكاكين التي تتموقع وسط المدينة، حيث توجد الساحات، ويقع المسجد في الساحة قرب السوق، وجرت العادة بإقامته بجوار القصبة، لتسهيل انتقال الحاكم، وقد ذكر مارمول كاربخال في هذا الصدد أن مسجد بادس كان كبيرا، محاطا بسور قديم،[١٤] والمدينة مزودة بالمؤن بشكل دائم وجيد.[١٥]

زار لسان الدين بن الخطيب مدينة بادس في القرن الثامن الهجري، ووصفها بعبارات جميلة، قائلاً: "بدأت بحمدلة الرقعة، وبركة البقعة، ومدفن الولي... بلدة السراوة والشجاعة، والإيثار على فرض المجاعة، والنفوس الأوابة إلى الله الرجاعة، حيث البر والموت والخشب الذي ينشأ من كل منحوت والبأس والإقدام، والفاكهة الطيبة، والإدام، ورب الجبال، وفضل المدافعة لصهب السبال...".[١٦]

انتشر التصوف في حاضرة بادس، واحتضنت العديد من الأولياء، ونذكر من بينهم أبي يعقوب يوسف بن عبد الله الزهيلي (٦٤٠-٧٣٤هـ).[١٧] كما استقر ببادس عدد من رجال الفقه والأدباء والعلماء، وعلى غرار الحواضر المعروفة آنذاك كان ببادس الجامع الأعظم الذي صار ملتقى للعلماء الوافدين من الأندلس وفاس وسبتة.[١٨] ويوجد كثير من النصوص في المخطوطات التي تكفلت بحياة الصلحاء والعلماء الذين فضلوا الإقامة ببادس، فمثلاً قال المؤلف أبو الحسن علي المراكشي في مخطوطه، الذي ألفه في مناقب شيخ زمانه الحاج حسون البقيوي الأدوزي، قال: "كنت جالسًا بمدينة بادس أيام إقامتي بها عند الشيخ الأبر الولي الصالح أبي محمد عبد الله التستوري في جامعها الأعظم، وكنا نتكلم مع أهل بادس عن كرامة الأولياء".[١٩]

وعاش في مدينة بادس عدد من العلماء والشعراء والفلاسفة الذين أعطوا لهذه المدينة إشعاعًا علميًا ذاع صيته في مختلف البقاع، ومن بين هؤلاء نذكر الفيلسوف ابن السبعين.[٢٠] كما أنجبت بادس مؤرخين وأدباء بارزين، منهم أبو الحسن المراكشي، صاحب مناقب الأولياء، وعبد الحق البادسي، صاحب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف".[٢١] وزار بادس مؤرخون وأدباء من مختلف البلدان مثل الشريف الإدريسي،

والحسن الوزان، والعلامة ابن مرزوق، وشاعر الأندلس لسان الدين ابن الخطيب.

## ثالثا: بادس والأندلس

عرفت بادس هجرة أندلسية مهمة، نظرًا لعلاقاتها مع الأندلس، خاصةً في العهد المريني، إذ أن بنو مرين تخلوا عن بعض المدن المتوسطية المعروفة خلال العصر الوسيط، مثل مليلة والمزمة، فاتجه اهتمامهم إلى مدينة بادس ومرساها، نظرًا لعلاقاتهم البحرية واتصالاتهم بفاس، وكان لهذا الاهتمام دور في تعزيز العلاقات مع الأندلس، وربط الاتصال المباشر مع مالقة. ومن المؤكد أن الطريق الصعب، الواصل بين بادس وفاس، عبر صنهاجة السراير وممر واد ورغة، أصبح مطروقًا أكثر من ذي قبل، بفضل المراقبة الممارسة على سكان جبل الحوز البادسي الداخلي، بتعاون بين السلاطين وحكام بادس، والنتيجة أن الطريق أصبح مفتوحًا لانتقال الأشخاص ورؤوس الأموال والحرف إلى بادس،[٢٢] وقد قدم لنا عبد الحق البادسي أمثلة من هذه الهجرات، وهو نفسه استوطن أحد أجداده غرناطة، ومنها انتقل إلى بادس،[٢٣] ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها البادسي أن الشيخ الصالح الحسن بن هنا البادسي حدثه عن قدوم الشيخ محمد المراكشي على بادس من مرسى هنين،[٢٤] كما حدثه الحاج علي المؤذن الأندلسي عن الشيخ الحسين، وهو من أهل مالقة، وكان هذا الأخير زاهدًا في الدنيا وخرج متجردًا للعبادة، قدم على بادس، ونزل برابطة البحر.[٢٥]

ويذكر أن ملك غرناطة ابن الأحمر تنازل في (١٧ مارس ١٤٩٣م) عن جميع ممتلكاته الخاصة لصالح قشتالة، وفي أكتوبر من السنة نفسها توجه إلى شمال المغرب، حيث جرت هجرة كبرى اختار أفرادها قبائل الريف وغمارة ومدينتي شفشاون وتطاوين،[٢٦] مما يؤكد استقرار العنصر الأندلسي في حاضرة بادس بأعداد كبيرة بعد سقوط غرناطة، خاصةً أن بعض المهاجرين اختاروا هذه المنطقة لموقعها الإستراتيجي. يبدو أن بادس استقبلت بالخصوص العناصر الأندلسية التي توافدت عليها من مدينة مالقة، فأهل هذه المدينة خرجوا إلى بادس، وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وكان من الطبيعي أن تمتد آثار حروب غرناطة إلى بادس وحوزها، نتيجة ارتباطها المباشر بمالقة.[٢٧] وبعدما أصدرت ملكة قشتالة إيسابيلا الكاثوليكية (Isabel la Catolica)، يوم ١٤ فبراير ١٥٠٢م، مرسومًا يقضي بطرد الأندلسيين من الأندلس، عرف شمال المغرب هجرة أندلسية أخرى استقر بعض أفرادها بقبائل الريف وغمارة.[٢٨]

وقد ارتبطت بعض القرى في حوز بادس بالقرى الأندلسية مثل قرية أكني، التي كان رئيسها يدعى الحاج محمد بن عبد القادر الأندلسي الذي استقر ببادس أولا ثم غادرها لبني بوشبت، ثم إلى بني بوفراح ليتخذ أكني مستقرًا له،[٢٩] وفي هذا الصدد ذكر المؤرخ حسن الفكيكي نماذج متعددة من الأسر الأندلسية التي استقرت ببادس أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي.[٣٠]

من خلال ما سبق؛ يتضح أن الوضعية السكانية لحوز بادس قبيل الاحتلال الأول لجزيرته سنة ١٥٠٨م، كانت مختلفة عن العصور السابقة بانضمام مجموعات واردة من كل المناطق والأقاليم، خاصةً من بلاد الأندلس. كما استقر أيضًا ببادس البورغواطيون[٣١] والعرب.[٣٢] وكذلك استقبلت بادس ساكنة يهودية، يرجع تاريخ وجودها في المنطقة، هي الأخرى، إلى مرحلة سقوط غرناطة، حيث نزح هؤلاء اليهود من مدن الساحل الجنوبي للأندلس (مالقة، غرناطة وألميرية) نحو بادس، واضطروا إلى مغادرتها، والتوجه نحو الداخل، خاصةً إلى سنادة،[٣٣] وأيضا تارجيست[٣٤] بالنسبة لأولئك الذين لم يقصدوا فاس وباقي المدن الكبرى.[٣٥]

إن الموقع الجغرافي المهم لبادس وغنى مؤهلاتها الطبيعية، فرض على سكانها التعاطي أكثر لنشاطي الصيد والتجارة، خاصةً وأن المنطقة ضعيفة الإنتاج من الحبوب، وبالتالي فالسردين وغيره من السمك كان يمثل الوجبة الأساسية لمعظم السكان،[٣٦] كما أن موقعها أهلها أن تكون على علاقات متواصلة مع الساحل الأندلسي، لاسيما مالقة التي توجد في الاتجاه المقابل لها. مما لا شك فيه؛ أن البحر قد شكل لمدينة بادس أهمية كبيرة، لا سيما أن الصيد والتجارة كانا أهم الأنشطة الاقتصادية التي زاولها البادسيون، إلا أن البحر كان كذلك مصدرًا لحالة الفزع والقلق الدائم الذي كان يعيشه سكان بادس، وسكان السواحل الريفية عموما، فالبادسي يرسم صورة واضحة عن هذه الحالة، والتي كان السبب فيها تردد السفن الأوربية على هذه السواحل، حيث أذاقوا الناس سوء العذاب، ولم ينفع سكان الساحل الريفي سوى الاستنجاد بالأولياء والصلحاء، الذين بفضل "بركتهم" حميت السواحل، ولم يستطع النصارى الاقتراب من بعض النقط المائية للتزود بالماء العذب الذي اعتبر عنصرًا أساسيًا في الرحلة البحرية، وكثيرًا ما كانت تستغل هذه النقط المائية للسطو على السفن وبعض الربط الساحلية.[٣٧] وعلى الرغم مما يمكن أن تحمله الكرامة الصوفية من تفسيرات وما تحويه من قراءات، إلا أن ذلك لا يمنع من اعتمادها نظرًا للرمزية التي تحملها في طياتها.

## رابعًا: بادس مركز عالمي لصناعة السفن

كانت ببادس دارًا للصنعة خارج أسوار المدينة،[٣٨] وفي هذه الدار كانت تصنع سفن حربية كبيرة، وزوارق خفيفة ذات مجاديف، وأيضًا قوارب صغيرة للصيد البحري.[٣٩]

أضحت مدينة بادس مركزًا لصناعة السفن وتصدير الخشب إلى مدن البحر المتوسط المغربية، وفي مقدمتها تطاوين وسبتة،[٤٠] وأيضًا إلى المدن الأوربية مثل مالقة وجنوة والبندقية،[٤١] وبعض مدن المشرق. ويحدثنا الوزان عن أنشطة تجار البندقية ببادس، حيث تعودوا على الإتيان إليها مرتين في السنة، للتجارة معها مبادلة ونقدًا، بل إنه انطلاقًا من مرسى بادس كانت مراكب البندقية تحمل الركاب المسلمين باتجاه تونس، وأحيانًا إلى البندقية، أو حتى

الإسكندرية وبيروت.[٤٢] وكان يتردد على بادس كثيرًا تجار جنوة، ودخلت ضمن الفضاء الذي حددته معاهدة تجارية وقعها أبو عنان المريني مع بيزة سنة (٧٥٩ هـ)، وذلك من خلال التنصيص على "البلاد الغربية والشرقية والأندلسية".[٤٣] وصارت مدينة بادس المركز الرئيسي المزود للمراسي المتوسطية بالخشب، خاصةً مراسي ترغة وتطاوين والعرائش، وانضاف إلى قائمة زبناءها الأتراك،[٤٤] فتيطاوين مثلاً كان لها حقل غابوي من احتكارها لقطع الأخشاب بحوز بادس الغربي، وكانت عمليات قطع أخشاب الأرز وصناعة السفن تتم تحت إشراف كل من الوطاسيين وحكام تطاوين، فكل جانب من الجانبين كان له حقله الخاص في جبال حوز بادس، واحد متصل بوادي مسطاسة، وهو الذي كان تحت هيمنة تطاوين، أما الوادي المحتكر من طرف فاس الوطاسية فهو وادي بني يطوفت.[٤٥]

ومن هذين الوادين كانت جذوع أشجار الأرز تنحدر إلى دار الصناعة الواقعة آنذاك على الضفة اليمنى من مصب واد بادس، وكان مرسى تيطاوين لا يشكو أبدًا من الخصاص في المادة الأولية لصناعة السفن.[٤٦] وفي سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٦م) وما بعدها، صارت بادس المركز الأول لصناعة السفن بساحل البحر المتوسط.[٤٧] وكانت تزود أيضًا الأتراك بالسفن، فمثلاً في سنة ١٥٣٦م، كانت أوراش بادس قد أنهت صناعة خمس وعشرين سفينة، خمس عشرة منها لصالح الأتراك والعشر الباقية داخلة في ملك أبي حسون.[٤٨] وأقام السلطان المغربي السعدي محمد الشيخ في بادس مصنعًا للسفن قرب غابات البلوط والصنوبر، وفي (١٥٤٩م-١٥٥٠م) كان (٥٠٠) من الحطابين يقومون بقطع الأشجار بأمر من السلطان في منطقة بادس، وينقلونه عبر البحر إلى سلا لصنع (٤) غليونات كبرى، كما صنعت (٤) غليونات ببادس استخدم فيها بحارة أوربيين تحت قيادة الأتراك.[٤٩]

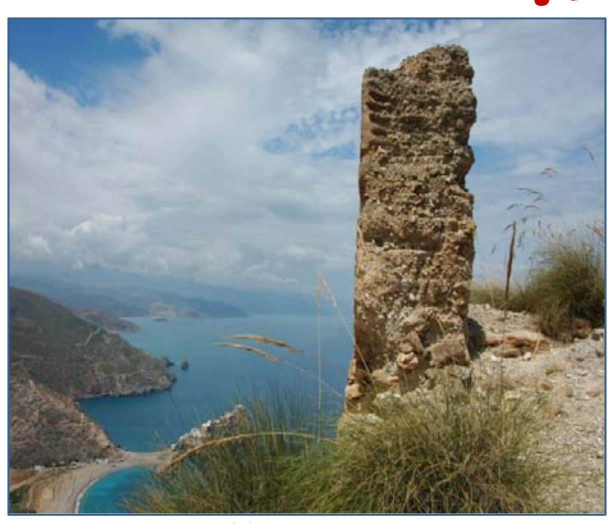
نعتقد أن شهرة مدينة بادس خلال العصر الحديث تعود إلى الأدوار التاريخية المهمة التي لعبها مرساها، حيث ساهمت مرسى بادس في انفتاح المغرب على العالم، وانفتاح الحوز البادسي على المراسي المغربية، خاصةً في أواخر العصر الوسيط، وغدت جزيرة بادس ميناء فاس بدون منازع، خاصةً في العهد المريني، حيث اختاروها مرسى بدل سبتة، وصارت تربط علاقات اقتصادية مهمة مع الديار الأندلسية،[٥٠] والدول المتوسطية عمومًا. وكان مجموع التجار النشيطين بمرسى بادس لهم وزن مهم، وأبانوا عن حسن تنظيم عناصرهم الذين كانوا يساهمون بأموالهم في تجهيز السفن وتسليح البحارة،[٥١] وكان هؤلاء التجار يشكلون جماعة قوية لها كلمتها في باب سياسة ملوك فاس، والتجارة بمرسى بادس كانت على درجة مهمة من النظام والضبط، فالتجار يستعملون تقنيات متطورة تتمثل في سجلات مزدوجة تسجل على صفحاتها الصادرات والواردات والنفقات والمدخولات والقروض المتوسطة الأمد للاستخلاص في مواقع مختلفة، مثل ما بين بادس ومالقة، في حين كانت بعض الجمعيات التجارية حاضرة بالبلدة وهدفها الدفاع عن مصالحها المشتركة وصيانتها أمام تصرفات ممثلي السلطة المركزية.[٥٢] وكان استئجار السفن التجارية أمرًا جاريًا، وقد كان المركب ينقل البضائع من بادس إلى مالقة بثمانين دينارًا، وكانت كل الخدمات والرواتب تؤدى بالدينار.[٥٣]

## خاتمة

كانت نهاية حاضرة بادس التاريخية مع الاحتلال الأخير لجزيرتها في سبتمبر/ شتنبر ١٥٦٤م،[٥٤] من طرف الإسبان، وكان ذلك العامل الأساسي في اندثار هذه الحاضرة، حيث اضطر السكان إلى مغادرتها بدون رجعة، فلم تحي بعد ذلك لأنها فقدت كل وظائفها، وصارت عرضة للقصف من طرف الإسبان المحتلين لجزيرتها، وكان لهذا الاحتلال تداعيات وانعكاسات على سكان قبائل ساحل الريف الأوسط، خاصةً على النشاط البحري الذي كان يعتمد عليه الناس في نشاطهم الاقتصادي، وأنزل احتلال الإسبان للجزيرة البادسية ضربة قاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لأساطيل الغزاة المسيحيين، لاسيما وقد تبع ذلك إقدام إسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطاوين خلال نوفمبر من سنة ١٥٦٤م، وقيامها بإغلاق مصب نهر تطاوين.[٥٥]

خلف ضياع بادس أصداء مفجعة ترددت عبر جوانب المغرب كافة، فقد كان مرسى بادس آخر ميناء تحت السيادة المغربية على السواحل المتوسطية، ومع فقدان هذا الثغر، وفي ظل الاحتلال الإسباني والبرتغالي، انغلقت أبواب البحر المتوسط على المغرب، هذا البلد الذي قام بدور كبير في المبادلات بين أوربا وإفريقيا جنوب الصحراء، إذ ذاك لم يبق للسكان ما يربطهم بمدينتهم (أي مدينة بادس)، ففضلوا الجلاء عنها والهجرة إلى مناطق وجهات أخرى.

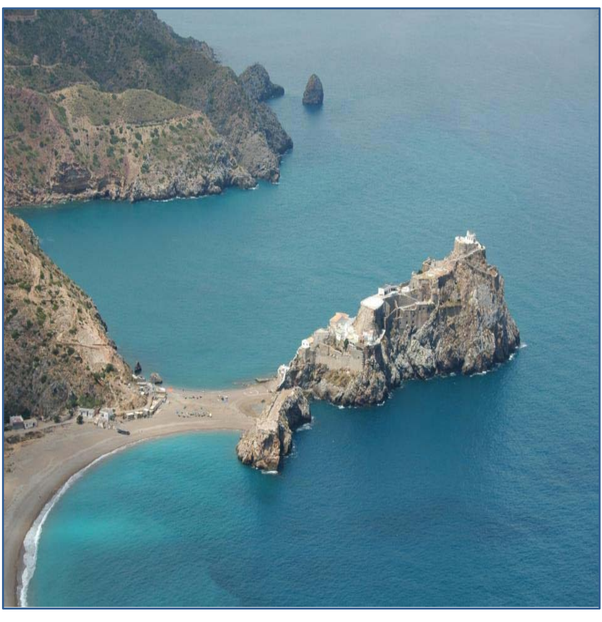
### الملاحق:



صورة رقم (١)

من بقايا سور بادس

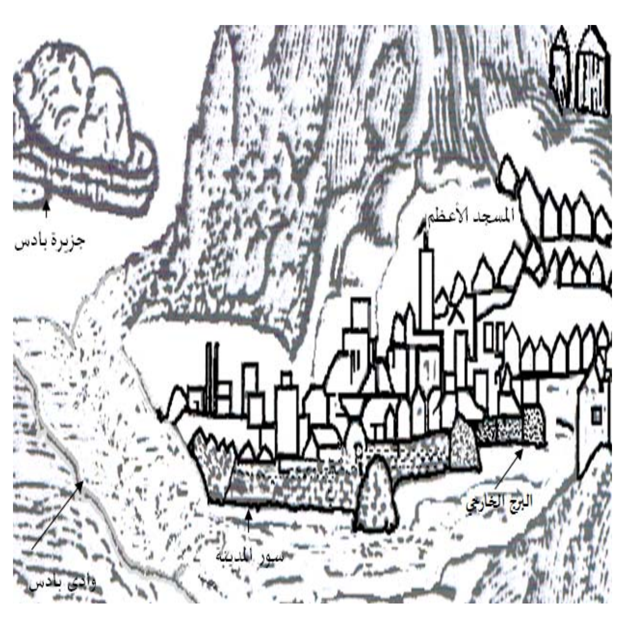
المصدر: تصوير عمر اشهبار، بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠١٣.



**صورة رقم (٢)**

جزيرة بادس

المصدر: تصوير عمر اشهبار، بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠١٣.




**صورة رقم (٣)**

رسم يظهر مرافق مدينة بادس

المصدر: رسم أمدنا به المؤرخ المختص بتاريخ المنطقة حسن الفكيكي، وقمنا بتحديد المواقع

## الهَوامِشُ:

(١) **الريف** مصطلح جغرافي يطلق على منطقة في شمال المغرب. والريف الجغرافي يمتد من طنجة إلى السعيدية، أي كل الساحل المتوسطي. أما الريف اللغوي، أي السكان الذين يتكلمون اللغة الأمازيغية الريفية، فيشمل أقاليم الحسيمة والناظور والدريوش وتازة، وهي المنطقة التي يتحدر منها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي.

(٢) مارمول كاربخال Marmol Carvajal، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٣٠.

(٣) الحسن بن محمد الفاسي الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٣٢٥.

(٤) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، وزارة الأنباء، الرباط، ١٩٦٧، ص. ٧٩.

(٥) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص.١٠٦.

(٦) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤، ص. ٥٣٣.

(٧) أبو بكر علي الصنهاجي البيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار منصور للطباعة والرواقة، الرباط، ١٩٧١، ص. ٥٥. تقع **مدينة مليلة** بأرض قبيلة مزوجة، إحدى قبائل قلعية الواقعة بالناحية الشرقية من شمال المغرب على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، مساحتها ١٢ كيلومتر مربع فتحها المسلمون سنة ٦٨٩م على عهد الفاتح الإسلامي زهير بن القيس في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد حصنها المسلمون تحصينا جيدا حتى وصفها ابن خلدون بالقلعة المحصنة، احتلت إسبانيا مدينة مليلة سنة ١٤٩٧م.

(٨) علي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والرواقة، الرباط، ١٩٧٣، ص. ٢٣٣-٢٧١.

(٩) عن حصن تازوطا انظر: حسن الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة ١٦٩٧ – ١٨٥٩م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ٤٠ – ٤١.

(١٠) تقع جزيرة بادس عند نقطة اتصال تراب قبيلتي بقوية وبني يطوفت، على البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة صخرية طولها حوالي ٢٢٥ مترًا، وعرضها حوالي ١١٠ مترًا، أما علوها فيصل إلى سبع وسبعين مترا. تبعد جزيرة بادس عن مدينة الحسيمة الحالية بحوالي ٤٥ كلم بحرا، وعن مدينة تطاوين بنحو ١١٠ كلم بحرا، وكانت الجزيرة في القرن السادس عشر بعيدة عن الساحل المقابل لها بنحو ميل، لكنها التقت مع البر منذ سنة ١٩٣٣م. انظر:

Commission Historica de lascompanas de Maruecos, **Geografia de Maruecos**, Madrid, 1936, t2, P.297.

(١١) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة ١٤١٥ – ١٥٧٤**، أطروحة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة مرقونة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص.٥٦٧.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م. س، ص. ٥٣٢.

(١٤) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م.س، ص. ٢٣٠.

(١٥) ايلي دولابريمودي، **المدن البحرية بالمغرب منطقة الريف**، مجلة حوليات الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص. ٢٤

(١٦) لسان الدين بن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٧٦، ص. ١٤٣. ونفهم من كلام ابن الخطيب أن أهل بادس تميزوا بالشجاعة والإيثار والعلم، وانتشر بينهم التصوف، كما اشتهرت المدينة بخشها الذي شكل أساس الصناعة والاقتصاد.

(١٧) خص قاضي بادس عبد الله محمد الأوربي (٧٠١ - ٧٨٢هـ) الولي أبي يعقوب بترجمة مهمة، ضمن كتابه: مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي. انظر أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي، **مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي**، يقع هذا المخطوط في ١٩ ورقة من الحجم الكبير، توجد نسخة منه بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم ٣٤٤٧.

(١٨) كانت مدينة سبتة تتمتع بموقع استراتيجي هام لإشرافها على الطريق البحرية التجارية بين جنوب أوربا وشمالها الغربي عبر بوغاز جبل طارق. و من الملاحظ أن العديد من الناس يعتقدون أن احتلال سبتة تم من طرف إسبانيا مع أن هذه الدولة لم تقم بتسليم المدينة من يد البرتغال إلا سنة ١٦٤١م. حيث احتلت سبتة في الأول من قبل البرتغال سنة ١٤١٥م.

(١٩) أبو محمد الأوربي، **مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي**، مخطوط سابق.

(٢٠) انظر تعريفه عند أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، مطبعة دار أمل، الجزء الأول، طنجة، ١٩٧٤، ص. ١٦٣- ١٦٤.

(٢١) يُعَدّ هذا الكتاب ثاني مؤلف عن التصوف ببلاد الغرب الإسلامي بعد كتاب "التشوف إلى معرفة رجال التصوف"، لصاحبه ابن الزيات التادلي، المهتم بذكر أخبار رجالات التصوف بالجنوب إلى حدود سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م).

(٢٢) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص. ٤٦٦.

(٢٣) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ ، ص. ٠٦.

(٢٤) المرجع نفسه، ص. ٧٤.

(٢٥)المرجع نفسه، ص. ١٠٦.

(٢٦) محمد بن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ١٥٦.

(٢٧) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، خلال القرنين ١٦ – ١٧، منشورات إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، الرباط، ١٩٩٨، ص ٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص. ١٧٧.

(٢٩) المرجع نفسه، ص. ٤٦٧.

(٣٠) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص. ١٦٦ – ١٦٧ – ١٦٨.

(٣١) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، م. س، ص. ١٦٤- ١٦٥.

(٣٢) المرجع نفسه، ص. ١٦٨-١٦٩.

(٣٣) حول سنادة انظر: محمد ابن عزوز حكيم، مادة "سنادة"، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء (٢)، سلا، ١٩٨٩.

(٣٤) قبيلة كانت تسمى تاريخيا بأولاد عبد الرحمان (تسمية تارجيست لم تظهر إلا بعد القرن الثامن عشر)، ويمكن اعتبارها من القبائل الوسطى، فهي الحد الفاصل بين قبائل الريف الأوسط الساحلي من الجهة الجنوبية وقبائل جبال صنهاجة. انظر عبد الرحمان الطيبي، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط ١٨٦٠-١٩١٢م**، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات تيفراز ن أريف، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص. ١١٨.

(35) Paul PASCON et Herman Van DER WUSTEN, **Les Bni Boufrah Essai d'écologie sociale d'une vallé rifaine**, Rabat, 1983, p.67.

(٣٦) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص. ٢٥٣.

(٣٧) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، م، س، ص.٥١-٦٠- ٦٤- ٩٥- ١١١- ١١٢.

(٣٨) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، م. س، ص. ١٥٢.

(٣٩) مجهول، **بادس المجاهدة**، مجلة دعوة الحق، العدد١٠، السنة ١٦، مارس، ١٩٧٥، ص. ١٠٠.

(٤٠) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، م. س، ص. ٩٥-١٠٧-١٠٣.

(٤١) المرجع نفسه، ص. ١٦٦.

(٤٢) الحسن الوزان، مصدر سابق، ص. ٢٥٤.

(43) Mohamed AMAN, **Diplômi barbi del archivo fiorentino**, Florence, 1883, pp.1-8.

(44) Les sources inedites de l'histoire du Maroc (**S.I.H.M**), Espagne , Tome 1, p. 80.

(45) Archivo General de Simancas (**A.G.S**). Espagne, Legajo 1054.

(٤٦) أحمد قدور، **تيطاوين المدينة والمجتمع في العصر الوسيط والحديث**، أطروحة لنيل الدكتوراه، رسالة مرقونة بكلية الآداب، الجزء الثاني، تطوان، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤، ص. ٥٥٠.

(47) **S.I.H.M**, Espagne ,T. 1, p. 80.

(٤٨) عين أبو حسون حاكما على بادس ، حيث عرف ب "ملك بادس". وشرع في مزاولة مهامه بالريف منذ سنة ١٥٣٢م. انظر:

463 **A.G.S.** Espagne, Leg.

(٤٩) عبد الرحيم شكري، **"الصراع بين المغرب وإسبانيا خلال القرنين ١٦ و١٧ من خلال وثيقة تتعلق بالجهاد البحري والأسرى ثم العلوج"**، ضمن كتاب **المغرب وإسبانيا خلال القرن السابع عشر**، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ٥٤.

(٥٠) حليمة فرحات، **مادة "بادس"**، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء ٣، سلا ١٩٩١، ص. ٩٦٦.

(٥١) حليمة فرحات، **مادة "بادس"**، معلمة المغرب، م. س، ص. ٧٦٩.

(٥٢) المرجع نفسه.

(٥٣) المرجع نفسه.

(٥٤) تجدر الإشارة إلى؛ أن الإسبان سبق لهم أن احتلوا جزيرة بادس سنة ١٥٠٨م، وقد استمر الاحتلال الأول للجزيرة مدة ١٤ سنة، حيث تمكنت المقاومة المغربية من استرجاعها سنة ١٥٢٢م.

(٥٥) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الطبعة الثالثة، الرباط، ٢٠٠٦، ص.٩١.

# تافيلالت
# الدلالة والمجال

**د. محمد امراني علوي**

أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
الكلية المتعددة التخصصات
الرشيدية – المملكة المغربية

**مُلَخّصْ**

اهتم عدد من الباحثين والدارسين بدراسة المجال الجغرافي لتافيلالت، مما أحدث نوعًا من الاضطراب لدى العديد منهم، نظرًا لتعدد الآراء حول هذه المنطقة من حيث الدلالة الخاصة لكلمة تافيلالت من جهة، والمجال الجغرافي لهذه المنطقة المتواجدة في الجنوب الشرقي للمملكة المغربية، ولذلك حاولت أن أسهم في هذا الموضوع من حيث تقديم عدد من الآراء الواردة في موضوع الدلالة اعتمادًا على الرواية الشفوية المحلية، أو من خلال استنتاجات بعض الرحالة والجغرافيين الذين شاهدوا المدينة، الشيء نفسه بالنسبة للمجال الجغرافي الذي عرف نوعًا من الامتداد والتقلص طيلة المرحلة الوسيطية وصولاً إلى الوقت الراهن، حيث انصهر المجال في مدينة الريصاني الحالية حسب عدد من الآراء، لكن حسب السياق التاريخي للكلمة والمجال فإنه كان يمتد في مراحل تاريخية إلى مجالات شاسعة شملت كل من فكيك ومنطقة جبل العياشي حسب بعض الوثائق المحلية والإشارات الواردة في عدد من المصادر التي أشار أصحابها ضمنيًا إلى تحديد المجال الفيلالي، سوءًا من خلال الوثائق التي يتم الاعتماد عليها، أو في إطار العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لعدد من المناطق مع منطقة تافيلالت، أو من خلال الرسائل المتبادلة بين بعض العلماء والزوايا المنتشرة في الجنوب الشرقي للمغرب، ولذلك تأتي هذه المساهمة المتواضعة لإثراء هذا النقاش العلمي حول تافيلالت من حيث الدلالة والمجال علها تقدم بعض الأفكار التي تسهم في توضيح ذلك.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٤ فبراير ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

سجلماسة، التاريخ المغربي، الصحراء الكبرى، الاستعمار الفرنسي، الدراسات الطبونيمية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

محمد امراني علوي. "تافيلالت: الدلالة والمجال".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٤٩ - ٥٢.

## مُقَدِّمَةٌ

اهتمت المدرسة الأماكينية في إطار الدراسات الطبونيمية بعدد من المناطق والمدن باعتبارها ذات أهمية كبرى في التأثير على أحداث التاريخ، ومنها التاريخ المغربي، وبذلك رأت هذه المدرسة إمكانية الانطلاق من الجزء بهدف الوصول إلى الكل لكونها تساعد على الكشف عن العديد من المعطيات التاريخية المهمة، إلى جانب إحداث تراكم معرفي علمي يساعد على بلورة رؤية علمية ثقافية تسهم في تقديم معرفة تاريخية علمية عن هذه المواقع التاريخية، الشيء الذي ساهم في ظهور عدد من الدراسات لعدة مواقع ومدن لها أهميتها في تاريخ المغرب من قبيل فاس وباديتها، تاريخ مراكش من التأسيس إلى الحماية، تاريخ تطوان، سجلماسة وإقليمها... لكن هذه الأخيرة وحسب كتب التاريخ يطلق عليها كذلك اسم تافيلالت مما جعل الأستاذ العربي مزين يُعد أطروحة في ذلك،[(١)] وفي هذا الصدد يرى عدد من الدارسين أن تافيلالت تطلق على سجلماسة التاريخية مما أثار إشكالية حول العلاقة بين الاسمين، فكيف يمكن الفصل في هذه الإشكالية؟ وماهي الدلالات التي تحملها كلمة تافيلالت حتى يمكننا تحديد الفرق بينهما، وكذلك تحديد تاريخ هذه الأسماء حسب الأسبقية الزمنية والمجالات الجغرافية التي تشغلها.

## أولاً: تافيلالت ودلالة الاسم

تأخذ الكلمات عدة معان ودلالات على المستوى اللغوي والاصطلاحي، بل قد تكون لها معان ودلالات مرتبطة بالرواية

الشفوية أو ببعض الأحداث والوقائع التي عرفتها مناطق أو مجالات يكون لها ارتباط مباشر بهذه الأسماء والكلمات، وتافيلالت لم تخرج عن هذا السياق لذلك نجد عدة تفسيرات لهذه الكلمة سواء من طرف الباحثين والمؤرخين المغاربة أو الأجانب، لكن قد نتوصل إلى أنهما يحملان الدلالة نفسها، وهو المجال الجغرافي لتافيلالت رغم اختلاف حدوده الجغرافية من فترة زمنية إلى أخرى، وأدى تصور كل باحث ومؤرخ على طول امتداد التاريخ الفيلالي الذي يمكن تأطيره من تأسيس سجلماسة وحتى التاريخ المعاصر لهذا المجال الشاسع، ويمكن أن نشير إلى بعض الباحثين الذين كتبوا عن تافيلالت أو بحثوا في تاريخ هذه المنطقة وقدموا إشارات مهمة في هذا المجال.

ولابد من الإشارة إلى؛ أن كلمة تافيلالت تستعمل للدلالة على مجالات سجلماسة، إلا أن هذا اللفظ "تافيلالت" أحدث عهد من سجلماسة كونها وليدة العصور الحديثة، وأوسع نطاق من سجلماسة، ذلك أن منطقة تافيلالت في مفهومها الواسع إحدى أهم الأقاليم المغربية التي نعتت باسم سجلماسة قديمًا، فقد ظلت الأجهزة الإدارية الرسمية توظفه في وثائقها إلى حين وصول العلويين إلى الحكم حيث سادت في بداية عهدهم ازدواجية استعمال "سجلماسة"، أو "تافيلالت" إلى غاية عهد الحسن الأول حيث تم الاقتصار فقط على اسم تافيلالت،(٢) وفي ذلك أشار الأستاذ حسن حافظي إلى أن كلمة تافيلالت تستعمل للدلالة على مجالات سجلماسة في بعض المصادر، لكن البعض حسب رأيه يرى أنها وليدة العصور الحديثة بحجة أن الحسن الوزان لم يستعمل الكلمة في كتابه "وصف إفريقيا" خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي،(٣) لكنه أورد إشارة أخرى توضح وجود المصطلح قبل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي من خلال تأكيده على استعمال ابن خلدون له خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أثناء حديثه عن مواطن أولاد حسين من عرب المعقل، لكن استعمال المصطلح لم يتم تداوله بكثرة إلا خلال العهد السعدي.(٤)

ولكن حسب الرواية الشفوية المحلية وهي المتداولة بشكل كبير، فإن مصطلح تافيلالت يرجع ظهوره إلى العصر الوسيط، وبالتأكيد خلال فترة قدوم الحسن بن القاسم القادم من ينبوع النخيل إلى تافيلالت أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ذلك أن لفظ تافيلالت اشتق من كلمة "أفيو" من فعل وفى يفي و"أوفيو" معناها أوفوا بصيغة أنتم في الأمر، وهذه الكلمة هي التي كان يقولها الشريف مولاي الحسن بن القاسم بعد استقراره في سجلماسة بعدما علمهم طرق ري جديدة وبالمقابل تعهد السكان بتأدية ربع الإنتاج في حالة نجاح فلاحتهم، لكن رواية أخرى تقول أنه علمهم تعبئة النخيل الذي كان إنتاجه ضعيف لكن سكان سجلماسة رفضوا بعد أن تحقق لهم ذلك إعطاء الشريف ما وعدوه به، فكان يقول لهم "أوفيو" أي أعطوني ما وعدتموني به فيجيبونه "لالا" فسموا بـ " فيلالا" من كلمتي (أفيو + لالا) فتكون تسمية تافيلالت على هذا مشتقة من "فيلالا" خاصةً وأن إضافة تاء البداية وتاء النهاية تكون لإعطاء اسم المكان العربي صيغة بربرية.(٥)

لكن إشارة بعض الباحثين الأجانب إلى دلالة الاسم تعطي معاني أخرى جلها مرتبطة بالوضع الطبونيمي، أي أنها مشتقة من المكان، فحسب (F.Gendre) فإن كلمة تافيلالت هي الصيغة البربرية لكلمة "فيلال" وهي اسم منطقة في الجزيرة العربية، لكن استعمال هذه الكلمة شاع في فترة قدوم الهلاليين إلى المغرب الأقصى بفضل عرب الصباح الذين استقروا في منطقة تيزيمي والجرف بإقليم سجلماسة بعد أن رافقوا الهلاليين في طريقهم نحو الغرب.(٦) أما الباحثة جاك موني (Meunié D J) فقد أكدت أن كلمة تافيلالت هي تصغير لكلمة "افيلال"، أو "أوفيلال" التي تطلق على سلسلة جبلية صغيرة في مناطق سجلماسة على أعلى قمة بها (٧٨٥م)، توجد على بعد (٥٠) كلم جنوب جنوب شرق مدينة الريصاني، و(٤) كلم شمال غرب الطاوز،(٧) وأكد الأستاذ الحافظي أن جبل أفيلال من المواقع المأهولة قديما في مناطق سجلماسة لأن به بعض الآثار التي تشهد على استقرار الإنسان منذ فترة غابرة، وهي عبارة عن رسوم للعربات التي تجرها الخيول وبعض الكتابات من تيفناغ لغة التوارك،(٨) أما الأستاذ العربي مزين فقد أشار إلى أن تافيلالت مصطلح أمازيغي يعني "القدح" ويشير إلى منطقة تقارب وادي زيز وغريس.(٩)

فمن خلال ما سبق يمكن القول؛ إن دلالة الكلمة "تافيلالت" اتخذت معنيين الأول مرتبط ومستنتج من خلال التعامل الإنساني المتمثل في الوفاء بالعهد، وهو الرأي المتداول داخل الأوساط الفيلالية اليوم رغم أن الرواية الشفوية هي أساس هذا الرأي، أما الثاني فمرتبط بالمكان أي أنه يحمل دلالة مكانية سواء بشبه الجزيرة العربية وخاصةً ينبوع النخيل التي قدم العلويون منها، أو بجبل أفيلال المتواجد في المنطقة، لكن معظم الروايات أشارت إلى أن المصطلح ظهر في فترة متأخرة عن سجلماسة، وبالتالي فهذه الأخيرة كانت أسبق من حيث الاسم وعبرت كذلك عن المجال الجغرافي الذي شغلته هذه المدينة المؤسسة منذ ١٤٠هـ*

## ثانيًا: تافيلالت المجال والإشعاع

لقد عرفت تافيلالت إشعاعًا كبيرًا عند بداية حكم الدولة العلوية كمنطقة لها الإشعاع نفسه الذي كان لسجلماسة لذلك يصعب في بعض الأحيان أن يتم فصل سجلماسة عن تافيلالت للارتباط الوثيق بين الكلمتين من حيث المنطلق، وتداخل المجال الجغرافي الذي ميزها عبر تاريخها الممتد من (١٤٠هـ) إلى اليوم، اللهم اعتبار سجلماسة كلمة تاريخية ارتبطت حاليًا بالموقع الأثري سجلماسة المعروف حاليًا بـ "المدينة العامرة" في حين مصطلح تافيلالت عرف نوعًا من الامتداد والتقلص حسب قوة أو ضعف السلطة المركزية طيلة العصر الوسيط والحديث بل وحسب قوة أو

ضعف كل سلطان على حدا، ولذلك يصعب على الباحثين تحديد المجال الجغرافي الذي شغلته تافيلالت بتدقيق خلال تاريخها الوسيط والحديث بل وبداية المعاصر، ونظرًا لغياب التحديد الإداري المفصل للأقاليم والمناطق خلال هذه الفترة التاريخية اللهم وجود بعض الإشارات العامة في بعض المصادر والمراجع التي تطرقت لتافيلالت أو سجلماسة، بل هناك مَنْ يربط بين سجلماسة وتافيلالت إلى حد التطابق المجالي بينهما، وهناك مَنْ يعتبر سجلماسة ضمن المجال الجغرافي لتافيلالت، وهناك مَنْ يعتبر العكس، ولعل هذا الاختلاف ناتج عن اختلاف التحديد الزمني للمجال الفيلالي أو السجلماسي، لكن ما تم الجزم فيه أن سجلماسة حسب المصادر والمراجع التاريخية أسبق زمنيًا من تافيلالت،[١٠] فالأستاذ عبد العزيز بن عبد الله يرى أن "تافيلالت منطقة الواحات (حيث توجد سجلماسة المؤسسة سنة ١٤٠هـ /٧٥٨م) تسمى بالبربرية تافيلالت، وقد سماها المؤرخون العرب . تافلالة . أو . فيلالة . وهي التي استقر بها جد العلويين أو الشرفاء الفيلاليين، الشريف الماجد حسن بن القاسم"،[١١] فمن خلال هذا النص يتضح أن تافيلالت هي منطقة الواحات ولعل المقصود بها واحة كير وواحة زيز وغريس ودرعة، وبالتالي فالمجال الفيلالي يضم حوض كير وزيز وغريس ودرعة، ودليل ذلك أنه في سياق حديثه عن الشرفاء السعديين قال: "فقد استقروا في سهول درعة وتافيلالت، هي أحد أبواب الصحراء ومسقط الأسرة العلوية الشريفة.[١٢] وهكذا؛ نجده مزج بين درعة وتافيلالت ومعظم الدراسات الوسيطية تؤكد تبعية درعة لسجلماسة إداريًا ومجاليًا.[١٣]

وفي العهد السعدي نجد الحدود الشمالية لتافيلالت تصل إلى حدود الزاوية الحمزاوية أو العياشية، التي تنتمي إلى قبيلة آيت عياش من قبائل البربر التي تتاخم الصحراء من أحواز سجلماسة،[١٤] وعلى مستوى الحدود الشرقية توجد إشارة لها في رسالة من محمد الشيخ السعدي لأبي القاسم يقول فيها: "أهل فجيج أقرب لي من كل أحد، هم إخواني ولا يامن قلبي إلا وسط أهل فجيج وفيلالة هم أهل بلادنا ونحن وإياهم كعضو واحد وإخواننا"،[١٥] ومن خلال هذه الرسالة يتضح أن أهل فجيج وتافيلالت شكلوا مجالاً واحدًا حسب توضيح السلطان السعدي محمد الشيخ. وحسب الأستاذ بنعبد الله عبد العزيز نجد أن المصطلح استعمل للدلالة على المجال المغربي بكامله وذلك من خلال إشارته إلى ذلك بالقول، وكان مؤسس الدولة العلوية المولى الرشيد يعرف بملك تافيلالت عند المؤرخين الغربيين"،[١٦] والمؤكد تاريخًا أن المولى الرشيد هو السلطان العلوي الذي تمكن من توحيد المغرب بعد دخوله مدينة فاس، وعمل على ترسيخ قواعد الدولة العلوية، هذا ما جعل إشعاع تافيلالت يطلق على المغرب بصفة عامة، ومنذ عهد المولى الرشيد وإلى بداية حكم السلطان المولى الحسن الأول كانت المنطقة تُعرف بالاسمين معًا سجلماسة وتافيلالت، لكن مع حكم المولى الحسن الأول أقتصر الاسم فقط على "تافيلالت".[١٧] ليتسع المجال بعد ذلك بشكل أكبر، فمن خلال ما تم استنتاجه من الأرشيف الفرنسي على وجه التحديد، وخاصةً الكتابات العسكرية التي كانت تؤرخ للحملات العسكرية الفرنسية على المغرب قبل توقيع معاهدة الحماية، وبداية من سنة ١٩٠٠ بعدما بدأت فرنسا تحتل عددًا من المناطق المغربية في الشرق، حيث اعتبرت معظم هذه الكتابات أن احتلال منطقة الصفراء والتوجه نحو فكيك وعين الشعير بداية التدخل العسكري الفرنسي في تافيلالت،[١٨] ولعل هذا ما يوضح المجال الكبير الذي شغلته تافيلالت من الحدود الصحراوية أو الصحراء الكبرى إلى واحة توات امتدادًا إلى فكيك وعين الصفراء، وصولاً إلى الزاوية العياشية، هذا في الوقت الذي اعتبر المختار السوسي مدينة تنجداد من بسيط تافيلالت وهو يصف رحلته الوزارية فقال: "بكرنا إلى بسيط تافيلالت فنزلت في تنجداد حيث كنت قضيت تسعة أشهر في المنفى"،[١٩] ويفهم من كلام المختار السوسي أن بسيط تافيلالت يوجد قبل الوصول إلى مدينة تنجداد وكان هذا التحديد مع بداية الاستقلال.

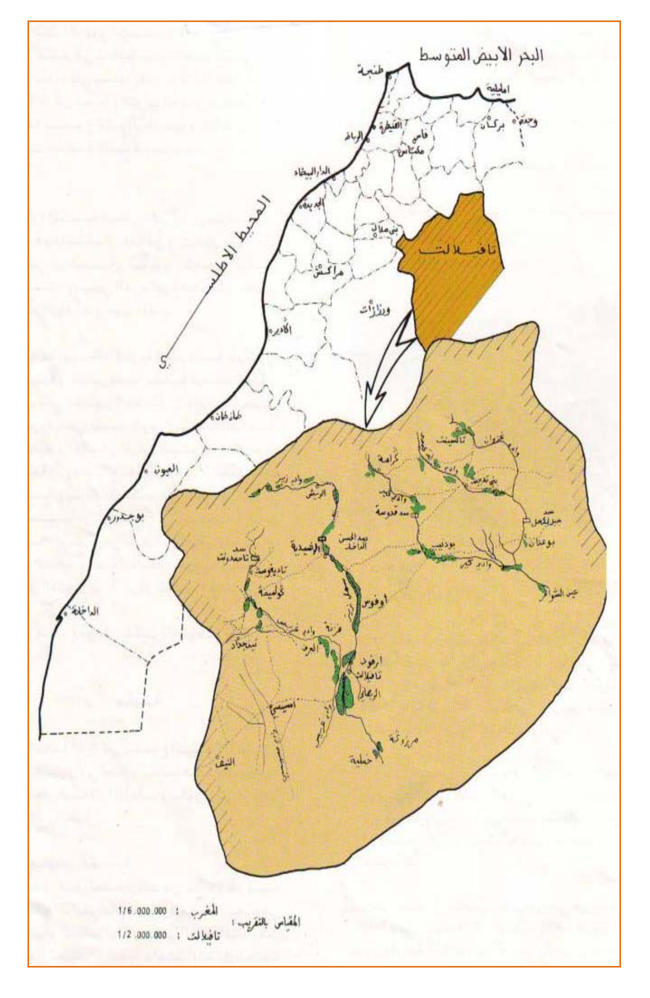
فمن خلال ما سبق يتضح؛ أن المجال الفيلالي منذ ظهور المصطلح عَرف نوعًا من الامتداد ليحدد مجالاً اكبر يطلق عليه تافيلالت الكبرى أو تافيلالت التاريخية ويقصد بها أقصى المجال الجغرافي الذي شغلته تافيلالت في مراحل توسعها الكبير. لكن ما المقصود بتافيلالت اليوم؟ تعرف دلالة مصطلح تافيلالت من الناحية المجالية نوعًا من التغيير، وذلك مرتبط بالامتداد المجالي ودلالة المصطلح، فقد تعني تافيلالت اليوم عند سكان الشمال المغربي منطقة الرشيدية في إطار حدودها الإدارية، وتعني عند سكان الرشيدية كل من منطقة أرفود والريصاني بمجالاتها المنتشرة، لكن تافيلالت عند سكان أرفود تعني مدينة الريصاني بقصورها المنتشرة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وكذا بمدينة الريصاني، فتافيلالت تعني قصور الجماعة القروية للسفالات، وبذلك يمكن القول إن تافيلالت في الوقت الراهن تعني المناطق الجنوبية لمدينة الريصاني حسب رأي غالبية سكان المدينة، لكن المفهوم يتغير لدى سكان مدينة أرفود، وكذلك لدى سكان الرشيدية امتداد إلى المناطق الشمالية من المغرب.

## خاتمة

لقد ساهمت الدراسة الطبونمية في تقديم عدد من التوضيحات بالنسبة لعدد من المصطلحات والمفاهيم باعتبارها تعتمد الدراسة والبحث انطلاقًا من الجزء البسيط وصولاً إلى المجال الكبير، وبذلك فتافيلالت من حيث الدلالة تحمل معان لغوية، وأخرى اصطلاحية، إلى جانب بعض الدلالات المرتبطة بالرواية الشفوية والتي تشير إلى مرحلة تاريخية مهمة في تاريخ تافيلالت، أما من حيث المجال الجغرافي فقد عرف نوعًا من الامتداد في مراحل تاريخية عرفت المنطقة فيها إشعاعًا اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، إلى جانب قوة أو ضعف السلطة المتحكمة في

المدينة، مما جعل المجال الجغرافي لهذه المنطقة يتغير حسب السلط الحاكمة لها، والمراحل التاريخية. هذا ما يجعل الباحث يميز اليوم بين تافيلالت الحالية . في الوقت الراهن . وتافيلالت التاريخية أو ما يُعرف بتافيلالت الكبرى.

## الملاحق:




## الهَوامِشُ:

(1) larbi Mezzine : le Tafilalt contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe , publications de la faculté des lettres et des sciences humaines – rabat, 1987 1

(٢) علي العلمي: **قصور تافيلالت ما بين التدهور ومحاولات الإنقاذ**، الشبكة العنكبوتية، كلمة "قصور تافيلالت".

(٣) **سجلماسة وإقليمها**، مطبعة وزارة الأوقاف ، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص٨٩.

(٤) المرجع نفسه. وابن خلدون: **كتاب العبر**، دار الفكر للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٨١، ج ٦/ ص ٧٧-٨٧-٨٩.

(٥) لتفاصيل هذه الرواية يرجع إلى سجلماسة وإقليمها، للأستاذ حسن حافظي، م ، س ، ص ٨٩-٩٠، وقد اتفق معه أيضًا لحسن تاوشخت في إسناد هذه الرواية، انظر قصور تافيلالت ما بين التدهور ومحاولات الإنقاذ، علي العلمي، الشبكة العنكبوتية "قصور تافيلالت".

(6) F . Gendre. Le Tafilalete, R.G.M3-4éme trim. Mai – Aout.1942.pp :45-57

(٧) حسن حافظي: سجلماسة ...م ، س، ص ٩٠-٩١. وأيضًا:

Meunié DJ : Abbar, cité rayale du Tafilalete . H-- ,1959.pp9-67.

(٨) حسن حافظي: سجلماسة ...، م ، س ، ص ٩١

(٩) علي العلمي: قصور تافيلالت ...، م ، س.

*. لمعرفة المزيد من تاريخ هذه المدينة يرجع إلى **مدينة سجلماسة**، محمد امراني علوي، مجلة الرشيدة، العدد الأول، ٢٠١٢، ص ٨١.

(١٠) يمكن الاطلاع على كتب التاريخ العام والدراسات التي أنجزت حول سجلماسة أو تافيلالت.

(١١) **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، معلمة المدن والقبائل مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ١٩٧٧، ص ١٢٨.

(١٢) نفسه، ص١٢٩.

(١٣) محمد امراني علوي: **تافيلالت، التاريخ، الإنسان، المجال**، مطبعة الودغيريين، ٢٠١١، ص٩٢.

(١٤) عبد الله بنصر العلوي: **أبو سالم العياشي المتصوف والأديب**، مطبوعات وزارة الأوقاف، ١٩٩٨، ص ٥٩، والمسناوي: جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر، مخطوط، خ، ع، رقم ٥٧٦ج، ١٠.

(١٥) بنعلي محمد بوزيان: **واحة فكيك، تاريخ وأعلام**، طبعة أولى، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٧، ص٤٤.

(١٦) عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة ...، م ، س ، ص ١٩٢.

(١٧) على العلمي : م، س .

(١٨) يمكن الاطلاع على الكتابات الفرنسية التي تؤرخ لبداية الحملات العسكرية على المغرب، انطلاقًا من الجزائر، وهكذا يمكن الاطلاع على: . مولاي علي الشريف الزكي العلوي: **نسيم الزهر المرعي في مناقب مولاي احمد بن محمد بن الحسن السبعي**: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، طبعة أولى، ٢٠١١. وأيضًا:

Journal des Marches et opérations, de le colonne Principale – colonne levé- la première compagne du Hout-Guir du 23 Avril ou 24 Mai 1908. Lyautey: vers le Maroc. lettres du sud-oranais,1903-1906, librairie Armand colin,103 Boulevard saint-Michel,Pariis1937. historique du Bataillon, 8e régiment de Tirailleurs Tunisiens,3e Bataillon de March, de puis la Mobilisation- 2 Aout 1914- Jusqu'a la signature de la Paix -28juin1919-.

(١٩) **العلامة المختار السوسي: وزير للأوقاف (١٩٥٦- ١٩٥٧)**، جريدة التجديد، العدد (١١٥٦)، ٢٠ - ٢٢ مايو ٢٠٠٥، ص٧.

# سجـــلماسة
# من المدينة إلى القصور

**د. لحسن تاوشيخت**

أستاذ التعليم العالي

رئيس قطب تدبير المجموعات وخدمة العموم

المكتبة الوطنية – المملكة المغربية

## مُلَخَّصْ

إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرًا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع، فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار "مديني" تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط "بدوي" يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما "نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة [للهجرة الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي] من الطاعون الجارف الذي...ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها... وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن" (المقدمة، ١٩٧٨). بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضًا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونًا وطابعًا خاصًا. أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلاً عن كونها شكلت مركزًا حضريًا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة "القصور".

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ٥ يونيو ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أغسطس ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

الحكم المريني، تافيلالت، القصور المخزنية، قصور وقصبات، الطابية والطوبية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

لحسن تاوشيخت. "سجلماسة من المدينة إلى القصور".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص٥٣ – ٦٣.

## مُقَدِّمَةٌ

شُيدت مدينة سجلماسة سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) من طرف خوارج مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكّو بن واسول، وعرفت نموًا كبيرًا خلال الثلاثة قرون الموالية. اتخذت في البداية شكل عاصمة دولة، فتوفرت على المرافق الضرورية لذلك مثل دار الإمارة، والمسجد الجامع في الوسط، والسوق بالقرب من المركز، والدور السكنية، والمرافق العمومية، والمعامل الحرفية، والحمامات العمومية، والحدائق... وفي فترة الإمارة المستقلة في سجلماسة، كانت المدينة تتحكم في العلاقات بين ضفتي الصحراء، وكان من نتائج ذلك أن ازدهرت المدينة ونشأت بها دور لسك العملة الذهبية، وفي المقابل جلبت لها هذه الحظوة أطماع كل القوى السياسية قبل أن يسيطر عليها المرابطون سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٤م).

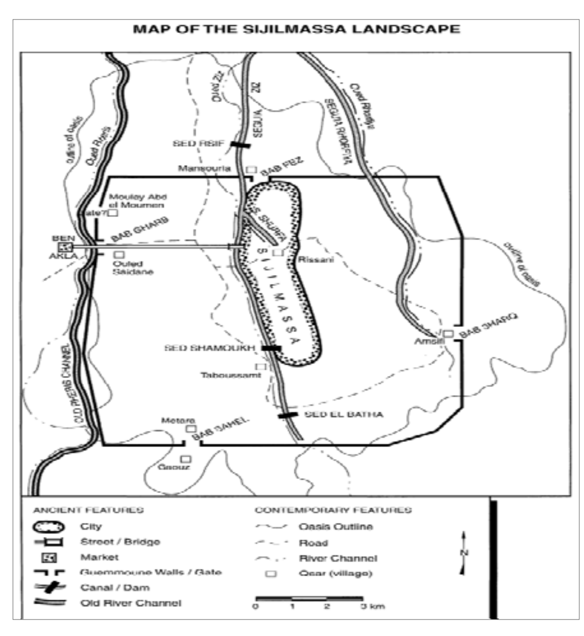
مع السيطرة المرابطية تحولت سجلماسة إلى عاصمة إقليم لدولة شاسعة، واندمجت في شبكة اقتصادية وسياسية أكبر، وشهدت تغييرات متناقضة من حاكم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. وكان من نتائج كل هذه السياسات المختلفة، أن فقدت سجلماسة الكثير من بريقها، بل وأصبحت وضعيتها السياسية غامضة في نهاية العصر المريني، إذ شهدت العديد من الصراعات انتهت بتخريبها وتفرق سكانها في القصور والقصبات.



## أولاً: عوامل تحول مدينة سجلماسة إلى قصور وقصبات

ظلت مدينة سجلماسة تابعة رمزيًا على الأقل للحكم المركزي المريني بفاس، لكن وضعها بدأ في التدهور الفعلي منذ فترة حكم أبي الحسن خلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، قبل أن تندثر نهائيًا في عهد أبي العباس أحمد مع نهاية هذا القرن [حوالي سنة 802 – 795ه/ ١٣٩٣ – ١٤٠٠م] بعد أن عانت من الثورات والتمردات بين حكامها وبين هؤلاء وسلاطين بني مرين، فتشتت سكانها في قصبات خاصة بهم بالضواحي. ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أن المرينيين عهدوا بحكم إقليم سجلماسة إلى "أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءهم .وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر، والبعض الآخر خاضع للأعراب."[١] وتبقى العوامل غير المباشرة لهذا الاندثار جد مترابطة ويمكن تلخيصها في أربعة أساسية هي:

- **العامل الأول**، يتمثل في هيمنة القبائل العربية وما سببته من قلاقل، مما أثر بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للمدينة. فضعفت المحاصيل الزراعية، وتوقف سك العملة، وتحولت مسالك تجارة القوافل إلى جهة أخرى..." وعمت فوضى كثيرة البلد خلال فترة استقرار وهيمنة القبائل العربية. في الوقت نفسه تدهورت التجارة الصحراوية، وضعفت سجلماسة، المدينة المحورية للواحات وانتهى بها المطاف إلى الاندثار."[٢]
- **العامل الثاني**، يتعلق بتحول مسالك التجارة الصحراوية نحو موانئ المحيط الأطلسي مع ظهور البرتغاليين بهذه الشواطئ ونحو المناطق التي كانت أكثر أمنًا مثل تلمسان وإفريقية ودرعة. هذا التحول حال دون استفادة المدينة من موارد رئيسة التي بفضلها نشأت أول الأمر، وعرفت أوجها اقتصاديًا وسياسيًا في عدة فترات.
- **العامل الثالث**، يرتبط بسياسة سلاطين بني مرين أنفسهم وخاصةً منهم أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن تجاه سكان سجلماسة، حيث قاموا بمحاصرة المدينة بقوة ولمدد طويلة، بل ودخلوها عنوة، وكان لذلك تأثيرًا سلبيًا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب الاستقصا "أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها، واشتغل بتغوير ماء العين.[٣] التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها".[٤] من جهته، يذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط [المحرم ٧٣١ ه/ ١٣٣١م إلى ٧٥١ ه/ ١٣٥١م] حارب "سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ "عين تيمدرين "القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال."[٥] هذا فضلاً عن فرض ضرائب ثقيلة وغير شرعية والتي قام ابن مرزوق بتفصيل أنواعها في كتابه المسند الصحيح([٦]) وكان لهذه السياسة فعلها السلبي خاصةً في وقت الأزمات المتتالية التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بسبب تعاقب سنوات الجفاف والمجاعة.




- **العامل الرابع**، يرتبط بالظروف المناخية القاسية من الجفاف والأوبئة. وقد ترك لنا ابن خلدون صورة سوداوية للطاعون الذي عم المغرب خلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حيث قال: "وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هدمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وقل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها."[٧] وذكر الناصري من جهته نقلا عن ابن قنفذ أن سنة (٧٧٦ه/

١٣٧٥م): "كانت سنة مجاعة في المغرب، وعم على إثرها الخراب، حيث انتشر الخوف والجوع."[٨] وفي موضع آخر يصف المؤرخ نفسه مخلفات الطاعون الأسود على المغرب بما فيه سجلماسة "حيث انتقص العمران على الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل."[٩]

وبذلك عرفت سجلماسة فترة من عدم الاستقرار ووصلت بها الأوضاع الداخلية حدًا لا يطاق "وهكذا ومع موت السلطان أبي العباس (أحمد المنتصر) سنة ١٣٩٣م، ثار إقليم سجلماسة، فقتل السكان حاكم المدينة وحطموا سورها"[١٠] ويعتقد أن المدينة عرفت مرحلتين من التخريب أولها: "أن يكون ذلك قد حدث في أواخر القرن (٨ هـ/ ١٤م) بعد ثورة أهاليها سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) وتهديمهم للسور الخارجي لها ثم انتقالهم إلى السكن في القصور الكبرى المحصنة حسب رواية الوزان وثانيها: أن تكون ثورة الأهالي هذه بداية لأعمال تخريب متوالية أتت على إندراس المعالم المعمارية للمدينة بالتدريج طيلة النصف الأول من القرن (٩ هـ/ ١٥م)".[١١] وبذلك تكون مدينة سجلماسة قد وصلت إلى نهايتها المحتومة، حيث هدمت عن آخرها.. فالتجأ سكانها إلى الضواحي فبنوا لهم قصورًا خاصة بهم.

من وجهة الرواية الشفوية، فهي تتذكر أسطورتين مختلفتين عن اندثار سجلماسة: تقول الأولى إن السلطان الأكحل "الأسود" ويقصد به ربما حاكم المدينة، ذهب يتجول في إحدى الليالي، فالتقى امرأة خرجت رفقة أبنائها قصد غسل بعض الملابس. فطلب منها السلطان أن تربط معه علاقة غير شرعية، فلما رفضت قام بتصفية ابنا لها، إذ قسمه بسيفه إلى شطرين وقدمه لكلابه. هذا الفعل الشنيع لم يستسغه السجلماسيون فنددوا به وقاموا بالثورة أدت إلى نشوب الحرب التي قتل على إثرها الحاكم، وكان من نتائجها تدمير المدينة.

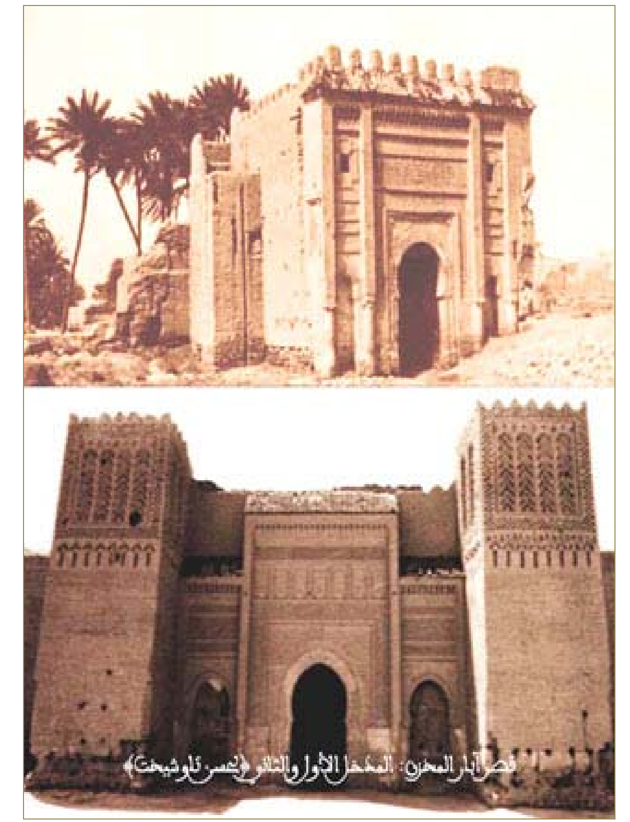
الأسطورة الثانية تشير إلى أن سكان المدينة استيقظوا فجر ذات يوم على مؤذن المسجد الجامع وهو يصيح بعد أذان الصبح "أصبح ولله وخلت" بدلا من "أصبح ولله الحمد"، ويمكن أن نستشف من وراء ذلك أن المدينة ربما تعرضت في ليلة هذا اليوم لكارثة طبيعية تتمثل على الأرجح في زلزال قوي، أو فيضان جارف. ذلك أن التوضعات النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبًا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبًا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر، فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصةً وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول "اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن (١٤ الميلادي/ ٨ للهجرة)، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة."[١٢] ويبقى تأكيد أحد العوامل المؤدية إلى الاندثار السريع والمفاجئ لمدينة سجلماسة، مرهونًا بنتائج الحفريات الأثرية في غياب أي مصدر مكتوب يمكن الاعتماد عليه.

## ثانيًا: انتقال الإشعاع الحضاري من سجلماسة إلى القصور

رغم اندثار مدينة سجلماسة؛ فإن أنشطتها الاقتصادية ودورها التاريخي (السياسي) لم يتوقفا، بل انتقلا إلى أهم القصور الكبيرة، يمكن ذكر ثلاث رئيسية منها: "أولها يسمى تانجيوت وعدد سكانه نحو ألف كانون وبه بعض الصناع. والثاني يسمى تابوعصامت وهو أكبر منه وأكثر حضارة وفيه عدد كبير من التجار الأجانب، واليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من بقية الإقليم. والقصر الثالث يسمى المأمون وهو أيضًا كبير حصين كثير السكان خصوصًا منهم التجار اليهود والمسلمين."[١٣] فقصر تابوعصامت الذي لا زال صامدًا من الممكن أنه شيد بين سنتي (٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م)، و(٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م) في جنوب المدينة الأم والذي كان بمثابة المركز التجاري والحرفي ودارًا لضرب العملة إلى غاية (القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي). بينما اندثر القصران الآخران، المأمون وتانجيوت ولم يبق لهما أثر، ويطلق اسم "تانجيوت" على مقاطعة أو مشيخة بكاملها والواقعة في شمال شرق تافيلالت ومن قصورها مزكيدة، أولاد يوسف والقصر الفوقاني. "كان لكل من تانيجيوت وتابوعصامت والمامون في (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) أمير يدير شؤون القصر ويعمل على حمايته من غارات الأعراب. واستقر بهذه القصور الحرفيون والتجار المسلمون واليهود كما كان بكل منها دار سكة تضرب بها مثاقل خفيفة من الذهب الرديء ونقود من الفضة."[١٤]

من جهة أخرى؛ وابتداءً من (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) بدأ اسم سجلماسة الذي يعني المدينة، ينمحي من النصوص التاريخية واستبدل في بعض المرات باسم إقليم سجلماسة قبل أن يعوض نهائيًا باسم تافيلالت. وهنا يمكن طرح التساؤل التالي: هل اندثرت المدينة بكاملها أم أنها احتفظت ببعض معالمها ولو على شكل قصور كما هو الشأن بالنسبة لقصر الريصاني الذي يرجعه البعض اعتمادًا على بعض البقايا الأثرية، إلى العصر المريني؟

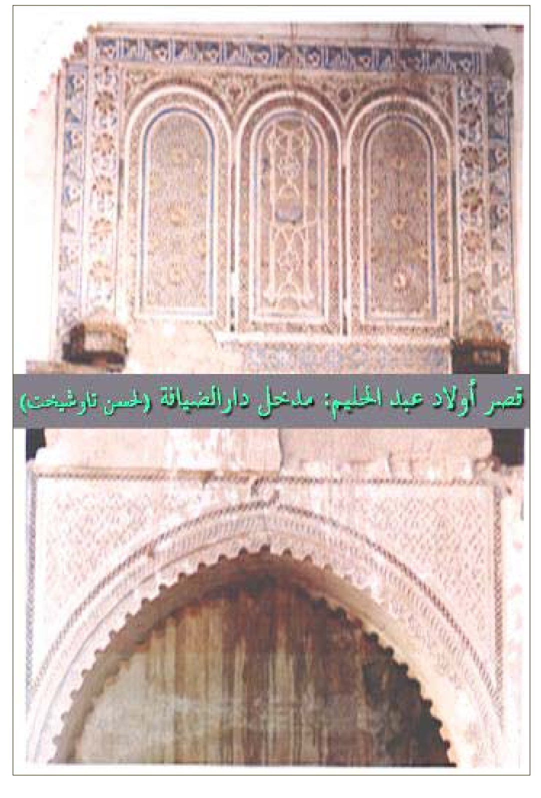
كما يمكن القول؛ إن موقع سجلماسة لم يظل يبابا منذ تاريخ هدم المدينة في أواخر (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، بل بنيت فوق بعض أجزائه قصورًا وأنشئت في أجزاء أخرى منه مراكز حرفية كما هو الحال بالنسبة للصنائع الخزفية التي تم العثور على الكثير من بقاياها. ويبقى مع ذلك أن أغلبية السكان ربما استقروا في قصور خاصة بهم بنوها في الضواحي.




إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرًا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع؛ فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار "مديني" تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط "قروي" يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما "نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة (القرن الرابع عشر الميلادي) من الطاعون الجارف الذي... ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها... وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن".[١٥]

بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضًا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونًا وطابعًا خاصًا. أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلاً عن كونها شكلت مركزًا حضريًا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة. وفي هذا الصدد يشير أبو حامد الأندلسي إلى "أن سجلماسة كانت محاطة بمساكن محصنة".[١٦]

وحول أصل هذا النمط المعماري، يذكر ابن خلدون "أن القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكونت لها دول في بلاد المغرب، بني مرين بفاس وبني زيان في تلمسان".[١٧] لذلك يمكن إرجاع أصول ظاهرة القصور إلى القبائل الزناتية، خاصةً وأن "المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق بينما المنزل الصنهاجي "القبايلي "يتكون من سكن أرضي فقط".[١٨] كما يعود الفضل في انتشار هذا النمط السكني "في المناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة التي أنشأت أغلب واحات الصحراء كواحات سوف ووادي ريغ وورگلة وتيدكلت وتوات".[١٩] ويشير أحد الباحثين المتخصصين أن قصور تافيلالت تنتمي إلى الحضارة المتوسطية، فقد "عرف سكانها تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام، فالمنازل ذات الصحون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتحصين والتنظيم البسيط ومتانة بناء الأسوار ووجود النخيل والجمال، كلها معطيات تنتمي إلى حوض بحر الأبيض المتوسط".[٢٠]


قصر أولاد عبد الحليم: مدخل دار الضيافة (حسن تاوشيخت)

وعلى كل حال؛ فمن المؤكد أن قبائل بني معقل حين بسطت سيطرتها على منطقة سجلماسة في (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، لم يكن المجال بيداء وإنما وجدت بعض القصور قائمة بدون شك. "فقبيلة مكناسة التي أسست مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي تنتمي للجماعة الزناتية، وكانت لها دراية بالهندسة المعمارية للقصور وظفتها في بناء المدينة اعتمادًا على النمط السكني السائد بمجالاتها وقد عرف بناء القصور اتساعًا وتطورًا ملحوظًا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، لأن هؤلاء أنفسهم نقلوا معهم مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة فيما سبق".[٢١]

فلم تكن قبائل الرحل بالجنوب المغربي بدوًا يتنقلون بحثًا عن المراعي فقط، بل لعبوا أيضًا دورًا أساسيًا في نشر ثقافات وعادات الحضارات المتوسطية التي كانوا على اتصال مباشر معها. وأدى ذلك "إلى ظهور التجمعات البشرية الأولى، فتطورت بذلك التشكيلات

المعمارية الدائمة بالواحات الشبه الصحراوية تحت تأثيرات محتملة لهذه المبادلات خلال عهد الزناتيين الذين نظموا وقننوا التجارة الصحراوية وتحكموا أيضًا في ساكنة الفلاحين المستقرين وشبه المستقرين".[٢٢]

كما يمكن أن يكون هذا النمط المعماري قد نقله عرب المعقل أنفسهم من بلادهم الأصلية في اليمن، ذلك أن هندسة القصور بتافيلالت تأثرت في نفس الوقت بمؤثرات أندلسية ومشرقية".([٢٣]) ويحاول باحث آخر أن يجد لهذا النمط جذورًا أوربية وإن كان رأيه يتأرجح بين الوجهة المصرية والأصل الروماني- البيزنطي، إذ يقول "إن الهندسة المعمارية للواحات ترجع لتقليد قديم جدا تم اغناؤه في العصور الإسلامية الأولى وهي في كل الأحوال، ذات أصول مصرية... هندسة الواحات تشكلت إذن -على أقصى تقدير -في القرون الإسلامية الأولى، مع بداية العصر الوسيط وقد قلدت في الهندسة التقليدية الأولى، التصاميم والبرامج المعمارية الموروثة عن روما وبيزنطة".[٢٤]

التناقض نفسه يطغى على رأي باحث أوربي آخر، فمرة يرى أن معمار سجلماسة ومنذ (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) عرف "تأثيرات الكوفة وبغداد، هذا التأثير الذي ازداد فيما بعد بفعل العلاقات الثقافية والاقتصادية المتعددة التي ربطت متربول الصحراء الكبرى مع المشرق".[٢٥] وفي المرة الثانية يذكر أن هذا النمط المعماري، "يتشابه مع مثيله الموجود بإقليم سيستان بإيران، ذلك أن الخوارج الصفرية الذين شيدوا سجلماسة يرجع أصلهم إلى بلاد فارس ومنها نقلوا تأثيرات ثقافية وحضارية إلى موطن استقرارهم في منطقة سجلماسة".[٢٦]

وعلى كل حال؛ يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظاهرة القصور في منطقة سجلماسة، ويمكن القول بأنه بعد "تخريب مدينة سجلماسة عرفت واحة تافيلالت تحصينا بواسطة سور طويل بلغ ٨٠ ميلاً (١٢٨ كيلومترات)،[٢٧] أو أن المنطقة كانت "عبارة عن قرى متعددة [قصور] كان بعضها ما يزال قائما عند ظهور زعامة الشرفاء العلويين بالصحراء. لا شك أن الأوصاف التي نعتت بها القدماء مدينة سجلماسة، إما أن تكون مدينة كبيرة جدا واندثرت في وقت لم يحدد وإما أن تكون عبارة عن قصور متوالية في منطقة معينة".[٢٨] فمن نماذج القصور التي يعتقد أنها كانت موجودة قبل اندثار مدينة سجلماسة، يذكر أحد الباحثين أن قصر الجبيل الواقع شمال غرب سجلماسة، يعتبر أقدم قصر بهذه المنطقة ويعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي ويقطنه حاليًا عدة عناصر عربية وبعض الأسر من آيت إزدك.[٢٩]

ويشير باحث آخر إلى أن القصر المعروف حاليًا تحت اسم "آبار المخزن" يرجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، رغم أن موقعه المتميز يؤهله لأن يكون أقدم من ذلك"[٣٠] وجاء في كتاب ابن الزيات التادلي أن القصر الذي يدعى برابطة أنبدور يقع خارج أسوار مدينة سجلماسة،[٣١] وأنه شهد إشعاعًا دينيًا خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). ويقع هذا القصر في مشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة، يحده قصر "البطرني في الجنوب الشرقي والساقية المسماة المنصورية شرقًا، ومولاي محمد الشيخ غربًا والجبيل وتاحسنونت شمالاً. وتوجد إلى اليوم بتافيلالت ساقية تحمل اسم الساقية النبدورية تنطلق من قصر أولاد ليمان وتمر محاذية للحدود الشمالية لخراب مدينة سجلماسة لتنتهي بقصبية الحدب".[٣٢]

ومن غير المستبعد أن العصر المريني شهد "بناء العديد من القصور وخاصةً لما استقل أبناء أبي علي عمر المريني بسجلماسة في النصف الثاني من القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، فانعكس ذلك على تطور فن معمار القصور في هذه المناطق. فقد بنى عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجلماسة ما بين (٧٦٢ - ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١-١٣٦٢م) قصبة ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم، وهي قصبة أولاد عبد الحليم".[٣٣] هذه القصبة اشتراها "السلطان سيدي محمد بن عبد الله في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وفي بداية القرن العشرين الميلادي أصبحت مقر سكنى مولاي رشيد الخليفة السلطاني على مناطق تافيلالت".[٣٤]

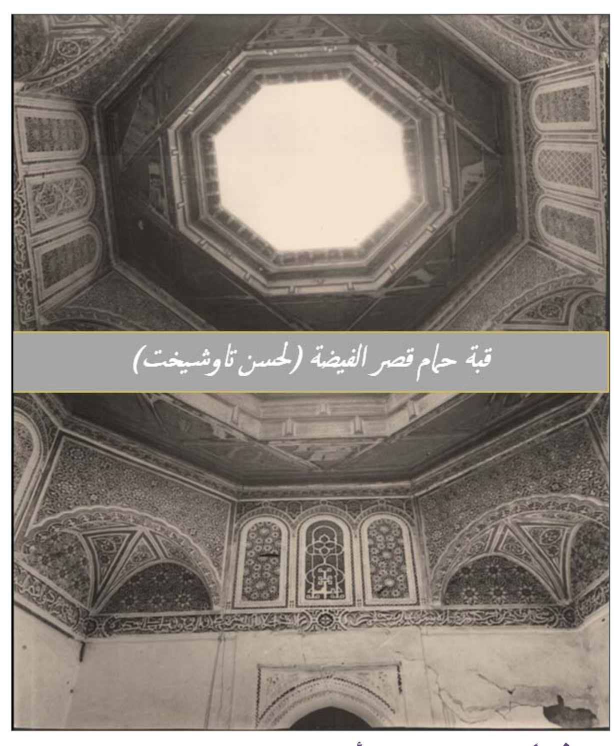
كما يمكن إرجاع تأسيس قصور مشيخة الغرفة "إلى مرحلة مبكرة من التاريخ الوسيط، غير أن أول إشارة وصلتنا عنها ترجع إلى (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)".[٣٥] وفي مشيخة واد إيفلي توجد كذلك قصور وقصبات يظهر من نمطها المعماري أنها تعود إلى ما قبل ظهور الدولة السعدية. "خربت مدينة سجلماسة قبيل عهد السعديين حتى لم يبق قائمًا منها غير الأسوار وانتقلت أهميتها التاريخية إلى القصور المجاورة وبخاصة قصر الشرفاء الحسنيين المعروف أيام السعديين بالقصبة السجلماسية".[٣٦]

وبالاعتماد على رواية محمد بن الحسن الوزان فإن معظم القصور بتافيلالت برزت مباشرة بعد اندثار مدينة سجلماسة، لما خربها سكانها وهدموا سورها فالتجأوا بالضواحي وبنوا قصورًا خاصة بهم كان عددها في بداية القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)، حوالي ثلاثمائة وخمسين قصرًا بين كبير وصغير. "استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبنائهم، وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد (أبو العباس) ملك فاس، فثار الإقليم، وقتل أهل البلاد الوالي، وهدموا سور المدينة فبقيت خالية حتى يومنا هذا (أي بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم".[٣٧]

من أهم هذه القصور تجدر الإشارة إلى ثلاثة مهمة منها هي: "قصر تانجيوت ويعود تأسيسه إلى فترة خراب مدينة سجلماسة"[٣٨] وهو قصر لم يعد له وجود وبقي فقط اسمه يطلق على مشيخة تقع في الجزء الشمالي للواحة ومن أهم قصورها مزكيدة والقصر الفوقاني. القصر الثاني يسمى المأمون وهو "كبير وحصين وكثير

السكان خصوصًا منهم التجار اليهود والمسلمين".[٣٩] إلا أن هذا القصر خرب سنة ١٨٣٠م وكان موقعه على بعد كيلومتر واحد جنوب-غرب قصر تابوعصامت على الضفة اليسرى لوادي زيز".[٤٠] أما القصر الثالث فيطلق عليه اسم تابوعصامت ويقع في جنوب سجلماسة وهو لا يزال صامدًا، بل ويعتبر من أكبر قصور المنطقة حجمًا وسكانًا.

صفوة القول؛ لقد تحكمت السلطة المركزية في مدينة سجلماسة وجعلت منها عاصمة أهم إقليم من أقاليم الدولة المغربية، فأصبحت مواردها الاقتصادية وخاصةً من تجارة القوافل، وسك العملة، والمعادن، والمنتجات الفلاحية والصنائع، بمثابة المداخيل الرئيسية لخزينة الدولة والتي لا تنضب وتستعمل كقوة مضافة لمواجهة الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية. وهذا ما جعل من المدينة الهدف الأول لكل حركة أو قوة تريد بسط سيطرتها على المغرب عامة وعلى التجارة الصحراوية بالخصوص. وكان "نتيجة ذلك أن فقدت سجلماسة وإقليمها الكثير من أهميتها السياسية والاقتصادية وكانت مركزًا لتمرد الحكام المحليين المدعمين من لدن القبائل المعقلية المحلية".[٤١] هذا فضلاً عما عرفه المغرب ككل، بما فيه منطقة سجلماسة، خلال هذه الفترة من أزمات اقتصادية نتيجة توالي سنوات الجفاف والأوبئة ويشير ابن أبي زرع أنه في سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) مثلاً انتشرت مجاعة عظيمة ووباء كبير حتى خلت البلاد من العباد.[٤٢]



قبة حمام قصر الفيضة (لحسن تاوشيخت)

## ثالثًا: مواد البناء الأساسية بقصور تافيلالت

### ١/٣- الطابية والطوبية:

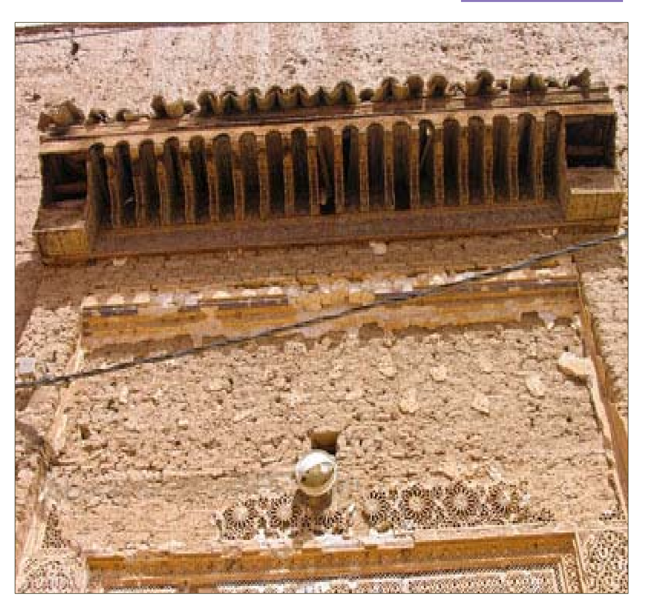
يمكن القول؛ إن المواد التي استخدمت في تشييد القصور الفيلالية سواء المندرسة منها أو الباقية، شبيهة بتلك التي استعملت في بناء مدينة سجلماسة، إذ اعتمدت أساسًا على الطابية والحجارة والآجر والجبس والخشب والخزف....إلى آخره.

تتكون الطابية من تربة صلصالية متماسكة ذات لون أحمر-بني ومختلطة بالحصى والقطع الخزفية وبقايا عظام حيوانية وأجزاء خشبية. هذه المواد محلية وقد تكون أخذت من الركامات الأثرية لمدينة سجلماسة. وتتميز الطابية بالصلابة، إذ يستخدم في بنائها على تراب طيني غني بالرمل والحصى الصغيرة يستخلص من عين المكان، ويبلغ طول الطابية حوالي ثلاث أمتار، وعلوها حوالي (٠،٨٠) مترًا ويتراوح السمك ما بين (٠،٩٠) مترًا ومتر ونصف وبذلك يصل ارتفاع السور المشيد من الطابية إلى (١١ مترًا) وأكثر بالنسبة للأبراج. ويعتمد في تركيبها على اللوح والمركاز وعلى ميزان الخيط لضبط استقامة الجدار. واستعملت الطابية في بناء الجدران الخارجية والداخلية واعتمدت في تشييد "أقدم القصور بتافيلالت، بينما زينت أبراجها وحصونها بزخرفة خاصة من الطوبية المشمسة ذات تنسيق دقيق ووحدة كبيرة".[٤٣]

أما الطوبية، فتعتمد على تراب خال من الرمل والحصى، يضاف إليه التبن الرقيق ويخلط بالماء. ويستعمل في صنعها إطار خشبي "قالب" به فراغين مستطيلين يملئان بالتراب الذي يدك حتى تلتحم أجزاؤه، فيزال القالب وتترك الطوبية على الأرض حتى تجف جيدًا تحت أشعة الشمس. يتكون القالب عادة من حجمين مختلفين، الأول كبير يبلغ في المعدل (٣٠ سم) طولاً و(١٥ سم) عرضًا، و(٨ سم) سمكًا، أما القالب الصغير الحجم فيبلغ طوله (٢٦ سم)، والعرض (١٣ سم)، والسمك (٧ سم). ويسمى صانع الطوبية، "الطواب في اصطلاح مجتمع تافيلالت".[٤٤] وإذا كانت الطابية تكون الجدران الأساسية في بناء القصور؛ فإن الطوبية تصلح لبناء الحيطان والأروقة الداخلية والأقواس والأعمدة والعقود والسلالم والأدراج وشرفات الأبراج. وتستعمل أيضًا في التوسعات والارتفاعات، وفي تزيين واجهات القصور وخاصةً في القسم العلوي للأبراج بنقوش زخرفية هندسية مثل التقويسات والإفريز وهي تعبر عن روح إبداعية بالرغم من بساطة أشكالها. وتستغل الطوبية كذلك كستار فوق الأسوار وكمادة بنائية لاحمة بين مختلف طبقات الحائط المشيد من الطابية.

### ٢/٣- الجبس والجص:

الأول يوظف في تبليط الواجهات الداخلية للجدران، بينما يستخدم الثاني في النقش والزخرفة. ويتخذ الجص شكل المكان الذي يزينه، فيحيط إطارات الفسيفساء والزليج ويحتل الجزء العلوي للأسوار وتحت السقف. كما يزين الأقواس والأعمدة الحاملة للساكف وعقود الأبواب، والمحاريب... ويتوزع الجص المنقوش على شكل إفريز أو إطار مستقيم، أو محدب أو مقوس.



**٣/٣- الخشب:**

وهو ثلاثة أنواع: خشب الصفصاف، خشب الأرز وخشب النخيل. ويعتبر خشب الأرز الصنف الأكثر شهرة واستعمالا في القصور الفيلالية وخاصةً المخزنية سواء في البناء أوفي الزخرفة. ويظهر عمومًا في الأجزاء العليا، إنه المادة المفضلة في تشييد السقوف والقباب والرتاجات الخارجية والأروقة الداخلية، وفي صنع المنابر والأبواب والمشربيات... كما استخدم أيضًا خشب النخيل والصفصاف ولكن بكيفية أقل. ويصنف الخشب الموظف في البناء إلى عدة أسماء أهمها:

- **المادة**: ويبلغ طولها ما بين ثلاثة وسبعة أمتار، بينما يتخذ سمكها شكلاً مربعًا متساوي الأضلع (٣٠،٠٠ × ٠،٤٠ متر) أو مختلف الأضلع [ما بين ٠،١٨ × ٣٠،٠٠ مترًا أو ٠،٢٦ × ٠،٤٠ مترًا].
- **الكَايزة**: هي شكل من أشكال المادة ذات الأضلع المربعة [ما بين مترين ومترين ونصف] ويتراوح سمكها ما بين (٠،١٠) و(٠،١٦ مترًا).
- **الورقة**: وترافق الكَايزة وتلتصق بها من الأسفل، ويتراوح سمكها ما بين (٠،٠١) و(٠،٠٣) مترًا، ويبلغ طولها ما بين متر ونصف ومترين أو مترين ونصف.
- **التشبيكة**: "هي أخشاب صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل كذلك يبلغ سمكها ما بين (٦ و ٨ سم) وطولها ما بين (١٢ و ١٨سم)... تسمى أيضًا "تشبيكة الربط" وهي عبارة عن مواد لاحمة توظف لتشبيك أخشاب الكايزة."[٤٥]
- **الفرد**: وهو عبارة عن خشبة من النخيل يبلغ طولها ما بين مترين ونصف وثلاثة أمتار وعرضها بين (٠،٣٠) و(٠،٥٠) متر وتستعمل في مدخل المنازل والبيوت وأحيانًا في السقف.
- **القنطرة**: وتشبه في طولها الفرد، بينما يتراوح عرضها ما بين (٠،٢٠) و(٠،٣٠) متر وتستخدم في السقف.
- **الكريدة**: "وهي خشبة صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل طولها ما بين ١ و ١،٣٠ م، أما سمكها فمحدود بين ١٥ و٣٠ سم... يتم تصفيفها وإتقانها لتكون بعض الأشكال الهندسية في السقف إما على شكل مربعات أو مستطيلات."[٤٦]
- **الجريد والقصب**: ويوظفان في بناء سقوف بعض البيوت وحظائر الحيوانات والدواجن.
- **الساكف**: وهو ما يقابل العتبة من أعلى الباب، ويشيد إلى جانب السقوف والخرجات من الخشب."[٤٧]



**٤/٣- الخزف:**

وهو أنواع أهمها الزليج والبجماط والقرميد. فأما الأول فيوجد على شكل قطع صغيرة مربعة أو تربيعات أو نجمات، ويستعمل في تزيين الأرضيات والجدران ومداخل الحجرات والمساجد، فيعطيها زخرفة متميزة. وحسب جورج مارسي G. Marçais فإن "الزليج الذي بقي المغرب وفيا له، يحتل مكانة أكثر أهمية في هذه البنايات."[٤٨] نفس الشيء يقال عن البجماط الذي يستعمل خاصة في فرش أرضيات الحمامات والممرات والصحون المفتوحة. أما القرميد الأخضر فيتخذ طابعا وظيفيا وزخرفيا ويستعمل في واجهات الشرفات العليا للأبواب الرئيسية والصحن والرياض.

**٥/٣- الحجارة:**

من أهمها الجرانيت السوداء ويتم استخدامها خاصةً في بناء أساس الأسوار على ارتفاع حوالي متر واحد اتقاء للرطوبة والفيضانات. تبنى الأسس بالحجارة الكبيرة يضاف إليها التراب والجبس لكي تلتحم وتملأ الفراغات بالحصى والحجارة الصغيرة. ويعتمد في تشييد هذه الأسس على طبيعة التربة؛ فإن كانت صلبة تشيد مباشرة فوق الأرض، بينما إذا كانت التربة هشة؛ فإن ذلك يستدعي حفر الأسس لعمق وعرض لا يتجاوزان متر واحد.

## رابعًا: التصميم المعماري

إن بناء القصر لا يعتمد بتاتًا على تصميم تطبيقي ولا على تعليمات مهندس معماري، وإنما فقط على خبرة المعلم البَناء الذي يحدد شكل القصر وحجمه ووضعه اعتمادًا على الموقع والموضع وعدد السكان المحتملين ومواد البناء المتوفرة. ويتشكل القصر عادة من بنايات متراصة يحيط بها سور عريض ومرتفع، تتخلله عدة

أبراج للحراسة. "إن كلمة القصر التي تقابلها كلمة الدوار والمدشر في باقي مناطق المغرب الأقصى، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة وكذلك كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة والقصر"،[٤٩] ويطلق عليها بالأمازيغية تغرمت وإغرم. إلا أن القصبة "تختلف بحوض وادي درعة عن تلك الموجودة بسجلماسة؛ لأنها في الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين (١٤٠) و(١٨٠) مترًا، أما السور الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. بينما القصور بسجلماسة لا تتضمن إلا سورًا واحدًا وغالبًا ما تلتصق به جدران المنازل."[٥٠] ويذهب أحد الباحثين إلى أن "الهندسة المعمارية للقصور بسجلماسة أقدم من مثيلاتها بدرعة."[٥١]

ومهما يكن الأمر، "فالقصور قرى محصنة في السهول الصحراوية أو ما قبل الصحراوية تتسم ببنية منتظمة على وثيرة واحدة تندرج ضمن حصن له أبواب ضخمة واستحكامات ركنية أي قائمة في زوايا القصور."[٥٢] وربما كانت "الضرورات الأمنية هي التي أجبرت على بناء الأسوار حول جنبات القصور وهي أسوار غالبًا ما تشيد فوق أساس من الحجارة درءًا لفيضانات الأنهار. والقصور بسجلماسة تتخذ في غالبتها شكلاً مستطيلاً تتخللها أربعة أبراج في الأركان وتكون جدرانها سميكة يتراوح عرضها بين متر واحد ومترين وعلوها ما بين (٥ و ١٠) أمتار ولا يوجد بالقصر إلا مدخل واحد غالبًا ما يكون مزخرفًا."[٥٣]

وتتميز القصور بتافيلالت في معظمها بتنظيم داخلي جد منسق، ذلك أن القصر غالبًا ما يتخذ شكلاً مستطيلاً يحيط به سور عال تتخلله أبراج في الأركان وما بينها وعلى جانبي المدخل الوحيد الذي ينفتح مباشرة في السور وسط أحد الواجهات. ويكون المدخل عبارة عن قوس يزين إطاره بنقوش جميلة، وهو يؤدي إلى رواق مغطى يفضي بدوره إلى ساحة داخلية. وقد يكون السور الخارجي للقصر منفردًا أو مزدوجًا، أما الساحة الداخلية فتتوزع عنها مرافق القصر من المسجد، والزقاق الرئيسي الذي تتفرع عنه بشكل منظم الأزقة الثانوية والدروب والدور. و"القصر بزقاقه الرئيسي وأزقته الثانوية يشبه دروب المدن الإسلامية، مما يؤكد أنه ليس حسب شكله تجمعًا سكنيًا قرويًا. كما أن اتجاه هذه القصور لم يكن اعتباطيًا: فالزقاق الكبير يتجه غالبًا نحو قبلة المسجد."[٥٤]

ويضم القصر عدة منازل متراصة ومنتظمة حول أزقة ضيقة مغطاة. وتلعب الأزقة عدة أدوار منها ما هو طبيعي مثل التهوية ومنع تسرب الرياح المحملة بالغبار والرمل، ومنها ما هو اجتماعي يتجلى في ضمان أواصر التآزر والتكافل ومنها ما هو اقتصادي حيث تستغل الأزقة من طرف النساء في إنجاز بعض الأعمال اليدوية. وبذلك يظهر القصر على شكل "خلية سكنية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش وأيضًا بعض الترابطات الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة ...السكن التقليدي المنغلق، إذ أنه يتوفر على مدخل رئيسي يعرف باسم فم القصر وفي بعض القصور نجد مدخلاً أو بابًا ثانويًا يعرف باسم الخراجية، كما أن القصر محاط بأسوار عالية وبأبراج معدة للعملية الأمنية وللحراسة المستمرة."[٥٥]

وتتشكل الترابطات السياسية والاجتماعية داخل القصر وفق عدة اتفاقيات تنظيمية عرفية يتم بموجبها ضبط سير الحياة العامة واليومية داخل القصر، والتي حاولت الكشف عنها وثيقة محلية تدعى مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء لمؤلفها مولاي الزكي بن هاشم العلوي. "هذه الوثيقة تتعلق بالمسألة العمرانية بمنطقة مدغرة وما إليها .وتبين كيف كان يتم بناء القصر وتوزيع النطاقات والحومات على فئاته وكانت تخضع هذه المسألة للوضعية المادية والمكانة الاجتماعية لكل فئة. وتبين الوثيقة المرافق التي يشارك في بنائها وبشكل لزومي كل فئات القصر، كبناء الأسوار الخارجية والأبراج والأزقة والمسجد وغيرها من المرافق العامة، وتكشف كذلك عن جملة من الشروط التي يقرها مجتمع القصر ويفرضها بصرامة على كل السكان."[٥٦]



والقصر الفيلالي يتكون من عدة منازل تتألف بدورها من طابقين وأحيانًا من ثلاثة ويفضي مدخل القصر إلى "ساحة تسمى "السكيفة" أي "السقيفة"، وبها الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. ومن السكيفة يتم المرور إلى ساحة مغلقة تصل إليها أشعة الشمس عبر فتحة في السقف، وتضم حجرتين واحدة للمواشي وأخرى للأدوات الفلاحية. أما الطابق العلوي فيخصص غالبا لسكن الأسرة وتتوزع على جنباته الغرف، وعلى إحدى زواياه الأربعة يبنى الدرج الثاني الذي يؤدي إلى طابق يضم غرفة أو غرفتين ويسمى هذا الطابق بـ "العلالي"."[٥٧]

وتمثل القصور العلوية أو المخزنية نموذجًا رائعًا للمعمار الترابي بمنطقة تافيلالت، هذه القصور تتميز بتصميم عمراني شبه موحد يتوفر على مختلف المكونات المعمارية التي تعطيه شكل وحدة سكنية متكاملة، يقطن بداخل هذه الوحدة عادة عائلة واحدة من

الشرفاء فضلاً عن الخدم وأحيانًا بعض الأحلاف القبلية، وتضم بالإضافة إلى الدور السكنية، على المسجد والحمام والرياض والساحة العمومية...إلى آخره. وتعبر هذه القصور المحصنة عن نمط من المعمار الترابي يعكس ربما الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في مرحلة معينة من تاريخ المنطقة. ويتجلى ذلك من خلال معاينة مكونات تصميم القصور العلوية والتي يمكن تحديدها من الخارج إلى الداخل كما يلي:

- **السور الخارجي**: يحيط بكل القصر ويتميز بعلوه الذي يتجاوز ١١ مترًا، تتخلله عدة أبراج مربعة يتراوح عددها ما بين (٩ و١٣). وتكون هذه الأبراج غالبًا مزينة بنقوش هندسية محززة من الطوبية؛
- **الساحة الخارجية أو المشور**: وهي مخصصة لمراسيم الاحتفال والاستقبال وغالبًا ما تشيد في أحد جوانبها مرابض الخيول؛
- **المدخل الرئيس**: وهو عبارة عن باب كبير ذي قوس منكسر ويحيط به برجان مربعان يمينًا ويسارًا فضلاً عن بوابات صغيرة مغلقة. ينفتح هذا المدخل على رواق مغطى يسمى بالدكانة تخصص للحراسة وتشيد فوقها مسرية يسكنها الحارس؛
- **المسجد**: يتكون من صحن مكشوف ومن خمس بلاطات ومن ثلاثة أساكب ومن المحراب والمنبر. ويتميز المسجد بثرائه الزخرفي من حيث النقوش الجصية والأشكال المصبوغة والخشب المنحوت؛
- **زقاق بوطويل**: وهو عبارة عن زقاق طويل يحيط بالسور الخارجي من الداخل وغالبًا ما توجد بجوانبه دور الخدم، أو يمر في الوسط فيقسم القصر إلى شطرين؛
- **الساحة الداخلية**: وتستعمل أيضًا للاستقبالات والمراسيم المختلفة وتؤدي مباشرة إلى الدار الكبيرة؛
- **الدار الكبيرة**: وهي مقر سكنى العائلة العلوية وتتوفر على مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية من الأروقة المغطاة، والصحن المفتوح، والرياض، والحمام، والحريم، وقاعات الضيافة، والمخازن، والبئر، والمطبخ...وغيرها؛
- **العرصات والجنانات**: وتوجد خارج السور الرئيسي وهي مخصصة لتزويد القصر بما يحتاجه من المواد الغذائية.

وتمكن دراسة الأشكال الزخرفية بهذه القصور أيضًا من فهم الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها، ومن تعميق المعرفة النسبية بما كانت تزخر به مدينة سجلماسة من نقوش فنية بديعة لم تسعف المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية على تقديم تفاصيل دقيقة عنها. وتتخذ الزخارف بالقصور أصنافًا متنوعة حسب طبيعتها وحسب نوعية المواد التي تتشكل منها وحسب توظيفها: فمن حيث المواد المستعملة تنقسم هذه الأشكال إلى ثلاثة هي: (الزخرفة الطينية، والزخرفة الجصية والزخرفة الخشبية)؛ من حيث تموضعها تحتل دائمًا الأماكن البارزة وتتخذ شكل إفريز، أو لوحة أو إطار؛ من حيث طبيعتها تصنف إلى عناصر زخرفية مصبوغة، وإلى عناصر زخرفية منقوشة وإلى عناصر مركبة أو مزدوجة. كما يمكن التمييز بين أشكال هندسية (معينات، وتشبيكات، ومربعات، ونجوم). وأشكال نباتية (أغصان، وأزهار، ونخلات...) وأشكال مكتوبة (الملك لله/ العز لله / العافية الباقية / آيات قرآنية / أبيات شعرية منتقاة من قصيدة البردة للبوصيري...).



من حيث التنظيم الداخلي للقصر، يمكن القول إن لشكل المعمار بتافيلالت يمثل شكلاً من أشكال التضامن الجماعي والاجتماعي، ذلك أن لكل قاطن بداخله سواء كان فردًا أو عائلة مكانته وحقه في المشاركة الفعلية في تدبير شؤون الحياة اليومية للقصر والتي تضبطها قواعد التعاون والتعاضد بمختلف تجلياتها. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول "الجمامن". والأكثر من هذا غالبًا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. كما تتضح صور التآزر في مساهمة كل أسرة حسب طاقتها، في توزيع الزكاة والأعشار والصدقات وفي أداء الكلف الاجتماعية.

في ميدان تدبير المصالح العامة، يتوفر كل قصر على جماعة تسيره وتنظمه برئاسة الشيخ الذي يتكلف بتطبيق القوانين والقرارات الصادرة عن الجماعة، وينتخب لمدة محددة ويمكن تجديد انتحابه. وتكون الجماعة مؤلفة من ممثلين عن كل سكان القصر حسب انتمائهم العرقي ووضعيتهم الاجتماعية. ويذكر محمد بن الحسن الوزان نموذجا للتنظيم الداخلي بمجتمع قصور تافيلالت خلال القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي فيقول: "ويدير كل قصر من القصور أمير خاص هو رئيس فريقه... وتضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب... ويوجد به بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلونها بالذهب والعبيد".[٥٨]

## خلاصة

من خلال دراسة مختلف التنظيمات الاجتماعية في المجتمع الفيلالي وفق الاتفاقيات والعقود التنظيمية التي تعتبر بمثابة الشروط والضوابط العرفية الخاصة بتنظيم الحياة العامة واليومية للعناصر الإثنية القاطنة داخل القصر الواحد،(٥٩) يمكن القول: إن القصر انبثق عن تشتت لمعمار سجلماسي الحضري وهو يعبر عن استجابة لحاجيات متنوعة فرضتها ظروف قاهرة تتمثل في شح الموارد والتنافس عليها، فأصبح بالتالي وحدة معمارية متعددة الوظائف وتداخل في تشكيل عمارته عدة عوامل أهمها:

- **الماء**: ويتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية، ومشكل قلة الماء وضرورة التغلب على ذلك بالتنظيم والتوزيع الدقيقين، ويعتبر من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة التي اعتمدت كل الوسائل اللازمة في ذلك مثل الناعورات والآبار والخطارات. ذلك "أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية... من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية".(٦٠)
- **القبيلة**: التي تسيرها الجماعة برئاسة الشيخ، وكانت من أسباب ظهور الأحلاف. وكانت جماعة القصر "تفرض على كل السكان بمختلف فئاتهم المشاركة في بناء التحصينات كالأبراج والأسوار والمؤسسات الدينية والإنتاجية العامة (المسجد . الفندق المعصرة...). وسعيًا وراء تحقيق الأمن داخل القصر، فقد كانت المشيخة أو الجماعة تكلف بالتناوب ساكنة القصر حراسة بابه بالليل والنهار لاسيما وقت الفتنة".(٦١) ففي تافيلالت يعتبر الانتماء القبلي هو العامل الرئيس في استغلال المجال الفلاحي، فهو المنظم لعملية توزيع الماء بين ذوي الحقوق وهو المؤطر للصراعات المحلية، بل وهو العامل الذي غالبًا ما يحدد المورفولوجية المعمارية للقصر.
- **الزاوية**: وكان لها دور روحي واجتماعي، ويتجلى خاصةً في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة. لذلك حظيت باحترام كبير من لدن مختلف الفئات الاجتماعية بتافيلالت وكان لها مجالها المقدس سواء في الميدان الفلاحي، إذ كانت تتوفر على ملكيات هامة من الحقول الزراعية ومن الأشجار ومن الماشية. في الجانب العمراني كان نطاقها المعماري بارزًا سواء كان منعزلاً أو مدمجًا داخل أحد القصور فيسمى باسم الزاوية.
- **التنوع والتكامل الاقتصاديين**: يتميز القصر في تافيلالت بتواجده وسط الحقول الزراعية التي يقوم بخدمتها سكان القصر أنفسهم إلى جانب تعاطي بعضهم للحرف والتجارة.

وتختلف أهمية القصور حسب انتمائها لإحدى المشيخات المكونة للمنطقة وأهمها مشيخة واد إيفلي التي يغلب عليها النشاط التجاري والوظيفة الإدارية، بينما تخصصت مشيخة السفالات في التجارة والصنائع وخصوصا النجارة. وارتبطت مشيختي السيفة وبني امحمد بالزراعة بشكل خاص. وإذا عرفت بعض القصور بنشاطها التجاري مثل تابوعصامت وأبو عام؛ فإن بعضها الآخر تخصص في الصنائع مثل مولاي عبد الله الدقاق في الخزف ومنوكّة في الدباغة.

## الهَوامِش:

(١) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): **وصف إفريقيا**، تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان ١٩٨٢. الجزء 2 (ص ١٢١).

(2) Terrasse (Henri): «Notes sur les ruines de Sijilmassa», **IIème Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes, Tlemcen 14-17 avril 1936.** Alger, Publication de la Société Historique Algérienne 1936. VIII planches hors texte (p 362).

(٣) ويقصد ربما عين تمدرين الواقعة قرب قصر البروج بسهب أيردي شمال مدينة أرفود وعلى بعد حوالي ٣٠ كلم شمال سجلماسة.

(٤) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجزء الثالث ١٩٥٤ (ص ١٢٠).

(٥) المدغري (أحمد ابن عبد العزيز ابن الحسن): **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، ١٩٦٦ (ص ٩٢ الهامش رقم ١).

(٦) ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني): **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن**، الجزائر ١٩٨١.

(٧) ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سبعة أجزاء ١٩٨١. الجزء ١ (ص ١٨٧- ١٨٨).

(٨) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجزء الرابع ١٩٥٦ (ص ٨٣).

(٩) نفسه: (ص ٨٥)

(10) Jacques-Meunié (D) : **Architectures et Habitats du Dadès, Maroc Présaharien**. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 296).

(١١) حافظي علوي (حسن): **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ) 1997. (ص ٤١٢- ٤١٣).

(12) Jacques-Meunié (Djinn) : **Le Maroc Saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques**. Paris, édition C. Klincksieck 1982. Université Paris Sorbonne, Thèse Doctorat d'Etat en Histoire 16 juin 1975. Deux volumes, cartes et figures dans le texte (p 284).

(١٣) الوزان (محمد بن الحسن): مصدر سابق، الجزء ٢ (ص ١٢٥- ١٢٦).

(١٤) حافظي علوي (حسن): "تانيجوت"، **معلمة المغرب**، المجلد السابع (ص ٢٢٣٠- ٢٢٣١).

(١٥) ابن خلدون (عبد الرحمن): **المقدمة**. بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٧٨ (ص ٣٣).

(16) Fagnan Eugène: **Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire**. Alger 1924 (p 28).

(١٧) ابن خلدون (عبد الرحمن): **العبر**، مصدر سابق. الجزء ٧ (ص ٧٧).

(18) Gautier (E.F): **le passé de l'Afrique du Nord**, Paris, édition Payot 1964 (pp 228 - 229).

(19) Lewiki (Tadensz) : «Sur le titre libyco - berbère»,: **Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem** i sudanem. Varsovie, édition Scientifique de Pologne, 1976 ; illustrations (Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales) 93 (p 44).

(20) Hensens (J): «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar: problème de rénovation », **Bulletin Economique et Social du Maroc.** N° 114 ; Juillet – Septembre 1969 (p 83).

(٢١) حافظي علوي (حسن): **سجلماسة وإقليمها**. مرجع سابق، (ص ١١٦- ١١٧).

(22) Saidi (Idriss) : « étude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic », **Oasis Tafilalet**, n° 1 ; 1999 (p 11).

(٢٣) محمود إسماعيل (عبد الرزاق): **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٥ (ص ٣٠٠).

(24) Terrasse (Henri): **Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis : les grandes architectures du sud marocain**. Paris, édition Horizons de France, sans date. Illustrations et figures dans le texte (pp. 73 – 74).

(25) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p. 231).

(26) Jacques-Meunié (D): «Sur l'architecture du Tafilalet et Sijilmassa (Maroc Saharien) », **Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres avril - décembre 1962**. Paris, Librairie C. Klincksieck, décembre 1963. 5 figures dans le texte (pp 100 - 101).

(27) Jacques-Meunié (Djinn): **Le Maroc Saharien.** op-cit (p 297).

(٢٨) حجي (محمد): "المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، ١٩٨٨ (ص ٢٩).

(29) Faure (Roger): **le Tafilalet, étude d'un secteur traditionel d'irrigation**. Paris 1969 (p 167).

(30) Jacques-Meunié (Djinn) et Meunié (Jacques) : « Abbar, cité royale du Tafilalet », **Hespéris**. Tome : XLVI, 1° et 2° trimestre 1959. 12 figures ; VIII planches hors texte (p 63).

(٣١) ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة محمد الخامس "نصوص ووثائق ١" ١٩٨٤ (ص ٤١٢).

(٣٢) حافظي علوي (حسن): مرجع سابق (ص ١٢١).

(٣٣) نفسه، نفس المرجع (ص ١٢٢).

(34) Jacques-Meunié (D) : **le Maroc saharien**, op-cit (p 295).

(٣٥) حافظي علوي (حسن): المرجع السابق (ص ١٢٥).

(٣٦) حجي (محمد): **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**. المحمدية، مطبعة فضالة. ١٩٧٨. الجزء ٢ (ص ٥١٩).

(٣٧) الوزان (محمد بن الحسن)، المصدر السابق، الجزء ٢ (ص ١٢١).

(٣٨) نفسه: (ص ١٢٥).

(٣٩) نفسه: (ص ١٢٦).

(٤٠) نفسه: (ص: ١٢٦، الهامش ٢٢).

(41) Mezzine (Larbi): **Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles**. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987 (p 32).

(٤٢) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي الفاسي): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط، دار المنصور ١٩٧٣ (ص ٢٧٦).

(43) Jacques-Meunié (D): **Architectures et Habitats du Dadès, Maroc présaharien**. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 92).

(٤٤) لمراني علوي (محمد): "المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة"، **الندوة الدولية حول المعمار المبني بالتراب**. (ص ١٠٧- ١٠٨).

(٤٥) لمراني علوي (محمد): المرجع السابق (ص ١١١).

(٤٦) نفسه (ص ١١٣).

(47) Terrasse (Henri): op-cit (p 51).

(48) Marçais (Georges) : **L'architecture musulmane d'Occident: Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile**. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1954. 108 planches et 286 figures (p 415).

(٤٩) حافظي علوي (حسن): المرجع السابق (ص ١١٤).

(50) Touri (Abdelaziz): « Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien », **Actes du IV° Colloque Euro-africain 1985**. (p 33).

(51) Jacques-Meunié (D) : « Abbar », op-cit (p 51).

(٥٢) بنعبد الله (عبد العزيز): "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، **دعوة الحق**. عدد خاص، مارس ١٩٨٨ (ص ١٠٨- ١١٣).

(53) Faure (Roger): **Le Tafilalet, étude d'un secteur traditionnel d'irrigation**. Paris 1969. (p 140).

(54) Terrasse (Henri): op-cit (p 56).

(٥٥) لمراني علوي (محمد): مرجع سابق (ص ١٠١).

(٥٦) عبد اللوي علوي (أحمد): **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**، المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان ١٩٩٦. الجزء ١ (ص ٢٧- ٢٨).

(٥٧) حافظي علوي (حسن): مرجع سابق (ص ١١٧).

(٥٨) الوزان (محمد بن الحسن): المصدر السابق، الجزء ٢ (ص ١٢٦).

(59) Mezzine (larbi): **Contribution à l'histoire du Tafilalet : aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits**. Paris I, Thèse de 3° cycle en Histoire, 3 volumes, tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte (X + 736 + 69 pages dactylographiées).

(٦٠) عبد اللوي علوي (أحمد): المرجع السابق، الجزء ١ (ص ١٠٢).

(٦١) نفسه: (ص ١٨٦).

# مدن "الازدواجية الحضرية" في الغرب الإسلامي خلال العصر المريني
## فاس الجديد – منصورة تلمسان – ألبنية الجزيرة الخضراء

**د. محمد لملوكي**

أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

**مُلَخّصْ**

أنشأ المرينيون (٨٦٩ – ٦٠٩هـ/١٢١٢- ١٤٦٥م) مدنًا جديدة على رأسها "فاس الجديد" في المغرب الأقصى و"المنصورة" في المغرب الأوسط - الجزائر الحالية- و"ألبنية" في الأندلس في سياق تطور دولتهم ونشر مشروعهم السياسي. وفرت لها تجربة المغرب الأقصى في ميدان العمران أرضية خصبة للتطور والنمو، فوصل بذلك بعضها درجات من الإشباع الحضري ضاهت به كبريات عواصم العالم الإسلامي كما هو الشأن بالنسبة لمدينة فاس الجديد. جاءت فكرة هذه المدن في خضم الهاجس العسكري الذي سيطر على المرينيين في الجبهات الاستراتيجية لدولتهم؛ وهكذا أنشئت فاس الجديد بعد عمل عسكري أسفر عن فتح المدينة وتهدئة الأوضاع بها، وتطورت منصورة تلمسان في ظل محلة السلطان المحاصرة لتلمسان مدة طويلة، بل وعبرت بعض النصوص أنها جاءت تجسيدا لنشوة الانتصار الذي حققه السلطان أبو يعقوب يوسف (٦٨٥ - ٧٠٦هـ)، أما ألبنية الجزيرة الخضراء فجاءت في سياق تثبيت قاعدة الجهاد بالأندلس وإسكان الجند المرابطين هناك. تفردت هذه المدن بمميزات خاصة بإقامتها إلى جانب حواضر كبرى تنتمي إلى مراحل تمدينية سابقة. وهو ما يجعل هوية هذه الكيانات محط تساؤل واستفهام من لدن العديد من الدراسات. هل يتعلق الأمر بمدن كاملة الصلاحية أم هي مجرد قصبات أم هي أرباض كبرى أم قلاع إلخ. ومن جهة أخرى تطرح تساؤلات حول طبيعة علاقتها مع غريمتها المجاورة؛ أهي علاقة تضاد وتنافس؟ أم علاقة تكامل وظيفي وتجانس؟.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ١١ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ يناير ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الغرب الإسلامي، الدولة المرينية، المجتمع الفاسي، الأندلس، وصف إفريقيا

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

محمد لملوكي. "مدن الازدواجية الحضرية في الغرب الإسلامي خلال العصر المريني: فاس الجديد – منصورة تلمسان – ألبنية الجزيرة الخضراء".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٦٤ – ٧٠ .

## مُقَدِّمَةٌ

أُنشئت في الغرب الإسلامي نهاية الحقبة الوسيطة مدنًا جديدة إلى جانب أخرى سابقة، سمتها العديد من المصادر التاريخية بالمدن الجديدة وأحيانًا المدن البيضاء. أسس المرينيون منها ثلاثة؛ تمتد في شكل مثلث: فاس الجديد وسط المغرب الأقصى حاليًا، ومنصورة تلمسان بالجزائر الحالية، وألبنية الجزيرة الخضراء بالأندلس أي جنوب إسبانيا حاليًا. وفرت لها تجربة المغرب الأقصى في ميدان العمران أرضية خصبة للتطور والنمو، فوصل بذلك بعضها درجات من الإشباع الحضري ضاهت به كبريات العواصم في العالم الإسلامي. وإذا كانت الدراسات حول الظاهرة الحضرية بالغرب الإسلامي حققت لنا تراكمًا معرفيًا كشف لنا جوانب هامة من ظروف نشأة المدن وتطورها ومكوناتها بل والمشارب الفكرية التي نهلت منها، فإنها على مستوى الكيف والنوع ما تزال بحاجة إلى التنقيب والبحث. وهكذا تطفو مسألة تصنيف ذلك التراث الحضري الذي ميز الفترة الوسيطية وإبراز خصوصياته موضوعًا ينبغي أن توجه نحوه الأبحاث المستقبلية. في هذا الإطار، سنحاول في هذا العرض ملامسة السياق التاريخي العام لإنشائها، وتحديد هوية هذه المدن من خلال مكوناتها المعمارية والوظائف المنوطة بها وطبيعة التجمع الحضري بها، وإلى أي حد تعبر عن خصوصية عمرانية في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.

## أولاً: فاس الجديد: (قاعدة ملك المرينيين)

**١/١- أسباب ودواعي التأسيس:**

تتحدث المصادر التاريخية عن مسببات ودواعي إنشاء المدينة حيث تجمع أنها من تأسيس المرينيين وبأمر من السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق[١] أول ملوك بني مرين سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٦م).[٢] ويوضح الوزان سياق التأسيس قائلاً: "ولما فرغ يعقوب من حرب مراكش راودته الرغبة في الانتقام من ملك تلمسان، وعزم على محاربته فوجد أن معاقل مملكته نائية جدًا عن تلمسان، وصمم على تشييد هذه المدينة الجديدة".[٣] ويقدم ابن خلدون أسباب تأسيس السلطان المريني لهذه المدينة كالآتي "..ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أهل المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل وملكه قد استوثق، واتسع نطاق دولته وعظمت غاشيته، وكثر وافده، ورأى أن يختط بلدًا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه، فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس بساحة الوادي..".[٤] هذا النص يثير إشارات ذات دلالة هامة فيما يتعلق بطبيعة المدينة الجديدة ووظيفتها المستقبلية آنذاك. فالأمر في نظر ابن خلدون يتعدى القصبة أو القلعة المرتبطة بالبعد العسكري إلى مدينة للسكن والسلطان، وأن الظرفية التي تبلورت فيها أو نضجت فيها فكرة المشروع (بناء المدينة) هي السلم واستتباب الأمن واتساع نطاق الدولة ورخاء الاقتصاد، وهي ظروف من شأنها أن تقوي الأبعاد المدنية والعمرانية والتنظيمية كذلك في فكرة المشروع؛ على مستوى التخطيط وتوزيع الوظائف داخل المدينة. فهي بهذا المنظور مدينة سلطانية؛ بعدها العسكري مرتبط أكثر بسكن الجند وإقامة السلطان بها. ويزيد سياق نص ابن خلدون معلومات إضافية تربط هذا الإنجاز بنشوة الانتصار وإبراز مظاهر القوة والغلبة؛ حيث يقول: "ولما وصل أمير المسلمين (يعقوب ابن عبد الحق) إلى حضرته من غزاة الجهاد، ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة وقطع دابر بني عبد المومن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه..".[٥] وهذا المنطق يتماشى، في الفكر العمراني، مع فلسفة إنشاء المدن المرتبطة بمرحلة معينة من التحضر والاستقرار.

ومن جهتها تطرقت كتب المناقب إلى دواع من نوع آخر جعلت المرينين يتخذون بلدًا جديدًا لهم بعيدًا عن معارضهم. يروي صاحب الروض العطر[٦] أن الفقيه إبراهيم الأعرج[٧] "كان يأمر الأمير بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأكثر عليه فقال له: أخرج من بلدي، فلما خرج أصاب السلطان وجع شديد فأمر برده فقال: لا أدخل حتى يخرج هو، ولا نكون أنا وهو في بلد واحد. فخرج في الحين، فسكن عنه الوجع. وأمر ببناء المدينة البيضاء" وهذا السبب علق عليه القبلي بكونه حلا وسطا لإنهاء الصراع الذي نشأ بين الفقيه والسلطان.[٨] فهل يمكن الأخذ بهذا التفسير أمام الدواعي السالفة خصوصا وأن اهتمام المرينيين بعمران فاس العتيقة ظل متواصلا ؟

وهناك سياقات أخرى لاحقة تحدثت عن ظروف وأسباب التأسيس يمكن أن تقارن بالنصوص السالفة، ويحضر فيها البعد العسكري بشكل واضح؛ أبرزها رواية مارمول، الذي يقول: "..والمدينة الثالثة هي فاس الجديد.. وتقع منعزلة شيئًا ما..على شكل قصبة، ليقيم بها مع حاشيته".[٩] وفي سياق آخر، يضيف أنها "على شكل قلعة..".[١٠] وينطوي هذا الوصف الجغرافي لهذا الرحالة الأجنبي على تصنيف حضري، ارتكز على معايير في التحصين ".. وله ( أي فاس الجديد) سور مزدوج متقن الصنع ومحصن ببروج"،[١١] ودقق ملاحظته بشأن الطبوغرافية بقوله عنها: "وتقع منعزلة شيئًا ما وبارتفاع معين من فاس البالي".[١٢] وهذا استنتاج مرتبط بالمعاينة الميدانية لفاس الجديد بعد قرنين تقريبًا من إنشائها، ولا يحيل على الظروف والسياق التاريخيين لتأسيسها. لهذا سنولي نظرنا نحو المعاصرين للفعل من مؤرخي البلاط المريني.

يشير صاحب روضة النسرين[١٣] إلى أننا بصدد مدينة بيضاء ودار للإمارة، تعرف بالبلد الجديد. ويضيف أن تقاليدًا وطقوسًا، معروفة لدى السلاطين، قد اتبعت أثناء التأسيس: كأخذ الطالع للمدينة وتم هذا الحدث بحضور فريق من أهل المعرفة بالهندسة والبناء ووفق تخطيط المدينة الإسلامية؛ وذلك ما يشير إلى جزء منه ظاهر نصه الآتي: "ولما أتم سورها، بنى بها قصره، والجامع الأعظم، والسوق الذي.., والحمام الكبير، وأمر الوزراء وأشياخ بني مرين ببناء الدور بها"[١٤] والظاهر كذلك من هذا النص أنها بنيت لتستوعب وتسع القبائل المرينية..لاسيما بعد أن اتسعت دولتهم، ومضت على دخولهم مدينة فاس قرابة ستة وعشرون عامًا.[١٥] ويؤكد هذا أيضا مؤلف الذخيرة السنية بقوله: "كان عزم أمير المسلمين يعقوب على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وخاصته وحشمه. ركب يوم الأحد الثالث شوال المذكور، وأخرج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع، فتخيروا موضعا على واد فاس، وشرع في حفر أساسها....".[١٦]

لقد ذهبت بعض الدراسات في تفسيرها لأبعاد التأسيس إلى القول بأن موقف السلطة المرينية من المجتمع الفاسي المتوجس منهم خيفة هو الذي دفعهم إلى بناء هذه المدينة في الموضع الجغرافي الذي يمكنهم من التحكم في مجرى الواد الرئيس الموصل إلى المدينة، وببناء عسكري محكم يضمن سلامة وأمن المدينة.[١٧] فقد انتقلت إلى المدينة البيضاء وظائف القصبة القديمة التي بباب الجنود حيث انطلق منها الأمير المؤسس إيذانا بنقل مركز القرار والسلطة إلى النواة الجديدة. وأول ما أنشأه يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ) بعد تمام السور، هو بناء القصر الذي سيتخذه دارًا لملكه وقرارًا لسلطانه. ولا شك؛ أن وراء نقل صلاحيات القصبة إلى المدينة الجديدة الحاجة إلى فضاء واسع، يستوعب مؤسسات الدولة الجديدة وقبائلها، ويتماشى مع التطور الحضاري للدولة تاركين لفاس البالي استقلالها تحت تصرف عامل يدعى "الشيخ

إدريس بن قريش ". وتذكر المصادر أن الذي أوكل إليه هذه المهمة هو الأمير يعقوب بن عبد الحق.[١٨]

**٢/١- المنجمون والفلكيون واختيار طالع المدينة:**

تروي المصادر أن السلطان المريني يعقوب ابن عبد الحق أثناء اختطاطه المدينة الجديدة "أحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية ما يرضون أثره، ورصدوا أوانه وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك[١٩] المقدمان في الصناعة".[٢٠] فماذا يضيف المنجمون ومعهم الفلكيون من معلومات للفريق الساهر على تأسيس المدن ؟ وما هي طرق اشتغالهم ؟ وما نوعية المعلومات التي يقدمونها للسلطان ؟ وهل يدخل عملهم ضمن الوظائف الهندسية العلمية أم ضمن الفكر الخرافي والشعوذة ؟

ثمة أسئلة عديدة تظل معلقة أمام سكوت الإخباريين تجاه عمل هؤلاء. والثابت أنه كان يستعان بهؤلاء في مهمات الأمور، سواء المواطنين أو الحكام، في محاولة منهم لمعرفة الأخبار الطيبة واستخراج الأوقات السعيدة في مباشرة الأمور العظام ومناولة الخطوب الجسام. ولأهمية هذا العلم في المغرب الأقصى، سعت الدولة العثمانية، فيما بعد، إلى مراسلة سلاطين المغرب بشأن إرسال منجمين خبراء إليها.[٢١] وبذلك تكون وظيفة المنجمين والفلكيين[٢٢] من أسمى وظائف القصر.

وإذا كنا لا نعلم شيئًا عن تفاصيل عملهم أثناء تأسيس فاس الجديد باستثناء اختيارهم لطالع سعيد لها بحيث لم يخرج منها جيش إلا وانتصر ولم يمت بها سلطان..،[٢٣] فإن معلومات أخرى عن مدن إسلامية تقربنا من بعض الطقوس التي قام بها فريق المنجمين أثناء التأسيس. فالمقريزي، وهو يتحدث عن القاهرة، يشير إلى "أن القائد جوهرا لما أراد بناءها (يعني القاهرة) أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد، ظاهر مصر، ليقيم بها الجند. وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب؛ بين كل قائمتين حبل فيه أجراس..".[٢٤] وهذا الحضور للمنجمين وغيرهم لا يخرج عما سبق الحديث عنه من قبل من اعتقاد المجتمع الفاسي والوسيطي بشكل عام، في الثقافة الخرافية الموروثة عن الحضارات السابقة أحيانًا، وانحراف بعض الوظائف العلمية والتجريبية كالفلك عن مجالاتها أحيانًا أخرى؛ فالفلكيون بحساباتهم عرفوا بضبطهم للمواقيت واعتمد فلكيو القرويين قدوة لغيرهم من مساجد فاس.[٢٥]

## ثانيًا: مدينة المنصورة: (تتويج للحصار المريني لتلمسان)

**١/٢- السياق التاريخي لعلاقة المرينيين بتلمسان:**

تقع مدينة تلمسان في الشمال الغربي للجزائر. استقل بها بنو عبد الواد واتخذوها قاعدة لملكهم إبان ضعف الدولة الموحدية، بينما دخل بنو عمومتهم، المرينيون، مدينة فاس وجعلوها معقلاً لهم بعد مفاوضة أهلها وفقهائها من لدن الأمير أبي بكر المريني سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م).[٢٦] دخل الطرفان في صراع بينهما وصل إلى نزال في معركة وادي ايسلي (قرب وجدة) سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م).[٢٧] وقد برهنت هذه المواجهة عن قوة المرينيين وبالمقابل، أظهرت ضعف بني عبد الوادي واضطرتهم إلى الانزواء بقاعدة ملكهم تلمسان. وهكذا؛ استمرت سياسة الأخذ والرد بين تلمسان والمرينيين تارة بطلب الصلح كما حدث سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، أو بالمنازلة كما هو الشأن سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م)،[٢٨] وتارة أخرى بالهدايا المقدمة لمدينة فاس سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م).[٢٩] فقد أشار الوزان إلى المتاعب التي كان يخلقها ملوك تلمسان لبني مرين سواء بدعمهم لخصومهم الموحدين أو بعرقلة امتداد نفوذهم جهة الشرق،[٣٠] ولم يثن السلطان يعقوب بن عبد الحق، كما يضيف الوزان، سوى بعد تلمسان عن قاعدة ملكه التي لم تكن آنذاك فاس الجديد.[٣١] لذلك ما إن أسس المدينة الجديدة بفاس وجعلها عاصمة ملكه حتى تحرك إليها أبو يعقوب يوسف من مدينة فاس سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) في حركة أطلق عليها اسم "حركة الدار الحمراء"،[٣٢] وحاصرها لمرات عدة كان أهمها سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)؛ بنى خلالها مدينة جديدة بظاهرها على غرار ما فعله أبوه بفاس أطلق عليها اسم "تلمسان الجديدة".[٣٣]

**٢/٢- مدينة المنصورة: (نموذج لمدن الحصار المرينية)**

شكلت مدينة تلمسان محط أطماع الدولة المرينية منذ نهاية الدولة الموحدية لما لهذه المدينة من استراتيجية تتماشى والأهداف التوسعية لبني مرين، فبعد الهزائم المتوالية التي مني بها الزيانيون،[٣٤] قرر السلطان أبو يعقوب يوسف (٦٨٥_٧٠٦هـ) المضي في سياسته التوسعية نحو الشرق ومحو آثار بني عبد الواد في تلمسان؛ وذلك بإنشاء مدينة مرينية بجوار تلمسان التي استعصت عليه، لاسيما وأن تجربة أبيه مع مدينة فاس لا تزال حاضرة في ذهنه. فضرب الحصار تلو الآخر عليها، إلا أن أهم حصار عرفته المدينة امتد من (٦٩٨ إلى ٧٠٦هـ/ ١٣٩٩- ١٤٠٦م) من قِبل السلطان المريني أبي يعقوب يوسف.[٣٥]

وتستطرد الأسطغرافيا المرينية في وصف آثار هذا الحصار ونتائجه على المدينة؛ فصاحب روضة النسرين يصف حالة التلمسانيين بأنهم أنهكوا "حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك حتى أكل بعضهم بعضا، وكانوا يغوطون ويجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه، وهو في ذلك يشدد عليهم الحصار، ويقول: لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعًا..".[٣٦] ورغم ما في هذا الوصف من مبالغة، فهو يدعم فكرة الإصرار لدى المرينيين على فتح المدينة. وتثبت ذلك أيضًا تقنيات الحصار وإجراءاته؛ فقد بنى أبو يعقوب، أثناء حصاره "سورًا عظيمًا جعله سياجًا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى. وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرس... وأخذ بمخنقها من

بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص لها الطير".[٣٧] ويضيف الناصري أن المرينيين استعانوا في حصارهم لها بآلة المنجنيق.[٣٨] وفي رواية ابن خلدون أن السلطان يوسف بن يعقوب نصب على تلمسان "القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار"،[٣٩] وأثناء هذا الحصار تم تشييد مدينة المنصورة بمكان فسطاط المعسكر... وأدار عليها السور وأمر الناس بالبناء.. وصيرها مصرًا وسماها المنصورة تيمنًا بالنصر.[٤٠]

**٣/٢- دوافع تأسيس المدينة ومكوناتها:**

جاء ذكر مدينة المنصورة في العديد من المصادر المرينية. فابن أبي زرع تحدث عن المنشآت التي قام السلطان المريني بتخطيطها بالمدينة كالقصر والجامع الكبير والسور المحيط بالمكان، وانفرد بتسمية المدينة بـ "المحلة" أو "تلمسان الجديدة" ولم يرد في حديثه اسم "المنصورة" حيث يقول: ".. فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يمينًا وشمالاً..".[٤١] ويضيف بعد ذلك أنه في سنة ٧٠٢هـ "أمر أمير المسلمين يوسف ببناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة".[٤٢] ويرجع سبب بنائها إلى المشقة التي لقيتها الجيوش المرينية في المنطقة مع دخول فصل الشتاء.[٤٣] وهو ما دفع، في نظره، أبا يعقوب المريني إلى اتخاذ القرار بإنشاء مدينة تقيه وجيوشه من تلك الطبيعة القاسية.

أما ابن الأحمر ( ت. ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، فاقتصر في حديثه عن المنصورة بذكر أن السلطان المريني أبا يعقوب شرع في بناء مدينته التي أطلق عليها اسم "تلمسان الجديدة" عند محاصرته لمدينة تلمسان سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م). واختار لها موقعا بظاهرها.[٤٤] ويشير إلى أن الحصار دام سبع سنين، وهو خلاف ما جاءت به المصادر الأخرى كابن خلدون وابن أبي زرع، والتي قدرت الحصار بثماني سنوات. ويذكر ابن خلدون " أن السلطان المريني أبا يعقوب اختط بمكان فسطاط المعسكر قصرًا لسكناه واتخذ به مسجدًا، ثم أحاط المسجد والقصر بسور. وبنى الناس من حولهما الدور والمنازل والقصور وشقوا الترع وبنوا القنوات. وفي سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٣م) أدار السلطان على العمران كله سورًا عظيمًا".[٤٥] وأضاف، في سياق آخر، أن اسم المنطقة التي استقرت فيها الجيوش المرينية وشيدت فيها المدينة الجديدة تدعى "مجشر بن الصيقل".[٤٦] وتطورت مظاهر الحياة العامة بها، واختار السلطان المريني لتولي القضاء بها العالم المفتي علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المليلي الحميري.[٤٧]

## ثالثا: البنـية: (قاعدة للجهاد المريني في الأندلس)

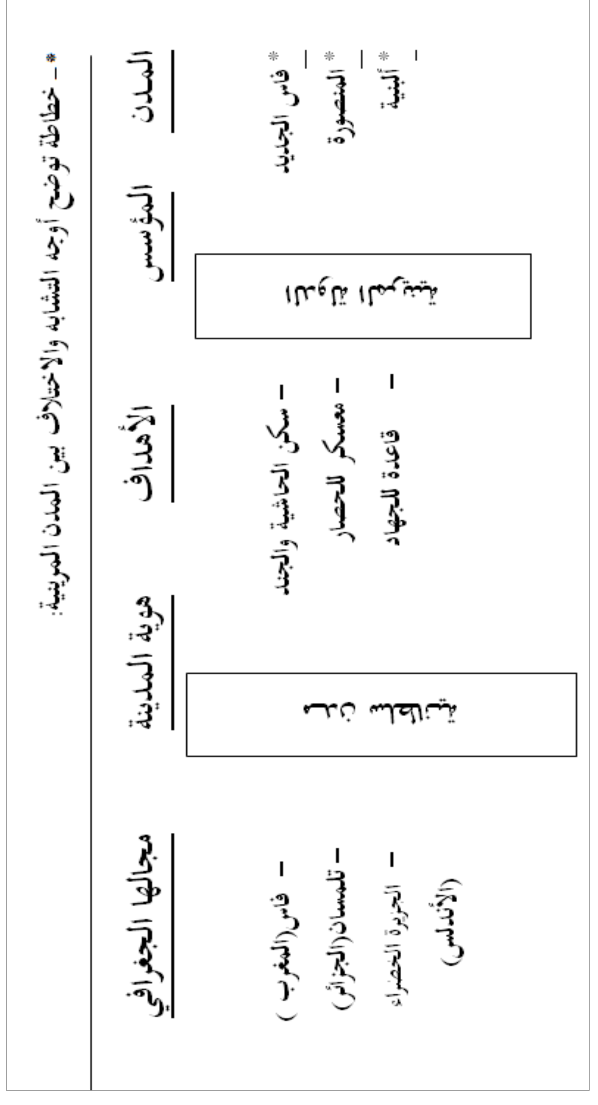
توجد هذه المدينة مجاورة لمدينة الجزيرة الخضراء أو ما يسمى حاليًا بـ"الخزيرات"، وهي مدينة تقع أقصى الطرف الجنوبي لإسبانيا بحيث تطل على البحر المتوسط. يحدثنا ابن خلدون عن سياق تأسيس هذه المدينة المرينية بقوله "ورجع - يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ)- إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل عسكره، منتبذًا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العساكر وجفائهم، وتخير لها مكانًا لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بألبنية، وجعل ذلك إلى نظر مَنْ وثق به من ذويه. ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب سنة أربع وسبعين، فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر..".[٤٨]

حدد لهذه المدينة مسبقًا الهدف منها، فهي لنزل العسكر والحاشية وكأنها معسكر موسمي عابر، فهي إحدى المبررات التي قدمتها المصادر المغربية بخصوص فاس الجديد. أما عن المصادر الاسبانية فيروي لنا محمد الشريف نقلاً عن "حوليات ألفونسو العاشر"[٤٩] أن قرار بنائها أي "الْبُنْيَّة" كان شهر يوليوز 1279 م عقب نجاح المرينيين في فك الحصار الذي تعرضت له الجزيرة الخضراء. وبخصوص الدوافع تقول الحوليات: «وعبر أبو يوسف بعد ذلك من طنجة إلى الجزيرة الخضراء، ووجد العديد من المنشآت التي تركها المسيحيون، ولأنه أدرك أن ذلك المكان حيث بنيت فيما بعد المدينة الجديدة للجزيرة الخضراء كثير الضرر، في حالة حصار خارجي، وأنه من الممكن خسارته، سارع إلى إنشاء مدينة أسست بذلك المكان وسُمّيت باسم المدينة الجديدة للجزيرة الخضراء، وعمرها بالمنازل التي تركها المسيحيون مشيدة، وبقي الأمير هذه المرة بالجزيرة الخضراء بضعة أيام".[٥٠] وقد أبانت بعض الدراسات الاسبانية استنادًا إلى نتائج التنقيبات الأثرية في الموقع عن العديد من المعالم العمرانية المميزة للمدينة الإسلامية من قصر، ومسجد، وحمام، ومبان عمومية أخرى.[٥١]

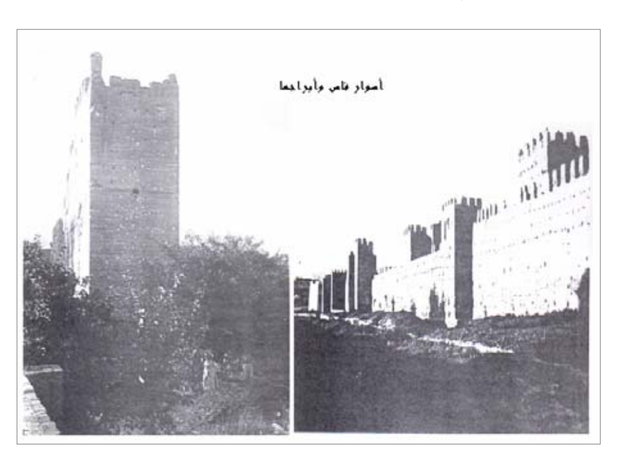
## خاتمة

من خلال صفحات هذا المقال تظهر لنا أوجه التشابه والاختلاف بين المدن المرينية الثلاث. فأوجه الشبه بينها يكمن في طبيعتها الازدواجية؛ بمعنى أنها أقيمت إلى جوار مدن أخرى سابقة. وجميعها من تأسيس الدولة المرينية، بالإضافة إلى طغيان الهاجس العسكري على إنشائها. أما أوجه الاختلاف؛ فيمكن إجمالها في تباعد المجال الجغرافي بينها، بحيث تعبر مواقعها عن جهات القلق العسكري (فاس العاصمة وتلمسان العبد الوادية على الجهة الشرقية ثم جهة الجهاد في الأندلس). واختلاف مؤسسها؛ بحيث أسس فاس الجديد وألبنية السلطان أبو يوسف يعقوب فيما أسس أبو يعقوب يوسف مدينة المنصورة. وأخيرًا؛ فمدينة فاس الجديد هي التي استطاعت مقاومة نوائب الزمن والبقاء إلى عصرنا الحالي بينما طال التدهور والاندراس المدينتين الأخريتين.

## الملاحق:

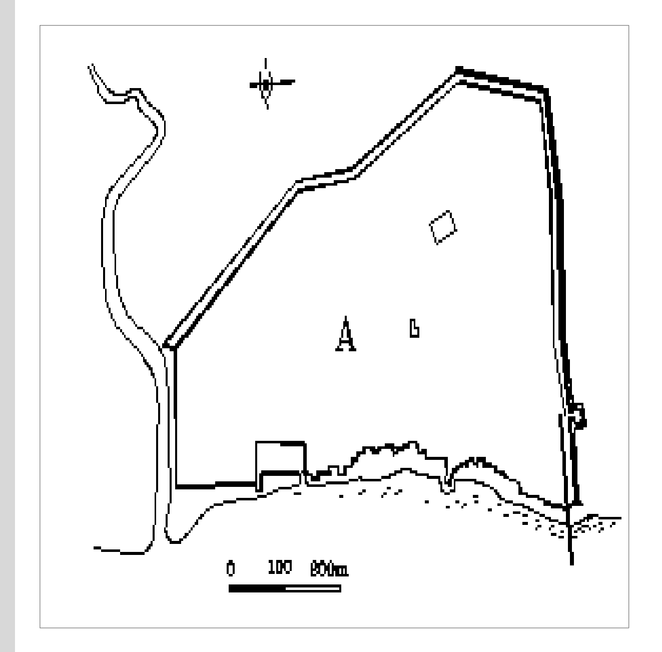



* الخطاطة من إعداد الباحث



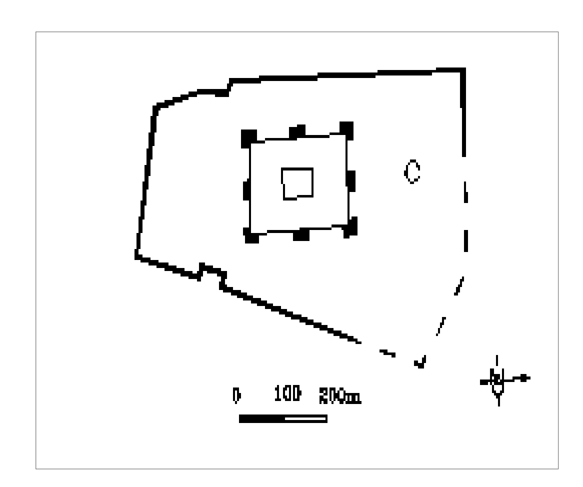

صورة رقم (١) أسوار فاس وأبراجها

المصدر: صور مدينة فاس الجديد إبان الحماية الفرنسية - مديرية التراث بالرباط




مخطط رقم (١)

مدينة ألبنية المرينية في الجزيرة الخضراء




مخطط رقم (٢)

أفراك

المصدر:

Marçais (G.), *L'Architecture d'Occident musulman, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile*, Paris, 1946. P. 318.

## الهَوامِشُ:

(١) ".. استولى على ملك الموحدين... كان دخوله إلى مراكش في يوم عاشوراء سنة ثمان وستين وستمائة لما أتته البيعة من أهلها، إلا أنه تحول عنها إلى مدينة فاس وصيرها دار للخلافة ومقر الإمارة.. فكانت مدته من أول يوم ظهوره ثمان وعشرين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يومًا.. " كما ترجم له صاحب "**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩، ص ١٧١.

(٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج١، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

(٤) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٤٠٢.

(٥) ابن خلدون، **كتاب العبر**...، م.س، ص ٤٠٢ .

(٦) **الروض العطرة الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، المنسوب لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط، ١١٠٩هـ/١٦٩٧ م، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣٥، ط١، ١٩٩٧، مطبعة النجاح الجديدة، ص ٢٨٩ .

(٧) هو أبو ابراهيم اسحاق بن يحيى بن مطر الورياغلي، عرف بالأعرج، دفين خارج باب الجيسة، وكان إماما بجامع الشطة بفاس، عاصر السلطان المريني أبو يوسف يعقوب. ينظر: - **الروض العطر**...، ص ٢٨٩.

(8) KABLY Mohamed, *Société, Pouvoir, Religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986, p 274.

(٩) مارمول كربخال، **افريقيا**، ج٣، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٩٨٨، ص١٥٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٥٥

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١٣) ابن الأحمر، **روضة النسرين**..، ص ٢٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٩-٣٠.

(١٥) ملك المرينيون مدينة فاس سنة ٦٤٦هـ/ بزعامة الأمير ابو بكر بن عبد الحق كما سلف ؛ وتم بناء المدينة الجديدة سنة ٦٧٤هـ على يد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. يُنظر: - الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص ٢٨٢. وابن الاحمر في **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص١٦١ – ١٦٢.

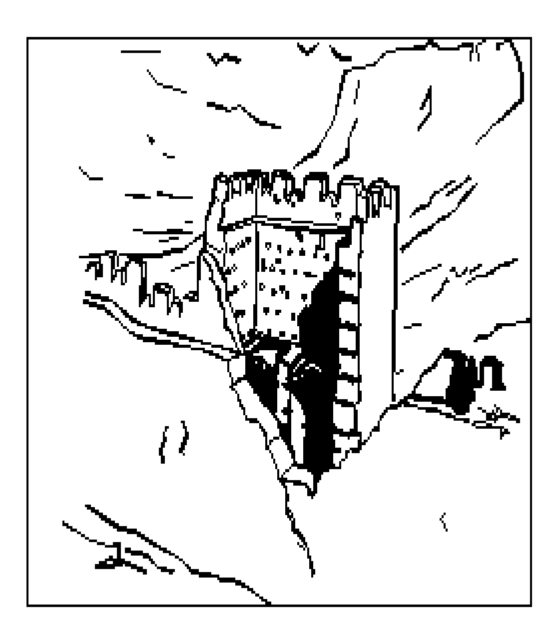
(١٦) **الذخيرة**... م.س، ص ١٦١.

(١٧) الدبيش عبد الوهاب، **فاس المرينية بين سنتي ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦ م – ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨ م "المجال والمجتمع وعلاقتهما بالدولة"**، د.د.ع في التاريخ، ك.ا.ع.ا ظهر المهراز فاس، ١٩٨٨ – ١٩٨٩ م، غير منشورة، ص٢٦١.

(١٨) ابن أبي زرع علي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣ ، ص ٤٩.

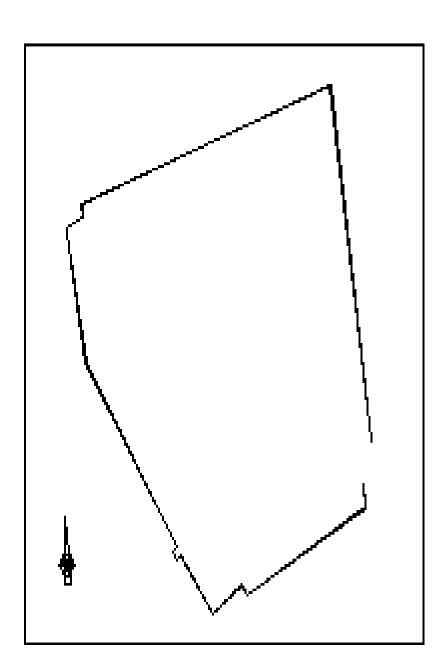
(١٩) **ابن الحباك**: هو مبتكر الساعة المائية التي نصبها في الغرفة العليا بمنارة القروين سنة (٦٨٥/١٢٨٦م) حتى تعرف منها-أيام الغيم- أوقات الصلوات النهارية والليلية. وهو الذي اضطلع بنصب القبلة لمدرسة الحلفاويين (الصفارين) بفاس. نقلا عن محمد المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات ك.آ.ع.إ- الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٦، ص ٣٥٨.

(٢٠) ابن خلدون، **العبر**...، م.س، ص ٤٠٢.



**مخطط رقم (٣)**

مقطع لأحد أبراج مدينة تلمسان



**مخطط رقم (٤)**

سور تلمسان المرينية

(٢١) تقول الرسالة التي أوردها التميمي: ".. ولما سمعنا أن حوزتكم تحتوي جمعا من حذقة أهل النجوم ومهرتها، طلبنا راسخا منهم في صناعتها. ثم جاء سفيركم ولم يستصحب منهم أحدا. وعرفنا من أخباره أن الأمر قد التبس عندكم لعدم الاطلاع على حقيقة الحال، فقبلنا العذر وأكدنا الطلب على هذا المنوال حين أدرجنا هذه المذكرة في كتابنا المعنون بتوقيعنا المنيف المختوم طرفه بخاتمنا الشريف. والمطلوب من جنابكم الملكي أن تأمروا بانتخاب ماهر في فن النجوم عالم بمبادئه ومقاصده ضابط لأوابده وشوارده، بحيث لا يكون مثل بعض القوالين وهو غير خبير ولا مثل بعض الدجالين وهو غير بصير...". ص ٣٧١ - نقلاً عن: عبد الجليل التميمي، "تاريخ العلاقات الثقافية بين استانبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث"، في **دراسات ووثائق في التاريخ المغاربي في العصر الحديث**، زغوان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٩، ص ٦٣-٧٣.

(٢٢) **علم التنجيم**: هو فرع من العلوم الفلكية يدرس كيفية الارتباط المفترض لبعض الكواكب بالأحداث التي تجري على الأرض. ينظر : - المنوني، **ورقات**..، م.س، ص ٣٥٦.

(٢٣) **الأنيس المطرب**...، م.س، ص ٢٢٢.

(٢٤) المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، **الخطط المقريزية، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، م٢، منشورات دار إحياء العلوم، لبنان، دون سنة طبع، ص ٢٠١.

(٢٥) بمنارة القرويين غرفة موقوفة على توقيت الصلوات..لا يتولاها إلا بارع في علم الفلك.. ومن أبرز فلكيها عبد الرحمن الجادري (٨٣٩هـ/١٤٣٦-٣٥م)... ينظر:- المنوني، **ورقات**...، م.س، ص ٣٦٥، وأيضًا: - **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**، محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني، وضع فهارسه واعتنى به الشريف حمزة بن علي الكتاني، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ٦٣.

(٢٦) ابن الأحمر إسماعيل، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص ٧١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٣٠-١٣١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٣٠) الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، م.س، ص٢٨٢.

(٣١) الوزان، **وصف افريقيا**، م.س، ص ٢٨٢.

(٣٢) إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط ٢، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، المطبعة الملكية، الرباط، ص ٦١.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٣٤) **بنو زيان**: هو الاسم الذي حمله ملوك تلمسان من احفاد وورثة يغمراسن بن زياد.. وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس (أي بني مرين)". يُنظر: - الوزان، **وصف افريقيا**، م.س، ج٢، ص ٧ - ٨.

(٣٥) ابن خلدون، **كتاب العبر**..، م.س، ص ١٩٦.

(٣٦) ابن الأحمر، **روضة النسرين**...، م.س، ص ٦١.

(٣٧) الناصري أبو العباس أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج٣، ص ٧٩.

(٣٨) المصدر نفسه، ص٦٩.

(٣٩) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٢٢٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٤١) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، ط٢، ١٩٩٩، المطبعة الملكية، ص٥١١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٥١١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٥١١.

(٤٤) إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المطبعة الملكية، الرباط، ص٦١.

(٤٥) **كتاب العبر**، م.س، مج ٧، ص ٢٢١.

(٤٦) ابن خلدون يحي، **بغية الرواد في ذكر بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج ١، المكتبة الوطنية بالجزائر، ١٩٨٠، ص ٢١٠ نقلاً عن معروف بلحاج، "مدينة المنصورة الأثرية من خلال المصادر التاريخية"، **حولية المؤرخ**، ع٤، ٥ع، جوان ٢٠٠٥، ص ٦٥ – ٧٩.

(٤٧) إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين**، م.س، ص ٢٨ . والقاضي هو علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المليلي الفقيه الإمام العالم المفتي المدرس القاضي، ولي القضاء في حضرة يوسف بن عبد الحق المريني وهو الذي كان يقضي له بالمدينة التي أحدثها بظاهر تلمسان عند حصار سلطانها عثمان بن يغمراسن بن زياد العبد الوادي."- ينظر ترجمته في:- أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٤، ص ٤٧١.

(٤٨) **كتاب العبر**، ج٧، م.س، ص ١٩٣.

(49) Crónica de Álfonso décimo, *B.A.E.*, Edic, Atlas, vol. LXVI, Madrid, 1953, P. 57.

(٥٠) محمد الشريف، **أضواء على مدينة أندلسية مجهولة: البُنيَّة: المدينة الملوكية المرينية بالأندلس**، **مجلة التاريخ العربي**، ع٥٤، سنة ٢٠١٠، صص ٢٤٧-٢٥٦.

(51) Navarro LUENGO, J.B. SALADO ESCANO, *Albinya, la Ciudad Palatina Merini de Algaciras*, Algasiras, 1999, P. 74.

# تاريخ تُنبُكْتو منذ نشأتها إلى غاية القرن الحادي عشر الهجريّ
## دراسة ثقافية تاريخية

**د. الحاج بنيرد**

أستاذ مساعد التراث والمخطوطات
جامعة مولود معمري
تيزي وزو – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**

لقد لعبت مدينة تُنبكتو شمالي مالي دورًا هامًّا في السّاحل الإفريقي، وشكّلت همزة وصل بين الغرب الإسلامي وبين إفريقيا جنوب الصّحراء، ومع ذلك فإنّني لم أقف على دراسة مخصّصة لها، وإنّما ذُكرتْ تبعا لِما يُعرف بالسّودان الغربي، وهذا ما جعلني أقوم بهذه الدّراسة محاولة لنفض الغبار عمّا طالها من الإهمال والنّسيان، فحاولت أن أجمع الإشارات الموجودة في مختلف الكتب والدّراسات، وأن أضعها تحتها المجهر، فذكرت موقعها وتاريخ نشأتها (القرن الخامس الهجريّ)، وأهمّ عوامل تأسيسها؛ وهي عامل تجاريّ لاشتهارها بتجارة الذّهب والرّقيق والملح، فقصدها الناس من المشرق والمغرب والأندلس. وعامل سياسي تمثّل في انطلاق دعوة المرابطين من التّكرور على سواعد أمازيغ صنهاجة (لمتونة وجدالة ومسوفة)، وكانت منطقة تنبكتو حينها من أهمّ مراعيهم وأراضيهم. كما ساهم العامل الدّيني في نشأتها، وهو الرّغبة في نشر الإسلام في إقليم التّكرور وغانة، ومحاربة الوثنيّة في تلك البلاد. وذكرنا في هذا البحث أنّ تُنبكتو تناوبت عليها تقلبّات كثيرة، فعرفت أزهى أيّامها في عهد مملكة السُّنغاي في القرن التّاسع الهجري وما بعده؛ في عهد السّلطان موسى مَنْسا الّذي شيّد المساجد، وفي عهد الأسكيا محمّد الّذي اعتنى بالعلماء وأكرمهم. كما أنّها عرفت نكبات كثيرة، أهمّها نكبة سلطان مالي سُنّي علي الّذي حارب علماء تنبكتو وشرّدهم، ثمّ في نهاية القرن العاشر الهجريّ على يد السّعديّين الّذين قضوا على إشعاع تُنبكتو، وهذا ما فتح المجال واسعا أمام الوثنيّة، ثمّ حملات التّنصير مع الاستعمار الحديث.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٨ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أغسطس ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

السّودان، إفريقيا، المُرابطين، سُنْغاي، آل أقيت

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

الحاج بنيرد. "تاريخ تُنْبُكْتو منذ نشأتها إلى غاية القرن الحادي عشر الهجريّ: دراسة ثقافية تاريخية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٧١ – ٨١.

## مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ مدينة تُنْبُكْتُو من أهمّ مدن السّاحل في الماضي والحاضر وربما في المستقبل، لقّبها المستكشفون بـ "جوهرة الصّحراء"، وقد مثّلت هذه المدينة منذ نشأتها بؤرة صراع ومركز ثقافة واطّلاع، وأثّرت فيما حولها وتأثّرت هي أيضًا بما حولها، فغدت من أهمّ مراكز الإشعاع الثقافي والحضاري خصوصا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، ومع ذلك بقيت هذه المدينة مغمورة عند المثقفين فضلا عن عامة النّاس، ولم تحظ بالكثير من الدّراسات ولم تنل نصيبها من البحث الأكاديمي، وكلّ ما هنالك أنها معلومات مبثوثة هنا وهناك ومتفرقة بين بطون الكتب، حاولنا جمع ما أسعفنا الجهد والحظّ لذلك، ثم نسّقنا بينها وأبدينا ملاحظاتنا حولها كلما عنّ لنا في ذلك رأي أو فكرة، فجاءت هذه الدّراسة القصيرة محاولة لنفض الغبار عمّا طالها من الإهمال والنسيان. ولهذا كان التجرّؤ على اختيارها موضوعًا للدّراسة ضربًا من التوغّل في المجهول، ونوعًا من المخاطرة العلميّة، بالنّظر لقلّة المراجع في هذا المجال، وبالنّظر أيضًا لشحّ المصادر في ذكرها، ولولا الأحداث التي شهدتها في السّنوات الأخيرة ربما لم يسمع بها أحد.

وقد وقفت على بعض أخبارها في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن بن محمد الوزان الفاسي الشهير بليون الإفريقي (ت. حوالي ٩٥٧هـ)؛ ويعدّ كتابه هذا خريطة جغرافية وملخصا تاريخيا اعتمده الرحالة الأوروبيون في رحلات استكشافهم للمنطقة، وكتاب "تاريخ السودان" لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي التنبكتي (ت. ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م)، كما اعتمدنا في هذا البحث على كتب التراجم التي ألفها علماء المنطقة لنتعرف على علومهم ورحلاتهم؛ ونخصّ بالذكر كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي (ت. ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)؛ ويعد من أشهر علماء المنطقة كما يعد كتابه من أهم كتب التراجم التي لا يمكن أن يستغني عنه الباحث في التراث، ووقفت أيضا على كتاب "فتح الشكور في معرفة علماء تكرور" لأبي عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي (ت. ١١١٩هـ)، وهو كتاب متأثر إلى حد بعيد بكتاب "نيل الابتهاج"، إضافة إلى بعض الكتب العامة في التاريخ وبعض الدّراسات التّاريخيّة المتفرقة ككتاب "العبر" لابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ)، وكتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" لأحمد بن خالد الناصري (ت. ١٣١٥هـ/١٨٧٩م)، وأيضا بعض الدّراسات التي تحدثت عمّا يُعرف بالسّودان الغربي. وما يُلاحظ على كتاب "تاريخ السّودان" لعبد الرحمان السّعدي هو كثرة التصحيفات والتحريفات فوقع من أخذ منه في ذلك، ولهذا فهو بحاجة إلى إعادة التحقيق، كونه حُقّق في وقت مبكّر على يد المستشرق هوداس في مدرسة اللغات الشرقية بفرنسا.

## إشكالية البحث

متى تأسّست مدينة تنبكتو؟ وما هي مراحل الازدهار في تاريخها؟ وما هي مظاهر الانكسار والتأخر عن دورها الريادي في منطقة الساحل؟ وما علاقتها بمختلف الأقطار وخصوصًا بشمال إفريقيا؟ هذه هي الأسئلة التي نحاول الإجابة عنها في هذا البحث.

## أولاً: موقع المدينة

**١/١- كلمة تُنْبُكْتو:**

كلمة " تُنْبُكْتو" كلمة أمازيغية باللّهجة الصّنهاجية مكوّنة من كلمتين "تين" و"بكتو"، ومعناها يخصّ العجوز أو خاصٌّ بالعجوز، لأنّها كانت أرضاً مِلْكاً لعجوز من طوارق إيمقشرن[١]. وقد ضبط ابن بطوطة (ت. ٧٧٩ هـ) كلمة "تُنْبُكْتُو" بضمّ التاء المثنّاة وسكون النّون وضمّ الباء الموحّدة وسكون الكاف وضمّ التّاء المثنّاة الثّانية وبعدها واو[٢]. ويكتبها غير واحد من المؤرّخين والعلماء "تُنْبُكْت" بلا واو في الأخير كأبي العباس المقري (ت. ١٠٤٠ هـ) في "أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض"، ومحمد أمين المحبي (ت. ١١١١ هـ) صاحب "خلاصة الأثر"، ومرتضى الزّبيدي (ت. ١٢٠٥ هـ) في "تاج العرس"، وعبد الحيّ بن عبد الكبير الكتّاني (ت. ١٣٨٢ هـ) في "فهرس الفهارس"[٣]. ومنهم مَنْ يكتبها "تمبكتو" بالميم بدل النون[٤]، وذلك ظاهر نتيجة قلب النون ميما لالتقاء النّون السّاكنة بالباء، ومنه أيضًا أُخذ المقابل بالفرنسية "Timbuctu"، ولهذا ترجمها الدكتور زكي نجيب محمود "تمبكتو" –بالميم- عند ترجمته لكتاب "قصّة الحضارة" لويليام جيمس (ت. ١٩٨١ م).[٥]

**١/٢- إقليم تُنْبُكْتُو:**

يقع إقليم تُنْبُكْتو في الشمال الغربي لدولة مالي حاليًا بمحاذاة الجنوب الجزائري وشرق موريتانيا، في منطقة مترامية الأطراف وسط الصّحراء الكبرى فيما يُعرف بالسّاحل الإفريقي الّذي يضمّ دول موريتانيا وجنوب الجزائر وشمال مالي والنّيجر وتشاد وليبيا إلى غاية سواحل المحيط الأطلسي، وربّما بسبب ذلك أُطلق على المنطقة تسمية منطقة السّاحل. وكانت تُعرَف هذه المنطقة قديما باسم التكرور[٦]، وباسم صحراء صنهاجة[٧] لأنّ قبائل صنهاجة البربرية أكثر من عمّرها وأشهر من ذُكر بها[٨].

وقد عَرّف محمد بن أبي بكر الصديق الوُلاتي (ت. ١١١٩ هـ) إقليم التّكرور بأنّه إقليم واسعٌ جدًا يمتدّ شرقا إلى أدْغاغ (أدرار الجزائرية)، ومغربا إلى بحر بني زناقية[٩] (المحيط الأطلسي)، وجنوبا إلى بيط (جنوب مالي)، وشمالا إلى أدرار (شمال موريتانيا)[١٠].

والبلاد الواقعة في أرض السّودان شديدة الحرارة إلا أنّ بها شيئًا من الرطوبة بسبب نهر النّيجر، وكلّ الأقاليم المجاورة لهذا النّهر صالحة جدّا للزّراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد فيها من الماشية أعداد لا تُحصى، ويوجد فيها أيضًا أنواع الخضر إلا أنّ الفاكهة فيها قليلة أو منعدمة[١١]. أمّا مدينة تنبكتو فتتوسّط هذا الإقليم وتحتلّ موقعا استراتيجيا فيه، فالمارّ من شمال التكرور إلى جنوبه أو من شرقه إلى غربه لابدّ أن يمرّ على تنبكتو، وخاصّة أنه يمرّ بها نهر النّيجر ثمّ ينحني جنوبًا إلى مدينة غاو بنحو ثلاثمائة وعشرين كيلومترًا، وأمّا في الطريق إلى المحيط الأطلسي فتقع مدينة وُلاتة الموريتانية على الحدود مع الجزائر بنحو ذلك.

## ثانيًا: تأسيس مدينة تنبُكْتو

يُجمع المؤرّخون على أن مدينة تنبكتو تأسّست في القرن الخامس الهجري أثناء قيام دعوة المُرابطين[١٢]، ولم نر من شذّ إلا ما ذكره إبراهيم الأبياري (ت. ١٤١٤ هـ) من أنها تأسّست سنة ٦١٠ هـ[١٣]، ويبدو أنّه اعتمد على ما ذكره الحسن الوزّان الشهير بليون الإفريقي بأنّ مدينة تُنْبُكْتُو بناها ملك مالي منسا سليمان سنة ٦١٠ هـ على نهر النّيجر[١٤]، والصّواب أنّ هذا الملك أعاد بناءها.

لقد كانت منطقة تنبكتو معبرا للقوافل بين غرب إفريقيا وشمالها وبين وُلاتة والقاهرة، ومن ثمّة إلى الشّام والحجاز، ولهذا كانت محلا للبدو الرّحّل، وخاصّة بعض فروع صنهاجة كلمتونة وجدالة ومسوفة؛ إذ يذكر المؤرّخون بأنّها كانت طريقًا للتّجارة من مدينة غاو وما دونها من بلاد غانا إلى المغرب والقاهرة والشّام والحجاز، وبأنها كانت محلا للظعن والحِلّ والتّرحال لقبائل صنهاجة، ويقدّرهم ابن خلدون (ت. ٨٠٨ هـ) بأنّهم ثلث سكّان البربر في المغرب[١٥].

ويبدو أنّ بداية الاستقرار بها كان في أواسط القرن الخامس الهجري، وبالضّبط عند نزول المرابطين الأوائل بها، فنزل بأحوازها الشّيخ المصلح عبد الله بن ياسين (ت. ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م) على مقربة من تُنْبُكْتُو[١٦]، فوفد عليه كثير من أشراف هذه المنطقة فبلغوا ألفا، وبدأ بتغيير المنكر ومحاربة البدع والعادات الوثنية في تلك النّواحي، فحارب جدالة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل سنة ٤٣٤ هـ، ثمّ سار لقتال لمتونة حتّى أذعنوا للطّاعة، ثمّ مسوفة حتّى خضعت قبائل صنهاجة كلّها، وبهم سار إلى الشّمال في صحراء موريتانيا وسجلماسة وأغمات بالمغرب الأقصى[١٧]. وقد قدّر عدد قبائلهم بنحو سبعين قبيلة يعيشون حياة البدو والرعي في تخوم الصحراء.[١٨]

ونرى بأنّ انطلاق دعوة المرابطين من هذه المنطقة، وظهور دولتهم على سواعد لمتونة وغيرها من قبائل صنهاجة كان له الأثر الأكبر في تكوّن تجمّع سكّاني مستقرّ بالمنطقة، وعمدته قبائل مسوفة بعد أن انتقل إخوانهم اللمتونيون مع عبد الله بن ياسين إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس. وممّا يزيد هذا الطّرح الذّي ذهبت إليه جلاء وقوّة هو أنّ المؤسّسين لمدينة تنبكتو هم التّوارق وهم مسوفة الصّنهاجية، وهم أغلب سكانها أيضًا[١٩]. وهذا التّجمّع السّاذج – على حدّ تعبير ابن خلدون – تأسّس على مبادئ الدّين ذات المرجعية السُّنّيّة بعقيدة الأشعري والمذهب المالكي والمنهج الصّوفي، تأثرًا بدعوة المرابطين؛ حيث لم تُعبد فيها الأوثان، ولا سُجد فيها لغير الرّحمان، على حدّ تعبير صاحب "تاريخ السّودان"[٢٠].

ويذكر عبد الرّحمان التّنبكتي السّعدي (ت. ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦م) بأنّها نشأت على يد توارق إيمقشرن في القرن الخامس الهجريّ، فاختاروا موضع تنبكتو على ضفاف نهر النّيجر، ثمّ اجتمع إليهم من كلّ بلاد؛ من مصر وفزّان وغدامس وتوات ودرعة وسوس وفاس[٢١]. ويذكر بأنّ بناءها كان بسيطًا في البداية، فكانوا يبنون بالأشواك والجرائد، ثمّ تحوّلوا إلى بناء أسوار قصار بحيث من وقف في خارجها يرى ما في داخلها، ثمّ بنوا المسجد الجامع بحسب ذلك، ثمّ مسجد سانكُري كذلك، وما ثبتت عمارته إلا في القرن التّاسع، وهي بداية العصر الذّهبي لمدينة تُنبكتو، وما تكامل بناؤه إلا في أواسط القرن العاشر في عهد حاكمها أسكيا داود[٢٢].

## ثالثا: عوامل نشأة مدينة تنبُكْتو

اجتمعت مجموعة من العوامل التي أسّست لمدينة كبيرة في قلب صحراء التّكرور، أهمّها عامل تجاري، وسياسي، وديني. سنحاول توضيح كلّ عامل فيما يلي:

**١/٣- العامل التّجاري:**

يُعتبر العامل التّجاري أهمّ عامل في نشوء مدينة تنبكتو في القرن الخامس الهجريّ، فهذه المنطقة كانت ملتقى القوافل المتجهة من مناجم الذّهب في غانا وغيرها مرورًا بغاو إلى الشّمال الغربي باتّجاه سجلماسة ودرعة ومراكش وفاس وتلمسان، وباتّجاه الشّرق نحو توات وميزاب وورقلة وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة ثم بلاد الحجاز والشّام. وخصوصًا بعد ظهور دولة المرابطين في القرن الخامس الهجريّ الّذين نشطت بفضلهم التّجارة في الجنوب، فهم يعرفون المنطقة جيّدًا؛ إذ منها خرجوا ومنها تكوّنت نواة دولتهم، فعملوا على تأمين السّبل، فتنوّعت السّلع وكثرت حركة القوافل، وخصوصًا تجارة التّبر والذّهب القادم من غانا وضفاف نهر النّيجر ونهر السّنيغال[٢٣].

ويضاف إلى ذلك؛ تجارة الرّقيق والعبيد، وهي تمثل إحدى أهمّ المعاملات التّجارية في بلاد السّودان، ممّا يحرّك همم تجار مختلف الأصقاع نحوها، وهي تجارة رائجة جدًا منذ القديم، كما يقول الشريف الإدريسي (ت. ٥٥٩هـ/ ١١٦٦ م) :" ويُباع منهم – أي الرّقيق – في كلّ سنة أمم وأعداد لا تُحصى"[٢٤]. فاستعملهم المرابطون في جيوشهم، وكانوا ممّنْ ساهموا في نصر معركة الزّلاقة قرب طُلَيْطلة قرب الأندلس سنة ٤٤٦ هـ[٢٥]، وبالتّالي تمكّنوا من إطالة عُمر العصر الإسلامي في الأندلس لقرون أخرى، ولهذا أيضًا نتفهّم رواج تجارة العبيد إلى عهد متأخّر وخصوصًا في بلاد المغرب الأقصى، وأنّ ذلك من آثار ونتائج سياسة دولة المرابطين منذ عهودهم الأولى.

وشملت السّلع الآتية من الجنوب إضافة إلى ما ذُكر الشّبّ وجلود الحيوانات المفترسة وغيرها، فعمّ الثّراء هذه المنطقة، وهذا ما ساعد المسوفيّين وغيرهم من قبائل صنهاجة على الاستقرار وترك حياة الظّعن والتّرحال بحثًا عن الماء والرّزق وكلإ مواشيهم. وأمّا المواد المصدّرة نحو الجنوب فتمثّلت في الملح خصوصًا، وكان يُعتبر المادّة الأولى للمقايضة والتّبادلات التّجاريّة عندهم، ويُدّخر منه الكثير باعتباره مادة استراتيجية للسّودانيّين، وفي وقت الحاجة قد يُقايض مع الذّهب بالمثل، وكان نقد منطقة غاو هو الملح[٢٦]. ويصدّر إليهم كذلك النّحاس والزّجاج وخشب الصّنوبر وبعض المواد الغذائية كالقمح الذي يحتاجه أهل تُنبكتو وغيرها[٢٧]. وكانت مدينة تُنبكتو من أهمّ المدن التّجارية في الغرب الإسلامي في منطقة الصّحراء رفقة مدينة وُلاتة، وهذا في القرن الرّابع عشر الميلادي ممّا أدّى بها إلى الاستقرار والثّراء ونشوء مناخ ثقافي وعلمي هامّ بها فهاجر إليها الكثير من العلماء.

**٢/٣- عامل سياسي:**

يتمثّل العامل السّياسي في قيام دولة المرابطين انطلاقًا من أحوازها، ولا يخفى أنّ دولة المرابطين قامت على سواعد أشراف صنهاجة، فبعد إقامة المصلح عبد الله بن ياسين بين أظهرهم، وتأسيسه لرباط في الصّحراء، فالتفّ حوله جمع من سادات قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة، وهذا الموضع الّذي انقطع فيه عبد الله بن ياسين وأصحابه كان فيما يُرجّح جزيرة تقع في منحنى نهر النّيجر على مقربة من تنبكتو[٢٨]، وهذا الرّباط الجديد الّذي لم يألفه قومٌ دأبوا على الحِلّ والتّرحال جعلهم يتجمّعون بعدما كانوا متفرّقين، ويستقرّون بعدما ألفوا كثرة التنقل، وخاصّة بعد قيام عبد الله بن ياسين بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومحاربة البدع والوثنيين

والظلمة، وهذا بطبيعة الحال أدّى إلى تكتّل النّاس استعدادًا للأخطار المحدقة بهم، فإمّا أن ينضمّوا إلى صفوفه، وإمّا أن يستعدّوا لمواجهته فيضطرّون بدورهم أيضًا إلى التّكتّل، فحارب جدالة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل سنة ٤٣٤ هـ، ثم سار لقتال لمتونة حتى أذعنوا للطاعة ثم مسوفة حتى خضعت قبائل صنهاجة كلها، ثمّ صوّب المرابطون أعينهم إلى إمبراطورية غانا فتوجّهوا إلى الشّرق نحو منحنى النّيجر سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٦م)، وخاضوا معارك قاسية هناك خسروا فيها أحد أهمّ المؤسّسين لدعوتهم، ونشر تعاليم الإسلام على منهج المذهب المالكي، فتضاعف عددهم وزاد رصيد بيت المال بأموال الزّكاة، وهو الأمر الّذي جعلهم يواصلون حملتهم، وبدأوا يزحفون جهة الشّمال ناحية سجلماسة وأحوازها[٢٩]، فوصلوا سوس وأغمات، ولما ضاق بهم المكان اختطّوا مدينة مراكش سنة (٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م)، ووقع اختيارهم عليها لأنها مناسبة لما ألفوه في الصّحراء[٣٠]، ولهذا نعتقد بأنّ مدينة تُنبكتو بُنيت في وقت بناء مدينة مرّاكش، لأنّهم ذكروا بأنّ جدالة ولمتونة بنوا مدينة مراكش، بينما بقي إخوانهم مسوفة بالتّكرور وذكروا بأنهم بنوا مدينة تُنبكتُو في نفس المرحلة[٣١]، ولهذا فبناؤها مرتبط أساسًا بقيام دولة المرابطين، والله أعلم.

**٣/٣- العامل الدّيني:**

تقدّم بأنّ رباط ابن ياسين امتدّ تأثيره إلى كلّ بلاد التّكرور، وأنّ الصّنهاجيّين استبدلوا حياة الكدح والعنت والتّرحال بحياة البذخ والاستقرار، وأنه بقي فئام من الصّنهاجيّين بمواطنهم في بلاد التّكرور بعدما انتقل إخوانهم إلى بلاد المغرب الأقصى والأندلس، فبنى مَنْ بقي منهم من صنهاجة مسوفة ما يحتاج إليه المقيم من دور ومساجد، فشذّت عمّن جاورها من مدن السّودان الّتي عمرت بالديانات الوثنية، وكما يقول عبد الرّحمان السّعدي: "... ما دنّستها عبادة الأوثان، ولا سُجِد على أديمها قطّ لغير الرّحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزّاهدين"[٣٢]. ولهذا نراهم اعتنوا ببناء المساجد كونها دُور عبادة وتعليم وقضاء، وهذا هو الدّور الأساسي الّذي اطّلعت به مساجد تُنْبُكْتو.

**- بناء المساجد:**

لاشكّ بأنّ المساجد والكتاتيب كانت كثيرة بمدينة تنبكتو، وأشهرها مسجدان: الأول هو المسجد الجامع الذي يقع في وسطها بناه ملك مالي منسا موسى، وقد وصفه ليون الإفريقي عند زيارته لها، وقال: "في وسط المدينة مسجد مبنيّ بالحجر المركّب بالطّين والجير على يد مهندس أندلسي"[٣٣]، ويبدو أنّه إلى غاية زمن الحسن الوزّان قد تعرّض إلى البناء عدّة مرّات، الأولى على يد المسوفيّين بالأخشاب وجرائد النّخل، ثمّ على يد الملك منسا موسى، ثمّ في زمن الوزّان أو قبله على يد هذا المهندس الأندلسي. ثمّ بُني بعد ذلك مسجد سانكُري[٣٤] على أطراف المدينة، وقد اجتمع فيه الغرباء في بادئ الأمر، ثمّ علا شأنه حتّى صار مركزًا ثقافيًا إسلاميًا حقيقيًا لدراسة العلوم الإسلامية واللّغوية والدّينية، ويُعَدّ أوّل جامعة للدّراسات الفقهيّة واللغوية والدّينيّة في منطقة الصّحراء، وصار يضاهي كبار جوامع العالم الإسلامي كالأزهر والقرويّين والزّيتونة، وتخرّج منه علماء تنبكتو وفقهاؤها، واشتهرت فيه عائلة محمّد آقيت التي توارثت العلم كابرًا عن كابر، وكان منهم العلامة أحمد بابا التُّنْبُكْتي (ت. ١٠٣٦ هـ)، وقد نُقِل عن القاضي محمد الكابري أنّه قال: "أدركت من صالحي سنكُري من لا يقدّم عليهم في الصّلاح أحدٌ إلا أصحاب رسول الله (ﷺ) ورضي عنهم أجمعين"[٣٥]. وقد بناه أيضًا السّلطان منسا الحاج موسى صاحب مالي في وسط مقبرة، وهذا بعدما رجع من الحجّ وتملّك تنبكتو، وبعد ذلك تولّى القاضي العاقب بن محمود آقيت إعادة بنائه فوسّعه سنة ٩٨٥ هـ[٣٦].

## رابعًا: مرحلة الازدهار

يُعَدّ عصر ملك مالي منسا موسى في القرن الثّامن الهجريّ (١٣١٢م-١٣٣٧م) بداية عصر الازدهار الفكري والحضاري في ما يُعرف بالسّودان الغربي، وفي عهده أصبح الإسلام راسخ الأركان، وساعده على ذلك شُهرة هذا السّلطان في كل العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وخصوصا بعد قيامه سنة (٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤م) برحلته الشّهيرة إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ، وقد رافقه في هذه الرّحلة الآلاف من رعاياه، وقام بصرف أموال طائلة أدّت به إلى الإفلاس عند نزوله بمصر، فلجأ إلى الاقتراض من أحد تجّار الإسكندريّة يُدعى سراج الدّين الإسكندري، والذّي لحق به فيما بعد لاسترداد أمواله، وهذه الحادثة تدلّ على مدى الارتباط بين تجّار المشرق وتنبكتو، كما تبيّن مدى التّقوى وأخلاق الملوك والرّعيّة الّتي حسُنت أحوالها في هذه المرحلة.[٣٧] وقد شملت مملكة مالي في عهد منسا موسى بلاد التّكرور والصّحراء الكبرى، ثمّ أخذت هذه الدّولة في الانحطاط مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي (التّاسع الهجريّ)، وفقدت سيطرتها على التّكرور وتُنبكتو.[٣٨]

**- مملكة سُنْغَاي:**[٣٩]

يرى المؤرّخون بأنّ مملكة سُنْغَايْ أو إمبراطوريّة سُنْغاي كانت من أقوى الممالك الإسلامية التي قامت بالسّودان الغربي، وامتدّ نفوذها إلى جنوب الصّحراء، ووصلت إلى كانو بنيجيريا زيادة إلى كلّ إقليم التّكرور، وتحوّلت في عهد ملكها سُنّي[٤٠] علي في القرن التّاسع الهجري (١٤٦٤ م -١٤٩٢ م) إلى إمبراطورية عظيمة[٤١]. وازدادت قوّتها وأهميتها بعد مجيء الأسكيا الحاج محمّد الّذي انقلب على ابن الحاكم السّابق سُنّي علي، وقد بذل جهدًا كبيرًا في نشر الإسلام في المدن الوثنيّة جنوب الصّحراء، كما أمِنت في عهده السّبل، وعمِرت المساجد، وعلا شأن العلماء وصارت لهم مكانة مرموقة في بلاط الحكم وفي تنظيم شؤون العامّة، وهذا الأمر هو الّذي أدّى إلى رغبة النّاس في العلم وتنافسهم في التّحصيل، وفي عهده بلغت مدينة تُنْبُكْتو الغاية في العلم والحضارة، وفي عصر ابنه أسكيا داود بن الحاج محمّد وصلت هذه المدينة إلى ذروتها في البناء والتّشييد[٤٢]. وقد ظلّت مدينة تُنْبُكْتُو طيلة القرنين الخامس عشر والسّادس

عشر مركزاً عظيماً لتلقّي العلوم الإسلامية في السّودان الغربي وعموم إفريقيا.

ولهذا تعدّدت الهجرات الكثيرة إليها طلبا للثّراء باعتبارها من أهمّ أسواق الذّهب والعبيد، والّتي تُدرّ أرباحًا طائلة، تجعل التّجّار يتجشّمون الصّعاب والمشاقّ للوصول إليها، أو رغبة في العلم والتعلّم والدّعوة إلى دين الإسلام، أو هجرة أهلها إلى غيرها من البلدان طمعا في علم أو فرارا من مكروه. ويبدو أنّها في بداية شأنها ذاع صيتها وهيب جانبها فراسلها السّلاطين والأمراء، وقد وجدنا بأنّ السّلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي (ت. ٩٣١ هـ) أرسل إلى الأسكيا الحاج محمّد سلطان سُنْغَاي (ت. ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٨م) وفدًا هامًّا بهدايا، كان فيهم الحسن بن محمد الوزان الشّهير بليون الإفريقي؛ وكان غلاما ذا ستّ عشرة سنة.[٤٣]

**٤/١- هجرة علمائها إلى غيرها من البلدان:**

اختلفت دواعي هجرة علماء تُنبكتو وطلبتها إلى عواصم العالم الإسلامي، فقد تكون لطلب العلم وزيارة العلماء وغالبا للحجّ، وقد تكون أيضًا طلبًا للأمن أو فرارا من مكروه أو يؤخذون إكراهًا لغيرها من المدن؛ كما حدث مع أحمد بابا التُّنْبُكْتِي (ت. ١٠٣٦ هـ) مع خيار علماء أهله حين أُخذوا مصفّدين إلى مرّاكش في عهد السّلطان المنصور أحمد السّعدي (ت. ١٠١٢هـ).

**- الهجرة إلى الحجّ والمشرق:**

رحل إلى المشرق علما كثيرون من أهل تُنْبُكتو، فأفادوا واستفادوا، وتتبّع جميع هؤلاء ممّا لا تسمح به هذه الدّراسة، ولكن لا بأس بالتّمثيل:

فقد رحل الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت التُّنْبُكْتِي (ت. ٩٤٣ هـ) جدّ أحمد بابا صاحب "نيل الابتهاج" إلى المشرق للحجّ، فلقي الجلال السُّيوطي (ت. ٩١١ هـ) وخالد بن عبد الله الأزهري (ت. ٩٠٥ هـ) وغيرهما، فاستفاد منهم ورجع إلى بلده للإفادة والتّدريس.[٤٤]

- ومنهم والد أحمد بابا الذي التقى باللقاني والأجهوري وعبد الرّحمان بن أحمد المغربي الطرابلسي الشّهير بالتاجوري (ت. ٩٦٠ هـ)، وابن حجر المكي والفاكهاني وزين بن أحمد بن يونس الجيزي (ت. ٩٩٧ هـ) وغيرهم، واستفاد منهم وأجازوه، ثمّ رجع إل بلده واستفاد منه أهل تُنبكتو، ومنهم ابنه أحمد بابا.[٤٥]
- ومنهم الفقيه أحمد بَغْيُع بن محمود التّنبكتي (ت. ٩٧٨ هـ) وأخوه محمد بَغْيُع، رحلا إلى الحجّ، ولقيا النّاصر اللقاني والتّاجوري وغيرهما فاستفادا منهم، ولما رجعا إلى تنبكتو جلسا للتّدريس، واستفاد منهم طلبة تنبكتو، ومنهم أحمد بابا.
- ومنهم المتصوّف أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت التُّنْبُكْتِي عمّ أحمد بابا نزيل المدينة المنوّرة مع كافّة عياله، وسكنها إلى أن تُوُفّي بها سنة ٩٩١ هـ، وهو شيخ لأحمد بابا في العربية وغيرها.[٤٦]
- وممّنْ رحل إلى المشرق زمن أبي القاسم النّويري في أواسط المائة التّاسعة الفقيه عبد العزيز التّكروري، وكان عالما بمختصر خليل استفاد منه أهل مصر، وقد نقل عنه الحطاب في شرح مختصر خليل.[٤٧]
- ومنهم الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التّازختي (ت. ٩٣٦ هـ) الشّهير بأَيْدَ أحمد، أخذ عن الحاج أحمد بن عمر التّنبكتي ببلده، ثمّ انتقل إلى تكدة بالتكرور فلقي بها محمد بن عبد الكريم المغيلي وحضر دروسه، ثمّ شرّق صحبة الفقيه محمود بن عمر، فلقي القلقشندي والسّنباطي وجماعة، فأخذ عنهم علم الحديث وسمع وروى، ولقي اللقانيين الشمس والنّاصر أخاه، وأجازه من أهل مكّة أبو البركات النّويري وغيره، واجتهد حتى صار من محصّلي العلماء، ثمّ قفل إلى السّودان فنزل بلدة كشن، وأكرمه صاحبها وولاه قضاءها.[٤٨]
- ومنهم قاضي تنبكتو الفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر بن محمد آقيت المسوفي الصّنهاجي، عالم التّكرور، ولي القضاء سنة ٩٠٤ هـ، وكان أكثر إقرائه من المدوّنة والرّسالة والمختصر في الفقه المالكي؛ وله تقاييد عليه؛ وعنه انتشر إقراء مختصر خليل في ولاتة، وألفية ابن مالك في النّحو، حجّ سنة ٩١٥ هـ فلقي السّادات كالقلقشندي واللقانيّين وغيرهم، ثمّ رجع إلى تنبكتو ولزم الإفادة إلى أن تُوُفّي سنة ٩٥٥ هـ.[٤٩]
- والفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي (ت. ٩٩١ هـ)، أخذ عن المغيلي عند دخوله لبلاد السّودان، ورحل إلى المشرق فأخذ عن الجلال السّيوطي، له أجوبة على الأسكيا الحاج محمد سمّاها: "أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير"، وأجوبة أخرى للقاضي محمد بن محمود سمّاها: "الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود"، وهو من شيوخ أحمد بابا.[٥٠]

**تنويه:** يُعَدّ ناصر الدّين محمد بن حسن اللقاني من أهمّ شيوخ علماء تُنبكتو، وقد دارت عليه الفتوى بمصر، وأُستفتي في النّوازل من جميع الأقطار. وقد أخذ عنه الكثير من علماء تنبكتو، منهم أحمد بن أحمد التنبكتي والد أحمد بابا، والقاضي العاقب الأنصمني الّذي أجازه جميع ما يجوز له، والفقيه المجدّد محمد بَغْيُع أهمّ شيوخ لأحمد بابا، وأخوه أحمد بغيع وغيرهم كثير.[٥١]

**- الرّحلة إلى ولاتة من إقليم التّكرور:**

فرّ الكثير من علماء تُنْبُكْتُو من مسجدها سانكُري إلى ولاتة بسبب الاضطرابات الّتي شهدتها في عهد ملك مالي سُنّي علي؛ بعد حملته على مدينة تُنْبُكْتو لإخضاعها لسلطته:

- من أبرزهم محمد آقيت المسوفي جدّ الفقهاء والقضاة بتنبكتو، رحل في القرن الثّامن من تنبكتو إلى ولاتة منافرة لبعض أهلها وولاتها، ومخافة أن يتناسل بعض أبنائه معهم، ثمّ رجع إليها بعدما أسنّ، فارتحل مع عياله وسكنها.[٥٢]
- منهم المختار بن أندغ محمد التُّنْبُكْتِي الشّهير بالنّحوي (ت. ٩٢٢ هـ)، وابن أخته الحاج أحمد، والفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت.

- ثمّ تلتها رحلات أخرى منها رحلة محمد بن محمد التُّنْبُكْتي ثمّ الولاتي (ت. ١٠٥٠ هـ) الّذي كان بولاتة ثمّ هاجر إلى تنبكتو، وفي فتنة سُنّي علي رجع إلى ولاتة وبها تُوُفّي، ودخل إليها القاضي عمر بن محمّد آقيت الصّنهاجي التّنبكتي، ثمّ رجع ابنه الفقيه محمود بن عمر إلى تُنْبُكْتُو سنة ٨٨٥ هـ.[٥٣]
- وممّن هاجر إلى وُلاتة ببلاد التّكرور الفقيه المؤرّخ أبو العبّاس عبد الله بن أحمد بن سعيد الزَّمّوري (ت. بعد ٨٨٨ هـ)، فأقرأ أهلها ولقي فقهاءها وأثنى عليهم في العلم ثمّ رجع إلى بلده.[٥٤]

- **الرّحلة إلى المغرب:**

هاجر الكثير من علماء تُنْبُكْتُو إلى مدن المغرب لطلب العلم، كفاس ومُراكش وغيرها، منهم الفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي التّكروري (ت بعد ٩٤٠ هـ)، أخذ بتنبكتو عن عبد الله بن عمر آقيت الرّسالة وغيرها، ثمّ سافر إلى الشّمال فأخذ عن محمد بن أحمد ابن غازي (ت. ٩١٩ هـ) وغيره بفاس، ودخل بلاد السّودان وأقرأ أهلها وجرى له هناك نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثمّ عاد إلى تُنْبُكْتُو بعدما طوّف البلاد وجلس للتّدريس، ثمّ تحرّكت همّته فعاد إلى مُرّاكش وأقرأ بها إلى أن سُمّ هناك فمرض ورجع إلى تُنبكتو فمات بها بعد ٩٤٠ هـ.[٥٥]

- وأجاز أبو العبّاس أحمد بن محمد المقري التّلمساني (ت. ١٠٤٠ هـ) بعض علماء التّكرور، منهم عثمان بن عمر التّكروري (ت. ١١٢٨ هـ)، وله إجازات كتب الحديث ومختصر خليل وغيرها[٥٦].

**٢/٤- الرّحلة إليها من باقي الأقطار:**

وفد إلى تُنبكتو الكثير من علماء الأقطار، فجاءوها رغبة في نشر العلم، أو لِما سمعوا من ثرائها ومكانة العلماء عند أهلها، أو دعوة من سلاطينها للاستفادة منهم، أو للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ كما حدث مع الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي (ت. ٩٥٤ هـ).

- **الرّحلة من الحجاز إلى تُنبكتو:**

وفد على تُنْبُكْتُو عبد الرّحمان التّميمي الحجازي (ق ١٠ هـ) مع السّلطان سُنّي موسى حين رجع من الحجّ، فسكن تُنبكتو وأدركها حافلة بالفقهاء السّودانيّين، ولما أتاها وجدهم أكثر منهم علما وفقها، فرحل إلى فاس وتفقّه بها ثمّ رجع إلى تنبكتو فجلس للتّدريس، وكان الفقيه الصّالح يحي التّادلسي إذا جاءه الطّلبة أرسلهم إليه، وله بها عقب منهم حفيده القاضي حبيب[٥٧].

- **الرّحلة من توات إليها:**

رحل إليها الكثير من طلبة العلم بتوات إلى تنبكتو، فصار لهم بها صيت، وصاروا من أهمّ مكونات المجتمع التنبكتي، فمنهم العلماء والصّلحاء والأئمّة. فرحل إليها عل سبيل المثال: أحمد بن عمر الحماني التواتي (ت. ١١٣٨ هـ)، له مكتبة عامرة خاصّة بكتب التّصوّف، وهو من المتصوّفة الّذين استوطنوا تنبكتو.[٥٨] ومنهم أيضًا أبو القاسم التواتي (ت. ٩٢٢ هـ وقيل سنة ٩٣٥ هـ)، والّذي صار إمام المسجد الجامع وسط تُنبكتو، وكان مشهورًا بإطعام الطّعام، وأكثر إطعامه للمدّاحين، لشدّة محبّته للنّبيّ (ﷺ)، ولما دُفِن حُكِي بأنّه أوّل من دُفِن في المقبرة الجديدة، وقيل إنّ معه في تلك المقبرة خمسين رجلاً من أهل توات.[٥٩] ومن أهل سوف شرقي توات رحل إليها أحمد بن آك السّوفي اللغوي الفقيه النّحوي، أخذ عن علامة تُنْبُكْتُو محمد بَغْيُع التّنبكتي.[٦٠]

- **الرّحلة من جَنْج إليها:**

ورحل إليها من فضلاء جَنْج بإقليم التّكرور الفقيه صدّيق بن محمد تغل الجنجي ثمّ التنبكتي (ت. ٩٧٣ هـ)، رحل إليها بعدما درس عنده أحد الطّلبة في جنج، ثمّ انتقل إلى تُنْبُكْتُو للاستزادة، ولما رجع فاق شيخه صدّيق الجنجي في بعض المسائل، فقال الشّيخ: ضيّعنا عمرنا باطلا، وارتحل إلى تنبكتو وصادفها في أزهى أيّامها، فأخذ عن علمائها منهم الفقيه القاضي محمود بن عمر وغيره حتّى صار إماما بالجامع الكبير وسط تُنبكتو. وعندما ذهب إلى الحجّ اجتمع بالفقهاء منهم محمد البكري الصّدّيقي، فجعل يسأله عن فقهاء تنبكتو[٦١]، وهذا يدلّ على شهرة علماء تنبكتو في المشرق خلال تلك الفترة.

- **الرّحلة من الأندلس إليها:**

لقد كانت علاقة الأندلس ببلاد السّودان وثيقة منذ حكم الأُمويّين، وهذا قبل بناء مدينة تنبكتو، وقد انتقل إليها عدد من علماء الأندلس وأدبائها؛ منهم أبو إسحاق السّاحلي (ت. ٧٤٧ هـ)؛ وهو من بيت علم وثروة وصلاح، ذهب إلى الحجّ وفي طريق رجوعه دخل بلاد السّودان فاستوطنها، وأصبح له بها جاه عظيم عند سلطانها، فبنى المساجد الكثيرة بها[٦٢].

رحل إليها الكثير من أعيان الأندلس بداية من القرن الثّامن الهجريّ، فقد قَدِم إلى التّكرور اللغوي النّحوي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الأنصاريّ الأندلسي (ت. ٧٢٤ هـ) في القرن الثامن الهجري، فأقرأ أهلها القرآن، ثمّ انتقل منها إلى القاهرة فأخذ عن جمال الدّين الإسنوي[٦٣]، وهو والد سراج الدّين ابن الملقن (ت. ٨٠٤ هـ)[٦٤].

- **الرّحلة من فاس إليها:**

وممّن رحل إلى السّودان من أهل فاس العلامة أبو محمد سُقَّيْن؛ وهو عبد الرّحمان بن علي بن أحمد القصري الفاسي (ت. ٩٥٦ هـ)، أخذ العلم ببلده ثمّ شرّق فأخذ الحديث عن أصحاب ابن حجر كالقلقشندي وغيره، وفي رجوعه دخل إلى بلاد السّودان ووصل كانو، وعظّموه وأعطوه مالاً جزيلا، وبقي هناك مدّة ثمّ رجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ، وتولّى إمامة جامع الأندلس ثمّ عُزِل، وبعدها أكبّ على رواية الحديث وإقرائه إلى أن تُوُفّي سنة ٩٥٦ هـ[٦٥].

- **رحلة محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى تُنْبُكْتُو:**

لمّا انتقل المغيلي من تلمسان إلى توات واستوطنها صادف سيطرة اليهود على توات ومعظم طرق الصّحراء، فصاروا يتحكّمون في التّجارة، فتعاظمت ثروتهم واشتدّت شوكتهم فأعلنوا بدعهم، وبنوا البِيَع وأعلنوا شعائرهم، فقام عليهم المغيلي وحاربهم وهدّم بيعهم، ونازعه في ذلك الفقيه العصنوني قاضي توات، وراسلوا في

ذلك علماء فاس وتلمسان وتونس، فكتب الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي رسالة يُصوّب فيها رأي المغيلي، ووافقه عليها الإمام محمد بن يوسف السّنوسي (ت. ٨٩٥ هـ)، وحين وصل جواب التّنسي ومعه كلام السنوسي لتوات أمر المغيلي أتباعه فلبسوا لأمة الحرب، وقصدوا بِيَعَ اليهود فهدّموها، وأمر بقتل من يعترض طريقهم، ونظم المغيلي قصائد في المديح النّبوي وذمّ اليهود ومن ناصرهم.

ثمّ دخل بلاد السّودان واجتمع بأهلها وانتفعوا به، وشجّعهم على القيام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واتّباع أحكام الشّرع، ووصل كانو، ثمّ رجع إلى غاو واجتمع بصاحبها الأسكيا الحاج محمد، وتولّى فيها منصب مستشار في بلاط ملكها الّذي عيّنه ممثلا له، وألّف له تأليفًا أجابه فيه عن مسائل تتعلّق بالسّياسة الشّرعية وتنظيم الشّؤون العامّة[٦٦]. وبعدها اجتمع بالفقيه القاضي أبي المحاسن محمود بن عمر التّنبكتي بتُنبكتو، وحينها بلغه مقتل ابنه على يد يهود توات، فانزعج وأمسك أهل توات الموجودين هناك، فأنكر عليه القاضي محمود بن عمر؛ إذ لم يفعلوا شيئا، فرجع عن ذلك وأمر بإطلاقهم، ثمّ رجع إلى توات فأدركته المنيّة بها، وتُوُفّي هناك سنة ٩٥٤ هـ، وممّن استفاد منه من أهل توات أَيْدَ أحمد والعاقب الأنصمني ومحمد بن عبد الجبار الفيجي و محمد بن أحمد التّازختي غيرهم[٦٧].

## خامسًا: مرحلة الانكسار أو نكبات تنبُكْتو

كانت مدينة تُنبكتو تمثل مركزًا تجاريًا وثقافيًا هامًا في منطقة السّاحل بداية القرن الثّامن الهجري إلى القرن الحادي عشر الهجري، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، ولهذا كانت مستهدفة من الغزاة، بيد أنّ أكبر الهجمات الّتي تعرّضت لها في هذه المرحلة حملة سُنّي علي سلطان مالي في بداية القرن التّاسع الهجري، وحملة أحمد المنصور الذّهبي سلطان السّعديّين بالمغرب الأقصى في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر.

### ١/٥- النّكبة الأولى (حملة سُنّي علي):

وهي حملة سُنّي علي سلطان مالي على تُنْبُكْتو لضمّها لمملكته ومحاربة المُناوئين له، ويسمّيه عبد الرّحمان السّعدي التّنبكتي (ت. ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م) بالظّالم الأكبر والفاجر الأشهر، ويسمّيه بالخارجي[٦٨]، ويسمّيه صاحب "فتح الشّكور" بالظّالم الفاجر[٦٩]، كان متسلّطًا جبّارًا سفّاكًا للدّماء، تسلّط على العلماء بالقتل والإهانة والإذلال، واشتهر في الآفاق بذلك، وقد استشهد السّعدي على شهرته بما نقله الحافظ محمّد بن عبد الرّحمان العلقمي المصري (ت. ٩٦٩ هـ) تلميذ السّيوطي من شرحه على "الجامع الصّغير" للسّيوطي، وهو قوله: "سمعنا أنّ رجلا ظهر بالتّكرور يقال له سنّي علي أهلك العباد والبلاد ودخل في السّلطنة سنة ٨٦٩ هـ، وتُوُفّي في ٩٢٥ هـ"[٧٠]. ومكث في الحكم نحوا من ثمان وعشرين سنة فاشتغل بالحروب والغزوات، وفتح البلدان ووسّع مملكة مالي، وحارب صنهاجة في إقليم التّكرور كله، وفي الرّابع من شهر رجب سنة ٨٧٣ هـ دخل مدينة تُنْبُكْتو وأحدث فيها فسادًا كبيرًا، فحرّق دورها وخرّبها وقتل منها خلقًا كثيرًا، ولما علِم أميرها بقدومه أحضر ألف جمل ورحّل فقهاء جامع سنكُري، ومشى بهم إلى وُلاتة، وقال إنّ شأنهم أهمّ عنده من ملك تنبكتو[٧١]، وهذا يدلّ على ثلاثة أشياء:

(١) أنّ فقهاء سنكُري كانوا مستهدفين من هذه الحملة، وخصوصًا أنهم معروفون بصلابتهم وشدّة إنكارهم على سلاطين زمانهم.

(٢) أنّ عدد هؤلاء الفقهاء كان كثيرًا، وأنّهم كانوا يملكون ثروة كبيرة، احتاجوا إلى ألف جمل ليفروّا مع ممتلكاتهم وكتبهم، كما يدلّ أيضًا على الحركة العلميّة المعتبرة آنذاك.

(٣) مكانة العلماء عند أمراء تنبكتو كانت عظيمة؛ فهم الثّروة الحقيقيّة الّتي كانت تملكها تنبكتو؛ فالحفاظ على حياتهم أهمّ من الحفاظ على مدينة تنبكتو ذاتها.

وكان منهم الفقيه عمر بن محمد آقيت المسوفي الصّنهاجي وأولاده الثلاثة: أحمد وهو أكبرهم سنّا، وعبد الله، ومحمود وهو أصغرهم (خمس سنوات)، ومشى معهم خالهم الفقيه النّحوي المختار بن أندغ محمد، وأدركوا الإمام الزّمّوري بولاتة فاستفادوا منه وأجازه كتاب "الشّفا". ولمّا كان لهم اشتغال بالعلم كانوا يمنعون أبناءهم من اللّعب وركوب الخيل والجمال، فأعوزهم ذلك عند الفرار وندموا على حرمانهم من اللّعب، وبعدما رجعوا إلى تنبكتو خلوا بينهم وبين اللّعب. واشتغل سنّي علي بقتل من بقي من الفقهاء بتنبكتو أو من لم يسعفه الفرار، وعمد إلى إهانتهم وزعم أنهم أحباب التّوارق وخاصّتهم فأبغضهم لذلك، وكان من بين قتلاه الفقيه محمود بن أندغ محمد وأخوه أحمد، واتّخذ بناتهم جوار ثمّ قتلهنّ جميعًا، وسجن والدة الفقيه محمود السيدة سِتَّ بنت أندغ محمد، أحد أهمّ وجهاء تنبكتو[٧٢].

وبعد رحيل الفقهاء قلّد سُنّي علي القضاء للقاضي حبيب بن عبد الرّحمان التّميمي، فأحسن إليه وأكرمه، ولم يزل يُهين فقهاء سنكُري وينكّل بمن ظفر منهم إلى سنة ٨٧٥ هـ، فخرج من بقي منهم إلى ولاتة أيضا، ولحق بهم عامله كُيْ[٧٣] المختار محمد بن نض، ومات في ذلك خيارهم، وتتبّع مَنْ لم تسعفه النّجاة قتلاً وتشريدًا، وتفرّقوا بين قُرى السّودان، وتعرّض التّوارق والفلانيون لبطش سلطان مالي؛ إذ هم أكبر المستهدفين من هذه الحملة على بلاد التّكرور كلها.[٧٤] وبعد استقرار الأوضاع بتنبكتو لسلطان مالي رجع بعض الفقهاء من ولاتة، ففي شهر شعبان سنة ٨٨٥ هـ خرج الفقيه محمود من ولاتة ورجع إلى تنبكتو، ورجع أيضًا خاله المختار النّحوي، وأمّا والده عمر بن محمد آقيت فقد توفّي في ولاتة وكذلك ابنه عبد الله[٧٥].

وبقي شرّ السلطان سنّي علي مستطيرا بين قُرى السّودان، فلم يهدأ له بال حتّى دوّخ إقليم التّكرور، وأحدث فيه النّهب والتّخريب والفساد، إلى أن تُوُفّي سنة ٨٩٨ هـ بعدما حارب الزّغرانيّين

والفلانيين وغيرهم من أمم التكرور، فخلفه ابنه أبو بكر ووقع الخلاف بينه وبين محمد بن أبي بكر الطوري أحد قيادات سُنّي علي، وبعد معارك كثيرة بينهما تغلّب الطّوري على سني أبو بكر وتملّك ما تركه سنّي علي، وتلقّب بالأسكيا محمد، وفرّج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملّة الإسلام، وإصلاح أمور الأنام، وصاحب العلماء، واستفتاهم فيما يلزم من أمور الحلّ والعقد.(٧٦)

وفي صفر سنة ٩٠٢ هـ مشى الأسكيا الحاج محمد إلى الحجّ، فحجّ البيت مع جماعة من أعيان كلّ قبيلة، فتصدّق بمال كثير في الحرمين، واشترى حديقة بالمدينة المنوّرة وحبّسها على أهل التّكرور، ولقي الكثير من العلماء والفقهاء منهم الجلال السيوطي، واستفتاهم وتبرّك بهم، وقفل راجعا إلى غاو، فأعلن الجهاد على الوثنيّين في السّودان ودوّخ البلاد، وفي عهده أمِنت السّبل واسترجعت تُنبكتو دورها العلمي والحضاري(٧٧). وخلفه أبناؤه في الحكم وصارت بينهم صراعات ومطاحنات، لم تنته إلا بحملة أحمد المنصور السّعدي على بلاد التّكرور.

**٢/٥- النّكبة الثّانية (حملة المنصور السّعدي):**

بلاد السّودان كانت مرتبطة في أذهان أهل العصر الوسيط بتجارة الذّهب والرّقيق، وكانت المعلومات وأخبار السّودان تنتقل عن طريق التّجّار،(٧٨) وكانت أخبارها تُغْري السّلاطين طمعا في خيراتها وثرواتها، وخاصّة بعد رحلة الأسكيا الحاج محمد إلى الحجّ سنة ٩٠٢ هـ، والّذي وزّع ذهبًا كثيرًا في رحلته تلك، ولما آنس السّلطان المنصور السّعدي في نفسه القوّة واستتبّ له أمر المغرب الأقصى، وخصوصا بعد انتصار دولتهم على البرتغاليين والمناوئين في معركة الملوك الثّلاثة سنة ٩٨٦ هـ، لا زالت نفسه تحدّثه بالغزو وتوسيع مملكته، فامتدّت عينه إلى جهة الجنوب، لأنّها طريدة سهلة بالإضافة إلى ما ذُكر عن ثرواتها وكثرة العبيد والجواري بها، فلا زال المنصور يتحيّن الفرص، إلى أن كانت سنة ٩٩٩ هـ فجهّز جيشًا من المرتزقة وجعل عليهم القائد الأندلسي جودار باشا.

والسّبب المباشر لهذه الحملة هو أنّ السلطان السّعدي أرسل إلى الأسكيا إسحاق ليسلّمه خراج الذّهب بمنطقة تغاز، فلم يوافق الأسكيا على ذلك بل قبّح له الكلام في الجواب، فلمّا وصله الجواب عزم على غزو السّودان بعدما كان متردّدًا، وفي فاتح سنة ٩٩٩ هـ أرسل إليهم جيشا كبيرا مسلّحا بأسلحة نارية، ومعهم الأطباء والصّنّاع والكثير من المرتزقة الأندلسيّين والبرتغاليّين والأتراك، ولمّا دخلوا تنبكتو وجدوها أكثر عمارة وأمنا وعافية ورخاء.(٧٩) وأثناء هذا الغزو اضطربت الأوضاع وشاعت الفوضى، وصار النّاس يأكل بعضهم بعضًا في جميع الأمكنة طولاً وعرضًا، بالإغارة والحرابة عل الأموال والنّفوس والرّقاب، فعمّ ذلك الفساد وانتشر، وبالغ واشتهر.(٨٠)

وقد توجّه الباشا جودار إلى غاو لمحاربة جيش الأسكيا إسحاق سلطان السُّنْغَاي على ضفاف نهر النّيجر، وكانت معركة تونديبي يوم الأربعاء السّادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٩٩٩ هـ، والموافق للثاني عشر من شهر مارس سنة ١٥٩١ م شمال مدينة غاو، وقد كان جيش السّعديّين مكوّنا من حالي ثلاثة آلاف مقاتل يحملون أسلحة نارية والبارود، بينما كان جيش الأسكيا كبيرًا لكنّه يقاتل بأسلحة بدائية من الحِراب والسّهام والسّيوف، فكان النّصر حليف السّعديّين ودخلوا مدينة غاو، وفرّ الأسكيا جنوبا إلى الغابات، وكان يناوشهم من هناك.

ولما بلغ السّلطان السّعدي خبر النّصر فرح فرحا عظيما، فأخرج الصّدقات وأعتق الرّقاب وأقام مهرجانًا عظيما، ونظم الشّعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم، وأجازهم بما تحدّث النّاس عنه زمانًا طويلاً، وأرسل الغُزاة إلى المنصور بهديّة فيها عشرة آلاف مثقال ذهبًا ومائتان من خيار الرّقيق وغير ذلك، ثمّ أردفوا له بهدايا أخرى فيها أحمال من الذّخائر، فيها أربعون حملاً من التّبر، وأربعة سروج ذهبًا خالصًا، وألف ومائتان من متخيّر الرّقيق وغيرها، ولما وصلته هذه الهدايا سُرّ سرورًا عظيمًا، ولأجل ذلك لُقِب بالذّهبي، لأنّهم لم يشهدوا الذّهب الّذي شهدوه أيّام ولايته.(٨١)

ولم يكن أهل تنبكتو ينظرون إلى الغزاة بعين الرّضا والقبول، فثاروا عليهم عدّة مرّات، وكان بسبب ذلك خراب تنبكتو، ففي سنة ١٠٠٠ هـ جرى قتال بين أهل تنبكتو والقائد مصطفى التركي عامل السّعديين، فأدّى إلى هلاك النّاس واحتراق الدّور، وتكرّر ذلك في عدّة مناسبات كما حدث سنة ١٠٠٥هـ، ولم يستتبّ الأمر للسّعديّين في التّكرور لكثرة الثّورات عليهم من التّوارق وقبائل صنهاجة والسّودانيّين، ثمّ توالى ولاة السّعديين على بلاد السّودان وأكرهوا النّاس على بيعتهم، فهدّدوهم وفتّشوا دورهم، وحشدوا النّاس في جامع سنكري للمبايعة، ووزّعوهم بحسب قبائلهم في جامع سنكري لذلك في أيّام معلومات، فحلف التواتيون والفزانيون والوجليون في اليوم الأوّل الموافق للثّاني والعشرين من شهر محرّم سنة ١٠٠٢ هـ، ثمّ حلف الولاتيون والوادانيون ومَنْ والاهم في اليوم الثّاني الموافق للثّالث والعشرين، وأمّا الفريق الثّالث فهم العلماء والفقهاء، فأحضروهم في اليوم الثّالث وأسروهم جميعًا؛ فريق أُسر في تنبكتو وكان بينهم فيما يظهر العلامة المجدّد محمّد بَغْيع، وفريق آخر أُخرج من البلد وأُخذ إلى مرّاكش بطلب من السّلطان السّعدي، وقد قُتل منهم الكثير كالفقيه أحمد مُعْيا، ومحمد الأمين بن محمد بن محمود، ومحمد المختار بن مُعْيا وغيرهم.(٨٢)

ثمّ دخل الباشا محمود ديارهم ورفع جميع ما فيها من الأموال والمتاع والأثاث، ونهب أتباعه ما اتّصل بهم، وكشفوا عوراتهم وجرّدوا حرائرهم وفعلوا بهنّ الفواحش، ثمّ جمعوا كبار فقهاء تُنْبُكْتو وأخذوهم مصفّدين بالأغلال إلى مُرّاكش، منهم أحمد بابا والفقيه والقاضي أبو حفص عمر بن محمود، دخلوها أوّل شهر رمضان، وعندما رأى القاضي عمر بن محمود مدينة مُرّاكش دعا

عليهم، وقال: "اللّهمّ كما شوّشونا وأخرجونا من بلادنا فشوّشْهم وأخرجْهم من بلادهم".(٨٣)

- **محنة آل أقيت:**

نستطيع اعتبار أسرة آل آقيت المسوفية الصّنهاجية النّواة الأولى للحياة الاجتماعية والسّياسيّة والدّينية لمدينة تُنْبُكْتو، فأجدادهم مسوفة هم من بنوا هذه المدينة، وقد توارثوا العلم أزيد من قرنين، وكانوا أهل اليسار والسّؤدد لا يبالون بالسّلطان فمن دونه، بل لا يقطع أمرًا دون مشورتهم، فهم أهل القضاء والإمامة والفتيا ببلاد السّودان، ولمّا دخلها الباشا محمود أبقاهم على حالهم إلى أن كانت سنة ١٠٠٢ هـ، سئمت العامّة من الغرباء وحاربوهم، فكتب المنصور إلى عامله محمود بالقبض على الفقهاء وأهل الرّأي فيهم، وقضى بتغريبهم إلى مُرّاكش، فألقى القبض على جماعة كبيرة منهم كان فيهم أحمد بابا(٨٤)، وحُمِلوا مصفّدين إلى مُرّاكش ومعهم حريمهم، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم، وكان أحمد بابا أقلّ عشيرته كتبا نُهِب منه ألفٌ وستّمائة مجلّد.(٨٥)

وأودعهم المنصور السّجن ولم يطلق سراحهم إلا في الحادي والعشرين من رمضان من سنة ١٠٠٤ هـ بشرط بقائهم في مُرّاكش، وجرت بين أحمد بابا والمنصور الذّهبي معاتبة ومناظرة، قال النّاصري: "... ولما دخل الفقيه أبو العبّاس على المنصور بعد تسريحه من السّجن وجده يكلّم النّاس من وراء حجاب على طريقة خلفاء بني العبّاس ومن تشبّه بهم، فقال الشّيخ: إنّ الله تعالى يقول: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب"، وأنت قد تشبّهت بربّ الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنّا الحجاب، فنزل المنصور ورُفعت الأستار. فقال له الشّيخ: أيّ حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا، حتّى سقطت عن ظهر الجمل واندقّت ساقي؟ فقال له المنصور: أردنا أن تجتمع الكلمة، وأنتم في بلادكم من أعيانها، فإن أذعنتم أذعن غيركم. فقال الشّيخ أبو العبّاس: فهلا جمعت الكلمة بتُرْك تلمسان فإنّهم أقرب إليك منّا؟ فقال المنصور: قال النّبيّ (ﷺ): "اتركوا التّرك ما تركوكم"، فامتثلنا الحديث. فقال أبو العبّاس: ذاك زمانٌ وبعُد، قال ابن عبّاس: "لا تتركوا التُّرْك وإن تركوكم" فسكت المنصور وانفضّ المجلس"(٨٦). ولما سُرّح أبو العبّاس تصدّر لنشر العلم وهرع إليه النّاس للأخذ عنه، وقد كان أبو العبّاس يتشوّق إلى بلده ويسكب العبرات عند ذكرها، ولمّا مات المنصور سنة ١٠١٢ هـ وخلفه ابنه زيدان سمح لأهل تُنبكتو بالرّجوع إلى وطنهم، ولمّا خرج أحمد بابا من مراكش قاصدا بلده شيّعه عيون طلبتها، فأخذ بعضهم بيده عند الوداع، وقرأ قوله تعالى: "إِنَّ اَلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد" على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فانتزع الشّيخ يده بسرعة، وقال: لا ردّني الله إلى هذا المعاد، ولا رجعني إلى هذه البلاد، ثمّ لحق بتنبكتو فاستقرّ بها إلى أن تُوُفّي سنة ١٠٣٦ هـ(٨٧).

## نتائج البحث:

- ساهمت عدّة عوامل في تأسيس مدينة تُنْبُكْتُو، أبرزها العامل التّجاري حيث كانت معبرًا للقوافل التّجاريّة، وموضعًا هامًّا للظّعن والرّعي بالنّسبة لقبائل صنهاجة، كما كانت للظّروف السّياسية في القرن الخامس الهجري دور في نشوء تجمّع ديني بهذه المنطقة، ونقصد بالتّحديد دعوة المرابطين الّتي تبلورت وانطلقت من بلاد التّكرور اعتمادًا على سواعد قبائل صنهاجة.
- شكّلت قبيلة مسوفة الصّنهاجية النّواة الأولى لهذا التّجمّع السكاني، وهم توارق إمقشرن، فيما كان لأبناء عمومتهم من لمتونة وجدالة عصبُ تكوين دولة المرابطين في مُرّاكش، ولهذا يُرجّح أنّ بناء مدينة تُنبكتو كان بالموازاة مع بناء مدينة مرّاكش، وكان لهذا اللّفيف أيضًا صدى بعيد المدى من بلاد السّودان الغربي جنوبًا إلى طليطلة في الأندلس شمالاً، وقد شكّلت عصبيّة واحدة، كان من نتائجها بقاء المسلمين في الأندلس لأربعة قرون أخرى بعد أن وصل الوهن إلى دويلاتها، وكان ذلك بالطّبع إثر انتصارهم في معركة الزّلاقة سنة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م).
- شكّل التنوّع الإيثني بتُنبكتو حركيّة هامّة لتكوين مناخ فكري وثقافي هامّ ظهر مع حلول القرن الثّامن الهجريّ، واكتملت أجزاؤه في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وتمثّل في توارق صنهاجة وقبائل السّودان، وعرب الأزواد وبعض البيوتات من النّسب الشّريف والعترة الطّاهرة، بالإضافة إلى المهاجرين من مصر والحجاز والأندلس من الفقهاء والعلماء والتّجّار.
- بدأ الدّور العلمي والثقافي والدّيني لتنبكتو يبرز مع حلول القرن الثّامن الهجري، خصوصًا مع بداية قدوم العلماء والأدباء إليها، كأبي الحسن الأندلسي النّحوي (ت. ٧٢٤ هـ)، والأديب أبي إسحاق السّاحلي (ت. ٧٤٧ هـ)، ومرور أشهر الرّحالة بها (ابن بطوطة الطنجي)، وأيضًا رحلة طلبتها إلى الحجّ والمشرق والمغرب.
- وصلت مدينة تُنْبكْتو إلى دورها الرّيادي في القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، وقد مثّلت مركزًا علميًّا وتجاريًّا رائدًا في منطقة التّكرور، وهذا الدّور نافسها فيه مدينة ولاتة لكنّها لم تبلغ مبلغها، كما مثّلت مدينة تنبكتو نقطة انطلاق ومركز إشعاع لنشر الإسلام في أعماق إفريقيا، ممّا جعلها تقع تحت أطماع الغزاة قديمًا وحديثًا.
- إنّ غالب مرجعيتهم العلميّة والدّينيّة لأهل تُنبُكتو كانت رواق المغاربة في مصر، وأنّ اللّقانيّين والسّيوطي والتّاجوري والقلقشندي كانوا أهمّ أسانيد علماء تنبكتو ومنطقة السّاحل الإفريقي، ثمّ صار لهم في القرن العاشر شبه استقلالية فكريّة إن صحّ التّعبير، وقد اهتمّوا بالتّأليف ونسخ المخطوطات وشرائها، والتي قد ضاع الكثير منها بسبب الغزو السّعدي ثم الفرنسي.
- كان مسجدها سنكُري يمثّل جامعة حقيقيّة للدّراسات العليا آنذاك، تخرّج منها كبار الفقهاء والعلماء، مثل العلامة المجدّد

محمّد بَغْيُع (ت. ١٠٠٤ هـ)، والّذي لقبه تلميذه أحمد بابا بمجدّد العصر، بقوله: [الرّجز] وعاشر القرون فيه قد أتى*** محمّدٌ إمامنا وهو الفتى(٨٨).

- تعرّضت تنبكتو لنكبات عديدة؛ إذ كانت مستهدفة بسبب ثرائها وبسبب علمائها، كانت أهمّها نكبتين اثنتين؛ فتنة سلطان مالي سُنّي علي في نهاية القرن التّاسع الهجري الّذي تسلّط على علماء سنكُري تقتيلاً وتشريدًا، وحملة السّعديّين عليها سنة ٩٩٩ هـ.
- تعتبر حملة السّعديّين على تنبكتو محطة بارزة في تاريخها، والتي قضت على الحركة العلميّة بها، وفتحت المجال واسعًا للفوضى وعودة الوثنيّة إلى عموم السّودان، وهذه الحملة لم تضعف تنبكتو فحسب، بل أضعفت المغرب كلّه ممّا فتح المجال واسعًا أيضًا للأطماع الأوروبية في المنطقة، وخصوصًا إسبانيا وفرنسا.

## الهَوامِشُ:

(١) انظر: "**حملة تنصير الطّوارق**"، مجلة البيان، السنة الخامسة، ربيع الآخر ١٤١١هـ، العدد (٣٣)، ص٦٤.

(٢) انظر: **تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (رحلة ابن بطوطة)، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطّنجي اللّواتي الشّهير بابن بطوطة (ت. ٧٧٩ هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ، ج٢/ ص ٥٣٨.

(٣) انظر: **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحـ: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩. (٥٧/٣)، و**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، محمد أمين بن فضل الله بن محبّ الدّين المحبّي (ت. ١١١١ هـ)، دار صادر- بيروت، د.ت. (٤٤٨/٤)، و**تاج العروس من جواهر القاموس**، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني المعروف بمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية- بيروت، د.ت (٤٧١/٤) مادّة "تيت"، وفهرس الفهارس ١١٤/١.

(٤) انظر: **الموسوعة القرآنية**، إبراهيم الأبياري، مؤسّسة سجل العرب، ط١-١٤٠٥ هـ. (ج١/ ص٣٩٧)، و**الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١ – ١٤١٦ هـ، ج ٢ ص ٣٢٦.

(٥) انظر: **قصّة الحضارة**، وليام جيمس، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل – بيروت، ١٩٨٨، ج ٢٣ ص ٥٢.

(٦) انظر: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي، تحـ: محمد إبراهيم الكتّاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١- ١٩٨١، ص ٢٦.

(٧) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن بن محمد الوزان، ج ٢ ص ١٤٨.

(٨) انظر: نفسه، ج ٢ ص ١٤٨.

(٩) الظاهر أن كلمة زناقة تحريف لنطق كلمة صنهاجة.

(١٠) انظر: **فتح الشكور**، ص ٢٦.

(١١) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن بن محمد الوزان، ج ١ ص ٧٧.

(١٢) انظر: **أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا**، مصطفى مسعد، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢ – ١٤١١ هـ، ص ٤٢٩.

(١٣) انظر: **الموسوعة القرآنية**، ج ١١ ص ٣٩٧.

(١٤) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزّان، ج ٢ ص ١٦٨.

(١٥) انظر: **تاريخ ابن خلدون**، ج ٦ ص ١٧٦.

(١٦) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، محمد عبد الله عنّان، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط ٤ – ١٩٩٧، ج ٢ ص ٣٠٢، و**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، تحـ: كارل نونبرغ، مطبعة أوبسالة، ١٨٤٣، ص ٢٦.

(١٧) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، ج ٢ ص ٣٠٣.

(١٨) انظر: **تاريخ السّودان**، عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، تحـ: أوكتاف هوداس، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، ١٩٨١، ص ٢٠.

(١٩) انظر: **رحلة ابن بطوطة**، ج ٤ ص ٢٦٩.

(٢٠) انظر: نفسه، ص ٢١.

(٢١) انظر: نفسه، ص ٢١.

(٢٢) انظر: نفسه، ص ٢١، ٢٢.

(٢٣) انظر: **الروض المعطار**، الحميري، ص ٤٢٦.

(٢٤) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشّريف الإدريسي، عالم الكتب – بيروت، ط ١ – ١٤٠٩هـ، ج ١ ص ١١٠.
(٢٥) انظر: **نفح الطّيب**، ج ٤ ص ٣٦٧.
(٢٦) انظر: **نزهة المشتاق**، ج ١ ص ١٧١، **ورحلة ابن بطوطة**، ج ٢ ص ٢٦٩.
(٢٧) انظر: **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، ج ٢ ص ١٤، **والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الناصري، ج ٢ ص ٣.
(٢٨) انظر: **دولة الإسلام في الأندلس**، ج ٢ ص ٣٠٢.
(٢٩) انظر: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، أبو عبيد البكري، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، د.ت، ص١٦٨ وما بعدها، وقيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، مكتبة النهضة المصرية، ط١ – ١٩٥٧، ص ١٤٩ وما بعدها.
(٣٠) انظر: **البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والأندلس والمغرب**، ابن عذارى المراكشي، تحـ: إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط٣-١٩٨٣، ج ٤ ص ١٩، ٢٠.
(٣١) انظر: **تاريخ السودان**، ص ٢٠.
(٣٢) انظر: نفسه، ص ٢١.
(٣٣) **وصف إفريقيا**، الحسن الوزان، ج ٢ ص ١٦٥.
(٣٤) يكتب أحيانا: سنكري، وأحيانا: سانكوري، وأحيانا: سانكري.
(٣٥) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢٧.
(٣٦) انظر: نفسه، ص ٥٧، وص ١١٠.
(٣٧) انظر : نفسه، ص ٢٠.
(٣٨) انظر: نفسه، ص ٢١.
(٣٩) تُكتب: سنغي، وسونغاي، وسنغاي، وبالصاد فيهم أيضا.
(٤٠) تكتب هذه الكلمة: سن، وصن، وصوني وسوني أيضا.
(٤١) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢١.
(٤٢) انظر: نفسه، ص ٢٢.
(٤٣) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزّان، ج ١ ص ١٧١، ١٧٢.
(٤٤) انظر: **فتح الشكور**، ص ٢٧.
(٤٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ١٨٢.
(٤٦) انظر: نفسه، ص ١٥١، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٢.
(٤٧) انظر: نفسه، ص ٢٧٥.
(٤٨) انظر: نفسه، ص ٥٨٧، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٩، ٤٠.
(٤٩) انظر: نفسه، ص ٦٠٧، ٦٠٨، **وتاريخ السّودان**، ص ٣٨، ٣٩.
(٥٠) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٤١.
(٥١) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٥٩١.
(٥٢) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٣٦.
(٥٣) انظر: **فتح الشّكور**، ص ١٧٧.
(٥٤) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٢٣٤، ٢٧٥.
(٥٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٦٠٨، **وفتح الشّكور**، ص ١٤٦.
(٥٦) انظر: نفسه، ص ١٩١- ١٩٥.
(٥٧) انظر: نفسه، ص ١٧٦، **وتاريخ السّودان**، ص ٥١.
(٥٨) انظر: نفسه، ص ٤٢، ٤٣.
(٥٩) انظر: نفسه، ص ٧٠.
(٦٠) انظر: نفسه، ص ٥٠.
(٦١) انظر: نفسه، ص ١٥٤، ١٥٥.
(٦٢) انظر: **انبعاث الإسلام في الأندلس**، علي بن محمد عنّان، ص ٤٠٤.
(٦٣) انظر: نفسه، ص ١٩٦، ١٩٧.
(٦٤) انظر: **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ابن حجر، ج ٢ ص ٢١٦.
(٦٥) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٦٦) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٢٢.
(٦٧) انظر: **نيل الابتهاج**، ص ٥٧٧، ٥٧٨.
(٦٨) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٦٥.
(٦٩) انظر: **فتح الشكور**، ص ١٧٧.
(٧٠) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٦٥.
(٧١) انظر: نفسه، ص ٦٦.
(٧٢) انظر: نفسه، ص ٦٦.
(٧٣) معناه الوالي أو النائب.
(٧٤) انظر: نفسه، ص ٦٧.
(٧٥) انظر: فتح الشّكور، ص ١٧٧، **وتاريخ السّودان**، ص ٦٩.
(٧٦) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ٧٠ وما بعدها.
(٧٧) انظر: نفسه، ص ٧٢، ٧٣.
(٧٨) انظر: **وصف إفريقيا**، الحسن الوزان، ج ١ ص ٣٣، ٣٤.
(٧٩) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ١٤٢.
(٨٠) انظر: نفسه، ص ١٤٣.
(٨١) انظر: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥ ص ١٢١ وما بعدها.
(٨٢) انظر: **تاريخ السّودان**، ص ١٦٩.
(٨٣) انظر: نفسه، ص ١٧٣.
(٨٤) انظر: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٥ ص ١٢٩.
(٨٥) انظر: **الفكر السّامي**، ج ٢ ص ٣٢٦.
(٨٦) الاستقصا، ج ٥ ص ١٣٠.
(٨٧) انظر: نفسه، ج ٥ ص ١٢٩، ١٣٠.
(٨٨) انظر: **أزهار الرّياض**، المقري، ج ٣ ص ٥٧.

# قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن



**محمد بن زغادي**
أستاذ مساعد – قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**

يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء ساطعًا على واحدة من المدن الإسلامية التي سجلت بصمتها في التاريخ عبر ما اكتسبته من ابداعات فنية تنم عن الذوق الرفيع تمثلت نلك الإبداعات في شواهد أثرية مختلفة الطابع فمنها ما هو ديني ومنها ما هو مدني وعسكري، طُمس جزء منها نتيجةً لعمليات التحديث المنجزة في المجال والصناعي، استمدت هذه المدينة مقومات تنظيم نسيجها العمراني وعلاقاتها الاجتماعية ومعاملاتها التجارية من العقيدة الإسلامية، كل ذلك جاء انعكاسًا وتعبيرًا مباشرًا عن القيم والمبادئ التي تنفرد بها الحضارة العربية الإسلامية عن باقي الحضارات الإنسانية الأخرى. اسم هذه المدينة التي تحلت بطابع إسلامي عتيق -مدينة هُنَيْن- يطل جزءٌ منها على البحر الأبيض المتوسط في حين يمتد جزئها الآخرجنوبًا إلى الجبل المحاذي لها، ذاع صيتها في المجال التجاري خاصةً في الفترة الزيانية إلى الحد الذي أصبحت فيه الرئة الاقتصادية لهذه الدولة مع بلدان الضفة المقابلة مثل الميريا والبندقية، وذلك حسب ما يرويه لنا محمد حسن الوزان المعروف بـ: ليون الإفريقي، كما تحدث عنها محمد ابن مرزوق التلمساني في مؤلفه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن أنه وبأمر من السلطان المريني قام بشراء قطعة أرضية من أهالي مدينة هُنَيْن ليبني لهم فيها مسجدًا، هذا الاهتمام يعكس ما كان للمدينة من أهمية اكتسبتها من امتزج موقعها الاستراتيجي مع تاريخها لينتجا شكلاً من أشكال عبقرية المكان والزمان، وذاكرةً حافظةً للقيم الإسلامية، ومقوّمًا من المقوّمات الحضارية التي تنفرّد بها بين الثقافات والحضارات الإنسانية.

**بيانات المقال:**
تاريخ استلام البحث: ١٥ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٩ أبريل ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**
الدولة الزيانية، الدولة المرينية، المغرب الإسلامي، تلمسان، المدن الإسلامية

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
محمد بن زغادي. "قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٨٢ - ٨٧.

## مُقَدِّمَةُ

تعتبر المدن ثمرة من ثمار التطور التاريخي للإنسانية عبر الزمن، إذ تحمل بين طياتها خبرات مختلفة الجوانب عما أبدعه الأسلاف قديمًا، هذا ما جعلها أشبه بسجل مرئي بالغ الدقة، لذلك كان لا بد من توفير العناية القصوى في دراستها دراسة مستوفية الجوانب يرى في هذا الصدد-لاَبْلاش-أن المدينة كالشجرة تربتها الجغرافيا وماؤها التاريخ فكما أننا لا نستطيع تخيل شجرة ظلها في السماء من دون تراب أو ماء، لا نستطيع تخيل مدينة مزدهرة من دون تاريخ عميق وجغرافية مكتملة التضاريس، لذلك دراسة البعد التاريخي للمدن يحظى بأهمية كبرى لأنه يصعب فهم أي مدينة من دون خلفية تاريخية تبين ما كان لها وما كان عليها، الشيء نفسه بالنسبة لمواقع المدن فدراسته تساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والمستوى الحضاري الذي تصل إليه الحواضر قديمًا، إذ يرتبط النشاط البشري ارتباطًا وثيقًا بالبيئة الطبيعية التي تلفه، بناءً على هذا جاء هذا المقال المعنون بـ: "قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن"، ملقيًا نظرة حول جغرافية المدينة المتميزة بروعة موقعها المقابل للبحر، ما جعلها مغرية للاستيطان البشري ومطمع الدول المجاورة، أما جانبها التاريخي فقد مرت بفترات تاريخية شهدت فيها ازدهارًا وتطورًا خاصةً على عهد الدولة الزيانية التي أصبحت فيها بمثابة الرئة الاقتصادية عبر

مينائها التجاري، كما شهدت تصدعًا وتشتتًا في كيانها نتيجة لأطماع المحتلين الإسبان.

## أولاً: جغرافية المدينة

**١/١- الموقع:**

هُنَيْن مدينة ساحلية، وبوابة تلمسان على البحر، اسمها يُكتب بعدة رسوم: أَهْنَايْ –هُنْ –هَنَيْ-هُنَيْن هذا الأخير هو الاسم و الرسم القائم لحد الساعة، تقع على الساحل الوهراني و تبعد حوالي ٦٠ كلم عن مدينة تلمسان،وحوالي ٣٠ كلم عن مدينة ندرومة، و(٤٠) كلم عن الحدود المغربية،[١] وهي تأخذ مجالاً من سلسلة جبال ترارة المعروفة بمسالكها الوعرة، وقمم جبالها الشاهقة الارتفاع تتموقع على سفح جبل المنزل المقابل للبحر، ممتدة بمساكنها ودُورِها نحو الشمال الشرقي، يجتاز المدينة واديين واد هُنَيْن الذي يعبرها من جهة الشمال، وواد مسايب أو ريغو الذي يعبرها هوا لآخر من جهة الغرب.

تظهر المدينة القديمة من فوق داخل أسوارها التي بقي منها القليل النادر، على شكل شبه منحرف،[٢] قاعدته الكبرى نحو الشرق، الموقع الذي حظيت به مدينة هُنَيْن عاد عليها بالنفع اقتصاديًا، إذ جعلها من المدن الرائدة في المجال التجاري، إذ منها وإليها كانت تتم المبادلات التجارية، لكن من جهة أخرى، جعلها ذلك الموقع الاستراتيجي عرضة لهجمات القراصنة والمحتلين الأجانب، مما فرض عليها لزامًا تشييد أسوار الحماية من المواد المحلية المتواجدة في المدينة المشكلة لمادة الطابيا، شأنها في ذلك شأن بقية حواضر المغرب الإسلامي.

**٢/١- التضاريس:**

هُنَيْن مدينة ساحلية، بين البر والبحر، موقعها هذا جعلها تتميز بمناخ رطب بارد شتاءً ومنعش صيفًا، تربتها خصبة ذات لون أحمر وبني، لا تستغل زراعيًا لصعوبة حرثها نظرًا لشدة انحدار غطاءها النباتي، ولأنه جيد يتمثل معظمه في شجر الصنوبر، فقديمًا في الفترة الموحدية قام السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي، بتجهيز أسطوله البحري من الأشجار المحاذية لمدينة هُنَيْن.[٣] مع مرور الزمن بقي الغطاء النباتي على حاله مع تغير طفيف، ومن أنواع الأشجار التي كانت سائدة هناك لدينا التين، اللوز، الخروب، البلوط، لكنها أبيدت بأكملها بسبب الحرق الذي طالها من الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٥٨م، لكن بعد الاستقلال أعادت الدولة تشجير المنطقة لتصبح على ما هي عليه اليوم. أما تضاريس المنطقة، فغنية بالمعادن التي كانت مستغلة منذ العهد الاستعماري، إذ من هُنَيْن كانت تصدر حمولات من الحديد والزنك، أضف إلى ذلك يتوفر في المنطقة الرخام الجيد النوعية، بحيث يتواجد في الوقت الحاضر ثلاث محاجر في المدينة، تختص باستخراج مادة الرخام. إن هذه السمات التي طبعت تضاريس مدينة هُنَيْن جعلتها مكانًا استراتيجيًا متميزًا يحمل بين طياته بصمات الأسلاف منذ الزمن القديم، اكتسبته من كونها مدينة ساحلية، لذلك اعتبرت النافذة التي تطل من خلالها الدولة الزيانية على العالم، من خلال المعاملات التجارية مع المدن الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

## ثانيا: تاريخ المدينة

وضع الشمال الغربي من المغرب الأوسط بصمته في سجل الحضارة الإنسانية قديمًا، عبر ما تركه الأسلاف من مخلفات تشهد على إبداعاتهم ونشاطاتهم في المنطقة، ما ساعدهم في ذلك على ما يلي: الأمن ووفرة الماء والمأكل، إذ إن أغلب تضاريس المنطقة أشبه أن تكون حصونًا طبيعية تساعد على توفير الأمن، أما فيما يخص وفرة أسباب المعيشة من مأكل ومشرب فخصوبة التربة ووجود منابع الماء ساعدت على الاستقرار، من المناطق التي توفرت على العاملين السابقين الذكر منطقة ترارة، هذه الأخيرة جمعت ولحد الساعة تجمعات بشرية كبيرة ومهمة على الصعيد التاريخي، ومن أهم مدنها: مدينة هُنَيْن، فعلى الرغم من أن اسمها لم يكن مذكورًا أو معروفًا كشهرة سيقا وأرشقون اللتان تردد عليهما القرطاجيون باستمرار والرومان بفعل عامل التجارة،[٤] إلا أن هناك مَنْ ذكر أن اسمها في تلك الفترة كان جبساريا (Gypsaria) أو أرتسيغا (Artisiga)، وذلك حسب ما أورده بعض المؤرخين القدماء أمثال هيرودوت، سترابون، الاسمان لهما ارتباط بالمناجم والمعادن، دارسي المنطقة من الجيولوجيين، عثروا على عدد كبير من مناجم الفوسفات والجبس والرخام، كما دلت التنقيبات الأثرية على استخدام مادة الرخام قديمًا في مساكن المدينة، وفي سنة ١٨٥٦م، قام ماك كارتي (Carthy Mac) بنشر دراسة في المجلة الإفريقية حول منطقة تلمسان، مستندًا في ذلك إلى مؤشرات أحد جغرافي القرن الثاني ميلادي، بطليموس، أشار هذا الأخير إلى وجود كميات معتبرة من مادة الجبس قرب مدينة هُنَيْن، ولكن تبقى كفرضيات،[٥] لعدم وجود أدلة كافية فيما يتعلق بماهية اسم مدينة هُنَيْن.

يذكر صاحب القرطاس أن أول ذكر له يرجع إلى سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) عندما فرّ أحد المؤذنين من قبضة السلطان، بسبب ادعائه النبوة وتفسيره للقرآن الكريم حسب ما يمليه عليه هواه مستعينا بميناء هُنَيْن ليتجه إلى الأندلس، هذه الحادثة، أشار إليها كذلك صاحب الاستقصاء، بعد ذلك نجد أن البكري تحدث عن هُنَيْن في القرن (٥ هـ/١١م)، واصفًا إياها على أنها عبارة عن حصن ذو أهمية تجارية وأمنية، أما الإدريسي فقد ذكرها على أنها مدينة عامرة مما يعطينا فكرة عن تغيرها وتحولها من حصن إلى مدينة آهلة بالسكان والعمران وكثرة الأسواق وازدهار التجارة، وذلك انطلاقًا من وصف الإدريسي لها كما ذكر أنها كانت محاطة بسور مبني بإتقان يرجع على أنه سور المدينة وليس سور القصبة طريقة بناءه بالتراب المدكوك هذه التقنية ميزة معروفة منذ القرن (٥ هـ/١١م)، هناك مَنْ يرجع تاريخ بناءه إلى المرابطين باعتبار هُنَيْن كندرومة تابعة إدرايًا لتلمسان في العهد المرابطي.[٦]

مع بداية سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) تحدث ياقوت الحموي في معجم البلدان عن مدينة هُنَيْن بقوله "... مَوْضِعٌ مِنَ السَّاحِلِ التِلِمْسَانِي، بِالقُرْبِ مِنْهَا يَتَوَاجَدُ مَسْقَطُ رَأْسِ عَبْدِ المُؤْمِنِ بْنُ عَلِي بِتَاجْرَا ..".[٧] يبدو من هذا التقديم أن المدينة عرفت تراجعًا في نشاطها، تزامن ذلك مع تراجع نفوذ المرابطين في شمال افريقية، لكن مع سطوع نجم الموحدين تحت زعامة عبد المؤمن بن علي تألقت هُنَيْن وعادت تُذكر في كتب الجغرافيين، وإذا ما قارنا جميع ما تم تقديمه من وصف عن هُنَيْن في كتب الرحالة، نجد أنَّ البكري قد وصفها بالحصن وربطها بمدينة ندرومة، في حين أن باقي الجغرافيين فيما بعد لم يصفوها كحصن، وإنما كصورة لمدينة ساحلية تربطها علاقة مباشرة بمدينة تلمسان العاصمة الاقتصادية أي أن خط تطورها شيئًا بلغ أوجه وأصبح للمدينة أهمية تجارية، فمنها وإليها كانت تستورد وتصدر البضائع، مع مدن الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، كمدينة ملقا وألميريا.

وتتضح الأهمية السالفة الذكر عند الزيانيين الذين اعتمدوا وبشكل كبير في نشاطهم التجاري على ميناء هُنَيْن إلى الحد الذي جاوز فيه أهمية ميناء وهران، وذلك لقربه من العاصمة تلمسان بحوالي (٦٠) كلم فقط، مشكلاً الرئة الاقتصادية للدولة الزيانية آنذاك، يدعم هذه الفكرة ما أورده الحسن الوزان في زيارته لمدينة هُنَيْن، وذلك تحديدًا في سنة ١٥١٧م قبل الاكتساح الأسباني للمدينة قائلاً: "... مَدِينَةٌ جَمِيلَةٌ، ذَاتُ مَكَانٍ مُتَمَيز اسْتِرَاتِيجِي، تَمْتَلِكُ مَرْفَأً صَغِيرًا، مُحَاطٌ بِبُرْجَيْن عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشَّمَال، تَأْتِي إِلَيْهِ السُّفُنُ مِن البُنْدُقِيَة، السِّلَعُ التِي تَدْخُلُ أَسْوَاقَ تِلِمْسَان، وَتَعُودُ بِالرِّبْح الكَثِير عَلَى التُّجَار، أُنَاسُ مَدِينَة هُنَيْن يَتِسِمُونَ بالطِّيبَة، أَغْلَبِيَتُهُم يُزَاوِلُونَ مِهْنَةَ التِجَارَة فِي مَادَتَيْ القُطْن وَالقُمَاش، مَسَاكِنُهُم ذَاتُ شَكْل هَنْدَسِي رَائِع، كُلُ وَاحِدٍ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى فِنَاء يَتَوَاجُدُ بِهِ مَكَانٌ لِغَرْسِ العِنَب، وَالمَنْزِل كَكُل ذُو بِلاَطَاتٍ مُخْتَلِفَة الأَلْوَان، الجُدْرَان مَكْسِيَة بِفُسَيْفِسَاء رَائِعَة...".[٨] ما ذكره الحسن الوزان ينم عن مدى الرقي الاجتماعي والاقتصادي الحاصل في المدينة أيام الدولة الزيانية، هذا الأمر نجده مذكورًا عند بعض الرحالة في القرن الرابع عشر الميلادي، أمثال عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي في مؤلفه "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، المتوفى سنة ١٣٣٨م كتابه مقارب في تقديمه لمعجم البلدان لصاحبه ياقوت الحموي، رحَّالة آخر يدعى البَلَوِي، المنحدر من الأندلس ذكر مدينة هُنَيْن في رحلته[٩] كما يلي: ".... مَدِينَة خَلَّابَة لَيْسَت لا بِالصَّغِيرَة وَلا بالكَبِيرَة، تَجْمَع بَيْنَ البَرِّ وَالبَحْرِ، تَقَعُ فِي أَسْفَلِ جَبَلَيْن، مُشَيَّدَة علَى أَرْضٍ مُنْخَفِضَة وَمُنْبَسِطَة، تَعْلَوهَا قَلْعَة يَتَوَاجُد بِهَا مَكَانٌ لِوَضْعِ الأَسْلِحَة، أَسْوَاقُهَا نَشِطَة، مَسَاجِدُهَا تَتَمَيَزُ بِحَرَكَة عِلْمِيَة وَاسِعَة وَتجَمُع دِيْنِي دَائِم مُجَاوِرَة لِلأَنْدَلُس التِي اسْتَلْهَمَت مِنْهَا بَعْضَ الرُّقِّي...". كما يذكرها القلقشندى الذي ألف كتابه سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م)، المعنون بـ: صبح الأعشى في صناعة البناء، متحدثًا عن مدينة تلمسان أولاً، ثم عرج على ذكر مدينة هُنَيْن على أنها تقابل مدينة ألميريا في الضفة الأخرى.

يُستدل مما تقدم ذكره من الرحالة أن مدينة هُنَيْن عاشت أوج عظمتها ورقيها أيام الزيانيين، إذ أصبحت همزة وصل بين الشمال والجنوب، والرئة الاقتصادية للدولة الزيانية، عبر المبادلات التجارية التي كانت تتم من مينائها، حيث قدِمت إليها سفن الأندلس التابعة لبني الأحمر وأخرى من مالغا والميرية، إضافة إلى سفن مسيحية من برشلونة والبندقية، وفلورانسا وكاطلونيا، إضافة إلى ما عرفته هُنَيْن من رخاء اقتصادي عرفت كذلك نشاط ديني مكثف، إذ قدم إليها بعض من علماء الدين مثل: أحمد بن الحسن الغماري الذي كان يحضر صلوات الجمعة بِهُنَيْن، كما عمل بها شريف الرحالة أبو علي حسن ابن شريف أبي يعقوب يوسف ابن يحي الحسني السبتي قاضيًا، الشيء نفسه يقال عن أبي عثمان سعيد ابن محمد العقباني المنحدر من الأندلس، مدينة هُنَيْن لم تسلم هي الأخرى من الصراع المريني الزياني، لا لشيء إلا لأنها ذات أهمية اقتصادية بمكانها الاستراتيجي المفتوح على العالم من جهة البحر، لذلك لم يدخروا جهدًا في الاستيلاء عليها، فقاموا بعزلها عن العاصمة تلمسان، كما قطعوا صلتها بالضفة الأخرى لكي لا يتلق الزيانيون أية إمدادات من بني الأحمر، قام أبو يعقوب يوسف المريني في احتلاله لمدينة تلمسان بعد محاصرته لها[١٠] ببعث جيش آخر إلى هُنَيْن، فدخلت تحت طاعته وبايعه زعماء المدينة، لكن بعد مغادرة المرينيين وفشل حصارهم ترجع هُنَيْن إلى سابق عهدها، إلى الحد الذي تم فيه طرد مستخلفي المرينيين على المدينة.

في المرة الثانية التي عاد فيها أبو الحسن لغزو تلمسان استولى على المدن الساحلية التابعة لها كوهران وهُنَيْن سنة (٧٣٦هـ/١٣٥٥م)، محتلاً بذلك كافة المغرب الأوسط، ويورد لنا ابن مرزوق نصًا يتكلم فيه عن مايلي: " ... وَمِنهَا الجَامِعُ الذِّي أَنْشَأَهُ بِمَدِينَة هُنَيْن، وكَانَ شِرَاءُ مَوْضِعِهِ عَلَى يَدَيْ وَهُوَ مَسْجِدُ خُطْبَة، وَصَوْمَعَةٌ فِيهِ كَبِيرَة مُخْتَلِفَة...".[١١] هذا الحديث يؤكد ما لمدينة هُنَيْن من أهمية، دفعت بالسلطان المريني أبو الحسن بناء مسجد جامع بالمدينة الذي لم يتبق منه إلا النواة الداخلية للمئذنة التي يتحدث عنها كنال (Canal) أنه رآها ما بين البرج الرابع والخامس من أسوار المدينة،[١٢] وفي خضم الصراع الحاصل بين المرينيين والزيانيين والذي كان في حركة مد وجزر بين الطرفين، وبالتحديد في الفترة التي أكمل فيها أبوعنان المريني احتلاله على المغرب الأوسط، قامت بعض القبائل المجاورة لمدينة هُنَيْن اغتنام فرصة ذلك النزاع للاستقلال عن السلطة الزيانية لتكوّن لنفسها وجودًا خاص بها، من تلك القبائل نذكر قبيلة بني عابد، التي تفطن لها السلطان الزياني أبو ثابت، إذ قُتل العديد منهم وأسر ما تبقى، كما أخد زعيم تلك الثورة مكبلاً بالحديد لتلمسان أين توفي بأحد سجونها هناك.[١٣]

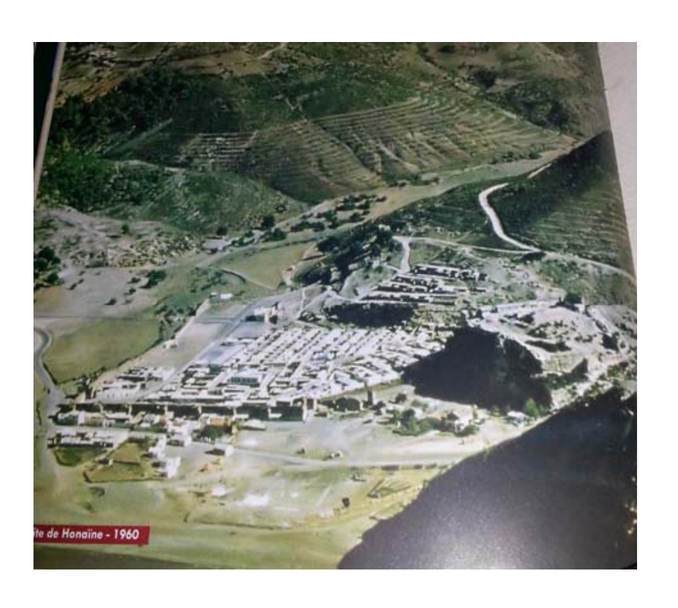
قبيلة أخرى تحمل اسم قبيلة ذوي عبيد الله، قامت هذه الأخيرة بالسيطرة على الطريق التجاري الرابط بين تلمسان العاصمة ومدينة هُنَيْن فارضةً بذلك إتاوة على كل مَنْ يستعمل ذلك المسلك طوال أيام السنة، وبعد انتهاء الصراع المريني الزياني رجع لمدينة هُنَيْن وجهها المشرق تحت الحكم الزياني، لكن سرعان ما بدأ يتغير الوضع تحت طائلة التهديد الجديد القادم من اسبانيا، إذ وبعد سقوط الأندلس كلّية مع مطلع (١٠هـ/١٦م) وبالتحديد سنة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م)، بدأت إسبانيا بشن حركة الاسترداد التي بدأتها في الأندلس على المغرب الأوسط، شجعها في ذلك ضعف واضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المغرب الأوسط، أول ما قامت به هو احتلال مدينة وهران سنة (٩١٥ هـ/١٥٠٩م)،[١٤] حينها قام أهالي تلمسان بدعوة التجار الذين كانوا يرتادون على سواحلها إلى النزول بميناء مدينة هُنَيْن بعد هذه الواقعة، برز حدث آخر وهو موت السلطان الزياني أبو حمو موسى الثالث الذي كان يدفع إتاوة سنوية لإسبانيا مقدارها: اثنا عشرة ألف أوقية ذهب واثنا عشرة حصان، وستة من أنثى النسر، تولى بعد الحكم أحد إخوته المسمّى أبو محمد عبد الله، الذي دخل في مشادات حادة مع ابنه حول سدة الحكم،[١٥] الأمر الذي زاد في بلبلة الأوضاع السياسية وطمع اسبانيا في الظفر في ميناء هُنَيْن، فقام شار الخامس بإرسال قائده العسكري المسمّى ألفارو دوبازان ( Alvaro de bazan)، في شهر أوت ١٥٣١م، بأسطول قوي مؤلف من إحدى عشرة سفينة حربية وناقلتين ومائتين وخمسين جندي، جُلبت من حامية وهران، ومئونة لمدة شهرين، تم الهجوم على المدينة بغتة للتمكن من احتلالها، إذ لم يكن في المدينة عدد كاف من الجند، إضافة إلى عدم دراية السكان بالأساليب الحربية، وهكذا سقطت المدينة بيد الأسبان وتمكن الملك شارل الخامس من الظفر بها وتحقيق ما يريده من انتقام من أهالي المدينة وتجار تلمسان الذين ساعدوا في إيواء القراصنة وخرجوا معهم لشن بعض الغارات على شواطئ إسبانيا، وذلك بعد الاحتلال الذي منيت به مدينة وهران،[١٦] بعث قائد الأسطول الحربي رسالة يثمن فيها نجاح احتلال مدينة هُنَيْن إلى الملك شارل الخامس يقول فيها: "... أَنَّا أَعْتَبِر الاسْتِيلَاءَ عَلَى هُنَيْن أَمْرًا بَالِغَ الأَهَمِيَة، إِذْ سَنَتَمَكَن مِن الآنَ فَصَاعِدًا مِن مُعَاقَبَة السُلْطَان التلمساني وَإِخْضَاعِه لِلْوَفَاءِ بِوُعُودِه، الطَّرِيقُ المُؤَدِي إِلَى تِلِمْسَان مِنْ هُنَيْن قَرِيبٌ جِدًا، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلَجَ إِلَى المَمْلَكَة مِنْ دُونِ عَنَاء، لِلاسْتِيلَاءِ وَأَخْذِ أَحْسَنِ مَا تَجُودُ بِهِ تِلِمْسَان مِنَ السُّلْطَان مَوْلَاي عبد الله...".[١٧]

هدف الاحتلال الاسباني هو الحصول على تلمسان كافة ونهب ما فيها، لذلك تركت إسبانيا حامية كبيرة في المدينة مؤلفة من سبعة مائة جندي و(١٥) مدفعًا، بقيت تلك الحامية لمدة ثلاث سنوات لتتخلى في الأخير عن المدينة للتضييق الذي ألحقه السكان والتجار بالجند، ولعدم تقاضي الجند رواتبهم لمدة ثمانية عشرة شهرًا، قام أولئك الجند بحرق وتخريب المساكن والمساجد وجعلوا عاليها سافلها[١٨] ليخرجوا منها في شهر ديسمبر سنة ١٥٣٤م، نتيجة لذلك فقدت هُنَيْن رونقها وطابعها العمراني والتجاري الذي اكتسبته خلال فترات حياتها من كونها مدينة ساحلية وتجارية، انطوت من جديد تحت لواء تلمسان التابعة للحكم التركي في الجزائر التي استعانت بالأتراك لمواجهة خطر الإسبان، وفي سنة ١٥٦٨م وقعت معركة كبيرة بحرية بالقرب من هُنَيْن بين السفن التركية بقيادة صالح رايس والسفن الاسبانية بقيادة دون جوان دوتريش(DoneJoineDetriche)[١٩] انتهت بتفوق الأسطول التركي، لينتهي بذلك الخطر الاسباني على سواحل المغرب الأوسط إذ لم يستنقذ للإسلام مدينة هُنَيْن والمغرب الأوسط إلا تدخل الأتراك الذين أنهوا حكم الزيانيين،[٢٠] لحق هُنَيْن ما لحق بتلمسان باعتبارها جزء لا يتجزأ منها، إذ كان هناك تشارك في الأحداث السياسية.

## خاتمة

من خلال ما ورد ذكره في متن هذا البحث تأكد جليًا أن لجميع المدن حياة شبيهة بحياة البشر، إذ تولد ثم تنمو وتبدأ مسيرتها لتصبح يافعة شابة وبعدها تموت وتختفي إلى الأبد، تاركة وراءها مخلفات تنطق بكل موضوعية عما جادت به قريحة من سكنها وعمَّر فيها، لأنها بمثابة نافذة نطل من خلالها على تجاربهم وخبراتهم بمختلف المجالات سواءً كانت معمارية، اجتماعية، سياسية، تجارية، لذلك يرى الجغرافيون أن المدينة حقيقة مادية يمكن التعرف عليها من موقعها ومن مظهر مبانها وطبيعة تنظيمها العمراني في احتوائها على المسجد الجامع كنواة مركزية وتوزيع بقية العمائر الأخرى من حوله، تبقى مدينة هُنَيْن موضوع بحثنا إحدى أهم المدن الإسلامية التي حظيت باستطان الأسلاف عليها، نظرًا لتميزها بموقع جغرافي خلاب، تحدث عنه رحَّالة يدعى البَلَوِي ذو الأصل الأندلسي، ذكر مدينة هُنَيْن في رحلته كما يلي: "....مَدِينَة خَلابَة لَيْسَت لا بِالصَّغِيرَة وَلا بالكَبِيرَة، تَجْمَع بَيْنَ البَرِ وَالبَحْرِ، تَقَعُ فِي أَسْفَلِ جَبَلَيْن، مُشَيَّدَة عَلَى أَرْضٍ مُنْخَفِضَة وَمُنْبَسِطَة، تَعْلَوهَا قَلْعَة يَتَوَاجُد بِهَا مَكَانٌ لِوَضْعِ الأَسْلِحَة، أَسْوَاقُهَا نَشِطَة، مَسَاجِدُهَا تَتَمَيَّزُ بِحَرَكَة عِلْمِيَة وَاسِعَة وَتجَمُعٍ دِيِّنِي دَائِم مُجَاوِرَة لِلأَنْدَلُس التِي اسْتَلْهَمَت مِنْهَا بَعْضَ الرُّقِّي..." يُمكننا هذا الوصف من أخد نظرة شاملة عن المدينة ومستواها المعماري والثقافي، ومقارنته مع ما آلت إليه من تحطيم في بنيتها التاريخية والأثرية.

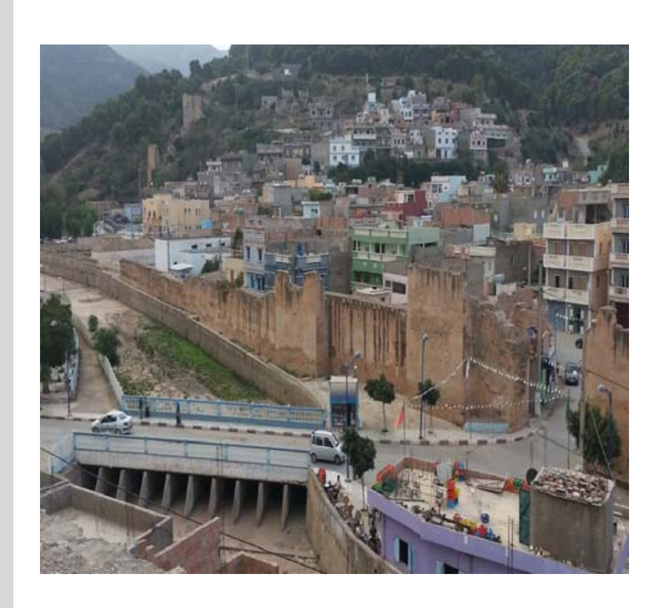
**الملاحق:**




**صورة رقم (١)**

منظر عام لمدينة هُنَيْن عام: ١٩٦٠

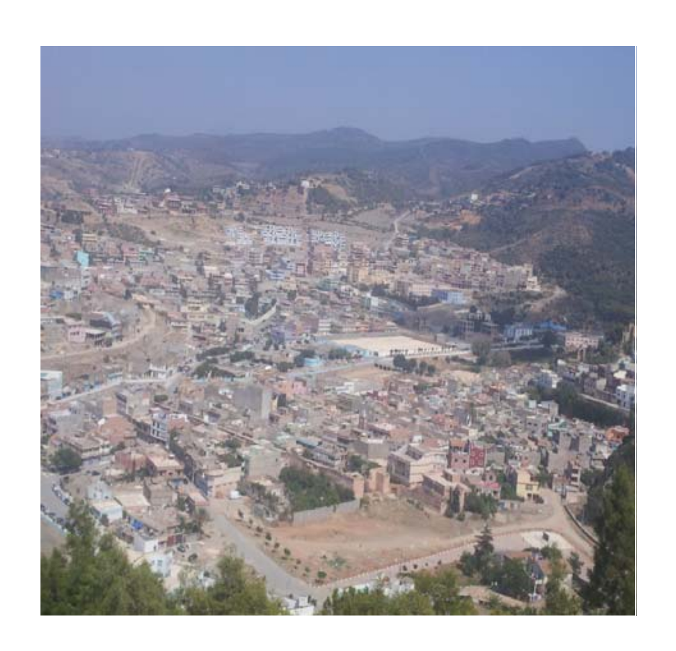
المصدر: Abderrahmane Khalifa, Opcit, p71



**صورة رقم (٣)**

منظر لجزء من مدينة هُنَيْن تظهر فيه الأسوار الدِّفاعية-٢٠١٣

المصدر: الباحث



**صورة رقم (٢)**

منظر عام لمدينة هُنَيْن ٢٠١٣

المصدر: الباحث



**صورة رقم (٤)**

منظر للجزء المتبقي من القلعة-٢٠١٣

المصدر: الباحث

## الهَوامِشُ:

(١) عبد العزيز محمود لعرج، **"مدينة هُنَيْن: تاريخها وآثارها"**، الملتقى الدولي السادس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، ٢٠٠٦، ص١٣١.

(2) Abderrahmane Khelifa, Honaine à Travers ses monuments, colloque National sur: Honaine passé et present, Février 1985, P. 15.

(3) Abdelaziz gawar, Honaïne et son environnement Agro-maritime caractéristique et vocation économique, colloque National sur: Honaine Passé et Présent, Février 1985, P. 21.

(٤) عبد العزيز محمود لعرج، **مدينة هُنَيْن: تاريخها وآثارها**، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، جمع وتقديم الجمعية الموحدية، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ص١٣١.

(5) Jean Louis Declais, le schism Donatiste et ses retombées régionales, colloque National sur: Honaine passé et present, Tlemcen, Février 1985, P. 08

(٦) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٣-١٣٤.

(7) Abderrahmane Khalifa, Ibid,P198.

(8) Alfred Berenguer, Intermède Espagnol (1531 – 1534), colloque National sur Honaine passé et présent, Février 1985, P. 04.

(9) Abderrahmane Khalifa, Honaïne ancien port du royaume de tlemcen, Edition DALIMEN, Algérie, 2008, p. 226.

(١٠) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٥.

(١١) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعيّاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٨١، ص٤٠٣.

(١٢) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٦.

(١٣) عبد الحميد بن اشنهو، مرجع سابق، ص١٥.

(١٤) عبد الحميد ابن شنهو، مرجع سابق، ص١٥.

(15) Alfred Berenguer, Ibid, P.03

(١٦) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، ج٢، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص٢٩٦.

(17) Alfred Berenguer, Ibid, P.0٤.

(١٨) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(١٤٩٢-١٧٢٢)**، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص٢٣٩.

(١٩) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٤٠.

(٢٠) ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق هاني سلامة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠01، ص٣٦.

# الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري
## من خلال دراسة بعض النماذج من قرى بني سنوس في تلمسان

**د. رابح فيسة محمد**
أستاذ محاضر الآثار الإسلامية
معهد التاريخ والآثار
جامعة تلمسان– الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**
تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مميزات وخصائص المسكن الريفي في منطقة من بين أهم المناطق الريفية في الغرب الجزائري وبالتحديد منطقة بني سنوس في ريف مدينة تلمسان، وكذا أهمية هذا العنصر في العمران الريفي والعوامل التي على إثرها وُجدت التجمعات القروية بحكم أن المنزل هو جزء لا يتجزأ منها، ثم سنحاول معرفة المواصفات العامة للمنزل الريفي وأقسامه في كل من بلاد الأندلس والمغرب، ومقارنتها بنظيرتها في ريف تلمسان، ثم نقوم بعد ذلك بالحديث عن الملامح العامة للنماذج المختارة من منازل ريف قرى بني سنوس للدراسة، لنخلص في الأخير إلى ذكر الخصائص والمواصفات التي تميزت بها عمارة المنزل الريفي في قرى بني سنوس في تلمسان.

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٩ نوفمبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ يناير ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**
المسكن الريفي، الأندلس، والمغرب، بني سنوس، النشاطات الفلاحية، العمران الإسلامي

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
رابح فيسة محمد. "الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري: من خلال دراسة بعض النماذج من قرى بني سنوس في تلمسان".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٨٨ – ٩٢.

### مُقَدِّمَةٌ

لقد واكب تطور العمارة بشكل عام، والعمارة السكنية بشكل خاص، عنصر الإنسان الذي دفعته حاجاته الطبيعية إلى التجمع والاستقرار، ويمكن أن يقرأ تطور الإنسانية بأكملها في سِجل الحلول السكنية التي ما فتئ الإنسان يطورها تبعًا لمعطيات تقدمه الاجتماعي والصناعي والعلمي والمعرفي، وبما أن الثقافة في مفهومها العام تعني علاقات الإنسان بعالمه المحيط، تصبح العمارة التجسيد المادي الأبرز لثقافة الإنسان ولمقدرته على التكيف مع التقدم الذي يحرزه في شتى مجالات الحياة، لذا فإن استقرار الإنسان خاصةً البدوي في البداية كان في الكهوف والمغارات كما عبر ابن خلدون عن ذلك في مقدمته بأن أهل البدو يأوون إلى الغيران والكهوف وهؤلاء هم سكان المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومع تحول نشاط الإنسان نحو الزراعة، هجر تلك المغارات واتّجه نحو الأراضي التي تنتج قُوته ليستقر فيها، ويبني بيوتًا من المواد الموجودة بين يديه: (الماء والقش والتراب في السهول، أو الحجارة وأغصان الأشجار في لجبال).(١)

غير أننا نجهل في كثير من الأحيان الفترة التاريخية المتعلقة بالشواهد المادية للآثار الريفية عمومًا، ولعل أبرز مثال على ذلك هو موضوع دراستنا هذا، إذ لا يعرف على وجه الدقة إلى متى يعود الاستيطان البشري لمنطقة بني سنوس*، غير أنه من المؤكد أن بعض المناطق فيها كانت مأهولة منذ القدم، بحيث هيأ لها الموقع الجغرافي موطنًا مناسبًا للسكنى، فقد قدمت الوديان الضيقة حماية كافية للفلاحين الصغار القاطنين في هذه المناطق الغزيرة الأمطار، ثم جاءت القرى العديدة المنتشرة في أعالي الجبال لتضمن الأمان للقاطنين، حيث تمكن إنسان المنطقة من استغلال كافة الإمكانيات الطبيعية التي تزخر بها المنطقة وتسخيرها في عملية الاستقرار، ولقد تم استصلاح السفوح الجبلية على شكل مصاطب، كما تم استغلال الأراضي الفلاحية المنتشرة على ضفاف الأودية خاصةً وادي الخميس الذي يمر بالقرب من قرية الخميس التابعة لمنطقة بني سنوس، وحفرت الأحواض المائية وهيأت الطرقات والمسالك، وعمد سكان القرية إلى تشييد الطواحين المائية ومعاصر الزيتون في محيط

القرى، وقد سكن الفلاح الفقير بعائلته الكبيرة ودوابه في فضاء سكني واحد يمتاز بالبساطة، كما تتم فيه ممارسة جل النشاطات التي لها علاقة بالحياة الريفية.

## أولاً: عوامل تكون التجمع السكني في الريف

إن المسكن الريفي في داخله هو جزء من محمية كبيرة والمتمثلة في القرية، حيث تشكل في مجموعها المجتمع الكبير الذي يضم سكان هذه البيوت، ولدراسة المسكن بشكل مستقل لابد من دراسة القرية أولاً كتكوين عام والأسباب والظروف التي أدت لهذا التكوين، فلو نظرنا إلى المخطط العام لأي قرية لوجدناها غير منتظمة بشكل هندسي معين أو مسبق، وإنما نلاحظ هذا النمو العفوي لنسيج القرية حيث نرى المنازل متلاصقة ومتداخلة مع بعضها ومتراكمة، ونلاحظ الأزقة والدروب الضيقة والمتعرجة ولهذا التركيب والتلاصق أسباب وعوامل نوردها فيما يلي:

**١/١- العامل الديني:**

تحث الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كثير من المواضع المؤمنين على التراحم والترابط فيما بينهم، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضًا، ولذلك فإن تداخل البناء وتماسكه جزء من الأدب العمراني الإسلامي، ومن الطريف في القرى والأرياف التي تتداعى مبانيها اليوم بسبب الإهمال وعدم الصيانة أنها عندما تنهار الدار الواحدة فإن الدور الأخرى المحيطة بها والملاصقة لها تبدأ هي الأخرى بالتآكل والانهيار التدريجي، وذلك بفعل الاشتراك في الحوائط والسقوف والأسس وقد تكون توصية الرسول (ﷺ) للمؤمنين بتقديم المعونات بعضهم لبعض مثل السماح للجار بغرز خشبه والاشتراك في الجدران هي العامل الأساسي في نشأة هذا التلاحم بين المباني الذي يغلب طابعه على القرى والأرياف،[٢] ويظهر ذلك جليًا في تجمع المساكن والأحياء الريفية حول المساجد في مختلف قرى بني سنوس التي يبدوا أنها اعتبرت المنبع الرئيس الذي ينهل منه سكان القرى مثل هذه التعاليم الدينية التي أوصت بها الشريعة الإسلامية، والتي حافظت على مكانة وهيبة المجتمع الريفي بين باقي المجتمعات.

**٢/١- العامل النفسي للإنسان:**

يميل الإنسان بطبعه إلى تكوين مجتمع متحضر يدافع عنه ويحميه، وهذا ما دفع السكان إلى تكوين تلك التجمعات السكنية المتلاحمة البنيان على المستويين المعنوي والمادي، حيث أننا نجد الروابط الأسرية والعلاقات الاجتماعية متجذرة في تلك القرى، تغذيها العديد من العوامل والأسباب مثل العمل المشترك في الحقول وجني المحاصيل، وكذا حضور المناسبات السنوية والاحتفال بها جماعيًا.[٣]

**٣/١- العامل الاجتماعي:**

يتفق بعض الباحثين مع ما يراه ابن خلدون أن البيت هو مهد العصبية،[٤] ففيه تنشأ أواصر القرابة وهو الذي يجمع أعضاء العائلة الواحدة التي تعتبر نواة التركيب الاجتماعي التي تكون فيها العصبية في أشد قوتها ثم تتدرج إلى أن تتلاشى فعصبية الأبوة والبنوة أقوى من عصبية الأخوة وهذه أقوى من العمومة وهكذا، ويقابل هذا التدرج الاجتماعي تدرجًا فضائيًا داخل الحي السكني الواحد، حيث تتجسد قرابة النسب في قرب المكان أو الجوار الذي يثبت مدى التلاحم الأسري،[٥] فالبيت الذي ينشأ على أساس الأسرة النووية (الأب، الأم) يتوسع بعد سنوات للأبناء والبنات، ويزداد توسعًا بعد زواج الأبناء وقد يجتمع لذلك في البيت الواحد المتسع عدة أجيال، كما أننا نلاحظ من خلال العلاقات الاجتماعية في القرية بأنها متينة وقوية ومتحررة نوعًا ما، وهذا الشيء كان نتاجًا لعاملين أساسيين هما:

**العامل الأول:** هو صلة القرابة التي تربط سكان القرية، فمعظم سكانها تجمعهم روابط وأواصر أسرية متينة، وذلك عن طريق المصاهرة والتزاوج مما أدى إلى توطيد العلاقات الاجتماعية في القرى الريفية بصفة عامة، وفي قرى بني سنوس بصفة خاصة.[٦]

**العامل الثاني:** هو احتكاك سكان القرى ببعضهم البعض من خلال ممارسة النشاطات الفلاحية التي تحتاج إلى أيادي عاملة كثيرة وخاصة عمل النساء الذي أدى إلى نوع من الانفتاح الاجتماعي،[٧] حيث كانت المشاركة في العمل تؤدي إلى الخلط بين الجنسين والتقائهم ببعضهم البعض، مما أثر في البيت الريفي بقرى بني سنوس بحيث أننا لا نجد فيه حواجز بين قسم الرجال والنساء، وإنما يشكل البيت فراغًا واحدًا يستخدم للنوم والطعام والمعيشة، وهذا الاندماج الاجتماعي جعل القرية تعتبر عائلة واحدة والداخل إلى بيت من بيوتها يعتبر فردًا من أفرادها، وهو ما اشتهرت به أرياف كثير من المدن الهامة في التاريخ الإسلامي، كتلك المنتشرة حول حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة ببلاد الأندلس والمغرب الكبير.

## ثانيًا: المواصفات العامة للمنزل الريفي في الأندلس والمغرب وتلمسان

لقد أظهرت لنا عملية المقارنة التي قمنا بإجرائها بين مخططات معمارية لمنازل ريفية من الأندلس،[**] والمغرب،[***] وتلمسان،[٨] أنها اتبعت النظام المعماري نفسه انطلاقًا من شكلها الخارجي الذي تظهر فيه الأسقف بشكل مسطح، فقط يكمن الاختلاف في مخططات هذه المنازل في الأقسام المكونة لها، فهي تظهر في بعض منها وتختفي في الآخر، كما أن توزيعها يختلف حسب مساحة المنزل، فهي تتكون في مجملها من الغرف الخاصة بالنوم والضيافة التي تنتشر حول الفناء أو ما يعرف بـ (الحوش) في لغة أهل المغرب وتلمسان، بالإضافة إلى وجود المطبخ وفي بعض الأحيان نجد عدة مطابخ في المنزل الواحد، كما أن المنزل في قرى تلمسان لا يخلوا من الإسطبل مع نظيره في المغرب بينما لا نجده في مخطط المنزل الريفي في الأندلس، ربما لاستعمال أهل الأندلس هذا العنصر بمعزل عن المسكن الرئيس، كما أن المنازل في الريف التلمساني استعملت فيها الطوابق وحتى في المغرب غير أن مخطط منزل الريف الأندلسي

اعتمد على طابق واحد في النموذج الذي بين أيدينا، حتى أن عنصر الفرن في المنزل المغربي جاء خارج المنزل بينما في المنزل الريفي في تلمسان نجده داخل المطبخ ولا يظهر له موقع داخل المنزل الريفي في الأندلس نتيجة استعماله ربما في الخارج، وقد اعتمد سكان الريف التلمساني والمغربي المياه الطبيعية من الأودية والأنهار المجاورة للقرى في حياتهم اليومية بينما نجد أن عنصر البئر في منزل الريف الأندلسي هو من العناصر الأساسية فيه، ويظهر عنصر الغار كما يسميه سكان بني سنوس أو القبو في مخطط المنزل الريفي في تلمسان، في حين أن المنزل الريفي المغربي والأندلسي يخلوا من هذا العنصر ولعل الاختلاف في التكوين الداخلي للنماذج الثلاث تحكمت فيه الطبيعة والمحيط وكذا الفكر العمراني المتفاوت المستوى بين بلاد المغرب عامة وبلاد الأندلس ليس فقط في العمارة السكنية، وإنما نجد هذا الاختلاف حتى في أنواع أخرى من العمارة.

وقد شاع استعمال المخططات المعمارية نفسها للمنزل الريفي حتى في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر أين توجد منطقة القبائل الكبرى، فقط يكمن الاختلاف في تسمية الأقسام المكونة للمنزل وفي توزيعها في بعض الأحيان، إذ أننا نجدها باللغة الأمازيغية التي تمثل اللغة الرسمية لسكان منطقة بجاية(****) الذين استوطنوا القرى والمد اشر التي تنتشر عبر كامل منطقة القبائل الكبرى، وقد اخترنا منها نموذجين للتدليل على أن نفس النسق المعماري تداوله سكان المنطقة، فمثلاً الفناء نجده يتقدم الأقسام الأخرى من المنزل ويسمى (أمراح)، كما الفضاء الخاص بالحيوانات بـ (أداينين)، والذي يقابله في المخططات الأخرى عنصر الإسطبل، ولدينا عنصرًا آخرًا يشبه في وظيفته عنصر الفناء وهو من بين العناصر الهامة في المنزل الريفي ببلاد القبائل الكبرى ألا وهو الفضاء الخاص بالنشاطات اليومية والذي أطلق عليه مصطلح (تغرغرت)،[٩] وسمي الفرن بالكانون وجل العناصر الموجودة في المنازل الريفية نجدها في المنزل البربري في الشرق الجزائري فقط تتغير التسمية التي -كما ذكرنا سابقًا- تكون باللغة الأمازيغية، وهكذا فإن جل العناصر المكونة للمنزل الريفي تتشابه من حيث الشكل وموقعها من الدار حتى وإن اختلفت تسميتها، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى تمسك سكان الريف بالنسق المعماري الذي أملته عليهم الظروف الطبيعية والعادات والتقاليد، التي جعلت من المنزل الحلقة الرئيسية التي تتكون فيها حركة الفرد مع المحيط الذي يعيش فيه، وقد خضعت الكثير من تلك المنازل الريفية إلى تعديلات سببها الحالة الاجتماعية للأسرة الريفية والحالة المادية لها، وهذا ما يبدوا جليًا من خلال النماذج التي قمنا بدراستها في قرى بني سنوس.

## ثالثا: المنازل الريفية المدروسة في قرى بني سنوس

لقد قمنا من خلال المعاينة الميدانية للقرى الأربعة المشهورة ببني سنوس وهي: (قرية تافسرة، قرية الثلاثا أو العزايل، قرية الخميس، قرية بني عشير)***** باختيار نماذج عدة من كل قرية،[١٠] محاولين بذلك إبراز حقيقة وتفاصيل التكوين المعماري للمنزل الريفي وأقسامه، ولا بد من الإشارة في البداية إلى أن قرية تافسرة هي القرية الوحيدة التي تمتاز عن باقي القرى بنوعين من المنازل، النوع الأول يعرف باسم المنازل الصيفية والتي تقع خارج القرية والنوع الثاني هو المنازل التي تقع داخل القرية، ويمتاز النوع الأول بأنه يقع خارج القرية وبالتحديد في البساتين التي يمتلكها سكان القرية والتي تبعد عنها بحوالي (٢) إلى (٣) كلم وتسمى منازل الصيف لأن السكان يعتمدون عليها فقط في فصل الصيف لموقعها القريب من ممتلكاتهم الفلاحية وثرواتهم الزراعية التي تحتاج إلى أعمال مكثفة في هذا الفصل، حتى يتم تأمين حاجيات الأسرة من الفواكه المجففة والحبوب التي يُعتمد عليها في مختلف فصول السنة، وكذا تأمين الكلأ بأنواعه المختلفة للمواشي والأغنام، وقد اخترنا منها منزلين، المنزل الأول هو ملك لأسرة ورياش والثاني هو ملك لأسرة حمرون، ويعتمد أفراد الأسرة تلك المنازل طيلة فصل الصيف لتجاوز محنة التنقل من بساتينهم إلى منازلهم داخل القرية، وأما عن المخطط المعماري لهذه المنازل فهي منازل بسيطة مكونة من غرفتين بسيطتين غرفة للنوم والأخرى تستعمل كمطبخ مؤقت، لأنها في الأصل منازل مؤقتة، بالإضافة إلى ذلك نجد الفناء أو كما يسميه سكان المنطقة بـ (السطيحة) وهي فضاء يشبه الفناء أو الصحن، لكنه يتقدم المنزل ويستعمل لتجفيف الفواكه والمحاصيل بشكل يومي وطيلة الفترة التي تقيم فيها الأسرة، ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه المنازل الصيفية توجد فقط في قرية تافسرة وحدها ولا نجد لها موضعًا في باقي القرى.

أما عن النموذج الثاني من المنازل، فإننا نجد له أمثلة عدة في قرية تافسرة وحتى في القرى الثلاث المتبقية وهو النموذج الذي دأب السكان على اتخاذه كمخطط ثابت في منازلهم ما عدى بعض الإضافات التي نلاحظها هنا وهناك، كالزيادة في عدد الطوابق التي تكون في الغالب نتيجة لتحسن الظروف المادية لبعض العائلات التي تنزع إلى التوسعة، وكذا زيادة عدد أفراد الأسرة الواحدة خاصةً إذا ما علمنا مدى تلاحم أفراد الأسرة الريفية التي لا تقبل انفراد الأبناء بحياتهم حتى بعد الزواج فالاستقلالية بالنسبة إليها تفككًا أسريًا لا ترضاه العادات والتقاليد، والمهم التأكيد هنا على أن عدد الطوابق في كل القرى بعد قيامنا بعملية جرد للمنازل بها لا تزيد عن الطابق الواحد أي أنها مكونة من الطابق الأرضي والطابق الأول، ومهما يكن فإن الأقسام الرئيسة في هذا النموذج الثاني من المنازل الريفية نجده حاضرًا في كل القرى، بحكم أن الأقسام المكونة له هي أقسام هامة في حياة كل فرد من أفراد الأسرة الريفية، حتى أننا في بعض الأحيان نعتقد بأن معظم المنازل هي صورة عن مخطط أصلي واحد، بحيث يظهر ذلك بداية من الشكل الخارجي الذي تظهر فيه المنازل متلاصقة البنيان وذات أسقف مسطحة.

وأما عن المخطط الداخلي للمنزل فإن معظم المنازل التي قمنا بدراستها تحتوي على مدخل رئيس ذو مصراعين بسيط وأحيانًا ذو

عقد حدوي متسع المقاسات في الغالب نظرًا لوظيفته الهامة في المنزل الريفي، وباعتبار وجود الإسطبل، لذا كان لزامًا على السكان عمل المداخل بهذا الاتساع حتى يسهل من دخول الدواب والمواشي التي يمتلكها سكان المنزل، وقد وجدنا ذلك في كل المنازل المدروسة تقريبًا، ماعدا تلك المنازل التي لا يمتهن أصحابها تربية المواشي كمنزل حوحوا يمينة بقرية الخميس، كما أننا نجد هذه المداخل في الغالب ما تفضي إلى الفناء سواء عبر سقيفة تتقدمه أو بصفة مباشرة. ويعتبر الفناء لدى سكان الريف فضاء رحبًا تمارس فيه الكثير من النشاطات اليومية كغسل الصوف وتجفيف الحبوب وفي أحيان أخرى يكون مجلسا لأفراد الأسرة لتجاذب أطراف الحديث في الأفراح والأعياد،[١١] ويكون مكانًا للنوم في ليالي الصيف الحار، وقد استعمل عند بعض السكان كسكان منزل عبد القادر بن عبد القادر بقرية الثلاثا كفضاء خاص بمبيت المواشي والأغنام، وفي الغالب ما يكون الفناء في المنزل الريفي أوسع مساحة من أقسام المنزل (المخططات)، وتفضي معظم تلك الأقسام إلى هذا الفضاء الفسيح.

وقد تبين لنا أن الإسطبل في كل المنازل المدروسة يوجد في ركن من أركان الفناء وبالقرب من المدخل الرئيس (المخططات)، ولعل السبب في ذلك هو المحافظة على نظافة أقسام المعيشة الخاصة بأفراد الأسرة والمتمثلة في الغرف والمطبخ، كما نشير هنا إلى أن الإسطبل في هذه المنازل يستعمل كمكان لمبيت المواشي فقط في الفصول الشديدة البرد وفي باقي الأيام يكون مبيت المواشي والأغنام خارج المنزل، ولم يتم تسقيفه إلا في بعض المنازل بقرية بني عشير أولاد موسى بقرية الخميس، ولدينا عنصر آخر من بين أهم العناصر في المنزل الريفي بقرى بني سنوس وهو عنصر المطبخ الذي يميزه شكل الهيكل المبني الذي يعلو الموقد وهو عبارة عن شكل مخروطي يخرج عبره الدخان المتصاعد من الموقد ونستطيع معرفة موضع المطبخ لأي منزل من منازل القرية من خلال المداخن التي تعلوها من الخارج. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض المنازل احتوت على أكثر من مطبخ بسبب العدد الهائل لأفراد العائلة، ويبدوا ذلك واضحًا في مخطط منزل الطالبي في قرية تافسرة.

أما عن القسم المخصص للغرف، فالملاحظ أن عدد الغرف فيه يزيد وينقص من منزل لآخر تبعًا للحالة العائلية وعدد أفرادها بالإضافة إلى الوضعية المادية لها، فقد وصل عدد الغرف إلى العشرة في بعض المنازل كمنزل الطالبي بقرية تافسرة وذلك راجع إلى العدد الهائل لأفراد الأسرة وكذا الوضعية المادية المريحة التي تتمتع بها العائلة باعتبار أنها من أشراف قرية تافسرة، كما يبدوا ذلك واضحًا أيضًا في طابقي منزل باسعيد بأولاد موسى التابع لقرية الخميس، في حين أننا نجد عدد الغرف يقل في منازل أخرى كمنزل حوحو يمينة بقرية الخميس وأيضًا منزل عبد القادر بن عبد القادر بقرية الثلاثا (المخططات)، وقد تميزت بعض المنازل بالغرف التي تكون منفردة في الطابق الأول والتي تم تخصيصها لأرباب العائلة وتسمى بالعلية، وهي مخصصة للنوم، ولا يوجد على وجه التحديد في كل المنازل المدروسة غرفة خاصة بالضيوف وإنما العائلة الريفية هنا تترك مجال الضيافة مفتوح لأنها تعتبر الضيف فردًا من أفراد أسرتها، وذلك هو مبدأ البساطة الذي تعتمده الحياة في الريف ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الغرف بسيطة من الداخل وخالية من عنصر الزخرفة، كما أن معظمها مستطيل الشكل والسبب في ذلك هو أن مواد البناء خاصة السقف تحكمت في الشكل.

وقبل الانتهاء من الوصف العام لمخططات المنازل الريفية لابد من الإشارة في الأخير إلى عنصر هام لم نجد له نظير في باقي المنازل سواء في الأندلس أو المغرب وحتى في بلاد القبائل الكبرى في الشرق الجزائري، وهو عنصر القبو الذي يكون تحت أرضية الفناء والذي يسميه سكان القرية (الغار) أو المغارة، والذي نجده تقريبًا في كل منازل القرى المذكورة آنفًا نظرًا لوظيفته الهامة والمتمثلة في تخزين الزروع والثمار وحتى في بعض الأحيان علف المواشي والدواب، وقد أخبرنا بعض سكان القرى أنه يستعمل في أيام الحر كمكان للنوم وقت الظهيرة، ولعل هذا العنصر يقابله عنصر المخزن في باقي منازل الريف في الأندلس والمغرب وبلدان أخرى اشتهرت بمثل هذا النوع من العمارة.

## خاتمة

يظهر لنا من خلال ما سبق ذكره بأن عناصر التصميم في المسكن الريفي وعمارته تتكامل مع الفكر التصميمي لها، فقد اتخذ المسكن الريفي في منطقة بني سنوس (تلمسان) خصائص معمارية تقليدية تمتاز بالبساطة والاعتماد على ما هو محلي من المواد الطبيعية والإبداع في استعماله، كما يظهر ذلك من خلال النماذج المدروسة والتي نجدها احتوت بعض الأقسام الحيوية التي اختفت في المنزلين الأندلسي والمغربي في منطقة الريف وحتى في منطقة القبائل الكبرى بالشرق الجزائري، فعنصر القبو أو الغار مثلاً يعتبر من بين أهم هذه الأقسام التي لا نجدها في تلك المنازل، وأما عدم وجود عنصر البئر في مساكن قرى بني سنوس عائد إلى وفرة المياه والعديد من المصادر الطبيعية التي تتوفر عليها المنطقة، أما عن باقي الأقسام كالفناء والمطبخ فهي من بين الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع المنازل الريفية في القرى والمداشر بحكم الوظائف التي تمارس فيها، كما أن وجود الإسطبل داخل المنزل هو من بين أهم الميزات والخصائص التي امتازت بها منازل قرى بني سنوس، ولذا يمكن القول أن العمارة السكنية في الريف عمومًا لها المخطط والنسق المعماري نفسه، فقط نجد بعض الاختلافات في بعض التفاصيل التي أملتها ربما الضرورة الطبيعية وكذا الفكر العمراني الخاص بسكان المنطقة.

**الملاحق:**

تعتذر هيئة التحرير عن نشر الصور والمخططات والجداول المرفقة مع الدراسة نظرًا لكبر حجمها مما يتعارض مع طبيعة النشر في "كان التاريخية"

## الهَوامِشُ:

(١) عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب المقدمة**، تحقيق:عبد السلام الشدادي،ط١، بيت الفنون والعلم والآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص١٩٣،٦٧. وانظر:- روافد، الاستثمار في الموارد الثقافية، **سلسلة الموارد الثقافية في وادي النضارة**، **العمارة التقليدية**، دمشق، سورية، بدون سنة، ص١.- غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، ط٤، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٤، ص٣٥٢،٣٥٣.

(*) هي منطقة ريفية تقع في الجنوب الغربي من مدينة تلمسان في الغرب الجزائري، وهي وطن بعض القبائل البربرية التي سكنت ريف تلمسان وهي مكونة من أربعة قرى: (تافسرة، الثلاثا أو العزايل، الخميس، بني عشير)، وتبعد عن المدينة تلمسان بحوالي (٥٠)كلم، وتقع هذه القرى بالقرب من بعضها البعض إذ لا تكاد تفصلها سوى بعض الكيلومترات وكلها تابعة إداريًا لبلدية بني سنوس، ولا تزال آهلة بالسكان إلى غاية يومنا هذا، ويستعمل بعض السكان فيها إلى يومنا هذا اللهجة الشَلْحِية التي تعتبر فرعًا من فروع اللهجة الأمازيغية المستعملة في مناطق مختلفة من الجزائر خاصةً منطقة القبائل الكبرى (بجاية، تيزي وز، البويرة)، وتعتبر منطقة بني سنوس برمتها مصدرًا طبيعيًا هامًا اعتمدت عليه العاصمة تلمسان في حقب تاريخية مختلفة، ولا تزال إلى يومنا هذا الكثير من المنتجات الفلاحية والصناعات الحرفية الخاصة بسكان بني سنوس تباع وتشترى في السوق العام لمدينة تلمسان. للمزيد عن ذلك انظر:- رابح فيسة محمد، **العمران الريفي في منطقة بني سنوس (تلمسان): دراسة تاريخية أثرية**، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠١٣، ص١٩.- ديستان (إدموند) ومحمد بن حاجي سراج، **بني سنوس**، ترجمة: محمد حمداوي، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية،٢٠١١، ص٩٣ - بل (ألفرد)، **بني سنوس ومساجدها في بداية القرن ٢٠ (دراسة تاريخية أثرية)**، تر: محمد حمداوي، دار الغرب للنشر والتوزيع. بدون سنة، ص ٤٢.

(٢) مصطفى بن حموش، **جوهر التمدن الإسلامي دراسات في فقه العمران الإسلامي**، ط١، دار قابس، لبنان، ٢٠٠٦، ص٥١. وانظر:

- Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, **Typologie de logements marocains, Modèles d'habitats entre persistances et mutations**, Lausanne, Février 2011, P.77.

(٣) عهد خزام، **العوامل المناخية والبيئية وأثرها على تطوير المسكن الريفي (المنطقة الساحلية مثالاً)**، مجلة جامعة البعث، المجلد(٢٤)، العدد (٤)، دمشق، بدون تاريخ. ص١٤٠.

(٤) ابن خلدون، مصدر سابق، ج١، ص٢١٦. وانظر:- مصطفى بن حموش، **مرجع سابق**، ص٢٦.- مصطفى التليلي، **قفصة والقرى الواحية المجاورة حول الحياة الجماعوية من بداية القرن ١٨ إلى ١٨٨١**، جمعية صيانة مدينة قفصة، ٢٠٠٩، ص١٣٧.- مصطفى شاكر، **المدن في الإسلام**، حتى العصر العثماني، ط١، ج٢، دار السلاسل الإسلامية، ١٩٨٨، ص٥٢.

- Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, op-cit,p77.

(5) CORPUS, Architecture traditionnelle méditerranéenne, **Maison urbaine style arabo-andalou,** Maroc, 2001, P.2.

(6) Luca Ortelli, Bruno Marchand, Marielle Savoyat, op-cit,p27

(٧) عهد خزام، مرجع سابق، ص١٤٢، انظر:- شويشي زهية، **مجتمع القصور، دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور مدينة تقرت**، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الريفي، جامعة منتوري، قسنطينة،٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص٢١.- كريمة بوحريق، **تغير البناء العائلي في المجتمع الريفي الجزائري، دراسة ميدانية بريف الأبيار بلدية الحاسي (ولاية باتنة)**، مذكرة ماجستير في علم لاجتماع الريفي، جامعة الحاج لخضر باتنة، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص٧٨.

(**) لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي في الأندلس انظر:- يحي أبوا المعاطي محمد عباسي، **الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (٢٣٨-٤٨٨هـ) (٨٥٢-١٠٩٥م)**،ج١، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ الإسلامي جامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٠. ص٨٥١.

-André bazzana, **La maison rurale dans la péninsule ibérique :un atelier d'ethno-archeologie**,in ruralia4,( pamatky archeologické-upplementum15),prague,p.216.

- José Luis Garcia-grinda, **Connaître l'architecture traditionnelle pour la mettre en valeur, L'architecture traditionnelle méditerranéenne Territoire, paysage et architecture traditionnelle**,in,la Connaissance, p50**.**

(***) لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي في المغرب انظر:

-Mickael peyron, **Habitat rural et vie montagnarde dans le Haut Atlas de Midelt, Maroc,** In: Revue de géographie alpine. Tome 64, N°3 1976,. pp. 327-363.- J.-P. Molénat et J. Passini, **L'emploi de la terre dans la construction en nouvelle castille à la fin du moyen âge, L'architecture de terre en méditerranée,** Seri colloque et séminaire N°80, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines –Rabat, sans date, P.122.

(٨) مدينة تلمسان مدينة تقع في الغرب الجزائري وتبعد عن العاصمة الجزائر بحوالي (٥٥٠) كلم، وقد اعتبرها الزيانيون عاصمة لهم، فهي مهد حضارتهم ومركز حكمهم. انظر في ذلك، محمد رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، الجزائر١٩٨٥، ص٢٥.- محمد عمرو الطمّار، **تلمسان عبر العصور**، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٤٥، ٤٦.

(****) مدينة بجاية تقع في الشرق الجزائري ضمن ما يعرف بمنطقة القبائل الكبرى، ولها مكانة تاريخية مرموقة في تاريخ الإمارات الاسلامية التي قامت في بلاد الجزائر، وقد تحدثت عنها الكثير من المصادر والمراجع، نذكر منها:- البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، بغداد، بدون سنة، ص٨٢.- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، ١٨٦٤، ص٩٠-٩١.- عزوق عبد الكريم، **المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها: دراسة أثرية**، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص١٠٨.

(٩) عزوق (عبد الكريم)، مرجع سابق، ص١١٦،١١٧.

(*****) هي أسامي القرى الأربعة التي قمنا بدراسة المنازل فيها، حيث لم يرد ذكرها وذكر معانها في المصادر والمراجع، ما عدا قرية تافسرة التي زارها الحسن الوزان وقام بوصفها وأكد بأنها اشتهرت ببساتينها وخضارها وأن أهلها يشتغلون في صناعة الحديد الذي وجدنا بقاياه إلى يومنا هذا منتشرة في كامل أرجاء القرية، وتبعه في ذلك مارمول كار بخال الذي أضاف إليها في وصفه بأنها مدينة مسورة أي لها سور، في حين أننا لا نجد ذكرًا لباقي القرى ما عدا بعض الاجتهادات من سكان القرى بأن قرية الثلاثا هي تنسب إلى سوق كان يقام يوم الثلاثاء، وأن قرية الخميس أيضًا اشتهرت تسميتها نسبة إلى السوق الذي لا زال يقام إلى يومنا هذا فيها، كما أن سكان قرية بني عشير يعتقدون بأن قريتهم هي قرية استقبلت العديد من القبائل في آن واحد وكانت العشرة بينهم طيبة فسميت قريتهم بـ بني عشير، وتبقى مثل هذه التخمينات والاجتهادات بعيدة عن الواقع ما لم يتم تدعيمها بالمصادر والوثائق التي تشير إلى ذلك، وعن قرية تافسرة يرجى الاطلاع على:- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ج٢، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٤.- مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ج٢، الرباط، المغرب، ١٩٨٤، ص ٣٢٣.

(١٠)عن التفاصيل الدقيقة عن المنازل الريفية بقرى بني سنوس انظر: رابح فيسة محمد، مرجع سابق، ص١٢٦،١١٤.

(١١)عن دور الفناء في العمارة السكنية انظر: محمد علي الكحلوت، **قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها**، قسم الهندسة المعمارية، غزة، بدون سنة، ص١١. وانظر:- علي ثويني، **المنحى البيئي في العمارة الإسلامية**، مجلة ينابيع، العدد(٢٥)، ١٤٢٩هـ، ص١١٨.

# المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني
# دراسة تاريخية أثرية


د. مختاري المولودة زرقة فائزة
أستاذة محاضرة
قسم علم الآثار
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية



## مُلَخّصْ

يحتل المنزل مكانة مُهِمَّة في الحياة الاجتماعية فهو يمثل إرثًا حضاريًا وشاهدًا معماريًا على حِقب تاريخية مختلفة منها السعيدة والحزينة، كما يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسار الإنساني، التاريخي والمعماري للشعوب، وعلى الرغم من هذه الأهمية التي يكتسبها المنزل، يبقى يعاني من الإهمال والتجاهل لقيمته الاجتماعية والأثرية، وقد لاحظنا هذا من خلال المعاينة اليومية لمنازل مدينة تلمسان، خاصة بالمدينة العتيقة التي تتنفس أحياءها عبق التاريخ، وعِطرَ أزمنة مزدهرة ومُشرقة لهذه الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة. وتعتبر الفترة الزيانية من أبهى الفترات في تاريخ تلمسان فعلى الرغم من كل المآسي التي وقعت في تلك الفترة، خلفت لنا هذه الأخيرة معالم رائعة من حيث الشكل والمضمون، ولعل نقطة قوة هذه الحضارة هو حسن تذوقها للفنون وحسن تصنيعها لهم، وقد تعرضنا من خلال هذا العمل إلى بعض العينات من المنازل العتيقة والتي لا يزال البعض منها يقف شاهدًا على عبقرية أجدادنا وحسن استيعابهم للفنون. تناولنا ثلاث منازل: منزل سيدي الحباك، منزل محمد ديب، وقد كانا عَلمين مهمين في تلمسان، ومنزل لاغا، وقد أختير كعينة للدراسة نظرًا لحفاظه على طابعه الأصلي والأصيل.



**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ ديسمبر ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

البيت التلمساني، المنازل الزيانية، العمارة الإسلامية، بيوت الذخيرة، المساكن المشتركة

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

مهتاري المولودة زرقة فائزة. "المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني: دراسة تاريخية أثرية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٩٣ – ٩٩ .


"بقدر ما يهمنا الإطار التاريخي والمعماري لهذه المنشأة، بقدر ما يهمنا أكثر دوره الأساسي، ألا وهو اجتماعنا في صحنه وقضاء أوقات حميمية فيه"

**محمد ديب**

## مُقَدِّمَةٌ

يحتل المنزل مكانة مُهِمَّة في الحياة الاجتماعية فهو يمثل إرثاً حضارياً وشاهداً معمارياً على حِقب تاريخية مختلفة منها السعيدة والحزينة، كما يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسار الإنساني، التاريخي والمعماري للشعوب، وبالرغم من هذه الأهمية التي يكتسبها المنزل، يبقى يعاني من الإهمال والتجاهل لقيمته الاجتماعية والأثرية، وقد لاحظنا هذا من خلال المعاينة اليومية لمنازل مدينة تلمسان، خاصة بالمدينة العتيقة التي تتنفس أحياءها عبق التاريخ، وعِطرَ أزمنة مزدهرة ومُشرقة لهذه الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة. دراستنا هذه ستحاولُ إلقاء الضوء على الواقع الأثري لهذه المعالم، بعد أن نتعرض لتاريخ المنزل وأهم عناصره المعمارية التي لا تزال تحتفظ بها مدينة تلمسان. فالوحدة السكنية في المفهوم الإسلامي لا تقتصر على جانب توفير الاحتياجات الوظيفية الاجتماعية للأسرة، بل توفر الراحة السكنية لأصحابها وبذلك يتداخل الجانب التشكيلي والجمالي لإنتاج قيمة حضارية معلومة.

تعتبر الفترة الزيانية من أبهى الفترات في تاريخ تلمسان فبالرغم من كل المآسي التي وقعت في تلك الفترة، خلفت لنا هذه الأخيرة معالم رائعة من حيث الشكل والمضمون، ولعل نقطة قوة هذه الحضارة هو حسن تذوقها للفنون وحسن تصنيعها لهم، ولعل

المنشآت المشيدة في تلك الفترة من مساجد وأضرحة ومدارس لخير دليل على ذلك، وبما أن المنازل عنصر معماري مهم، تراءى لنا أن نتعرض له بالدراسة والتمحيص فهذا النموذج الزياني لا يزال متواجدًا يصارع عوامل الزمن، ويستغيث من أجل ترميمه والعناية به.

## أولاً: المنزل

إن الحديث عن المسكن بمدينة تلمسان في العهد الزياني يتطلب نصوصًا تاريخية ووثائق ويتطلب حفريات وتنقيبات ميدانية ولكنها لأسف غير متوفرة. ولكن وبالاستعانة بكتب الخطط الخاصة بمدن مغربية كفاس ومكناس وغيرها، تسمح لنا بتكوين فكرة عن المسكن وأنواعه في مدينة تلمسان لأن العمارة الإسلامية، متشابهة تحكمها ضوابط مشتركة، تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة، ولعل أهم ما يميز تلمسان في العهد الزياني، كغيرها من الحواضر الكبيرة، في بلاد المغرب، هو عدم وجود أحياء سكنية خاصة بالفقراء وأخرى خاصة بالأغنياء، وإنما كانت دور الأغنياء ومنازلهم إلى جانب مساكن الفقراء.(١)

لم تكن المنازل تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن المنازل والقصور في المغرب الأقصى، وإفريقية المغربية الأندلسية وتخضع لضوابط ومعالم المدن الإسلامية وتتشابه فيما بينها من حيث التصميم والزخرفة التي تطورت كثيرًا في العهد الزياني، بسبب التلاقح المباشر للحضارة الإسلامية بصفة عامة، كما يمكننا أن نقف على بعض الملامح العمرانية للمنزل التلمساني في العهد الزياني. كان نمط المنزل والقصر يخضع للمستوى الاجتماعي والمالي للأسرة التلمسانية.(٢) والمنزل التلمساني مربع الشكل غالبًا لا يكتسي أي مظهر جمالي من الخارج. أما من الداخل فهو يشتمل على كثير من مظاهر الزينة والزخرفة وكانت منازل الأغنياء تكسى بالزليج في الجدران وتبلط الأرض بالرخام ويكون المطبخ والدرج في زاوية المنزل.(٣)

يتميز البيت التلمساني في العصر الوسيط، بالغرفة الواسعة يزين سقفه بالخشب المنقوش لدى أصحاب الجاه والمال وتحيط بسطحه جدران عالية ينشر فيه الغسيل وتجفف فيه الفواكه. أما الأسرة الفقيرة فلا تملك منزلاً فخمًا بل منزلها بسيط لا يزيد عن الدور الأرضي يبنى بأدوات بناء بسيطة. وأما المنازل الخارجة عن أسوار المدينة فكانت تبعد عن بعضها ولها مساحات واسعة مزودة بإسطبلات الخيل والمواشي.(٤) وذكرت بعض المصادر الزيانية أن الرخاء الاقتصادي والتطور الحضاري، جعل أهل تلمسان يتأنقون في المسكن والملبس.(٥)

**١/١- مفهوم المسكن:**

تشتق كلمة مسكن من فعل سكن وهو السكون والهُدُوء والسكينة هي الطمأنينة، ويستعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا أي استوطنه.(٦) والسَّكَنُ والمَسْكَنُ هو المنزلُ والبيت. والسّكْنُ أهْلُ الدار، والسَّكْنَى: أن يسْكُنَ الرَجُلُ موضعًا بلا كراء.(٧)

كما ذكر مصطلح السكن في القرآن في سورة الأعراف: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا"(٨). وقد استعمل القرآن الكريم لفظ البيوت للدلالة كذلك على المنزل الذي يسكنه الإنسان أو الكعبة أو بيت الله الحرام في مكة المكرّمة، أو مساكن بعض الحشرات كالنحل والعنكبوت، أمَّا لفظ الدّار فقد استعمل للدلالة على الدار الآخرة، وقد جاءت لفظة سكن في صور مادية مجازية كتابة ودلالة على فعلها وهو الاحتواء والإغشاءُ والشمُل للجسد والنفس أي للمادة والروح".(٩) لذلك كان المسكن ولا يزال من أهم العناصر المعمارية للإنسان فهو مستقره ومصدر طمأنينتِهِ.

## ثانيًا: الأنماط الرئيسية لأشكال المسكن

اختلفت أنواع مساكن الإنسان، فمنذ القدم عاش الإنسان في الكهوف والتجاويف الصخرية شبه المسقوفة،(١٠) وكانت هذه الكهوف مستودعًا لأسراره، فقد خلّد فيها وبواسطة رسوماته الصخرية، ما كان يختلج في صدره من أفراحٍ وأحزانٍ، كما خلّد على جدرانها أهم أحداثه اليومية وكذا الأخطار الطبيعية والحيوانية التي كان يهابها ويتقي شرّها. كما ظهرت منذ العصر الحجري القديم الأعلى مساكن مبنيّة من الأخشاب والطين، كما اشتغل البعض بانخفاض الأرض في صورة حفر طبيعية ليبنى فوقها مسكن، وسميت ببيوت الحفر، كما ظهرت البيوت المبنيّة من الطين المقوى والطوب والحجارة.(١١) كما عرف الإنسان ما يسمى بالأكواخ، وهي تلك التي تتخذ صورة قبة من الأغصان والأوراق والأعشاب مقامة فوق إطار من الخشب وأغلبية الأكواخ قمعية تفاديًا لتراكم مياه الأمطار، وأحيانًا تقام جدران الأكواخ من الحجارة ويقام فوقها السطح المنحدر.(١٢)

**١/٢- الخيام:**

وهي من أهم ميزات البدو الرّحل وهي تصنع من شعر أو جلود الحيوانات، كالإبل وصوف الغنم وشعر الماعز، ثم ترفع من وسطها بعمود خشبي يضمن لها السطح المنحدر، ثم تشد أطرافها إلى الأرض حتى لا تقتلعها الرياح. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النمط من المساكن فقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.(١٣)

**٢/٢- المساكن المشتركة:**

وهو نوع قديم، وقد ظهر في الحضارة المصرية القديمة، كانت المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الأغنياء، وتقتصر على ثلاث أو أربع غرف. وقد تطور النموذج المصري إلى مساكن فردية تبنى بطريقة بسيطة، وكانت من الطوب والطين والقليل من الاسمنت، وكانت عبارة عن مساحة صغيرة مقسّمة إلى قسمان سفلي يحتوي على فرن طبيعي وفناء صغير، وعلوي نصعد إليه بواسطة سلم من الأدراج البسيطة، لنجد بعض

الغرف الصغيرة والضيقة، وهذا ما يُعرف في مصر بـ "السطوح" ويعتبر النموذج المصري من أقدم أنواع البيوت.[١٤] أما في الحيرة فقد أخذ العرب أصول فن العمارة عن طريق الفرس بحكم مُجاورتهم وتبعيتهم لهم، ولكنهم طوّروا نظام العمارة عندهم تطويرًا أبعده عن أصوله الأولى، كما اشتهرت الحيرة بقصورها مثل قصري (الخورنق) والتي ترجع إلى الفارسية (خورن كاه) ما معناه موضع الأكل والشرب.[١٥]

**٣/٢- المساكن المنحوتة في الجبال:**

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النمط من المساكن في سورة الأعراف: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾.[١٦]

## ثالثا: المسكن في العمارة الإسلامية

لقد كان تصميم المسكن في العمارة الإسلامية مرتبط بالعقيدة قبل تشكيله، كمراعاة عدم التطاول في البنيان والالتزام بحرمة الجار، وإتباع منهج الوسطية في اقتصاديات البناء من عدم الإسراف أو التقصير في استعمال الزخارف والتجهيزات، وقد ظهر ذلك واحترم في العصور الأولى للدعوة المحمدية وخاف المسلمون الشذوذ عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويشير عبد الرحمن بن خلدون لذلك قائلاً: "فكان الدين أول الأمر مانعًا من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير المقصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: "افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة."[١٧] لكن المسلمين ابتعدوا عن التقشف في البناء كلما بعد الزمن بهم عن عهد النبوة، وذلك راجع لاحتكاكهم بالشعوب والأمم المجاورة، ولاغتناء الدولة الإسلامية، ومحاولة إظهار آثار هذا الغنى في الإبداع في البناء حتى يضاهي المعالم الفارسية والبيزنطية.

وقد أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا التطور في تصميم المباني: "فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيّدوا المباني والمصانع."[١٨] وقد اهتم المعماري المسلم في تصميم المنزل أو المسكن بقيم الشريعة الإسلامية، والمناحي الاجتماعية والنفسية للإنسان في تخطيط المسكن إذ يعدّ هذا الأخير وحدة اجتماعية لا ينفصل فيها البناء عن الأسرة التي تقيم فيه فقيّمها وعاداتها هي التي تُحدّد الفراغ الداخلي للمسكن.

**١/٣- أهم عناصر ومميزات المسكن في الحضارة الإسلامية:**

**(١/٣) ١- المدخل:**

ويطلق عليه أيضًا مصطلح المجاز وهو عبارة عن ممر يكون بوجه عام مُستطيل الشكل مُستقيمًا وغالبًا ما يكون منكسرًا يؤدي إلى الفناء، ويظهر هذا العنصر في تلمسان على هيئة حرف (L) اللاتيني فيكون طويلاً ثم يدور إلى اليسار ليولج بالداخل إلى الفناء، ويحتوي المدخل بهذه المدينة على (دكانة) وهي عبارة عن فتحة جدارية يستريح فيها الإنسان الغريب عن المنزل حتى يؤخذ له طريق للدخول.

**(١/٣) ٢- الفناء (الصحن):**

هو عنصر هام وهو مركز المنزل أو قلب المسكن، وهو الفراغ المكشوف، ويعتبر الصحن قديمًا بقدم العمارة الإسلامية، فقد وجد في العصر الفرعوني والسومري، واليوناني، كما ظهر في العصر الإسلامي في عهد الرسول (ﷺ) في منزله ومسجده في المدينة المنورة سنة 622م، كما وجدناه مع تطور العمارة الإسلامية، ولعل أهم ما يميز الصحن هو انفتاحه على السماء، حتى يصبح فضاءً مفتوحًا يبعث على الارتياح وكما يقول المعماري المصري "حسن فتحي": "فالفناء هو قلب المبنى وهو الذي يعبّر عن القلب في جسم الإنسان حيث تطل عليه الحجرات من جميع جهاته بألوانها وزخارفها حول الفتحات والأبواب، ولقد طوّر المعماري المسلم الفناء إلى أن تحوّل إلى حديقة فيحاء تفجّرت فيها المياه الجارية بحيث أصبح الفناء فردوسًا أرضيًا".[١٩]

كما يشير الكاتب محمد ديب الذي وإن نَحى منحًا بعيدًا عن العمارة، وأشار إلى الدور الإنساني للصحن فيقول: "يعتبر الصحن مسرحًا لحياة الأحداث اليومية، فهو إن حصرنا دوره في كونه مركزًا للمنزل أخللنا به كثيرًا، فالصحن هو المكان البسيط والذي عادة ما تتوسطه شجرة الليمون أو شجرة العنب، هو مكان رائع للحميمية العائلية والسهرات الرائعة، كما يعتبر مسرحًا للمشادات والملاسنات بين مختلف النسوة، ولكنه يبقى مكانًا فريدًا من نوعه، لا يعوّض هواءه وعبق قهوته بأي شيء في الوجود."[٢٠] كما تجدر الإشارة إلى: أن تخطيط المنازل التقليدية في تلمسان لا يجعل لها نوافذ تطل على الخارج بغرض الحفاظ على الحرمة والخصوصية العائلية، مما يجعل منه المتنفس الوحيد للمنزل. كما كانت تستعمله جدّاتنا وأمهاتنا في إنجاز أنشطتهم اليومية كالتنظيف، وغزل الصوف وقد يحتوي على صهريج من الماء.

**(١/٣) ٣- الإيوان:**

وهو بناء له ثلاثة جدران، يعلوه سقف يكون مكشوفًا من واجهته الأمامية ويمثل هذا العنصر محطة انتقال بين الغرف الجانبية إلى فضاء عائلي خاص وبين الفناء الوسطى كفضاء عائلي عام، ويكون الإيوان عادة مربع الشكل وعقدته بيضوية وواجهته على شكل قوس مذبب، وقد يكثر عدد الإيوانات في المنزل الواحد.[٢١]

**(١/٣) ٤- الأروقة:**

تكون الأروقة والغرف في الطابق الأرضي وقد تحيط بالصحن من الجوانب الأربعة، وقد ظهرت هذه الأروقة في بيوت العباسيين وقصورهم في سامراء. وللأروقة دور هام في حماية سكان المنزل من حرارة الشمس، والأمطار في فصل الشتاء.

**(١/٣) ٥- السرداب (القبو):**

يقام السرداب عادة تحت مستوى أرضية الدار أي بمستوى منخفض عنه، وقد ابتكره المعماري المسلم للتغلب على مواجهة الحر الشديد في فصل الصيف، كما استعملته العائلات كثيرًا لحفظ المأكولات من التلف في فصلي الشتاء والصيف ويسمى في تلمسان ببيت العولة أو المخزون.

**(١/٣) ٦- الرواشن والأجنحة:**

يطلق مصطلح الروشن وهو فارسي بما معناه الضوء ويعرف بالشرفة أو البالكون وهو مصطلح فرنسي (Balcon)، ويعرف عند البغداديين والبصريين باسم الشناشيل.[٢٢]

**(١/٣) ٧- الأعمدة:**

تستخدم الأعمدة كعناصر حاملة للسقف في القاعات والغرف الواسعة، وتعلوها التيجان.

**(١/٣) ٨- التيجان:**

اقتبس المعماري المسلم، عن التيجان المصرية واليونانية والرومانية، ثم طوّر في صناعتها "إن التيجان التي ظهرت في العصر الإسلامي لم تكن نسخة طبق الأصل من مثيلاتها في العصور القديمة بل طوّرت حتى أصبحت فنًا جديدًا.[٢٣] كما توجد عناصر معمارية أخرى كالنوافذ والفتحات والأبواب.

## رابعًا: خصائص المسكن التقليدي في مدينة تلمسان

قبل الحديث عن خصائص المسكن التقليدي بمدينة تلمسان لا بدَّ من الإشارة إلى ميّزة مهمّة ألا وهي تموقع هذه المنازل في مدينة تلمسان، وهي تقع في المدينة القديمة وأحياءها الضيقة وأزقتها العتيقة، كدرب "حلاوة" ودرب "ملالة" ودرب "مسوفة"، درب "سلسلة"،... وغيرهم كثير. ويعتبر تخطيط الدروب والأزقة في مدينة تلمسان على غرار تخطيط مدينة فاس بالمغرب.

**١/٤- موقع المساكن:**

تقع المساكن التقليدية في تلمسان بالدروب الضيقة بعيدةً عن ضوضاء المدينة، ولعل اختيار هذه الدروب التي كثيرًا ما تكون مغلقة لا تمرر إلى درب آخر، يرجع للحفاظ على الحرمة والخصوصية للعائلات ويغلب على هذه الدروب الضيق إذ لا تستطيع الدواب في الكثير من الأحيان الولوج إلى الدرب، كما لا تحتوي هذه المساكن على نوافذ مطلّة على الخارج.

**٢/٤- المداخل:**

تتميّز المداخل في هذه المنازل بميزتين غالبتين: الأولى: هو المدخل المنكسر، وهو نموذج شبه عام بهذه المنازل. الثانية: هو انخفاض المداخل إذ قد يضطر الداخل إليها إلى الانحناء من أجل الدخول.

**٣/٤- الصحن (وسط الدار):**

يوجد الصحن أو وسط الدار في أغلبية مساكن مدينة تلمسان، وقد يظهر غنيًا من حيث نوعية الزليج أو البلاطات الخزفية، وعادة ما تتوسطه شجرة في الوسط، وقد تمثل المركز نافورة ماء وقد تبقى هذه الأخيرة حكرًا على الطبقة الثرية للمدينة. وقد يظهر مستديرًا أو مستطيلاً، وكبيرًا أو صغيرًا ولكن دوره يبقى نفسه، وقد سبق الحديث عنه آنفًا.

**٤/٤- الأروقة:**

وقد سبق الحديث عنها، وهي موجودة في كل المنازل العتيقة والتقليدية في تلمسان.

**٥/٤- الغرف (أو المساكن):**

إذ نُسمي الغرف في تلمسان بـ "المسكن" وتتميز هذه الأخيرة بنوعها المستطيل إذ عادة ما تكون ضيقة وطويلة وتحتوي المساكن أو الغرف على نوافذ تطل على الصحن، وكان أجدادنا في الماضي يستعملون سريرًا مرتفعًا للنوم ويُسمَّى بـ "السرير" وهو يستعمل للنوم ليلاً ولحفظ فراش الغرفة نهارًا وتتميز أسقف هذه الغرف بعلوها الكبير، فهي عادة ما تكون شديدة البرودة شتاءً ولطيفة في الصيف، وتغطى بما يعرف عندنا بالخشبة وعادة ما يكون السقف هرمي ينتهي بمستطيل في القمّة ومغطّى بالجبس.

**٦/٤- مرافق المساكن:**

لا تكاد تخلو دار قديمة في تلمسان من الصهريج، وهو عبارة عن مستطيل أو مربع يوضع في المطبخ أو الصحن لحفظ الماء وغسل الملابس والفواكه وتبريدها في فصل الصيف، ويصنع عادةً من الزليج الأبيض أو الأزرق الشفاف، أو قد نجد البئر، وتحتوي الكثير من المنازل في تلمسان على الآبار نظرًا لغنى المدينة بالماء في الماضي، إلا أن الكثير من هذه الأخيرة قد جفت أو طمست لما مسّ المدينة من جفاف في السنوات الأخيرة.

**٧/٤- المخازن أو بيوت الذخيرة:**

لا يكاد يخلو منزل أو مسكن تقليدي في تلمسان من المخزن أو بيت العولة أين كانت تحفظ جرار الزيتون والزيت والحبوب ومئونة فصل الشتاء والصيف، وتمتاز هذه المخازن بدفئها في فصل الشتاء وبرودتها في فصل الصيف. لعل من المميزات الهامة لهذه المنازل هو غياب الزخارف فيها وبساطة العناصر المعمارية، وقد يرجع ذلك إلى: لم يكن لسكان مدينة تلمسان في العصر الوسيط منازل فاخرة فقد كانت كلها متشابهة ولم يريدوا الإسراف في الزخرفة فقد كانوا بسطاء يعشقون مساكنًا للراحة لا للتباهي. كما كان هؤلاء ينتهجون هذه البساطة حتى لا يحسّ الفقير منهم بالفارق الاجتماعي، وإن ظهرت بعض المنازل بزليج جميل أو نافورة من الرخام إلا أنهم كانوا لا يستعملون إلا مواد بسيطة للبناء كالحجارة والطين.

لقد كان المسكن ولا يزال وحدة اجتماعية ونفسية قبل أن يكون وحدة معمارية، وقد واكب هذا العنصر المعماري الهام حضارات مختلفة، وإن اختلفت طرزه ومرافقه العامة، إلا أنه يبقى شاهدًا على عظمة أجدادنا، والمسكن التقليدي في تلمسان في العصر الوسيط كان له أهمية كبرى، وتموقعه ضمن الدروب الضيقة، كان بغرض الحفاظ على حرمة الحريم وعلى حركة تنقلهم براحة وطمأنينة.

## خامسًا: دراسة لعينات من المنازل في تلمسان

**١/٥- منزل سيدي الحباك** (انظر: المخطط رقم ١)

يتموقع هذا المنزل في درب السنسلة بالتحديد في قاع الدرب بالمكان المسمى راس السبا (انظر: اللوحة رقم١). يقع المنزل بدرب السنسلة بالقرب من ضريح سيدي الحباك يحده من الجهة الشمالية والغربية زقاق ومن الجهة الجنوبية منزل رقم خمسة وعشرون، أما من الجهة الشرقية فمنازل سكنية.

**التخطيط:** نلج إلى المنزل من خلال زقاق ضيق وهو يتكون من:

**الطابق الأرضي:** حيث نجد مدخله الأصلي مقابل باب الضريح لكنه قد سُدَّ، وفتح باب آخر من نفس الواجهة ويتألف من باب خشبي ذي مصراعين في أقصى الجهة الغربية. فتح على ممر منكسر مقبب كما هو الحال منكسر مقبب كما هو الحال عليه في المنازل الإسلامية، يقودنا إلى صحن مكشوف مربع الشكل، يُحيط رواق من الجهات الأربعة بسقف مقبب تتخلله دعامات تحمل عقود، منها النصف الدائرية والمتجاوزة وقد فتحت بالرواق أبواب ذات مصراعين بعلوي كبير يتم الولوج من خلالها إلى ثلاثة غرف ومخزن، كما نجد في أقصى الزاوية الشرقية بئر تحاذيه سلالم تؤدي إلى:

**الطابق العلوي:** يتألف من ثلاثة غرف مستطيلة الشكل تنفتح على رواق يطل على الصحن بواسطة درابزين من الحديد، إلى جانب وجود فضاء مكشوف (السطح) في الناحية الجنوبية الغربية.

**مواد البناء:** الآجر المتلئ بالجدران، الخشب في السقف والأبواب والنوافذ والحديد في الدرابيز.

**الصيانة والترميم:** من خلال المعاينة الميدانية يتبين لنا أن المنزل قد عرف تغيرات من قبل مالكيه (عائلة بارودي) وهذا ما يؤكده المدخل المستحدث والسقف اليوم، كما أنه يعاني من تأثير عوادي الزمن إذ أن الطابق العلوي آيل للسقوط.

**٢/٥- منزل محمد ديب:**

**العنوان:** شارع معركة فلاوسن، يحاذي مسجد أولاد الإمام.

**التسمية:** دار السبيطار نسبة للرواية الكبيرة لمحمد ديب (الدار الكبيرة).

يقع المنزل بحي أولاد الإمام، يحده من الجهة الشمالية الغربية مسجد أولاد الإمام ومن الجهة الشمالية الشرقية زقاق ومن الجهة الجنوبية محلات تجارية. يتكون المنزل من طابق أرضي وطابق علوي (انظر: اللوحتين رقم ٢).

لمنزل محمد ديب مدخل مستطيل الشكل، تعلوه ظلة مزينة بالقرميد الأخضر ليتضمن باب خشبي يفتح على ممر مستطيل منكسر يمينًا، يوصل إلى الصحن المكشوف المربع الشكل الذي يحيط به من الجهات الأربعة رواق ذي سقف مقبى مستند على أعمدة تحف بالصحن أين يفتح بالرواق من جهاته الثلاثة، أبواب بمصراعين على غرف مستطيلة الشكل. كما يخلو الطابق الأرضي من عنصر أساسي في معظم المنازل التقليدية في تلمسان ألا وهو البئر.

نصعد إلى الطابق العلوي من خلال الرواق الشرقي بواسطة سلالم. يحتوي الطابق العلوي على دربوز محدود بالسياج المعدني الذي يطل منه على الطابق الأرضي وهو يتضمن ثلاثة غرف مستطيلة كما هو في الطابق الأرضي.

**مواد البناء:** الآجر، الخشب، الحجارة، المعدن والزجاج.

شهد المنزل مجموعة من الترميمات، كانت آخرها سنة 2011 خلال فعاليات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، وقد طغت الترميمات على المنزل وطمست البصمة الأصلية للمنزل، بفعل الإسمنت المسلّح على الجدران التي تصدّعت إلى درجة كبيرة.

**٣/٥- منزل الآغا عبد الحميد بالرحيبة:**

يقع هذا المنزل بالتجمع السكاني الكائن بالرحيبة أو درب سيدي الوزان. والرحيبة تصغير للرحبة وتعني تجمع الخيل أو الجياد نسبة إلى الحي المجاور له باب الجياد، ويقابل الدار في الجهة الشمالية الشرقية مسجد "سيدي الوزان" الذي شيّد في القرن الثامن الهجري".[٢٤] تعلو باب المنزل أسكوفة أفقية، الباب الخشبي، أما المدخل فمنكسر، فناء المسكن مستطيل الشكل،/ تحيط به خمس غرف متباينة في مساحتها. في الزاوية الشمالية الشرقية للفناء توجد حنفية وأسفلها صهريج صغير مزين ببلاطات من الخزف (انظر: اللوحة رقم ٣).

نصعد السلم المؤدي إلى السطح (أنظر اللوحة٤) ويعلو مدخل هذا السلم عقد صغير حدودي (أنظر اللوحة٥)، يوجد في الجهة الشرقية للسطح غرفة مستطيلة الشكل وأغلب الظن أنها كانت تستعمل للأشغال اليومية، أو لتخزين بعض المأكولات. حاولنا أن نتعرف على مختلف العينات الموزعة بين أزقة تلمسان القديمة، والمهم أن معظم هذه المنازل يعاني من التصدع والإهمال، كما أن الترميمات التي أجريت عليها إما المختصة أو غير المتخصصة، قد محت البصمة الأصيلة للمنزل وجعلت منها نسخة سيئة عن المنازل الحديثة. منزل لاغا، لا يزال في حالة حسنة لأن ساكنيه لا يزالون حريصين على نظافته وجماله. واقع المنازل التقليدية في تلمسان مثير للجدل لأن الكثير منها متصدع وتكاد المساكن التقليدية تستغيث من الواقع المزري التي تعاني منه.

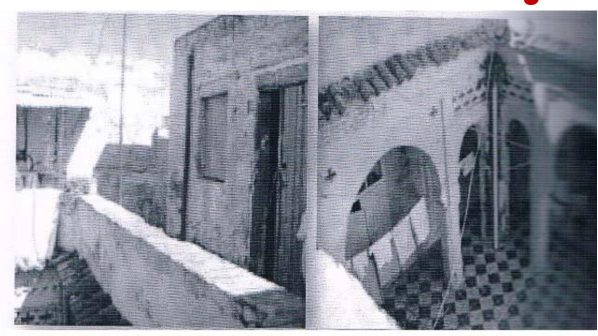
## خاتمة

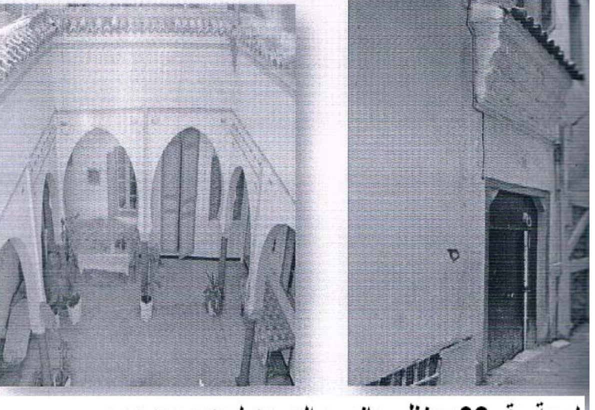
بعد التعرض لتاريخ المنزل في الحضارة الإسلامية بإسهاب والمعاينة الميدانية لهذه المنشآت في تلمسان نستطيع أن نجزم بمدى اهتراء حالة هذه المنازل ومدى تصدعها بعوامل كثيرة وعلى رأسها الرطوبة المفرطة والتي أسهمت في تشقق الجدران وحتى سقوط أجزاء منها، وكذا عدم اهتمام السكان بمنازلهم وهجرانها لسبب أو لآخر فقد كان أرباب الأسر حريصين عليها، ولكن بعد وفاتهم فضل الكثير من أبنائهم السكن في شقق عصرية مهملين إرث الآباء والأجداد، أو بيعها بثمن بخس للتخلص منها، كما تعاني هذه المنازل

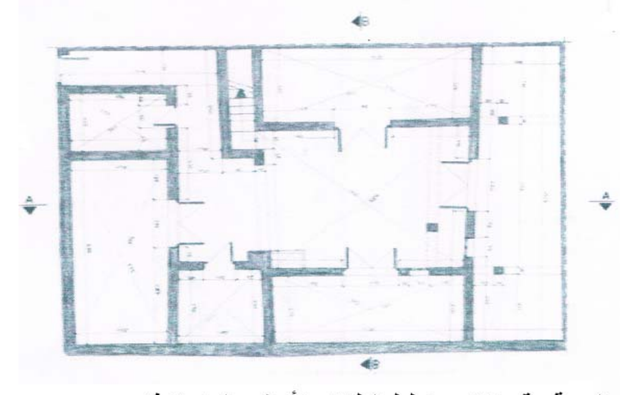
من سوء الترميمات التي مسحت بصمتها التاريخية الأصيلة وجعلت منها منشآت لا هوية لها ولا ماض.

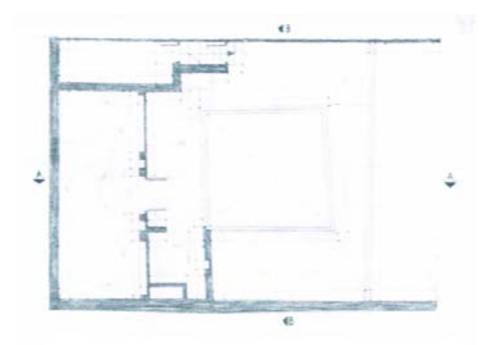
تعتبر المنازل الزيانية المتواجدة في أحياء مدينة تلمسان وأزقتها القديمة من النماذج الفريدة من نوعها، فبعد هذه الفترة لم نجد نماذج بمثل هذه الجودة في البناء و تى الفترة العثمانية لم تبرز منازل بالجودة التي سبقتها بها مثيلاتها الزيانية، ومع ذلك أصبحت هذه المعالم على غرار المساجد ومساجد الأحياء والأضرحة تتهاوى إما من التجاهل لقيمتها، أو للترميمات الخاطئة والتي تحرمها من البصمة الأصلية وتجعلها نسخة سيئة من معلم عتيق. وختام القول؛ أننا نناشد الهيئات المعنية بالوقوف على هذا الإرث الحضاري حتى لا يمحى من الذاكرة وحتى يبقى واقفًا وشاهدًا على عظمة أجدادنا وحسن تذوقهم للفنون.

**الملاحق:**


لوحة رقم 01: الطابق الأرضي والعلوي لدار المقري


لوحة رقم 02: منظر جانبي والصحن لبيت محمد ديب


لوحة رقم 03: مخطط الطابق الأرضي لدار لاغا


لوحة رقم 04: مخطط السطح لدار لاغا


لوحة رقم 05: المدخل الرئيسي لدار لاغا

لوحة رقم 06: صحن دار لاغا


لوحة رقم 07: صهريج الماء بدار لاغا


لوحة رقم 08: منظر لسطح دار لاغا

## الهَوامِشُ:

(١) ابن الزيات الشاذلي: **التشوق في رجال التصوف**، ص: 405 – 406. قدور أحمد: **المدن الموحدية وعلاقتها بالإقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية)**، د.د.ع في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988، ج2، ص435 436.

(٢) عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، ج1، الجزائر، 2002، ص 119.

(٣) عبد العزيز فيلالي: نفسه، ص 120.

(٤) ابن مريم: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء من تلمسان**، ص 269-270.

(٥) ابن مريم: نفسه، ص 270.

(٦) الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، 1972، بيروت، ص242.

(٧) ابن منظور الإفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ج7، ص 220.

(٨) **سورة الأعراف**، الآية: 189.

(٩) إبراهيم يوسف، **إشكالية العمران والمشروع الإسلامي**، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1992، ص 160.

(١٠) إسماعيل عبد الرحمن النور، **مجتمعات الاشتراكية الطبيعية**، أوربوتال للنشر والطباعة والتوزيع، مدريد، ط١، 1983، ص 150.

(١١) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج6، مطبوعات لبنان، 1971، ص 450 – 451.

(١٢) محمد رياض، **دراسة في النوع والحضارة**، مرجع سابق، ص 331.

(١٣) **سورة النحل**، الآية: ٨٠.

(١٤) أندريه إيمار، جانين أو بوابه، **تاريخ الحضارات العام (الشرق واليونان القديمة)**، ترجمة: فريدم وآخرون، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ص 113.

(١٥) محمد محفل، **تاريخ العمارة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص 141.

(١٦) **سورة الأعراف**، الآية 73.

(١٧) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ص 396.

(١٨) عبد الرحمن بن خلدون، ص 397.

(١٩) محمد حسين جودي، **العمارة العربية الإسلامية**، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، سنة 1998، ص 66.

(20) Mohamed Dib, Tlemcen ou les lieux d'écritures, Edition Revue .... Paris..., 1994, p 47.

(٢١) محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 68.

(٢٢) محمد حسين جودي، المرجع السابق، ص 68.

(23) Yves Korbendau, L'architecteur sacrée de l'Islam, ACR édition internationale courbevoire (Paris), 1997, p. 78.

(٢٤) بريشي درويش: **تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، فنون شعبية، تلمسان، 2011 – 2012م، ص69.

# سلاطين بني مرين في مدينة تلمسان
## تشييد العمائر واستقطاب العلماءِ .. أية علاقة؟

**مريم سكاكو**

محافظ التراث

المتحف العمومي الوطني للفن والتاريخ

مدينة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**

لقد احتلت مدينة تلمسان مركزًا متميزًا في المغرب الأوسط منذ العهد الموحدي وكانت ممثلة لبقية مدنه إلى حد كبير، وبتحولها إلى حاضرة ملك بني عبد الواد فإنها لم تكن بمعزل عن منافسة جارتيها الحفصية والمرينية لاستقطاب ما أمكنها من العلماء، فحرص سلاطين الدول المغربية على أن تضم بلاطاتهم أكبر عدد من العلماء والفقهاء والشعراء، وبذلوا لذلك جهودًا عظيمة وأظهروا بالغ الاهتمام لدرجة خلق جو من المنافسة من أجل استقطاب أولئك العلماء. فتوطيد أركان الدولة يعتمد على ركيزة دينية وفكرية وعلمية يمثلها الفقهاء والطلبة وأهل العلم بصفة عامة، وبالتالي فإن منشآت عمرانية بتلك الضخامة والأبّهة كالتي خلّدها بنو مرين في تلمسان تدخل في هذا الإطار؛ وبالتالي يجب التأكيد على أن استيلاء بني مرين على تلمسان خاصةً أيام السلطانين أبي الحسن وأبي عنان لم يكن ليوقف ركب التقدم الفكري، فقد استمر النشاط الديني والتعليمي حافلاً مثلما كان في عهد بني عبد الواد، ويظهر من خلال المصادر أن الأطر العلمية من أساتذة ومدرسين وعلماء كانت متبادلة بين المؤسسات التعليمية والدينية، وتؤكد أيضًا ظاهرة تنقل العلماء بين مختلف الحواضر المغربية بما فيها حواضر المغربين الأوسط والأقصى، للمشاركة في المحاضرات والمناقشات العلمية أو استكمال الدراسة بالمعاهد المغربية، فضلاً عن احتضان المجالس العلمية لسلاطين بني مرين لعدد من أولئك العلماء التلمسانيين الذين كان لهم الدور الفعال في مجالات مختلفة لاسيما بعد أن أوكلت إليهم وظائف في البلاط أو مهام خارج حدود الدولة مع كل ما تتطلبه من الكفاءة والثقة تشهد على مكانتهم الأقوال المتواترة في مختلف المصادر من قبل التلاميذ والشيوخ وحتى السلاطين أنفسهم.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٤ أكتوبر ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ يناير ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

المنشآت العمرانية، البلاط المريني، علماء تلمسان، المغرب الأوسط، العصر المريني

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

مريم سكاكو. "سلاطين بني مرين في مدينة تلمسان: تشييد العمائر واستقطاب العلماء.. أية علاقة؟".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٠٠ – ١٠٧.

## مُقَدِّمَةٌ

بلغت العلوم والآداب على عهد الدّولة الموحدية مبلغًا عظيمًا من التقدّم والازدهار، ومن مظاهر ذلك كثرة العلماء النابغين في مختلف المجالات، وقد تفاوت تواجدهم عبر حواضرها عددًا وتوزعًا جغرافيًا. وقد احتلت مدينة تلمسان مركزًا متميزًا في المغرب الأوسط منذ العهد الموحدي وكانت ممثلة لبقية مدنه إلى حد كبير، وبتحولها إلى حاضرة ملك بني عبد الواد فإنها لم تكن بمعزل عن منافسة جارتيها الحفصية والمرينية لاستقطاب ما أمكنها من العلماء، فالنزاع السياسي والصراع العسكري المحتدم وما نجم عنه من إهلاك للحرث والنسل واكتساح أدى في العديد من المرات إلى اختفاء رسم دول بأكملها، صاحبه تنافس من نوع آخر استهدف بدرجة أساس الظهور بمظهر القوة والعظمة من جهة، واستكمالاً لأبهة الملك من جهة ثانية.

فقد حرص سلاطين الدول المغربية على أن تضم بلاطاتهم أكبر عدد من العلماء والفقهاء والشعراء، وبذلوا لذلك جهودًا عظيمة وأظهروا بالغ الاهتمام لدرجة خلق جو من المنافسة من أجل

استقطاب أولئك العلماء، لكن المثير للانتباه هو مساعي بعض السلاطين لاجتذاب ما لدى منافسيه من علماء وأدباء، من ذلك جهود سلاطين بني مرين لاستمالة علماء وفقهاء تلمسان وضمهم إلى مجالسهم العلمية الرسمية – وقسرًا في بعض الأحيان، فالحديث عن نجاحهم في الوظائف والمهام التي قاموا بها بكل أمانة وإبداع في البلاطات التي خدموا بها هو حديث عن النخبة التي تم انتقاؤها بعناية من قبل الأمراء والسلاطين، ونظموها في مجالسهم العلمية الرسمية في إطار مساعيهم الحثيثة لحماية تراثهم الفكري ونقله للأجيال اللاحقة، وبعث الحركة العلمية في بلدانهم على أعلى المستويات لدرجة يمكن معها وصف تلك المساعي على أنها (صراع حضاري) ضمن تلك الصراعات التي رافقت ظهور دول جديدة على تراب المغرب الإسلامي عقب انهيار الدولة الموحدية، وهذه الظاهرة ميزت كل الدول المغربية التي ورثت الدولة الموحدية فقد سعت -كل حسب إمكاناتها- إلى الظهور في أعظم صور الأبهة والسلطان، فتميزت منها الدولة المرينية(١) التي لم تكتف بمَنْ أم بلاطها من علماء، وراحت تجتذب من لدى أقرب منافسيها وهي جارتها الدولة الزيانية، فبعد استقرار أوضاعها السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية في مدنها، اهتم حكامها بالعلم والعلماء وشجعوهم بالحظوة المعنوية والمكافآت المادية الجزيلة.(٢)

## أولاً: المنشآت العمرانية لبني مرين في تلمسان

لقد عكست العمارة الإسلامية صورًا ومظاهر معبّرة عن المنظومة القيمية للمجتمع الإسلامي، ورؤيته الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي حددها الإسلام، وشخّص معالمها الرسول الكريم(ﷺ) وحصر شروطها وأركانها الفقهاء والمفكرون والفلاسفة كل حسب اجتهاده وفهمه لما ورد في القرآن والسنّة من أوامر ونواهي ساعدتهم على رسم صورة لمختلف جوانب الحياة في المجتمع الإسلامي،(٣) فجاءت المدن الإسلامية مستجيبة لتطلعات المسلم الدينية والاجتماعية والاقتصادية.(٤)

ولما كان توطيد أركان الدولة لا يأتي بالقوة العسكرية فحسب، بل لا بد من الاعتماد على ركيزة دينية وفكرية وعلمية يمثلها الفقهاء والطلبة وأهل العلم بصفة عامة(٥)، وبالتالي فإن منشآت عمرانية بتلك الضخامة والأبهة كالتي خلّدها بنو مرين في تلمسان تدخل في هذا الإطار، فحتى لو سلمنا بأنها أنشئت من قبيل الاهتمام بالتبرك بالصلحاء(٦) أو تخليد ذكرى عالم معين(٧)، أو حتى اعتبارها من مقتضيات النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب الإسلامي خلال تلك الفترة(٨)، فإن الأمر لم يخل من مطامح سياسية بالتأثير على مختلف الشرائح الاجتماعية والظهور أمامهم بمظهر رعاة الدين والعلم وخدمة مصالح الجماعة(٩)، ونزع نظرة الغزاة الطامعين من نفوسهم(١٠)، بل لما اتخذ سلاطين بني مرين العلم من مظاهر دولتهم كان في تشييد تلك العمائر وتنشيط حركة البناء باعتبارها مظهرا لحياتهم الراقية(١١) من جهة، وبحثًا عن الشرعية التي كانت تنقصهم من جهة ثانية(١٢)؛ لكن أعظم أولئك السلاطين في هذا الجانب هو أبو الحسن المريني، وأهم ما ساعده في ذلك الرخاء الاقتصادي(١٣)، وكان بناءه لمثل تلك المنشآت دلالة على إلحاق تلمسان بممتلكاته في المغرب الأقصى، وتعبيرًا منه على أهميتها وتقديره لها، ومحاولة التأثير على سكّانها استرضاءً لهم للانضمام إليه والقبول بمشاريعه.(١٤)

وتتمثل أهم المنشآت العمرانية المرينية في تلمسان فيما يلي:

**١/١- المساجد:**

قام المسجد بمختلف أشكاله وأحجامه بدور كبير كأداة تعليم وتربية ونشر للثقافة، وهي أداة لا تتجه لطبقة خاصة من المجتمع بل إنها مؤسسة شعبية تتصل بعامة الناس على الدوام، وتبلغ التعاليم نفسها في كل مكان مما يؤدي إلى بروز إطار فكري واحد(١٥) وقد وجد سلاطين بني مرين في بناء المساجد في تلمسان رافدًا للتعامل مع أشمل فئة من سكان المدينة وتلك المساجد هي:

١- **مسجد المنصورة:** بُني هذا المسجد في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني في أثناء حصاره لمدينة تلمسان سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، فبعد أن اختط بمكان فسطاط معسكره قصرًا لسكناه، اتخذ به مسجدًا للصلاة ثم أمر الناس بالبناء وأدار سياجًا من الأسوار عليها، فكان المسجد الذي شيده سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، من أعظم المساجد لما خصه به من اهتمام خاصة مئذنته(١٦) التي لا تزال ماثلة للعيان؛ بل واعتبر بناء مدينة المنصورة انتصارًا حضاريًا حقّقه أبو يعقوب إلى جانب انتصاراته العسكري.(١٧)

٢- **مسجد سيدي أبي مدين:** شُيد بأمر من السلطان أبي الحسن علي سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، في قرية العباد بجانب صريح الولي الصالح أبي مدين شعيب، وأوكل الإشراف على بنائه لعم صاحب المسند ابن مرزوق الخطيب (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق).(١٨)

٣- **مسجد سيدي الحلوي:** شُيد هو الآخر تخليدًا لذكرى العالم الصوفي الشهير أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي (ت. ٧٣٧هـ/١٣٣٧م) بأمر من السلطان المريني أبي عنان فارس، وهو يشبه إلى حد كبير مسجد سيدي بومدين.(١٩)

**٢/١- المدارس:**

لم يقتصر اهتمام بني مرين على بناء المدارس في عاصمتهم فاس فقط، وإنما شمل سائر البلاد التي حكموها بما فيها بلاد المغرب الأوسط اشتهر منها في تلمسان:

١- **مدرسة سيدي أبي مدين:** أنشأها السلطان أبو الحسن علي سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٧م)، في قرية العباد وغلب عليها اسم العباد، أطلق عليها أيضًا اسم المدرسة الخلدونية في فترات لاحقة ولعل هذا راجع إلى كون عبد الرحمن بن خلدون قد تعلم بها.(٢٠)

٢ - **مدرسة سيدي الحلوي:** تعتبر ثاني مدرسة مرينية في تلمسان، بناها السلطان أبو عنان فارس سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، بجوار ضريح المتصوف أبي عبد الله الشوذي المعروف بسيدي الحلوي سيرًا على نهج والده ومشاريعه العمرانية دعمًا للحياة الفكرية وإحياءً لتقاليد

المذهب المالكي وفروعه.[٢١] وبهذا يكون بنو مرين قد خلّدوا محبّتهم للعلم وأهله بهذه الآثار، وفي هذا قيل:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها    من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء غدا تعاظم شأنه    أضحى يدل على عظيم الشأن[٢٢]

## ثانيًا: أدوار علماء تلمسان في البلاط المريني

ولعل الاهتمام الذي حظيت به فئة العلماء راجع إلى الأدوار الكبيرة التي قاموا بها عبر المسيرة التاريخية لبلاد المغرب، والتي تركّزت في مرحلة الفتح في نشر الإسلام وتثبيته وتعميقه في نفوس أهل المغرب الإسلامي ونشر اللغة العربية في هذه الربوع[٢٣]، ثم تعاظمت تلك الأدوار في الحقب التالية للفتح واستقرار الإسلام وبرزت بشكل خاص في العصر الوسيط الذي تميز بحواضره التي تغذّت بالثقافة الإسلامية منذ عصر الفتوح، وأصبحت مراكز إشعاع ثقافي استقطبت العديد من رجال العلم والصلاح[٢٤] من بينها (تلمسان) التي اتخذها بنو عبد الواد قاعدة لملكهم وحرصوا على استقدام أكبر عدد من العلماء إليها، فكان هذا الأمر مدعاة للتنافس مع جارتيها الحفصية والمرينية.

وفي هذا الإطار يجب التأكيد على أن استيلاء بني مرين على تلمسان خاصةً أيام السلطانين أبي الحسن وأبي عنان لم يكن ليوقف ركب التقدم الفكري، فقد استمر النشاط الديني والتعليمي حافلاً مثلما كان في عهد بني عبد الواد[٢٥]، ويظهر من خلال المصادر أن الأطر العلمية من أساتذة ومدرسين وعلماء كانت متبادلة بين المؤسسات التعليمية والدينية، وتؤكد أيضًا ظاهرة تنقل العلماء بين مختلف الحواضر المغربية[٢٦] بما فيها حواضر المغربين الأوسط والأقصى، للمشاركة في المحاضرات والمناقشات العلمية أو استكمال الدراسة في المعاهد المغربية[٢٧]، فضلاً عن احتضان المجالس العلمية لسلاطين بني مرين لعدد من أولئك العلماء التلمسانيين الذين كان لهم الدور الفعال في مجالات مختلفة لاسيما بعد أن أوكلت إليهم وظائف في البلاط أو مهام خارج حدود الدولة مع كل ما تتطلبه من الكفاءة والثقة تشهد على مكانتهم الأقوال المتواترة في مختلف المصادر من قبل التلاميذ والشيوخ وحتى السلاطين أنفسهم، ومن بين المجالات التي تميز فيها علماء تلمسان:

**١/٢- الخطابة والفتوى:**

لقد كانت مقاييس اختيار الخطيب صعبة، لأن الجمهور يشترك في الحكم عليه، بخلاف المفتي والقاضي اللذين يتوليان وظيفة سياسية، دينية، ومن شروط الخطيب الفصاحة وجودة الصوت وسعة الإطلاع والجرأة الأدبية[٢٨]. في حين نجد أن إشادة وثناء بعض العلماء على السلاطين في خطبهم كان من أسباب توليتهم الخطابة وتقريبهم، وأوضح مثال نسوقه هو ابن مرزوق الخطيب الذي عينه السلطان أبو الحسن خطيبًا في جامع العباد.[٢٩] وصفه يحي بن خلدون بقوله: "...الخطيب المصقع ذو وجاهة عند السلطان...."[٣٠]

من جهة ثانية، كانت بلاغات الدولة الرسمية تُقرأ عند إقامة صلاة الجمعة، وكانت خطبة الجمعة تبدأ بالصلاة على النبي الكريم(ﷺ)، والتسليم على خلفائه الأقربين، والدعاء للسلطان القائم، فإذا كان ثمة نزاع على السلطة بين عدة متنافسين كان لخطبة الجمعة شأن سياسي كبير،[٣١] فالمسجد وإلى جانب الأدوار التي اضطلع بها منذ مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في سائر مصالح المجتمع ليشمل ذلك الدور في العصر الوسيط الجانب السياسي أو ما يمكن وصفه بالتوظيف السياسي للمسجد.

بينما تتمثل أعلى وظيفة يتولاها العالم في الفتوى، ذلك أنها تحتاج إلى درجة عالية من العلم والتعمق في مسائل الفقه ومعرفة قوية للقرآن وعلومه وعلوم الحديث والقياس ونحو ذلك، كما تتطلب قوة الشخصية والنزاهة والصلاح والشجاعة في الرأي والثبات على قول الحق، ونسجل في هذا الإطار العديد من المواقف لعلماء من تلمسان ثبتوا على آرائهم ولم يخافوا في الله لومة لائم بداية من ابني الإمام الذين عدا "... من جلّة العلماء وبقية من السلف العظماء، لم يكن في زمانهم أعظم منهم قدرًا ولا أعلى ذكرًا ولا أوقع نهيًا عند الملوك ولا أمرًا..."[٣٢] فكانا موضع استشارة السلطان أبي الحسن في جميع أمره، وحضرا معه أهم معاركه، بل وكانا مَنْ يشير عليه بعلماء آخرين ممَنْ ينظمهم في مجلسه.[٣٣] ونسوق كمثال على مدى امتثال السلطان أبي الحسن بما يشير عليه به ابن الإمام قضية ندبه الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد فقال له أبو زيد: "لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلي فيه ركعتين كما فعل الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه–".[٣٤]

**٢/٢- التعليم:**

لمّا كان التّعليم مقدمة لأية نهضة ثقافية، وحجر الزاوية في دفع الحركة العلمية والفكرية وتوسيع رقعتها وترقية المجتمع حضاريًا[٣٥]، وجد سلاطين بني مرين في إلحاق أبرز العلماء بمجالسهم فرصة للاضطلاع على ما استجد من مناهج التعليم وطرائقه باعتبار هذه الأخيرة تابعة للشيخ نفسه[٣٦]، وفي نفس الوقت فرصة لتجديدها هذا من جهة. ومن جهة ثانية؛ يلاحظ أن أولئك العلماء آثروا التدريس على غيره من الرّتب السلطانية في حال إكراههم على الخدمة باسم السلطة الحاكمة – كما سبقت الإشارة – واعتبروا مهمة التعليم والجلوس إلى طلبة العلم أجلّ رسالة يحيون في سبيل تبليغها، ومن هنا كان تأثيرهم في أوسع فئة من الناس من خلال المجالس التي أداروها في مختلف أماكن العلم بما فيها قصر السلطان وبحضرته، والمثال الذي سوف نسوقه يعكس عمق الأثر الذي تركه نشاط علماء تلمسان في هذا المجال – طبعًا دون إغفال أدوار علماء الأقطار الإسلامية الأخرى- لكن ما تجدر الإشارة إليه بدايةً: هو أن أوضاع التعليم اختلفت في أقطار المغرب والأندلس، فتراوحت بين محافظ على اتصال سنده بالمشرق عبر

شيوخ كبار، وبين منقطع السند، وقد أثّر هذا الأمر على مستوى التعليم وطريقته.(٣٧)

فبينما شهدت إفريقية نهضة علمية ابتداءً من منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بفضل أبي القاسم ابن زيتون الذي رجع من رحلته إلى المشرق بعلم كثير وتعليم حسن، ثم بعده أبو عبد الله بن شعيب الدكالي، فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمها في تلاميذهما جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي ابن عبد السلام وانتقل من تونس إلى تلمسان بفضل ابني الإمام ثم أبي علي ناصر الدين المشدالي ورغم قلقهم التي يخشى معها انقطاع سندهم، إلا أنه بقي متصلاً بفضل تلاميذهم أيضًا.(٣٨)

وهذا على عكس فاس التي أصبحت خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض قرطبة والقيروان(٣٩)، بعد أن نمت علميًا بما أشع عليها من هاتين الحاضرتين ونفقت علومها حتى عهد الدولة الموحدية حسب شاهد من أهلها: "ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة... فلما اضطرب أمر القيروان و... قرطبة رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة...فنزل أكثرهم مدينة فاس...(٤٠)"، فانقطع سند التعليم عنهم ما أدّى إلى قصور التعليم عندهم وغياب ملكة التصرف فيه إذا علّموا أو ناظروا(٤١) فيلازمون المدارس ستة عشرة سنة دون الحصول على المبتغى وبعد أن لازموا المجالس العلمية سكوتًا لا ينطقون وعنايتهم بالحفظ فقط(٤٢) فجاءت دعوة سلاطين بني مرين إلى المناظرة العلمية، فأبو الحسن المريني لمّا جلب معه من فاس وتلمسان أشهر الفقهاء والكتّاب، كان يهدف إلى إثارة الحوار والمناقشة بين علماء تونس الذين يغلب عليهم الدراية والتحصيل، وعلماء فاس الذين يغلب عليهم الحفظ، وذلك أثناء جلسات الدراسات والمناقشات العلمية التي كان يلذّ له تنظيمها والإشراف عليها(٤٣) وهذا ما وجّه إليه السلطان أبو عنان عندما أحسّ بذلك القصور في طريقة التعليم(٤٤) وحاول أن يفهم القائمين على التدريس بأهمية موقعهم وضرورة أن يكونوا على اضطلاع بما استجد من علوم وطرائق البحث فيها، وهذا الأمر يدخل ضمن مجهوداتهم كسلاطين للنهوض بالحركة العلمية والاستفادة من علماء الحواضر الأخرى وهذا يظهر من خلال قوله للفقيه الصرصري: "أنا أمرتك بذلك كي تعلم ما عندك من العلم وما عند الناس وتعلم أن دار المغرب هي كعبة كل قاصد فلا يجب تتّكل على حفظك وتقتصر على ما حصل عندك ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدّي عن ملاقاة من يرد من العلماء والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك في رتبتك...(٤٥)

إن هذه القصة تدفعنا إلى التساؤل عن سبب عدم قيام علماء فاس بالاحتكاك بالعلماء الوافدين خاصةً علماء تلمسان بحكم الرّحَلات العلمية المتبادلة وحتى في الفترات التي خضعت فيها تلمسان للحكم المريني، وفي كل مرة كان يتم إلحاق علماء من تلمسان بالمجالس العلمية لسلاطين بني مرين مع ما تتيحه هذه الفرصة من تقارب وتبادل بين أولئك العلماء. فهل عزلة العلماء القائمين على التدريس في المغرب الأقصى هي السبب وراء ضعف دروسهم إلى جانب تأصل طريقة الحفظ والاستظهار،(٤٦) وهل رأوا أن أخذهم عن علماء وافدين انتقاص لهم مع ما نالوه من مكانة لدى سلاطينهم، وهذا ما يستشف من قول السلطان أبي عنان: "ولا يقدح ذلك في رتبتك عندنا إن شاء الله". وعلى العموم، فبادرة السلطان هذه دعوة للبحث عن أساليب جديدة في ميدان التعليم خاصة المحاورة والمناظرة وهو أسلوب تميزّ به علماء تلمسان وليس أدلّ على هذا الأمر من اختصاص أبي عنان مدرسته المتوكلية أعظم المدارس بالإمام أبي عبد الله المقري وبنائها له عند انتقاله إلى فاس.(٤٧)

**٣/٢- التأليف:**

كان الواقع في كل عصر وكل دولة تأليف الكتب للخلفاء والأمراء، فما من أمير ولا ملك محب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله وألّفوا له الكتب فيما يحبّ من فروع العلم(٤٨) وهو ما كان بين سلاطين بني مرين وعلماء تلمسان الذين نظموهم في مجالسهم العلمية، فبينما وجد فيهم أولئك السلاطين مرجعًا للنصح والمشورة لقي هؤلاء العلماء الدعم والرعاية لأعمالهم الفكرية والعلمية والثقافية مما سمح لهم بالإبداع وإنجاز أعمال حضارية رائدة في مختلف التخصصات،(٤٩) كما أجزل سلاطين بني مرين الهبات والعطايا للعلماء على مؤلّفاتهم واختراعاتهم تشجيعًا لهم على مواصلة العمل(٥٠) وعلى العموم، فإن علماء تلمسان وبصفة أخص أولئك الذين ألحقوا بالمجالس العلمية لسلاطين بني مرين كانوا مقلين في التأليف، فرغم وصولهم إلى مراتب راقية في العلم، والاجتهاد إلا أنهم لم يتركوا لنا ثمرات تلك الجهود الفذة في شكل مؤلفات.(٥١)

وإذا ناقشنا أسباب هذه الظاهرة فلعل أول ما يلفت الانتباه مواقف بعض العلماء من قضية التأليف ذاتها فهذا أبو عبد الله الآبلي يقول: "إنما أفسد العلم كثرة التأليف(٥٢)" وما من شك أن موقف عالم بحجم الآبلي ترك أثره في تلامذته من بعده وذلك بالاهتمام بأخذ العلم من أفواه المشايخ، وعدم الجنوح نحو الكتابة وتدوين الأفكار نسبيًا(٥٣)، ولعله كان يرى أن هذا الأمر يؤدي إلى أن يصير (العلم والخطط بالتوارث)(٥٤) هذا دون إغفال دور الجانب السياسي والأمني وأثره في تدوين الكتب مع ما يحتاجه هذا الأمر من الاستقرار وهو ما لم يتوفر لعلماء المغرب الإسلامي(٥٥) والأكيد أنه لم يخف عن أولئك العلماء أنهم علماء بلاط، وعالم البلاط يضطر –في كثير من الأحيان– إلى التنازل عن بعض المبادئ وعندئذ تنقص الدقة والصدق لإنتاجه، وهو الاتجاه الذي سلكته التواريخ السلطانية وهو ما أدى إلى جعل قسم هام من نتاج المؤرخين في خدمة الحكام على حساب الموضوعية والصدق(٥٦)، وما وجد من تأليف كانت نزولاً عند طلب السلطان بنفسه، أو ألفها ذلك العالم

تقربًا من ذلك السلطان، أو حتى مساهمة منه في الحركة العلمية ومنها على سبيل المثال:

- **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**: للإمام أبي عبد الله محمد الشريف الحسني التلمساني والذي ألفه في أصول الفقه[٥٧] وأهداه للسلطان المريني أبي عنان فارس، وهو ما يظهر من مقدمة الكتاب المسجوعة[٥٨]: "... مولى الأنام، الخليفة الإمام، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبو عنان أبقاه الله تعالى...[٥٩] ".
- **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** لابن مرزوق الخطيب أنهى تأليفه سنة (٧٧٢هـ/١٣٧١م)، أطنب في مدح السلطان أبي الحسن وأشاد بالمكانة التي خص بها في عهده، فجمع فيه بين التأريخ للبلاط المريني والترجمة الشخصية[٦٠]، فأبواب الكتاب الخمسة والخمسين تتحدث عن مآثر السلطان أبي الحسن المريني في شتى الميادين: الإدارية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعمرانية وهي بهذا تقدم مادة تاريخية خصبة عن البلاط المريني[٦١]، وهذا ما لم يتوفر في مصادر أخرى معاصرة أو لاحقة.

وفي ميدان الاختراع والإبداع لا أدلّ على تمكّن علماء تلمسان من الساعة المائية لابن الفحام والتي استحسنها السلطان أبو عنان وأكرمه عليها.

## ثالثًا: القضاء

يشهد تاريخ القضاء في الإسلام أن كثيرًا من العلماء كانوا يرفضون وظيفة القضاء، ويعتذرون عنها خوفًا من عدم القدرة على القيام بمتطلباتها وتقديرًا منهم لخطورتها[٦٢] كونها "من الوظائف الداخلة تحت الخلافة[٦٣]". فالقضاء "منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسمًا للتداعي وقطعًا للنزاع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة[٦٤]". ولقد نظّم سلاطين بني مرين البارزون هذه الوظيفة، فكان لهم مجالس يترأّسونها بأنفسهم للنّظر في القضايا المهمّة وسماع الشّكايات منها مجلس الفصل بالقصر الملكي بفاس[٦٥]، وعلى غراره أسس أبو الحسن المريني قبة العدل بكل من سبتة وتلمسان وهي عبارة عن مجلس للمظالم يترأسه بنفسه أو ينيب عنه شخصية يثق بها من الوزراء أو الفقهاء[٦٦] من جهة ثانية كان لأولئك القضاة رئيسًا أكبر يدعى قاضي القضاة[٦٧] كما كان للجيش قاض خاص يتنقل بتنقله، ويفصل في خصوماته.[٦٨]

وفي هذا الإطار نسجل العديد من الأسماء التلمسانية لعلماء مارسوا هذه الوظيفة برسم الخدمة في البلاط المريني نذكر منها على سبيل المثال: القاضي أبو عبد الله المقري الذي تولّى منصب قاضي الجماعة في فاس، وهو كبير القضاة والرئيس على القضاء[٦٩]، وله مكانة عظمى في التقدير والإجلال، والشخصية الكبرى في مجالات العلم والسياسة[٧٠] تظهر من خلال ما وصفته به المصادر، فهذا لسان الدين بن الخطيب يقول عنه: "فاستقل أعظم الاستقلال وأنفذ الحكم وألان الكلمة وآثر التسديد وحمل الكل وخفض الجناح فحسنت عنه القاله وأحبته الخاصة والعامة[٧١]"، ووصفه صاحب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتي بقوله: "كان هذا الفقيه رحمه الله في غزارة الحفظ وكثرة مادة العلم عبرة من العبر، وآية من آيات الله الكبيرة، فلما تقع مسألة إلا ويأتي بجميع ما للناس فيها من الأقوال ويرجح ويعلل ويستدرك ويكمل قاضيًا ماضيًا عدلاً جزلاً[٧٢]".

ومن العلماء البارزين في القضاء أبو عثمان سعيد العقباني (٨١١هـ / ١٤٠٨م) الذي ولي قضاء بجاية في عهد السلطان أبي عنان.[٧٣] أمّا منصب قاضي العسكر فمن أشهر علماء تلمسان الذين تولوه القاضي أبو عبد الله بن عبد النور.[٧٤]

## رابعًا: الدور السياسي لعلماء تلمسان

تميز الوضع السياسي لبلاد المغرب خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤- ١٥م) بحدة الصراع والمنافسة بين دولها، وهو ما دفع في الكثير من الأحيان إلى تدخل بعض العلماء للتخفيف من تأزم تلك الأوضاع[٧٥] لكن دور العلماء برز بصفة أوضح من خلال تلك السفارات التي تولوها والتي كانت لأغراض مختلفة.

فبعد أن انتهت سفارة أبي الحسن التنسي بين أبي سعيد عثمان الزياني وأبي يعقوب المريني باستخلاص هذا الأخير للفقيه التنسي وضمه لمجلسه[٧٦] نجده يتولى السفارة لصالح السلطان أبي الحسن المريني لكن سفارة من نوع آخر، فهي ليست من أجل الصلح وإنما قد تكون مهمة بعض السفارات المرينية حمل الهدايا الملكية إلى سلاطين مصر مع رسائل في شأن هدايا البقاع المقدسة وفي التوصية بالحجاج، وفي هذه الحالة كانت تذهب السفارات في رفقة واحدة مع ركاب الحجاج[٧٧]، ومن بينها سفارة سنة (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) بين يوسف بن يعقوب المريني والناصر محمد بن المنصور الصالحي في دولته الثانية (٦٩٨-٧٤١هـ/ ١٢٩٩-١٣٤١م) وممَنْ ذهب فيها أبو الحسن التنسي إذ كثيرًا ما يرافق بعض ركاب الحجيج رجالات العلم والصلاح.[٧٨] كما استعمل السلطان أبو الحسن المريني بعد انهزامه في معركة طريف ابن مرزوق الخطيب في سفارة إلى النصارى من أجل إبرام معاهدة الصلح وفداء ابنه الأمير أبي عمر تاشفين إلى جانب تفقد بعض الثغور وسد حاجاتها،[٧٩] وقد نجح ابن مرزوق في مهمته وأظهر مقدرته الدبلوماسية في تمثيل السلطان والدفاع عن مصالح الدولة.[٨٠]

ولمّا تمكّن أبو عنان المريني من انتزاع عرش أبيه عهد بكتابة عهد البيعة إلى الإمام أبي عبدالله المقري[٨١] في تلمسان وذلك للأسباب التالية:

- مكانته العلمية في تلمسان بعد تكوينه بها منذ نشأتهم خروجه لطلب العلم في الحواضر المختلفة.

- مصاحبة جل العلماء لوالده في حملته على افريقية، وكان أبو عبد الله المقري من العلماء القلائل الذين لم يتعاملوا مع والده.(٨٢)

وبعد هذا ضمه إلى مجلسه العلمي حيث تولى عدة مهام منها سفارته إلى الأندلس أين بقي سنتين، ولم يعد إلى فاس إلاّ بعد تدخّل جماعته من العلماء بطلب من السلطان نفسه(٨٣). كما استدعى أبو عنان ابن مرزوق الخطيب وضمه إلى مجلسه العلمي وكلّفه بالخروج في عدة سفارات باسمه منها:

- افتداء طرابلس من أيدي النصارى بملغ خمسين ألفًا من الذهب العين.(٨٤)
- بعثه إلى تونس ليخطب ابنة السلطان التي ردت الخطبة واختفت، ووشي إلى السلطان إن ابن مرزوق كان مضطلعًا على مكانها فسجن لذلك،(٨٥) لكن مكانة ابن مرزوق استمرت إلى عهد السلطان أبي سالم – كما سبقت الإشارة – ورأس عنده رئاسته كبرى.(٨٦)

وبهذا يعتبر ابن مرزوق الخطيب آخر علماء تلمسان الذين احتفظوا بولائهم لسلاطين بني مرين، في عهد السلطان أبي سالم، ثم في عهد أخيه عبد العزيز، وتعتبر فترة حكم هذين السلطانين آخر عهد قوة بالنسبة للدولتين الزيانية والمرينية على حد سواء، بسبب غياب الاستقرار السياسي والتنافس على العرش.

## خاتمة

من أهم ما ميز المشهد الثقافي للمغرب الإسلامي تلك المنافسة بين سلاطين دوله حول استقطاب أبرز العلماء والفقهاء والشعراء واستقدامهم إلى حواضرهم، وقد تميز منهم سلاطين بني مرين من خلال جهودهم لاستقطاب أولئك العلماء وبذلهم في سبيل ذلك جهودًا حثيثة عكستها عدة مظاهر منها تشييد العمائر من مساجد ومدارس وتقليدهم أسمى الوظائف والرتب وأيضًا الحاقهم بالمجالس العلمية الخاصة بأولئك السلاطين.

وبهذا يمكن القول: أن الحضرة الفاسية استقطبت عددًا من علماء تلمسان ونالوا الوجاهة وعظم الشّأن والمكانة في ظلّ سلاطين بني مرين الذين التحقوا ببلاطهم، حيث اعتبر بنو مرين مدينة تلمسان مدينة مغربية شأنها شأن باقي المدن في المغرب الأقصى، وعملوا على التواصل مع سكانها بمختلف فئاتهم، فكانت منشآتهم الدينية والتعليمية من أهم ما استقطبوا به طلبة العلم وشيوخه، وبهذا سمت تلك المنشآت العمرانية عن جانبها المادي إلى التأثير المعنوي، إذ ليس كل شيء يفرض بالقوة، وكلّنا نعلم تأثير فئة العلماء وكلمتها النافذة في باقي شرائح المجتمع.

## الهَوامِش:

(١) مؤلف مجهول، **مفاخر البربر**، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق، الرباط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٤٥ من مقدمة المحقق.

(٢) عبد العزيز لعرج، **"العمران الإسلامي وعمارته السكنية، قيم دينية ودلالات اجتماعية"**، في حولية: المؤرخ، تصدر عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد (٣-٤)، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الجزائر، ص ٧.

(٣) عبد العزيز لعرج، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، طبعة خاصة ، وزارة المجاهدين، الجزائر، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ،ص ١٧٩.

(٥) إبراهيم حركات، **الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب**، في مجلة: الأصالة، العدد ٢٦، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، الجزائر، ص ١٨٦.

(٦) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٧) عبد الحميد حاجيات: **"تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط"** في مجلة: الحضارة الإسلامية، صدرت عن المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، العدد الأول، شوال/أفريل ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، وهران، ص ٤٠.

(٨) عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية**...، ص ٢٣٦؛ روبير برونشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى القرن ١٥**، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ج١، ص١٩٨.

(٩) العربي لقريز، **مدارس السلطان أبي الحسن علي مدرسة سيدي أبو مدين نموذجا دراسة أثرية وفنية**، رسالة ماجستير كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م،ص ٣١.

(١٠) عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (٦١٠هـ/١٢١٣م)/ (٨٦٩هـ/١٤٦٥م)**، دار القلم الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣١٩.

(11) Atallah Dhina' Les états de l'occident musulman aux XIII, XIU et XU siècles O.P.U, Alger, S,D.p.313.

(١٢) عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية**...، ص ٣١٥.

(١٣) عبد العزيز لعرج، **مدينة المنصورة المرينية في تلمسان**، زهراء الشرق، ٢٠٠٢م، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٨.

(١٤) محمد رزوق، **التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي تأصيل تاريخي: ضمن دراسات في تاريخ المغرب**، إفريقيا الشرق ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٧٢.

(١٥) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، اعتنى به: خليل شحادة وراجعه: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٨م، ج٧، ص ٢٩٣؛ عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(١٦) عبد العزيز لعرج، **مدينة المنصورة**...، ص٣٥.

(١٧) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٨٧-٢٨٨؛ عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر، الجزائر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م، ج١، ص ١٤٧.

(١٨) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص٣٢٢ ؛
R.Bourouiba L'art religieux musulman en1Algérie S.N.E.D, Alger, 1983., p.169-170.

(١٩) ابن مرزوق، **المسند**...، ص ٤٠٦؛ صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص١٧٠؛ العربي لقريز، المرجع السابق، ص ٥٦- ٥٩.

(٢٠) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص١٩؛ صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٧٧-١٦٩؛ R.Bourouiba op, cit, p. 249.

(٢١) أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج٤، ص١٥.

(٢٢) محمد محمود عبد الله بن بيه، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، دار الأندلس الخضراء، جدة /دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٩ ؛ عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، الدار البيضاء، ب.ت، ج1، ص٤٦.

(٢٣) عبد الحميد حاجيات: "**الحياة الفكرية في تلمسان في عهد بني زيان**" في مجلة: الأصالة، العدد ٢٦ ، أوت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص١٣٦.

(٢٤) إبراهيم حركات، **الصلات الفكرية**...، ص١٨٥.

(٢٥) صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص١٢٣.

(٢٦) إبراهيم حركات، **الصلات الفكرية**...، ص١٨٦.

(٢٧) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (١٦-٢٠م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١، ص٤٠١.

(٢٨) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**، تحقيق: سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ،ص٣٠٤؛ بوبة مجاني: "**تاريخ أسرة المرازقة من خلال مخطوط لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق المعروف بالخطيب والجد والملقب بشمس الدين (ت٧٨١هـ/١٤٧٦-١٤٧٧م)**" في مجلة: حوليات يصدرها المتحف الوطني للآثار، العدد الثامن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الجزائر، ص١٢٦.

(٢٩) يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، وزارة الثقافة، الجزائر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج١، ص١٢٥.

(٣٠) روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة: نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، نيويورك، مكتبة لبنان، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص٤٥.

(٣١) أحمد بن أبي يحي، **مجموع فيه مناقب سيدي أبي عبد الله الشريف وولديه سيدي عبد الله الغريق والولي الصالح سيدي أبي يحيى عبد الرحمن**، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، رقم ٣١٤، من الموقع: www.fondation.org.ma، الورقة ٧ / و.

(٣٢) ابن مرزوق، **المسند**...، ص٢٦٥.

(٣٣) ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٢٤؛ إلى جانب فتاوى من هذين الإمامين وعلماء آخرين في عدة قضايا انظر بعضها عند: (ابن مرزوق، **المسند**...، ص١٣٠، ٣٠٣، ٢٨٧-٢٨٩، ١٩٢، ٢٠٩؛ المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق: حساني مختار، نشر مخبر المخطوطات قسم علم المكتبات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص١١٢، ١٨٣، ٢٩٣، ٢٥٣؛ الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٦، ص٣٢٩ على سبيل المثال فهو في الأصل مجموع لفتاوى عدد من العلماء بما فيهم علماء تلمسان.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٤٩٧.

(٣٥) محمد الشريف سيدي موسى: "**التربية والتعليم بالجزائر في العصر الوسيط**" في حولية: المؤرخ، العدد الثاني، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٩٤.

(٣٦) عبد العزيز بومهرة: "**التعليم في المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري**" في مجلة: التواصل، العدد١١ ديسمبر ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٣٢.

(٣٧) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٤٣٨؛ عبد المجيد تركي، **كيف يفسر ابن خلدون ظاهرة ازدهار العلوم الدينية وركودها بالمغرب والأندلس ضمن: قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي**...، ص٤٠١-٤٠٢؛ رابح بونار: "**عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر**" في مجلة: الأصالة، العد ١٩، ربيع الأول/ أفريل، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، الجزائر، ص٣٠٧.

(٣٨) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، ص٤٣٩.

(٣٩) ابن عبد الملك المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٤٠) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، ص٤٣٩.

(٤١) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ عبد المجيد تركي، المرجع السابق، ص٤٠١.

(٤٢) بابا خويا الحاج المهدي، **الإمام أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت ٧٧١هـ) وجهوده الأصولية الفقهية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فاس، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٣٢؛ روبير برونشفيك، المرجع السابق، ج١، ص١٩.

(٤٣) عبد العزيز بو مهرة، المرجع السابق، ص١٣٣.

(٤٤) أبو العباس المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق: سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م،ج٣، ص٢٧-٢٨، وكانت هذه الحادثة عقب إنهاء السلطان أبي عنان بناء مدرسته المتوكلية بفاس والبحث عن عالم يسند إليه مهمة إقراء الفقه بها وكان في طليعة المرشحين اثنان من كبار علماء تلمسان هما أبو عيسى موسى بن الإمام وأبو عبد الله شريف انظر: (محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ص٣٨٢).

(٤٥) عبد العزيز بومهرة، المرجع السابق، ص١٣٣.

(٤٦) أبو العباس المقري، **أزهار الرياض**...، ج١، ص٥.

(٤٧) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت، ج٣، ص١٨٩.

(٤٨) يحي بوعزيز: "**الأوضاع السياسية والثقافية في عصر الشيخين محمد ابن مرزوق وأحمد بن قنفذ الخطيب**" في مجلة: دراسات جزائرية، العدد الأول، جوان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٦٥.

(٤٩) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٥٠) عبد الجليل قربان: "**حركة التأليف في تلمسان في العهد الزياني ٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٤م**" في دورية: قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، تصدر عن مخبر الدراسات الحضارية والفكرية كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة تلمسان العدد التجريبي، ديسمبر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٧٣؛ رابح بونار، **عبقرية المشداليين**...، ص٣٠٧؛ محمد المختار اسكندر، **المفسرون الجزائريون عبر القرون رواية ودراية من القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع عشر**، دحلب، الجزائر، ب.ت، ص١١١.

(٥١) ابن مريم، المصدر السابق، ص٢١٦.

(٥٢) عبد الجليل قربان، المرجع السابق، ص١٧٤.

(٥٣) أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ،ج٢، ص٥٥.

(٥٤) عبد الجليل قربان، المرجع السابق، ص١٧٤.

(٥٥) عبد الحميد حاجيات، **مقدمة تحقيق بغية الرواد**...، ج١، ص٦١-٦٢.

(٥٦) أحمد بن أبي يحي بن أبي عبد الله الشريف، المخطوط السابق، الورقة ٢٧ / ظ.

(٥٧) الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، مطبعة النهضة، تونس، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م ، ج٤، ص٢٥٤؛ محمد بوشقيف، **تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤و١٥م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار، جامعة تلمسان، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص١٥٩،٢٠٦؛ محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، **الأدب العربي الجزائري عبر النصوص**، طبع هـ داود بريكسي، تلمسان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٦٠.

(٥٨) أبو عبد الله الشريف، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**، ويليه كتاب مثارات الغلط في الأدلة، تحقيق: محمد فركوس، المكتبة الملكية السعودية، مكتبة الريان، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ،ص٢٦٠.

(٥٩) ابن مرزوق، **المسند**...، ص٦٦؛ وله أيضًا: **المناقب المرزوقية**...، ص٨٠؛ ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١١١.

(٦٠) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**...، ص٨٠.

(٦١) الأنصاري، **فهرست الرصاع**، تحقيق: محمد العناني، المكتبة العتيقة، تونس، ب، ت،ص٣٣٤؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج١، ص٤٠١- ٤٩٨؛

Atallah Dhina, op.cit,p.321.

(٦٢) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، ص٢٢٩.

(٦٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٦٤) محمد المنوني، **ورقات**...، ص٨١-٨٢.

(٦٥) ابن فضل الله العمري، **وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني مقتبس من "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"**، ضمن كتاب، محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص٥٦٦؛ محمد المنوني، **ورقات**...، ص٨٢؛ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٢٧.

(٦٦) إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص١٢٧.

(٦٧) المرجع نفسه، ص١٢٧؛ إبراهيم بحاز: "**مدخل إلى القضاء عند الزيانيين**" في مجلة: الوعي، العدد المزدوج (٣-٤)، جمادى الثانية/ ماي، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٦٣.

(٦٨) ابن فرحون، المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٥؛ المقري، **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ص٥٢؛ إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص٦٣.

(٦٩) الأنصاري، **فهرست الرصاع**، ص٣٥.

(٧٠) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، مج٢، ص١٩٥.

(٧١) أبو الحسن النباهي، **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٢٨.

(٧٢) هو سعيد بن محمد بن محمد العقباني التجيبي التلمساني، كنيته أبو عثمان، ولد سنة ٧١٦هـ، أخذ عن أبي الإمام والآبلي وغيرهما، عدّ من أكبر علماء عصره (ت. ٨١١هـ/ ١٤٠٨م): (المجاري، **برنامج المجاري**، تحقيق: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م، ص١٣٢؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص١٠٧؛ التنبكتي، نيل الابتهاج...، ج١، ص ٢٠٥)

(٧٣) ابن مرزوق، **المسند**...، ص١٤٢،١٧٣،٢٦٧.

(٧٤) نصر الدين بن داود، **بيوتات العلماء في تلمسان من القرن ٧هـ-١٣م إلى القرن ١٠هـ-١٦م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، شعبة التاريخ، جامعة تلمسان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٦٣.

(٧٥) ابن مرزوق، **المسند**...، ص٤٧٩.

(٧٦) محمد المنوني، **ورقات**...، ص١٧١.

(٧٧) محمد المنوني، **ورقات**...، ص١٧٤.

(٧٨) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**...، ص٣٠٥؛ وله أيضًا: **المسند**، ص٤٦٧، ٤٩٥؛ ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المكتبة الملكية، الرباط، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص٢٥؛ الناصري، المرجع السابق، ج٤، ص ٣٤.

(٧٩) نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص٢٦١.

(٨٠) عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف**...، ص٦٨؛ التنبكتي، **نيل الإبتاج**...، ج٢، ص٧٦.

(٨١) صابرة خطيف، **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية ( ٦٣٣-٧٩١هـ/١٢٣٥-١٣٨٨م)** الجهاز الديني والتعليمي، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٨٨.

(٨٢) عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف**...، ص٦٠؛ أبو العباس المقري، **نفح الطيب**...، ج٥، ص٢٠٩.

(٨٣) ابن مرزوق، **المناقب المرزوقية**...، ص٣٠٨؛ يحي بوعزيز، **الأوضاع السياسية والاقتصادية**...، ص٧٠.

(٨٤) عبد الرحمن ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر،١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٥٢.

(٨٥) يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص١١٥.

(٨٦) المصدر نفسه، ص١١٥؛ عبد الحميد حاجيات: **أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٥، ٢٥.

# مظاهر التخطيط الحضري في مدينة الرباط
# على عهد الحماية الفرنسية




**د. خاليد عيش**

دكتوراه في التاريخ المعاصر

إطار في مؤسسة أرشيف المغرب

الرباط – المملكة المغربية



## مُلَخَّصْ

إن فهم المشهد الحضري بشكل عام واستقراء مظاهره المجالية، يعتبر ضرورة لا مناص منها لمعالجة إشكالية التعمير، في التعاطي مع مختلف المشاكل التي أفرزتها وتفرزها المدن. ولتحقيق ذلك لا بد من وضع المدينة في سياقها التاريخي، للوقوف على المشاكل والإكراهات التي واجهت وتواجه التعمير وإعداد المجالات الحضرية، فالمدينة هي تراكم تاريخي ضم عصارة خبرات وتجارب الإنسان في البنيان والعمارة. ودراسة المدينة المغربية على عهد الحماية الفرنسية وخصوصًا في جانب التهيئة والتخطيط الحضري يعتبر إضافة مهمة، ومساهمة علمية من جانب علم التاريخ في العملية الكلية لتهيئة المدن المغربية سواء على مستوى مشاريع الإنقاذ ورد الاعتبار لمدننا القديمة، أو على مستوى المخططات الحضرية الكبرى لتهيئة المدن القائمة وإعداد مجالاتها الحضرية المستقبلية. مدينة الرباط كباقي المدن المغربية الكبرى تعيش مشاكل حقيقية على مستوى التعمير، وإعداد مجالات الاستقبال الحضري، وقد نجم ذلك بالأساس عن تطور ساكنتها، وما واكب ذلك من ضغط كبير على مختلف بنياتها ومنشأتها العمرانية المختلفة، فالتخطيط المستقبلي للمدينة ينبني على تجاوز المشاكل الآنية لوضع تصور صحيح وعقلاني لمختلف المخططات الحضرية المستقبلية. وتجاوز المشاكل الأنية هو مرتبط بمعرفة أصولها التاريخية من ناحية فكر وتصورات واضعي تصاميم ومخططات التهيئة والتعمير منذ فترة الحماية الفرنسية. لماذا فترة الحماية الفرنسية؟ لأنها هي المرحلة التي شهدت توقف نموذج المدينة الإسلامية لصالح نموذج المدينة الأوربية بمرجعيتها وفلسفتها الغربية التي شكلت الفضاء المؤطر للمدن الجديدة المغربية التي نعيشها اليوم. دراستنا تروم الاستجابة للتصور الذي قدمناه في فضل علم التاريخ الحضري داخل عمليات التهيئة والتعمير في مدينة الرباط، من خلال دراسة مظاهر التخطيط الحضري في المدينة على عهد الحماية الفرنسية، بتحليل الأليات التي نظمت المجال الحضري ونتائج المخططات الحضرية على مستوى رسم المشهد الحضري. وتقديمها للمهيئين والفاعلين في المجال كأرضية علمية لبناء تصوراتهم وسياساتهم التي تخص مستقبل المدينة.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٧ سبتمبر ٢٠١٣

تاريخ قبـول النشـر: ١١ ديسمبر ٢٠١٣

**كلمات مفتاحية:**

المركزية الحضرية، المجلس البلدي، البنايات الإدارية، السلطات الجهوية، التاريخ الحضري

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

خاليد عيش. "مظاهر التخطيط الحضري في مدينة الرباط على عهد الحماية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٠٨ – ١١٦.


## مُقَدِّمَةٌ

لقد حاول برنامج التخطيط الحضري بالمغرب على عهد الحماية الفرنسية خدمة تصور الفرنسيين وتمثلاتهم الكبرى على مستوى العمارة والبناء، وتبين وثائق التعمير في هذه الفترة عمق تلك التصورات من خلال رسم مناطق الحماية الكبرى، المتمثلة في المناطق المحرمة للبناء والشوارع المستقيمة الفسيحة الواسعة، التي تربط وتفصل في نفس الوقت بين المجال الأصيل والمدينة الجديدة، ثم مختلف البنى التحتية التي تخدم المصالح الأوربية في تنظيم الوحدات السكنية وتقسيمها على مستوى المجال حسب وظائفها الحضرية. ومن أبرز المظاهر العامة للتخطيط الحضري الفرنسي

سنتحدث من خلال مدينة الرباط عن منظومة التنطيق، وتطور المركزية الحضرية ثم الوظيفة الحضرية.

## أولاً: مظاهر التخطيط الحضري: تصاميم التنطيق وتطور المركزية الحضرية

### ١/١- تصاميم التنطيق:

تعتبر تصاميم التنطيق من مظاهر التخطيط الحضري المهمة في المدينة المغربية على عهد الحماية الفرنسية، وهو تقسيم مجال المدينة إلى عدة مناطق، ويعتمد هذا التقسيم على دور ووظائف هذه النطاقات داخل المدينة، وإرساء تهيئة تتماشى مع وظيفة النطاق بكل ما يتصل من بنيات أساسية في إطار التخطيط المسبق للمجال. في الدار البيضاء مثلاً اقترح المهندس بروست إنشاء الأحياء الجديدة لتحيط في المدينة القديمة على شكل أنصاف دوائر، وقد اخترقها شارع الجنرال داماد من ساحة فرنسا في اتجاه الميناء. وقد خصص غرب هذا المحور لسكن الفيلا وأحياء الحدائق، فيما خصص شرق المحور للتجارة ومنطقة صناعية باتجاه الصخور السوداء، ثم الحي العمالي بجانب الحي الصناعي.(١)

في مدينة مكناس ساعدت طبغرافية المدينة وبشكل كبير على تطبيق مبدأ الفصل بن المدينتين، لوجود منخفض طبغرافي على طول الواد الفاصل بين المدينة القديمة وأراضي المدينة الجديدة وهي حدائق العدول، مجال المدينة الجديدة تمت تهيئته حول ثكنة "بويميرو" (Poeymirau) التي أقيمت بها الثانوية والمصالح المالية والكنيسة ومصالح المياه والغابات في اتجاه محطة القطار، التي عرفت مجالاتها القريبة تهيئة أحياء الصناعة الخفيفة، فيما أقيمت أحياء السكن الأولى في الجنوب الغربي في المدينة.(٢) وفي مدينة مراكش تطورت المدينة الأوربية من الغرب إلى الشرق انطلاقًا من الحي العسكري عند قدم كيليز اتجاه المدينة القديمة، وموازاة مع مبدأ التنطيق وجدت محطة القطار في ضاحية المدينة الجديدة قرب الحي العسكري والحي الصناعي. فيما بني حي الإقامة والسكن في الاتجاه المؤدي إلى ساحة ٧ دجنبر، أما مختلف مرافق الترفيه مثل حديقة العروض وملعب الرياضة وملعب الخيل فقد أخذت الجزء الجنوبي من المدينة.(٣)

أما في مدينة الرباط، فقد كون التصميم العام للمدينة نطاقين كبيرين هما المدينة القديمة، والمدينة الأوربية الجديدة حيث اختلفت أشكالهما وطبيعة تقسيماتهما المجالية، كما تصف ذلك مجلة (les cahiers d'outre-mer) "ليكايي دوتر مير": "... الرباط اليوم ذات ازدواجية غريبة: المدينة القديمة الممتدة داخل الأسوار العالية، وهي المدينة العتيقة التقليدية بشعبها المليء بالحركة، وأسواقها ومساجدها بجماليتها الأصيلة، إلى جانبها تتواجد المدينة الجديدة مدينة ليوطي، وهي العاصمة الإدارية للحماية بمصالحها ومكاتبها وحدائقها وأحيائها الراقية...".(٤) فقد تم ومنذ البداية الفصل بين أحياء المغاربة وأحياء الجيش التي تطورت على طول الشريط البحري من حي المحيط اتجاه حي القبيبات، حيث قامت ثكنات الجنود الأولى مثل ثكنة (Garnier) "كارني" على مقربة من باب القبيبات، إلى جانب المستشفى العسكري (Marie Feuillet) "ماري فوي" إضافة إلى بنايات موظفي المصالح العسكرية، كما تبين ذلك معطيات الخرائط الجوية للمدينة بين (١٩١٢ – ١٩١٤م).(٥)

فيما تدرج الحي الإداري في الداخل بتلال تواركة وأكدال، بتجمع البنايات الإدارية من وزارات ومديريات ومصالح مختلفة.(٦) أما أحياء الإقامة والسكن، فقد تطورت حول الحي الإداري، فظهرت أحياء أكدال ليريش وأحياء الإقامة والطيران وحي السويسي وغيرها من الأحياء التي خصصت لوظيفة السكن، وجهزت أحياؤها وتجزئاتها العقارية لتستجيب لهذه الوظيفة في إطار التصميم الكلي للمدينة. أما بالنسبة لأحياء الأعمال والتجارة، فقد تطورت قرب المدينة القديمة، على طول شارعي غاليني وجوفر عند تقاطعها مع شارع دار المخزن والشارع المؤدي إلى الإقامة العامة، ثم طريق قصر السلطان حيث تطورت الأسواق والمحلات التجارية.(٧)

الأحياء الصناعية ورغم تأخر ظهورها فقد أخذت مكانها داخل تصميم تنطيق المدينة، وقد راعى تصميمها الاستفادة من اليد العاملة المتواجد قرب الحي الصناعي المرتقب، كما راعى التصميم اجتناب الصناعة الملوثة قرب الوحدات السكنية، وقد بنيت الأحياء الصناعية على الطريق الرئيسية الرباط - البيضاء محاذية للسكة الحديد، كما أقيم أيضا الحي الصناعي الولجة على ضفاف وادي أبي رقراق. وقد عمل التصميم العام على تطبيق تصميم التنطيق عبر مختلف تجهيزات البنية التحتية، مثل الشوارع والطرق التي قامت بوظيفة الربط بين مختلف المناطق، وفي نفس الوقت إقامة الفصل المجالي تماشيًا وتصميم التنطيق، إضافةً إلى الاستعانة بالأحزمة والمجالات الخضراء.

### ٢/١- تطور المركزية الحضرية:

لقد عرف المركز الحضري في مدينة الرباط تطورًا على مستوى المشهد الحضري، وانتقل مجاليًا مع تطور التخطيط واتساع رقعة المدينة وتقارب أحيائها، ومع تداخل الأنشطة والوظائف من داخلها. وقد لعبت المدينة القديمة دور المركز الحضري الأول منذ دخول الأوربيين إلى المدينة حيث استقروا في أحيائها خصوصًا حي القنصل وحي الجزاء، إضافة إلى مجالات الأنشطة التجارية في المدينة مثل حي السويقة وحي سيدي فاتح. ومع تزايد أعداد الأوربيين في المدينة وعجز المدينة القديمة عن إيوائهم وأنشطتهم، بدأت منازل ومساكن الأوربيين بالظهور خارج باب لعلو على طول شريط المحيط، ليظهر بذلك حي المحيط الذي سكنه الأوربيون بالأساس.

بناء حي المحيط سيكون وراء تطور مركز حضري جديد اختلف كليًا عما وجدت عليه المركزية الحضرية في المدينة القديمة. إذ سنلاحظ تطور المقاهي والفنادق الأوربية على طول شارع لعلو، إضافة إلى الأبناك ومحلات التجارة، بعد انتهاء أشغال البلدية من إصلاح هذا الشارع التي جعلت منه محورًا اقتصاديًا جد حيوي ميز هذا الحي الأوربي الجديد(٨). يذكر (Juls Barly) "جولي بارلي" حين زار

مدينة الرباط سنة ١٩١٩م أن الأوربيين كانوا يلتقون عند الظهيرة أو عند المساء في ملتقى شارع لعلو أمام فنادق أو مقاهي مثل: (Les deux harents) "ليدو هارون"– (Sœur Latines) سورلاتين – (Guillaume) كيوم – (Moderne hôtel) "مودرن أوتيل".[٩]

يمكن إذن اعتبار شارع لعلو باتجاه حي المحيط المركز الحضري الأوربي الأول في مدينة الرباط، مجسدًا أولى امتدادات المركزية الحضرية في المدينة. لكن هذا المركز سيتراجع بشكل ملحوظ بعد الموافقة على تصميم تهيئة المدينة الأوربية الجديدة جنوب المدينة القديمة، وتم التراجع عن الاستثمار بهذا الحي، أمام ظهور اقتراحات مراكز حضرية جديدة تطورت بين منطقة صومعة حسان وتواركة وأكدال ، ذلك ما يورده (Engane) "أونكان" في جريدة "لافي إيكونوميك" La vie économique ويكتب: "... حاليًا عندنا مقاهي وفنادق على شارع لعلو، أبناك ودور التجارة بطريق لغزل، لكن ذلك لن يستمر طويلاً إذا تم نقل نشاط النقل حول أو قرب صومعة حسان أو بتواركة أو أكدال حيث يجب على هذين المركزين أن ينتقلا كذلك ...".[١٠]

وقد استمر موقع المركز الحضري مطروحًا داخل تصميم بروست، وهذا ما كان وراء تردد الخواص واستثماراتهم في انتظار تحديد المركز الحضري أو وضوح معالمه على الأقل. يكتب "أونكان" في هذا الشأن في المقال نفسه: "... أين ستذهب هذه الأنشطة أمام عدم تحديد بروست للمركز الحيوي داخل تصميمه للمدينة الجديدة، فعلى الخواص أن يبحثوا عن موقع المركز من داخل تصميم بروست، وهو شيء صعب من خلال تصميمه لسنة ١٩١٩م، فحتى المصالح العامة نفسها هي موزعة (الإقامة والبلدية والبريد...) بين أربعة أطراف في المدينة الجديدة كما لو كانت الرغبة في عدم تحديد هذا المركز...".[١١]

لكن وبعد دخول تصميم المهندس بروست مرحلة التطبيق وتزايد عمليات البناء اتضحت معالم المركز الحضري الجديد، خاصةً بعد اختطاط الطرقات وتقاطعات الشوارع كما نقرأ من خلال مجلة (L'urbanisme au Maroc) "ليربانيزم أو ماروك": "... ومن حسن الحظ فقد تم تهيئ شارع على طول هذه الأسوار ينطلق من شارع آخر يضم مجموعة من المحلات التجارية والأبناك ومحطة القطار والبريد.... ورغم أنها لم تنتهي بعد فإنها تمثل أحسن الشوارع في المستقبل...".[١٢] هذا الشارع لم يكن إلا شارع دار المخزن الذي كون محور المركز الحضري الجديد، ثالث مركز بعد المدينة القديمة و شارع لعلو بحي المحيط.

تكتب أيضًا جريدة السعادة عن ملامح المحور الحيوي الجديد، والأهمية المعطاة لهذا الشارع في البناء وتجهيز بنياته التحتية، وكذا البنايات الممتدة على جوانبه ونقرأ: "... ما تشتغل فيه اليوم إدارة الأشغال البلدية وهو تمهيد الشارع العمومي الجديد الممتد وراء سور المدينة من جهة باب الحد إلى وادي أبي رقراق، وهو شارع مهم عظيم ويد العمل آخذة في تمهيده وتوسيع مساحته وتحسين هيأته وترصيف جوانبه بالحجارة المنحوتة الصلدة، وقد تم حتى الآن نحو الثلث منه ومازال المشتغلون فيه معتكفون على الخدمة به صباح مساء، ولسوف لن تمر مدة يسيرة حتى يتم تمهيده وإصلاحه ويصبح من أكبر الشوارع العمومية في الرباط، ولربما في المستقبل يكون أكثر عمارة وأزيد روجانا مما نشاهده الآن بشارع لعلو نظرًا لأهمية موقعه في الوسط الذي هو فيه، ففي أوله مركز محطة القطار الحديدي.... وبجانبه البريد العمومي الجديد... البناءات الضخمة العظيمة المشتملة على الدور التجارية والأبناك المالية والمسارح العمومية والمطاعم اليومية وغيرها من لوازم الحركة والعمارة..".[١٣]

المركزية الحضرية الجديدة لن يمثلها شارع دار المخزن لوحده، فالمهندس بروست ولإنجاح مركزه الجديد حاول خلق علاقات التبادل بين المدينتين القديمة والمدينة الأوربية الجديدة، لذلك نجد أن التصميم قد ربط بشكل مكثف بين المدينتين في مكان المركز، فهناك طريق لكزا الذي يمتد حتى داخل المدينة الجديدة، ثم شارع دار المخزن فطريق قصر السلطان والشارع المؤدي إلى الإقامة العامة، إضافة إلى طريق القنصل الذي يمتد حتى طريق هنري بوب.[١٤] وقد تقاطعت وتعامدت هذه الشوارع مع شارعين رئيسيين امتدا على طول أسوار المدينة القديمة هما شارعا الجنرال جوفر، والجنرال غاليني، وقد قامت على طول الشارعين على اليمين باتجاه صومعة حسان، المحلات التجارية باختلاف أنواعها إضافة إلى المكاتب والوكالات المتنوعة.[١٥]

الاستفادة من مجال التبادل هذا كان وراء أشغال جلسات المجلس البلدي وعملها على تطوير أنشطة تستفيد من إيجابيات الموقع، ومن ذلك ما كان في جلسة ٩ مارس ١٩١٤م حيث اقترح بناء سوق مغطى، وذلك بباب الحد خارج الأسوار عند ملتقى شارع بوب وشارع الدرك الملكي، وشارع تمارة، وشارع باب الرواح. أما ساحة باب الجديد فاقترحت لبناء سوق للمغاربة بالقرب من سوق الأوربيين.[١٦] وقد خرج هذا المشروع إلى الوجود سنة ١٩٢٤م ببناء سوق المواد الغذائية، تضمن تهيئة (٦٠) محلاً بين باب الحد وباب الجديد، ثم بناء سوق مغطى مكان السوق الموجود، تضمن (١١٦) محلاً مع إقامة الرواقات التي امتدت بـ خمسة أمتار عرضا باتجاه شارع دار المخزن وذلك بعد هدم الأسوار وفتح الطرق باتجاه هذا السوق.[١٧]

تصف جريدة السعادة هذا المشروع الذي تمركز حوله المركز الحضري الجديد: "..... ستكون للعاصمة سوق مأكولات جميلة المنظر فسيحة الجوانب... كما تقرر هدم الأسوار من باب الجزاء إلى الأبواب الثلاثة المؤدية إلى السوق، ليأتي بذلك أن تكون الدكاكين مستوية في صفوفها مع الجدران القديمة التي يبقى لها منظرها من جهة محج المشير جوفر ومحج المشير غاليني، فيبنى ستون دكانًا فيما بين باب التبن وباب الجديد، وتبنى في موضع السوق الحالية مائة وستة عشر دكانًا أخرى هي التي تتكون منها السوق المسقفة و تكون

لها باب يراعى فيها التناسق والتناسب مع الأقواس التي في طريق دار المخزن..".[١٨]

تطور بناء المدينة الأوربية الجديدة وامتدادها جذب معه المركز الحضري إلى داخل المدينة الأوربية، الذي تركز أكثر على طول محور شارع دار المخزن باتجاه مسجد السنة بالجنوب، حيث اجتمعت شروط جمالية الهندسة، وجودة التخطيط وتطور الأنشطة التجارية والخدماتية في جذب الساكنة أكثر للتجول أو التسوق، وتطورت بذلك حركية وحيوية الشارع بشكل متميز داخل مدينة الرباط، وفي هذا الإطار وافق مجلس التعمير سنة ١٩٢٩م برئاسة المقيم العام على مشروع نزع ملكية قطعة أرضية بعرض (١٠٠) متر بشارع دار المخزن، لإقامة شارع كبير يتقاطع مع شارع دار المخزن ويخترق عمارتي باليما، ويؤدي إلى فندق المدينة الذي كان في طور البناء مقابلاً لقصر العدالة، وقد جاء هذا المشروع وكما تذكر جريدة "لافيجي ماروكان" (La vigie marocaine) لتطوير المركز الحضري الجديد وجمالية المدينة.[١٩]

وقد كان البحث دائمًا عن أنشطة موازية للشارع إضافة إلى وظائفه الإدارية، التي ينتهي نشاطها بانتهاء مواقيت العمل، مأثرة في تراجع حيوية الشارع كما تحدثت عن ذلك جريدة (Soir du Maroc) "سوار دي ماروك": ".... لقد حددنا واختطنا امتداد شارع دار المخزن بعرض ٥٠ مترًا، من البريد المركزي حتى محطة القطار ثم المسجد الكبير وهو ما سيجعل منها طريقًا كبيرة وجميلة ستزيد في بريق مدينة الرباط. البنايات الإدارية مثل البريد والخزينة العامة وقصر العدالة ومديرية الهاتف والتلفون والتلغراف التي تحتل أو ستحتل الجانب الأيمن من هذا المحج لا توفر أي نشاط أو حيوية في المساء، ويجب على السلطات المحلية بذل مجهودات لإعطاء الحركية والحيوية لهذه الطريق التي تكبر...".[٢٠]

لهذا كان اقتراح حلول أخرى من شأنها ضمان استمرارية الحيوية والحركة داخل الشارع، مثل ما اقترحته نفس الجريدة في إعادة تهيئة الشارع وإدخال التحسينات اللائقة، وتثبيت بعض النقط الخدماتية إذ نقرأ: ".... أول شيء يجب القيام به هو تهيئة ناصية الطريق لتكون أكثر حركية، حاليًا فهي مبلطة بمكعبات الأحجار الصغيرة، الأنشطة التجارية تقوم أساسًا في الجانب الأيسر حيث بدأت وكالات بعض المحلات، ألن نستطيع إقامة اثنين أو أربعة من الأكشاك بين النخيل لبيع الجرائد حيث يعطي بناءها حيوية للمكان، ويساعد على جذب المارة إلى هذا الشارع".

المركزية الحضرية الرابعة التي يمكن أن نتحدث عنها بعد مركز المدينة القديمة، ومركز شارع لعلو اتجاه حي المحيط، ثم مجال الاتصال بين المدينة الأوربية الجديدة والمدينة الأصيلة وامتدادها داخل شارع دار المخزن، هو المركز الحضري المغربي الجديد، وهذه المرة داخل مجالات المدينة الجديدة، هذه المركزية التي تطورت في إطار الاهتمام بإسكان الأهالي وتطور أحياء المغاربة الجديدة، انطلاقًا من حي يعقوب المنصور، الذي يمكن اعتباره مدينة تابعة كونتها أحياءها الخمسة إلى جانب الحي الصناعي حيث تطور مركزها الحضري وسط هذا الحي الكبير بعد إقامة البنايات الإدارية والمسجد الجامع والحمام العمومي ومواقف السيارات وسوق صغيرة مغطاة، إضافة إلى قيسارية الحي.[٢١]

## ثانيًا: مدينة الرباط ومفهوم الوظيفة الحضرية

لقد عرفت مدينة الرباط منذ نشأتها مفهوم الوظيفة الحضرية، التي تطورت مع تعاقب الدول التي حكمت المغرب، حيث عرفت المدينة الوظيفة العسكرية مبكرًا منذ عهد المرابطين الذين أنشأوا رباطًا محصنًا لرد الهجومات البورغواطية، واستمرت تلك الوظيفة على عهد الموحدين، حيث قام الخليفة الموحدي عبد المومن ببناء تحصينات على الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق، هذا التحصين وهذا الرباط كان هو قصبة الوداية التي سميت رباط الفتح، حيث تجمعت أعداد الجنود للدفاع عن البلاد وللحرب المقدسة في الأندلس. فيما عرفت المدينة الوظيفة التجارية مع العهد المريني، ووصلت أوج ازدهارها مع قدوم الموريسكيين الذين طوروا النشاط التجاري بشكل كبير، ونشأت علاقات تجارية مع فرنسا وهولندا، وأقام بها العديد من التجار الفرنسيين والهولانديين والإنجليز.

في العهد العلوي ستتقوى الوظيفة الدفاعية في المدينة إلى جانب الوظيفة التجارية، وتحولت المدينة على عهد المولى رشيد والمولى إسماعيل إلى تحصين مخزني، سكنتها قبائل الكيش ابتداءً من ١٨٣٣م حيث استمرت الرباط في القيام بنشاط القرصنة أو الجهاد البحري حتى القرن التاسع عشر. كما لعبت المدينة مكانة اقتصادية مهمة في هذه الفترة، حيث شكلت الممر المباشر من وإلى البحر اتجاه مدينة فاس وحتى مراكش عبر تادلا، ففي نهاية القرن التاسع عشر، اعتبرت المدينة حاضرة من حواضر المغرب باعتبار وجود فئة بورجوازية مهمة، اجتذبها جو الهدوء والاستقرار الذي عرفته المدينة من ١٦٦٠ حتى ١٩٠٠م.[٢٢]

### ١/٢- مدينة الرباط على عهد الحماية الفرنسية: العاصمة ومقومات الوظيفة الإدارية

عرفت مدينة الرباط مبكرًا إقامة مكاتب ومؤسسات الحماية، كما أقام بها أيضا سلطان المغرب مولاي يوسف وكامل مكونات مؤسسة المخزن، حيث بدأ قدر مدينة الرباط كعاصمة جديدة للمغرب.[٢٣] ويمكن اعتبار ٢٠ أكتوبر ١٩١٢م تاريخ وظيفة العاصمة في مدينة الرباط، في هذا التاريخ قام الجنرال ليوطي بأولى زياراته إلى القصر وقدم تهانيه لجلالة السلطان المولى يوسف الذي أُعلن سلطانًا في غشت (أغسطس) ١٩١٢م، ومما جاء في كلمة ليوطي آنذاك: ".... سيدي إنه لشرف عظيم، وبفرح كبير أقدم لجلالتكم تهاني حكومة الجمهورية الفرنسية باعتلائكم العرش، ومتمنياتها بازدهار عهد حكمكم.... كنت أتمنى أن أحمل وأقدم رسالتي هذه منذ الأيام الأولى لاعتلائكم الحكم، لكن وكما تعلمون جلالتكم الظروف السياسية والعسكرية التي حالت دون ذلك..".[٢٤]

وقد قدم ليوطي إلى مدينة الرباط ومعه القليل من الأشخاص فقد كانت الإقامة الأولى رمزية فقط، حيث سكن ليوطي منزلاً متواضعًا كان محل إقامة القنصل الألماني، وهو سكن صغير كانت قاعة الجلوس فيه لا تكفي حتى لاستقبال الموظفين الجدد الآتين من باريس، وقد شكلت هذه الظروف الأسباب الأولى التي دفعت ليوطي لإقامة البنايات الإدارية الأولى في المدينة، ذلك ما عبر عنه في خطابه أمام المعمرين الفرنسيين في الرباط في ١٤ يوليوز ١٩١٣م: "... عندي اليقين اليوم بأن الحكومة متفقة معنا في مسألة جد بسيطة، وهي إقامة المصالح الإدارية التي لا يمكن أن تقام إلا على الساحل، على رأس المحاور التجارية في المغرب قرب التجمعات الأوربية والامتيازات الاقتصادية، دون الحديث عن معايير الصحة والأمن وسهولة سبل العيش اليومي التي هي من مقومات التطور...".[٢٥]

وعلى الرغم من ذلك ولتحقيق مشروع العاصمة بمدينة الرباط كان لزامًا على ليوطي أن يتسلح بلغة الإقناع خصوصًا لدى الحكومة الفرنسية، حيث لم يوافق العديد من أعضاء لجنة الميزانية على القروض اللازمة لبناء المدينة، بل هناك من فضل الإبقاء على العاصمة القديمة فاس واستقرار المقيم العام بها بصفة دائمة، فيما اقترح آخرون التنقل مع السلطان أينما حل بمدن المغرب[٢٦].

مفاوضات ليوطي بشأن إقناع الحكومة الفرنسية في بناء عاصمته الجديدة بالمغرب استهلها بتقديم إيجابيات موضع المدينة، ويورد (Louis Bardeau) "لويس باردو" اتفاق رئيس لجنة الأشغال الخارجية الفرنسية السيد (M.Loug) "لوك" مع طرح الجنرال ليوطي الذي تحدث قائلاً: "..... حقيقة فالرباط تتواجد في موضع جميل بوجهته البحرية وضفافه الفسيحة وهواؤها المنعش بنسماته البحرية، تبدو كإقامة جميلة ومحبوبة...".[٢٧]

إلى جانب هذه الإيجابيات قدم ليوطي في إطار مذكراته إلى وزير الخارجية الفرنسي الأسباب الأخرى وراء بناء مدينة الرباط عاصمة إدارية، وذكر العوامل الجغرافية المرتبطة بالموقع، ثم الأسباب الاقتصادية والوضعية الصحية، بالإضافة إلى الدوافع الأمنية، يقول ليوطي: "...في تقديري تحويل العاصمة من الرباط إلى فاس لا يمكن أن يقبل بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يخضع لشروط الواقع... فحينما يتم تنفيذ بناء خط السكة الحديد بين فاس والرباط حتمًا ستتراجع إيجابيات المدينة، وبالمقابل وجود الرباط على رأس ثلاثة محاور كبرى يجعلها في قمة الامتيازات الاقتصادية بالمغرب: الأول اتجاه تازة، الثاني اتجاه مراكش والثالث على الساحل، وخاصةً المحورين الأخيرين، حيث تكثر المشاكل الإدارية التي ينبغي حلها. كما أظن كذلك أنه من الضروري التواجد قريبًا من الدار البيضاء والتي ستكون حتمًا أكبر تجمع تجاري للأوربيين في المغرب.... كما أن فاس لم تكن يومًا المقر التقليدي لسلاطين المغرب، فقد استقروا كذلك في مراكش والرباط....". يستمر ليوطي في تقديم مذكرته بشأن اختيار العاصمة الرباط ويقول: "....الحياة في مدينة الرباط أكثر سهولة وملاءمة، فالصيف في فاس جاف تمامًا، وهو ما يعرقل استقدام حاجيات الإدارة من الموظفين واستقرار عائلاتهم.... أرى إذن أن الرباط قد جمعت كل الشروط المثلى للإقامة المناسبة لمجموع الإدارة المركزية...".[٢٨]

وهكذا؛ وجهت تصاميم مدينة الرباط منذ ١٩١٤م لإقامة بنيات استقبال مختلف الإدارات المركزية التي ستقام بالمدينة، وتوفير المناخ العام لإقامة الموظفين وأطر الإقامة العامة، حيث خص المخططون الأوائل إمكانيات مهمة للمدينة الجديدة، وخصصت مساحات مهمة لإقامة الأشكال الجميلة من العمران والطرق والحدائق والشوارع الفسيحة الممتدة التي تعكس أجواء الصحة العامة.[٢٩] يكتب (Anselme Laurence) "أنسليم لورانس" عن ذلك: ".... الرباط وكما نعلم إقامة عميد الجمهورية والسلطان، مدينة ٤٤.٠٠٠ ساكن.... تمثل الرباط المكان المناسب لإقامة موظفي الحماية وهم ما سيمكنهم من العمل في هدوء وسكينة..".[٣٠] هكذا أصبحت الرباط مدينة الموظفين، ضمت (١٢.٠٠٠) موظف في زمن الجنرال ليوطي، بعد بناء الحي الإداري المركزي الكبير الذي لم يتواجد مثله في مدن المغرب، ضم جميع مراكز تسيير الإدارة في البلاد. وقد تطور هذا الحي حول الإقامة العامة وقصر السلطان، وانتظمت مختلف الإدارات على طول شارع تواركة المنطلق من شارع دار المخزن عند مسجد السنة حتى الإقامة العامة، ضم جميع الوزارات في تراتبية معقلنة: (وزارة الصحة، والبناء، والتجهيز، والمالية، والمصالح البلدية، والمصالح العسكرية، ثم الإقامة العامة). كما توسعت أكثر أحياء إقامة الموظفين بمساكن رفيعة محدودة في طابقين تحيط بها المساحات الخضراء، وفرت المناخ الملائم الذي تطلبه عمل وإقامة هذه الشريحة الاجتماعية من المعمرين الأوربيين.[٣١] وقد تحدث محمد الأعرج السليماني عن هذا المشهد العمراني الجديد قائلاً: "..... وانتقلت عاصمة الملك من مدينة فاس إلى رباط الفتح حيث بنيت بها العاصمة الجديدة، فبنيت بها دار الملك وديوان الوزراء والكتبة ورجال الحرس الملكي وخاصة الخدم، وتأسست بإزاء ذلك دار الملك إدارة تدعى الإقامة العامة، بها سكن المقيم العام، ورجال البعثة الفرنسية، وتكاثرت الأشغال المفيدة على طريق لم تعهده فيما سبق...".[٣٢]

لتأخذ بذلك مدينة الرباط طابع المدن الإدارية العالمية وهو الانطباع الذي أخذه (Léandre Vaillat) "ليونار فايا" عن المدينة التي قارنها بمدينة واشنطن، مدينة أنيقة لطبقة أرستقراطية من الموظفين[٣٣]. كما كتبت عنها جريدة السعادة أيضًا: ".... يحق للرباط في هذا الباب تنويه خصوصي، فقد اختارها المارشال ليوطي عاصمة إدارية لهذه المملكة وعني بمستقبلها وازدهارها وجعلها مدينة هادئة، وقد أمست في سنة ١٩٤٦م زيادة على نشاطها وصناعتها مدينة جميلة الطلعة تضم أربعين ألفًا من السكان، وأنه

لينعكس عليها من حيثيات كثيرة وبالأخص من ناحية مقامها المخزني والإداري، جو الصفاء السائد في واشنطون الراجع إلى تصميمات المهندس الفرنسي الماجور لانفان...".[٣٤] كما كتب عنها (H.Dugard) "هينري دوكار": "... الرباط عاصمة سياسية جامعية ودبلوماسية وهي واشنطون المغرب...".[٣٥]

**٢/٢- الوظائف الموازية في مدينة الرباط: الوظيفة السياحية**

لقد اهتمت سلطات الحماية بالنشاط السياحي بشكل كبير وتم اعتماد السياحة كأحد الوظائف الحضرية البديلة لتطوير اقتصاد المدن المغربية، ومصدرًا مهمًا لمداخيل ميزانيات البلديات، كما يذكر ذلك (Lucien .Groux) "لوسيان كرو" في مجلة ( Le Maroc économique) "لوماروك إيكونوميك": "... إذا اعتبر البعض بأن المغرب مخزن للقمح، وأن المغرب منجم كبير، يمكن أن نضيف أن المغرب... سيكون بلدًا سياحيًا بجماله الطبيعي، وكنوز فنونه التي صقلها وتفننت في تطويرها توالي القرون التي تربعت في مختلف أرجاء المدن القديمة، لتحولها إلى تحفة فنية رائعة اجتذبت العديد من الزوار والرحالة والعاشقين للفنون والإبداع من مختلف أنحاء المعمور...".[٣٦]

وقد اعتمد تطوير السياحة على تنمية البنيات الأساسية في هذا المجال، فهناك الشبكة الطرقية للسفر المريح بالسيارة، وأهمية السكة الحديد للتنقل السهل والمضمون في كل الاتجاهات والمناطق المغربية. هذا بالإضافة إلى استغلال الكثير من المؤهلات الفنية والثقافية التي وجدت في المدن القديمة كما يتحدث عن ذلك "لوسيان كرو": "... فمدن مثل فاس ومكناس ومراكش والرباط مجالات مثالية للدراسة عن قرب للحياة الأهلية والتاريخ المحلي ومختلف الحضارات وتأثيرها منذ زمن بعيد... المجال البحري يمنح المغرب كذلك الشواطئ الجميلة الرملية الممتدة، والمناخ المعتدل حيث أن درجة الحرارة تراوح ١٩ درجة على طول السنة...".[٣٧]

إداريًا تم إحداث المجلس الأعلى للسياحة تضمن ممثل الحكومة وممثلي السلطات الجهوية ورؤساء النقابات، إلى جانب إحداث مكتب مركزي للسياحة بالرباط اهتم بالدراسات القبلية في هذا الميدان. كما تم منح القروض لمصلحة التجهيز والأشغال العمومية لإقامة الطرق للوصول إلى الأماكن الجميلة. وقد جاءت نتائج تلك المجهودات إيجابية بشكل كبير تمثلت في تزايد أعداد السياح، الذين انتقلوا من (١٤٥٨) سائحًا سنة ١٩٢٤م إلى ٢٠٣٥ سنة ١٩٢٥م، و(٤١٦٦) سائحًا سنة ١٩٢٦م رافقها تطور شركات النقل مثل شركة النقل المغربي ( C.T.M) التي قامت بتنظيم رحلات لزيارة الأماكن السياحية الجميلة، مثل ما كان من تنظيم رحلات من بوردو إلى مرسيليا ثم الدار البيضاء.[٣٨]

**(٢/٢) ١- أسس تطور الوظيفة السياحية في مدينة الرباط:**

في الرباط لم تساعد بنيات التهيئة والتعمير على تطوير الوظائف الاقتصادية، كشكل من أشكال الديناميات المحركة لباقي وظائف المدينة، فقد خططت المدينة لاستقبال بنيات الإدارة، واعتمدت على الوظيفة الإدارية لتطوير باقي الأنشطة الاقتصادية للمدينة، فشكل المدينة لا يوحي باقتصاد الصناعة مثلاً، وحتى السلطات المحلية لم ترغب في إقامة صناعة مهمة، لأسباب جمالية واعتبارات سياسية، تمثلت في تجنب تكوين بلوريتاريا من شأنها تعكير صفو أجواء هذه المدينة الهادئة. وفي هذا الإطار ستغيب بنيات استقبال التصنيع في المدينة، التي كانت سببًا في توقف مينائها عن نشاطه، بسبب منافسة المدن المجاورة ذات الطابع الصناعي المحض: مدينة الدار البيضاء ومدينة القنيطرة.[٣٩]

ففي المرحلة الأولى من تخطيط المدينة الجديدة - مرحلة الجنرال ليوطي- لم يكن للصناعة إلا دور ثانوي في المدينة وهو ما يلاحظ في تصميم المهندس "بروست" الذي لم يخصص أي نطاق للصناعة حيث ظهرت بعض الوحدات الصناعية متناثرة، رغم مجهودات غرفة الصناعة والتجارة لإقامتها قريبة من الميناء. الوظيفة الصناعية بقيت ثانوية حتى وقت متأخر من زمن الحماية الفرنسية، فحي يعقوب المنصور الصناعي لم يتم إحداثه إلا مؤخرًا في ١٢ مارس ١٩٥١م من أجل حل مشكل العمل بالنسبة لليد العاملة المتواجدة بكثرة بأحياء المغاربة الجديدة، لكن ورغم ذلك فقد راعت التصاميم اجتناب الصناعة الملوثة بحكم قرب أحياء السكن والإقامة، وسمحت فقط بإقامة الوحدات الصناعية الصغرى التي ضمت وحدات صناعة النسيج وصناعة المواد الغذائية وصناعة مواد البناء وغيرها من الوحدات الصناعية الصغرى غير الملوثة.[٤٠]

وفي المقابل ساهمت البنيات العمرانية والمعمارية الأساسية في تطور وظائف لا تقل أهمية عن وظائف التجارة والصناعة، من بينها الوظيفة السياحية، التي ساهمت إلى جانب الوظيفة الإدارية في تحريك دواليب اقتصاد المدينة وتوسع رقعتها الجغرافية. وسيتطور النشاط السياحي في المدينة على أساس نتائج تهيئة المدينة الإدارية، حيث كانت الاستفادة من المشهد الجميل الذي أصبحت عليه المدينة الحديقة في الرباط، الجمالية والخضرة في كل مكان وجو الصحة والهدوء والطمأنينة. السياحة استفادت أيضًا من نتائج تصاميم المدينة الأولى في استغلال الموضع الطبيعي للمدينة من حيث إشرافه على المدينتين الأصيلتين وعلى وادي أبي رقراق والاستفادة من الامتداد الساحر للمحيط على أطراف المدينة، من الشمال الغربي اتجاه الجنوب الغربي.

كما كانت الاستفادة أيضًا من التراث العمراني في المدينة، الذي ساهم هو الآخر في تطوير السياحة الثقافية في وقت مبكر في المدينة، كما نقرأ في إحدى مجلات الفترة وهي مجلة ( La semaine de L'automobile) "لاسومين دو لوطوموبيل": "... الرباط من بين العواصم الجميلة التي لا يمكن أن ندخلها دون الإحساس بالجمال الذي تمثله وتجسده مدينة الفن هذه التي تمتد الآن من الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق حتى شاطئ المحيط، تحيط بالمدينة صفوف من سكن الفيلا البيضاء اللون ثم البنايات الإدارية العالية... حيث

نكتشف مشهدًا تاريخيًا غاية في البناء والمعمار.... بعيدًا يرتفع سور المدينة المغربية يسبح في البحر من خلال صخور الوداية، هناك الحدائق الخلابة تجد السواح والزائرين قرب متحف أقيم داخل مدرسة قديمة تعرض داخله مختلف المنتوجات الفنية من فسيفساء، جلد وزرابي المنطقة..."(٤١)

يتحدث "دوكار" أيضًا عن أهمية التخطيط الحضري في بلورة الوظيفة السياحية، ويذكر أن الرباط تمتعت بكل ما يجعلها مدينة الإقامة والسياحة، فهناك أهمية نهر أبي رقراق والمساحات الخضراء المهمة للعب الغولف وخرجات النزهة للخيالة، ثم مجالات أكدال التي ستمكن شباب المدينة من لعب كرة القدم ورياضة العدو وكرة المضرب وركوب الخيل.(٤٢) وقد تحدث الكاتب نفسه عن مشروع استغلال المآثر العمرانية في النهوض بالنشاط السياحي، مثل قصبة شالة وأسوار ومتحف ومدرسة الوداية، ثم أسواق وأزقة المدينة القديمة. وقدم نموذج ترميم وتهيئة قصبة الوداية وإقامة مقاهي مغربية بالدور التي تسمح سطوحها للسياح بمنظر جميل يطل على وادي أبي رقراق والمحيط الأزرق ومدينة سلا والأسوار الحمراء.

تصورات "دوكار" هذه كانت أولى أفكار الإنقاذ ورد الاعتبار للتراث العمراني الأصيل(٤٣) وتأهيله لأهداف سياحية. ذلك ما تنقله لنا جريدة السعادة من خلال أحد نماذج الترميم ورد الاعتبار بقصبة الأوداية وتكتب: "…. ولما كانت القصبة المذكورة (الأوداية) من الأماكن غير المطروقة كان من المتعين أن لا تمتد الطرق إليها، وقد تدخلها العربات فتهدم ما بقي من أثارها، والأنسب أن تظل على صورتها الحاضرة، نزهة للزائر يرى فيها نسق معيشة الوسط الفقير المحترف من الأمة المغربية ومنازلهم الضيقة، وعاداتهم التي صارت تقليدًا لا خروج عنه... اهتمت البلدية بإصلاح الجدران وأبواب وسلالم القصبة وبرج وجامع حسان...."(٤٤)

**(٢/٢) ٢- أشغال التهيئة والمشروع السياحي في مدينة الرباط:**

يمكن الحديث عن أشغال التهيئة ذات الطابع السياحي في المدينة منذ وقت مبكر وذلك من خلال أعمال البلدية في الاعتناء بشارع لعلو وتحسين منظره حيث غرست جوانبه بالأشجار، وزينت طول الشاطئ الموالي لسور المقبرة بأنواع الأزهار والورود.(٤٥) كما باشرت أيضًا تهيئة شاطئ الرباط بإقامة طريق خاصة بالراجلين والسيارات الآتية من سوق الغزل والذاهبة للبرج الكبير، حيث تمت تهيئة مجال ملائم لإمكانية تغيير اتجاه السيارات. بالبرج الكبير أيضًا تمت تهيئة طريق للراجلين على الكورنيش، إلى جانب الاعتناء بحالة الشاطئ بتنقيته وتنظيفه.(٤٦)

لكن الوجه الحقيقي لمدينة الرباط كمدينة سياحية لن يظهر إلا مع المشروع الذي أقامه المجلس البلدي بالمدينة منذ ١٩٢٩م، الذي قدم للمناقشة بالمجلس حيث تحدث الرئيس عن الأشغال اللازم إجراؤها لتوسيع نطاق السياحة، مبينًا أن أول ما يجب القيام به في هذا الموضوع هو إنشاء طرق الربط بين مختلف المناطق المرتقب وصول السياح إليها، وهي الطريق الموصلة إلى جبال الأطلس المتوسط، وإقامة ممر بين بلاد زعير وزمور، كما تم الحديث عن مركز الاصطياف المنشإ بمنطقة الحرشة، وتكلم عن الحركية والنشاط الذين عرفهما هذا المركز خلال فصل الصيف، وفي كثرة المصطافين وارتياحهم في مقامهم الأول بهذا الموقع السياحي.

وسيكون مركز الحرشة مقدمة لإنشاء مركز ولماس كذلك، حيث كان التخطيط لتهيئته ليكون في مستوى تطلعات الزوار المغاربة والأجانب، باستغلال خاصيات مركز ولماس المناخية بهوائه العليل وبرودته في فصل الصيف، إلى جانب خاصية ارتفاعه عن سطح البحر بـ ١٩٢٠م، وبطبيعة الحال المياه المعدنية التي وصفها الأطباء آنذاك أنها تشبه مياه فيشي الفرنسية. كما تضمن المشروع أيضًا تهيئة الشواطئ القريبة من الرباط كشاطئ تمارة ووداديكم والصخيرات إضافة إلى المسابح البحرية التي تم التخطيط لإقامتها بشواطئ المدينة. وفي هذا الإطار تم تقديم مشروع السيد "سكيفو" الذي كان إعداده قبل عشر سنوات المتعلق ببناء حوض بحري للسباحة بالقرب من برج "هيرفي" قرب القبيبات وإنشاء معهد بحري في البرج نفسه المذكور.

من بين المشروعات السياحية المقترحة أيضًا إنشاء طريق سياحي على طول ساحل المدينة، تمتد على نحو (١٨) كلم من القصر السلطاني القديم الواقع على أطراف المحيط، وتصل إلى تمارة فواديكم لتتصل بالطريق الكبرى الرابطة بين الرباط والدار البيضاء، بغرض أن تصبح مدينة الرباط محاطة بطريق جميلة المناظر تجذب السواح للتجول بها. كما تضمن المشروع تهيئة الطريق المارة على ساحل نهر أبي رقراق لمرور السيارات، وكذلك الطريق الذاهبة من باب الإقامة العامة محاذية لجدار شالة على طول الوادي.(٤٧) هذا بالإضافة إلى مشروع تجميل وتحسين مناظر المدينة، ونذكر في هذا السياق ما قامت به البلدية بخصوص شارع ليوطي حيث أعادت تبليط الشارع وتحسين منظره بالورود وإقامة خطين متوازين من أشجار النخيل، والرفع من مساحات المجالات الخضراء في المدينة.(٤٨)

## خاتمة

عرف التخطيط الحضري تطورًا كبيرًا في مدينة الرباط على عهد الحماية الفرنسية واتخذ عدة مظاهر مجالية، وقد تحدثنا في هذا السياق عن تصميم التنطيق وتطور المركزية الحضرية، بالنسبة لتصميم التنطيق فقد تم تطبيقه بامتياز في مدينة الرباط وتم تقسيم المدينة إلى عدة مناطق أحياء، تدرجت على المستوى العام من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة كما قامت الأحياء من داخلها حسب وظائفها الحضرية. أما المركزية الحضرية فقد تحدثنا من خلالها عن تطور وانتقال المركز الحضري في المدينة على مستوى المجال، وتطوره مع تطور التخطيط واتساع المدينة وتبلور دينامياتها الاجتماعية والاقتصادية.

وقد تطورت أولى المراكز الحضرية انطلاقًا من المدينة القديمة التي شكلت المركز الحضري الأول حتى بوادر ظهور المركز الجديد

باتجاه حي المحيط. وسرعان ما سيتحول هذا المركز باتجاه جنوب المدينة الأصيلة، مع ظهور ملامح المحور الحيوي في مدينة بروست الجديدة انطلاقًا من شارع دار المخزن، وتطوير مجال التبادل انطلاقًا من هذا الشارع وشوارع رئيسة أخرى ربطت حركية التبادل بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة. لتتطور المركزية الحضرية في مرحلة لاحقة باتجاه المركز الحضري المغربي الجديد، داخل مجالات المدينة المغربية الجديدة الذي تطور مع الاهتمام بإسكان المغاربة في إطار السياسة الاجتماعية للسكن في تلك الفترة.

وقد أثرت أليات التخطيط بشكل كبير في توجيه الوظيفة الحضرية التي قاما بها المدينة، والتي تطورت من الوظيفة الإدارية إلى الوظيفة السياحية مستفيدة من بنيات التخطيط الحضري التي أرست قواعد المدينة الإدارية. وقد تركزت أعمال التهيئة على استغلال الإطار المبني الأصيل واستغلال المعطيات والمؤهلات السياحية بموضع المدينة، لتطوير السياحة كأحد الديناميات الجديدة المحركة للاقتصاد الحضري في المدينة.




(1) RIVET Daniel, le Maroc de Lyautey a Mohamed V le double visage du protectorat édition le noël 1999. P.P. 230 – 232.

(2) COMBON Victor, Conférences franco – marocaines l’aménagement et l’extension des villes tome II .Plan .Paris.1917.P.46.

(3) COMBON Victor, Ibidem, P.67.

(4) Les cahiers d’outre-mer de géographie de Bordeaux et de l’atlantique n(o)9. 3(eme) années janvier – mars 1950.

(5) GENDRE.F, les plans de Rabat–Salé, urbanisme et plan photo aérien société de géographie du Maroc XXI année n(0) 1. 1937. P.398.

(6) LE CLERC. Max, au Maroc avec Lyautey, librairie colin Paris 1927.P.28.

(7) VAILLAT Léandre, le visage français du Maroc, Horizon de France, Paris .P.30.

(8) L’urbanisme au Maroc, le sud –West économique l’office du Maroc de Bardeen -Aarchives du Maroc- Boite n(o )A 773.

(9) BORLY Jules, Souvenirs et réflexions sur Rabat, le miracle marocain, la région de Rabat Edition de la vérité marocaine Rabat – Casa 1932.P.28.

(10) ENGANE, la ville de Rabat, la vie marocaine 3 décembre 1919.-Archives du Maroc-

(11) ENGAN, la ville de Rabat, la vie marocaine, 3 décembre 1919.- Archives du Maroc -

(12) l’urbanisme au Maroc, le Sud – West économique, Boite n a 773.- Archives du Maroc-

(١٣) **جريدة السعادة**، ع.١٩٦٣ ١٢ غشت ١٩١٩.

(14) VAILLAT Léandre, le visage français du Maroc Horizon de France Paris 1931 .P.30.

(١٥) **جريدة السعادة**، ع.٢٢٥٥ . ١٩٢٤.

(16) P.V municipal séance du 9 mars 1914 A.N.R. Boite n A.1710.

(17) P.V. municipal séance du 12 avril 1924 A.N.R. boite n A.1710.

(١٨) **جريدة السعادة**، ع.٢٢٥٥ ٣ ماي ١٩٢٤

(19) Un grand projet d’urbanisme, la vigie marocaine 3 mars 1929.- A.M.-

(20) L’esplanade de l’avenue Dar el makhzen, soir marocain, 16 avril 1930. –Archives du Maroc-.

(21) L’esplanade de l’avenue Dar el makhzen, soir marocain, 16 avril 1930. - Archives du Maroc-.

(22) CAILLE Jaques, L’histoire de Rabat, notre Maroc, revue mensuelle illustrée, Rabat 1953, deuxième année, Casablanca 1953.

(23) PEUZ Charles, naissance et développement d’une ville capital .notre Maroc, revue mensuelle de Rabat 1953. P.9

(24) PEUZ Charles, op.cit. P.10.

(25) PEUZ Charles, Ibidem. P.11.

(26) BARTHEAU. Louis, Lyautey et le Maroc .illustration après des documents inédites édition Flamation Paris 1994.

(27) BARTHEAU. Louis, op. cit. P.196.

(28) BELFQUIH Mohammed. FADLOULLAH Abdellatif .mécanisme et forme de croissance urbaine au Maroc édition librairie el maarif Rabat 1986.P.78.

(29) GROUX Lucien, le ministère du commerce et de l'industrie, librairie ancienne malaquais- Paris .P.229
(30) ANSELME Laurence, impression du Maroc, Rabat capitale administrative et L'urbanisme, le petit bleu 18 septembre 1931.- Archives du Maroc-
(31) LE CLERC Max, au Maroc avec Lyautey, librairie Armand colin Paris 1927 .P.28.
(٣٢) بن واجي عبد الرزاق، **دراسة وتحقيق في مخطوط محمد الأعرج السليماني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب الرباط .ص. ٤٣٥.
(33) VAILLAT Léandre, le visage français du Maroc, horizon de France 1931. P.27.
(34) جريدة السعادة، ع.٧١٦٣ . ١٩ يناير ١٩٤٨.
(35) DUGARD Henry, le Maroc en 1918 .op.cit. P.139.
(36) GROUX Lucien, le tourisme, le Maroc économique, rapport a monsieur le ministre de commerce et de l'industrie, librairie ancienne, malaquais .Paris. P.230.
(37) GROUX Lucien, Ibidem .P.231.
(38) GROUX Lucien. op.cit.235.
(39) BELFQUIH Mohammed, FADLOULLAH Abdellatif, op.cit. P.81.
(40) BARUK Gaston, naissance et organisation d'une ville capitale .notre revue mensuelle illustrée, Rabat 1953. P.28.
(41)Promenade dans l'ancien et moderne, la semaine de l'automobile club de Paris, 26 septembre 1931.- Archives du Maroc-.
(42) DUGARD. Henry, op.cit.P.148.
(43) DUGARD H, op.cit .P.149.
(٤٤) **جريدة السعادة**، ع. ١٣٣٧. ١٠ أكتوبر ١٩١٦.
(٤٥) **جريدة السعادة**، ع. ١٢٢٦ ٣ ماي ١٩١٦.
(46) P.V. séance du 29 juin 1923.- Archives du Maroc. Boite n(o D.24).
(٤٧) **جريدة السعادة**، ع ٣٣٤٥. ٢٢ يناير ١٩٢٩.
(48) P.V. Municipale, séance du 28 avril 1936. – Archives du Maroc- Boite n(o D.42).

# الطرق التجارية في المغرب الأوسط ودورها في تنشيط الحركة التجارية



**سمير مزرعي**

أستاذ مؤقت – قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبو بكر بلقايد- الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

ليس بوسعنا أكثر من التّخمين، إذا اعتقدنا بأنّ موضوع الطّرق التّجارية في المغرب الأوسط ودورها في تنشيط الحركة التّجارية في المغرب الأوسط، هو من المواضيع الّتي يجب أن تنال قسطًا من الاهتمام والدّراسة، لما يكتسيه هذا الجانب من الأهمّية البالغة في التّعريف بتاريخ الجزائر الاقتصادي، كما أنّ اختيارنا لهذا الموضوع لم يتأتّى من العدم، وإنّما لمدى قناعتنا بأنّ التّجارة في المغرب الأوسط كانت ميزانا نحكم به على اتّجاه مسار تاريخنا، كما أنّ للموضوع صبغته الخاصّة والمتمثّلة في أنّ الطّرق التّجارية ربطت المغرب الأوسط وأفادته على كافة الأصعدة "تجاريًا وفكريًا وسياسيًا وحتّى حضاريًا" ولم تجعله متقوقعًا على نفسه في إطاره الجغرافي الضّيق بالمقارنة مع المغرب الإسلامي والدّول المجاورة له، وعلى هذا الأساس فقد وجّهنا عنايتنا، وانطلاقًا من ملازمتنا كتب الرّحلات الجغرافية إلى رسم وتحديد خريطة الطّرق التّجارية في المغرب الأوسط، والكشف عن بعض المراسي والحواضر الّتي باتت مجهولة وضائعة في صفحات الكتب. يركّز موضوع البحث على الجانب الاقتصادي من تاريخ المغرب الأوسط، من خلال التّأريخ لأهمّ الطّرق التّجارية الّتي كانت تربطه بالدّول المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط، أو الدّول الّتي تحدّه كالمغرب الأقصى والأدنى والسّودان الغربي، وهذا بدوره يعكس لنا أهمّية تاريخ المنطقة وتأثيرها على الجوانب الاخرى كالسّياسية والمجتمع والعلاقات.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٧ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الطّرق التّجارية، الحواضر التّجارية، المنتوجات الزّراعية، الرحلات العلمية، المغرب الإسلامي

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

سمير مزرعي. **"الطرق التجارية في المغرب الأوسط ودورها في تنشيط الحركة التجارية"**.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١١٧ – ١٢٨.

## مُقَدِّمَةُ

إنّ موضوع الطّرق التّجارية في المغرب الأوسط من المواضيع الّتي يجب على الدّارسين البحث والتعمّق فيها، إذ يكون من الصّعب، بل من عديم الرّؤية أن نفهم تاريخ المغرب الأوسط، دون أن نتناول وبشيء من التّحليل والتّدقيق والتّمحيص تاريخ الحركة التّجارية، فمن خلال هذه الدّراسة يمكننا التّعرّف على الموروث التّاريخي بشقّيه المادي والمعنوي الّتي خلّفته الدّول المستقلّة المتعاقبة في هذا الإطار الجغرافي، فالمصادر الّتي بين أيدينا تحكي قصّة واقعية وتفصيلية للحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط، وتطلعنا على الأسباب والعوامل المتحكّمة في ازدهار الحركة التّجارية أو تخلّفها.

ليس لدينا ها هنا مجالاً، للحديث عن المؤثّرات الّتي طبعت الحركة التّجارية، نتيجة لطبيعة الموضوع وضيق صفحات البحث، ولكن سنحاول وبشيء من التّحفّظ والاختصار، أن تناول موضوع الطّرق التّجارية والنّظر إلى مساهمتها في تنشيط حركة المعاملات التجارية، إذ يمكننا رصد عدّة جوانب أخرى تتعلّق بدور أمراء وسلاطين وسكّان الحواضر، وبوسعنا أيضًا إلقاء الضّوء في البحوث السّابقة على مكمّلات ومتمّات هذا الموضوع. إذا لنضع حدًّا لهذه الاعتبارات، ولنقل بأنّ البحث في موضوع الطّرق التّجارية من بابه

الواسع، وما يترتّب عنه من تقديم رؤية عامة ذات طابع شمولي حول التّاريخ الاقتصادي والمبادلات التّجارية، وتحديد أهم المواد والمنتوجات المستوردة أو تلك الموجّهة للتّصدير، يمكننا وبطريقة غير مباشرة من التّعرف على التّوجهات السياسة لهذه الدّول إزاء التّرويج لحواضرهم، وذلك بتأمين الطّرق ومصاحبة القوافل وتسهيل التبادل التّجاري، وينتج عن كلّ هذا بثّ عقائدها ومذاهبها، بالإضافة إلى الاستفادة من علوم الوافدين من الأمصار الأخرى.

وأثناء تناولنا لهذا الموضوع راودتنا عدّة تساؤلات طرحت نفسها بقوّة والّتي مفادها: ما هي أبرز الطّرق التّجارية الّتي عرفها المغرب الأوسط؟ ما هي الأدوار الّتي لعبتها الطّرق والمسالك التّجارية وفيما تمثّلت؟ ماهي أبرز السّلع الّتي كانت تنتجها حواضر المغرب الأوسط والّتي كانت موجّهة للتّصدير، وما هي الأقاليم والأمصار الّتي كانت توجّه إليها؟ ماهي العوامل والأسباب الّتي كانت وراء ازدهار هذه الحركة التّجارية؟ وإذا سلّمنا بأنّ في المغرب الأوسط هناك حواضر تجارية وموانئ كان لها بالغ الأثر في تنشيط الحركة التّجارية داخل المغرب الإسلامي أو خارجه، فإلى أيّ مدى يصدق هذا الرّأي؟

## أولاً: أنواع الطّرق التجارية

عرف المغرب الأوسط عبر تاريخه عدّة طرق ومسالك تجارية، سواء كانت بريّة أو بحرية، ساهمت كلّها في إنماء وإنعاش الحركة التّجارية داخله وخارجه، ولا يمكننا حصر هذه الطّرق فيما سنقدّمه، بل ذكرنا الأهمّ من المهمّ، ومن أجل ذلك قسّمناها إلى طرق خارجية وداخلية هي كالآتي:

**١/١- الطّرق التجارية الدّاخلية:**

**(١/١)١- طريق تيهرت موانئ المغرب الأوسط:**

من خلال المصادر التّاريخية نلمس بأنّ طرقًا تجارية كانت تربط مدينة تيهرت بعدّة موانئ على الشّريط السّاحلي للمغرب الأوسط، ومن جملة هذه المراسي المعروفة لدى المؤرّخين نجد "ميناء تنس" ومرسى فرّوخ ومرسى الدّجاج ومرسى الخرز، وربّما استعمل أيضًا مرسى مدينة وهران من أجل التّعامل مع قرطبة عاصمة الدّولة الأموية في الأندلس وموانئها المشهورة مثل إشبيلية والجزيرة الخضراء وبلنسية وطرطوشة.

**(١/١)٢- تلمسان مدن المغرب الأوسط:**

هناك طريق برّي داخلي يخرج من تلمسان وهو محاذي لسفوح جبال الأطلس الصّحراوي (الدّاخلية) الشّمالية إلى غاية المسيلة ثمّ نقاوس ويمرّ بكلّ من بغاية وتبسّة ليصل إلى جنوب المغرب الأدنى، إلاّ أنّ استخدامها كان قليلاً بسبب عدم استقرار الأمن[١] وهناك شبكة طرق بريّة تربط بين تلمسان والمدن الزّيانية الأخرى[٢] السّاحلية والدّاخلية مثل طريق مازونة، مستغانم، تلمسان، وهران ومدينة تنس، ولم تقتصر تلمسان على الطّرق الدّاخلية والخارجية فحسب بل وجدت فيها طرق بحرية انطلاقًا من موانئها المعروفة مثل: "هنين، المرسى الكبير، جزائر بني مزغنّاي، بجاية".

تحتوي تلمسان على عدّة شبكات من الطّرق، ويمكن أن نقسّمها إلى صنفين، فالصّنف الأوّل تمثّله الشّبكة الّتي تربط بين أسواق الدّولة ومدنها كافة، وأهمّ ما في تلك الشّبكة الطّريق الّذي يربط غرب البلاد بشرقها فيمتدّ هذا الطّريق من "طنجة، تلمسان، مليانة، جزائر بني مزغناي، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس" ويبدوا أنّ هذا الطّريق هو أشهر الطّرق الّتي تربط غرب المغرب الأقصى مرورًا بالمغرب الأوسط وصولا إلى المغرب الأدنى.[٣]

**(١/١)٣- طريق بجاية قلعة بني حمّاد:**

كانت بجاية حاضرة تجارية وكانت مقصد العديد من التّجار سواء المقيمين في المغرب الأوسط أو التّجار القافلين إليها من الأقاليم الأخرى، والّذي نعرفه من خلال المصادر أنّ هناك العديد من الطّرق التّجارية الّتي كانت تخرج منها، نذكر منها على سبيل المثال الطّريق الّذي كان يتوجّه نحو قلعة بني حمّاد، ولكنّه كان يمرّ بالعديد من القرى منها المضيق وسوق الحدّ وحصن تاكلات وسوق الخميس وحصن وارفو وحصن الحديد وسوق الاثنين وتازكا وصولا إلى القلعة.[٤] ومن خلال المسيرة التّجارية يحتمل أنّ القوافل التّجارية كانت تزوّد تجار هذه القرى بما يحتاجونه من المنتجات بغرض تسويقها في الأسواق المحلية الأسبوعية لأجل تلبية حاجات النّاس، دون عناء التنقل إلى الحواضر والمدن الكبرى، وما يدلّ على ذلك صراحة هو أنّ القرى كانت تسمّى بيوم سوقها الأسبوعي مثل "سوق الخميس وسوق الاثنين".

**(١/١)٤- الطّرق الخارجة من أشير:**

اشتهرت مدينة أشير كغيرها من المدن بطابعها التّجاري إذا لعبت دورًا أساسيًا في تنظيم وتسيير الطّرق التّجارية المارة بها والمؤدية إلى مدن المغرب الأوسط الأخرى، فحسب ما يشير إليه البكري يمكننا رصد طريق تجاري يخرج من مدينة أشير ويمرّ عبر مدينة سوق حمزة إلى أن يصل إلى مرسى الدّجاج.[٥] كما أنّ هناك طريقًا آخرًا يخرج من ذات المدينة إلى فزرونة "متيجة" وتشتهر هذه المنطقة بتنوّع مزروعاتها ومسارحها الواسعة وأكثرها إنتاجًا للكتان ومنها يحمل عبر القوافل المارة إلى مدينة جزائر بني مزغناي، كما أنّ هناك طريقًا آخر يضطر ينطلق من القيروان ويمرّ عبر المسيلة ليمرّ بسوق حمزة وصولاً إلى مرسى الدّجاج.[٦]. يمكننا أن نستخلص بأنّ كلّ الطّرق الّتي تمرّ عبر أشير كلّها تؤدّي في نهاية المطاف إلى موانئ المغرب الأوسط، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على الدّور التّجاري الكبير الّذي بلغته أشير وما جاورها.

**٢/١- الطرق التجارية الخارجية:**

**(٢/١)١- طريق تيهرت القيروان:**

كانت تربط تيهرت بالعواصم المغربية الأخرى طرقا متشعّبة قصد التّجارة بتصدير واستيراد المنتوجات والسّلع، وأمّا القوافل الّتي تتّجه نحو القيروان فكانت تمرّ عبر الأوراس والزّاب[٧] هذا إذا عبرت طريقا تلّيا وإن عبرت طريقًا صحراويًا فإنّها تتّجه إلى وراجلان ثمّ جبال عمّور منتهية إلى القيروان، وقد سارت قوافلها التّجارية

حتّى إلى المشرق الإسلامي.[٨] إنّ التّطرّق إلى هذه الطّرق يوضّح لنا طبيعة العلاقات التّجارية الطّيبة والحسنة بين المدينتين[٩] وهذا كان عاملاً مناسبًا من أجل تنشيط الحركة التّجارية، ويقول ابن الصّغير في هذا الصّدد: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلاّ استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم".[١٠]

**(٢/١)-٢ طريق تيهرت فاس:**

تأخذ القوافل المتّجهة نحو فاس طريقًا يمرّ عبر ممالك "ابن مسّالة الهوّاري" ومنها إلى مدينة يقال لها "يلل" ومنها إلى مدينة يزرج ثمّ يمرّ الطّريق مارّا بمدينة تلمسان وأحوازها، وتستمرّ القوافل التّجارية مسيرتها نحو نمالته وصولاً إلى مدينة فاس.[١١]

**(٢/١)-٣ طريق تيهرت سجلماسة:**

كانت العلاقات السّياسية بين تيهرت وسجلماسة طيّبة حسنة تربطها المصاهرة، كما كانت العلاقات مزدهرة بفضل الطّريق الّذي يربط تيهرت بسجلماسة وهناك طريق آخر مباشر من تيهرت إلى فاس ثمّ سجلماسة،[١٢] فكان اليعقوبي أوّل من أشار إلى وجود طريق يربط تيهرت بسلجماسة،[١٣] فذكر أنّ "مَنْ خرج من تاهرت، سالك الطّريق بين القبلة والغرب سار إلى مدينة يقال لها أوزكا" بها فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة، ثمّ يواصل اليعقوبي تتبعه للطّريق، فيضيف أنّه من مدينة أوزكا لمَنْ سلك مغربا إلى أرض زناتة ثمّ يسير إلى مدينة سجلماسة، ويضيف اليعقوبي المسير من هذا الطّريق بأنّ "في قرى ليست بآهلة وفي بعضها مفازة" ومن المحتمل أن تكون هذه القرى بمثابة محطّات للقوافل التّجارية المتنقّلة بين المدينتين والمسافة بين تيهرت وسجلماسة حسب اليعقوبي عشرة مراحل.[١٤] ولكن لا نعرف على وجه التّحديد هل هو الطّريق الّذي ذكره البكري أو الّذي ذكره الإدريسي حيث يذكر هذا الأخير أنّ الطّريق يمتدّ من تلمسان إلى قرية تارو ثمّ على جبل تامديت ومنها إلى غايات ومنها إلى صدرات ومنها إلى جبل تيوى ثمّ إلى فتات بئر، إلى شعب الصّفا ومنها إلى قرية تامسنان ومنها إلى تقربت وصولاً إلى سجلماسة،[١٥] وتقدّر هذه المسافة بخمسة عشر مرحلة وهذا لا يتفق مع ما ذكره اليعقوبي أو الإصطخري.

**(٢/١)-٤ طريق تيهرت بلاد السّودان:**

من أهمّ المعاملات التّجارية الّتي عُرفت بها تيهرت كانت مع بلاد السّودان الغربي، وكانت القوافل تسلك ثلاث طرق:

**– الطّريق الغربي:**

يمرّ هذا الطّريق من تيهرت ويمرّ عبر سجلماسة في اتّجاه أودغست الّتي يصف البكري سكانها من إفريقية وغالبيتهم من قبائل برقاجنة ونفوسة ولواته ونفزاوة،[١٦] ويصف البكري هذا الطّريق إذ يقول: "ومن مدينة سجلماسة ندخل إلى بلاد السّودان إلى غانة وبينهما وبين مدينة غانة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة".[١٧] وهكذا؛ كان تجّار تيهرت يتنقّلون بسلعهم المختلفة بين أودغست،[١٨] وغانا، واستفادوا كثيرًا من هذه الطّرق التّجارية بين المنطقتين في كسب خبرة التّجار، وفي ظهورهم كقوّة تجارية في المغرب الأوسط.

**– الطّريق الشّرقي:**

وينقسم هذا الطّريق بدوره إلى فرعين يمرّ الأوّل على مدينة وارجلان الّتي ترتبط ببلاد السّودان ارتباطًا وثيقًا[١٩] في اتّجاه كوكو،[٢٠] ولكنّنا لا نستبعد أن يكون هذا المسلك يمرّ بواحة "وادي ريغ" (تقرت حاليًا) الآهلة بالإباضية والّتي يرد ذكرها في الكثير من المصادر الإباضية،[٢١] ويمرّ الطّريق الثّاني انطلاقًا من جبل نفوسة في اتّجاه كوكو[٢٢] وتعتبر كسجلماسة تمامًا على الطّريق الغربي بوابة ضرورية لاقتحام الصّحراء.[٢٣]

**(٢/١)-٥ خطّ بجاية ميورقة:**

نشط هذا الخطّ التّجاري بفضل العلاقات الّتي كانت تربطهما والّتي امتازت في غالبيتها بالتّصدير والاستيراد، وقد ساعد على ذلك تقابل المدينتين وعلى مداومة الرّحلات بينهما، والّتي ستتضاعف بفعل استقرار بني غانية بجزر البليار؛ الّذين سعوا إلى توطيد علاقاتهم بتجار المدينة فكان الميورقيون يصرفون بضاعتهم من بجاية وبالمقابل يستردون من منتجاتها خاصّةً العبيد.[٢٤]

**(٢/١)-٦ خطّ جزائر بني مزغنّى ميورقة:**

كان أوّل مَنْ استعمل هذا الخطّ هو النّاصر الموحّدي إبّان تحرّك أساطيله في اتّجاه الجزائر الشّرقية في إطار صراعه مع بني غانية، وذلك حسب ما يورده ابن أبي زرع الفاسي،[٢٥] غير أنّ الحميري ذكر أنّ الحملة انطلقت من سبتة نحو دانية فميورقة.[٢٦]

**(٢/١)-٧ طريق تلمسان فاس:**

تسير القوافل التّجارية عبر هذا الطّريق الّذي يربط تلمسان بسجلماسة حيث يمرّ على فاس ومنها إلى صفروي ثمّ إلى تادلة ومنها إلى أغمات ومنها إلى درعة وصولاً إلى سجلماسة،[٢٧] وهناك طريق آخر طويل يمرّ عبر عدّة محطّات منها القرى وعدّة كور وصولاً إلى سجلماسة لكن سالكو هذا الطّريق قلائل إلاّ ندرة في الدّهر، ويبدو أنّ هذه الطّرق الّتي تمرّ عبر تلمسان إنّما وجدت لطبيعة الموقع الاستراتيجي لهذه المدينة والّتي تقع بين التّل والصّحراء فيقول الإدريسي فيها: "ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للدّاخل والخارج منها، لابدّ منها والاجتياز بها على كلّ حال".[٢٨]

**(٢/١)-٨ طريق تلمسان أوروبا:**

لم تقتصر تلمسان على الطرق التجارية الّتي تربطها بالمغرب الإسلامي بما فيها الأندلس، بل عرفت بتجارتها الخارجية مع دول أخرى، فقد تعاملت مع المدن الإيطالية في الضّفّة الأخرى، فكانت هناك طرق تجارية بين موانئ المدينة وأوروبا مثل خطّ جنوة مع بلاد المغرب الّذي يمرّ مباشرة بهنين بعد المرور بمرسيليا وبرشلونة، وخطّ ثاني ينطلق من البندقية إلى بلاد المغرب الّذي يمرّ بالإسكندرية، والخطّ المباشر بين إيطاليا والمغرب الأوسط حيث تنتقل السّفن مباشرة بين المدن الإيطالية ومدن المغرب الأوسط وخاصّةً بين البندقية وهنين.[٢٩]

**(٢/١)٩- طريق تلمسان إفريقيا السّوداء:**

أمّا الطّريق الواصل بين تلمسان، وإفريقيا السّوداء، فهو كذلك عبارة عن شبكة من المسالك الّتي تصل أهمّ مدن الشّمال الإفريقي بوسط القارّة السّوداء وغربها، وهناك طريق آخر شهدته الدّولة العبد الوادية ألا وهو الطّريق الواصل بين وهران وتمبكتو الّذي يمرّ بالنّقاط التّالية: "وهران، مشرية، عين الصّفراء، فيقيق، توات، عين رنّان، مبروك، تمبكتو".(٣٠)

**(٢/١)١٠- طريق تلمسان الإسكندرية:**

يمتدّ هذا الطّريق من تلمسان وفاس حيث يصل إلى تنس ثمّ يمرّ عبر وادي شلف ويتابع طريقه عبر الزّاب إلى المسيلة، ومن المسيلة يتفرّع هذا الطّريق الرّئيسي إلى ثلاث طرق يمرّ الأوّلان عبر هضاب تلال الأطلس، والثّالث عبر بلاد الجريد وبلاد الزّاب ومن ثَمَّ يدخل إلى المغرب الأدنى حيث يمرّ بالقيروان وصفاقس إلى أن يصل إلى الإسكندرية وهذا الطّريق هو الّذي يسمّيه البكري بالجاده.(٣١)

## ثانيًا: دور الطّرق التجارية

**١/٢- الرّبط بين المدن:**

كانت للطّرق التّجارية دور كبير في ربط مدن المغرب الأوسط سواء فيما بينها أو فيما بينها وبين مدن المغرب الإسلامي الخارجية، ناهيك عن دورها الكبير في سير القوافل التّجارية المحمّلة بالبضائع سواء الخارجة بالصّادرات أو الآيبة بالواردات، فمن خلال اطّلاعنا على المصادر الإخبارية والرّحلات الجغرافية يتمكّن الباحث من معرفة قيمة هذه الطّرق الّتي ربطت المغرب الأوسط، وكثيرًا ما نسمع في النصوص الواردة في المصادر: "ومن مدينة كذا إلى مدينة كذا مرحلتين أو ما شبه ذلك"، فالمقصود من هذا هو المسالك المؤدّية إلى هذه المدن بالإضافة إلى أدوار أخرى سنعكف على ذكرها.

كانت المسالك التّجارية طريقًا للحجّاج والعابرة من المتجوّلين والقاصدين للمدن في أغراض أخرى إذ يروي العبدري في رحلته لمّا رحل إلى تلمسان: "وأغرب ما شاهدته من منصور صاحبة مليكش وهو أنّ جماعة من الحجّاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلّة عند بيته فكلّموه في عشائهم فرحّب بهم".(٣٢) يُعَدّ هذا دليلاً قاطعًا على أنّ الطّرق التّجارية استعملت لرحلات الحجّ كما استعملت لرحلات القوافل التّجارية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يورد ابن حوقل في شأن أحد المسالك الّذي يربط بعض المدن الّتي تقع على ساحل المغرب الأوسط بدءًا من مدينة بونة حيث يقول: "وبينها وبين مدينة بني مزغناي مراسي ومنه إلى بجاية (مرسى) ومنه إلى مرسى بني جنّاد ومنه إلى مرسى الدّجاج".(٣٣) فهو بذلك يذكر الطّريق التّجاري السّاحلي الرّابط بين بونة إلى غاية مرسى الدّجاج مرورًا بالمدن السّابقة الذّكر، فكان هذا الطّريق -بغضّ النّظر عن استعماله للتّجارة- كان يستعمل في السّفر لطلب العلم وممرًا لعابري السّبيل لأنّه يمثّل دليلاً واضحًا لسالكيه القاصدين معظم المدن.

**٢/٢- الرّحلات العلمية:**

إنّ دور الطّرق التّجارية لا ينحصر في ميدان التّجارة والرّبط بين المدن فحسب، بل تعدّدت أدوارها بعدّة أشكال، فإذا أمعنّا النّظر في مساهمة هذه الطّرق والمسالك في المغرب الأوسط، فإنّنا نجد أنّها كانت دليلاً للرّحلات العلمية والجغرافية الاستكشافية، الّتي بفضلها تمكّنا من معرفة الخريطة الجغرافية لمدن وأقاليم ومسالك المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصّة، ومعرفة الأحوال الاجتماعية لسكّانه وقبائله، ونذكر على سبيل المثال من هذه الرّحلات؛ رحلة ابن بطّوطة، فقد ذكر هذا الأخير المدن الّتي مرّ بها مع القافلة الّتي رافقها وهي كالآتي "طنجة، تلمسان، مليانة، جزائر بني مزغناي، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس".(٣٤)

وبطبيعة الحال كان الطّريق الّذي مرّ به هو واحد من الطّرق التّجارية الدّاخلية للمغرب الأوسط، كما أنّ ابن بطّوطة عندما عاد من رحلته بحرا نزل بتنس متّجها منها إلى مازونة ثمّ مستغانم ثمّ تلمسان ثمّ ندرومة ثمّ تازى وصولاً إلى فاس ومن جهة أخرى فإنّ محمّد العبدري البلنسي قد سلك نفس الطّريق الّذي سلكه ابن بطوطة تقريبًا، غير أنّه كان أدقّ التّفاصيل من الأوّل، حيث عبر في مسلكه المدن التّالية: "تلمسان، مليانة، جزائر بني مزغنّاي، قسنطينة، بونة، باجة، تونس"،(٣٥) حيث يقول العبدري: "وهذه الرّحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، وكانت طريقنا على بلاد القبلة".(٣٦)

ويمكن أن نعطي دليلاً آخر يستطيع الباحث به أن يستقرّ على فكرة أنّ الطّرق والمسالك التّجارية كانت منفذًا للتّرحال والسّفر عبر أقاليم المغرب الإسلامي وحتّى خارجه، فمن خلال رحلة ابن خلدون نتمكن من التّعرف على طريق تجاري ربط المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، حيث نجده يتجوّل بين بجاية وبلاد الزّاب "بسكرة، المسيلة" وهنين ليصل إلى تلمسان،(٣٧) وكثيرًا ما كان ابن خلدون يخرج مع القوافل التّجارية قاصدًا المدن إمّا حاجًا تارة، أو مسافرًا إلى المشرق في رحلة علمية تارة أخرى.

فمن خلال هذه النّصوص نستنتج أنّ كلاً من "تلمسان ومليانة وقسنطينة وبونة" كانت مراكز عبور المغرب الأوسط التّجارية، حيث ورد ذكرها في أكثر نصوص الرّحالة الجغرافيين، بحكم تمركزهم على أهمّ الطّرق التّجارية، وبحكم قربها من الشّريط السّاحلي الّذي كان سهل المسلك وأرحم من المسالك الصّحراوية.

**٣/٢- التّصدير والاستيراد:**

لعبت الطّرق التّجارية دورًا هامًا في المبادلات التّجارية داخل المغرب الأوسط وخارجه، حيث أنّ القوافل التّجارية كانت تعبر هذه الطّرق والمسالك ذاهبة بالصّادرات وآيبة بمنتوجات أخرى، إمّا لضربها في المدن أو لإعادة المتاجرة بها مرّة أخرى، فمثلاً يذكر "صاحب الاستبصار" حول هذه الطّرق إذ يقول في شأن تنس: "يحمل الطّعام إلى الأندلس وإلى بلاد إفريقية والمغرب وهي رخيصة الأسعار"،(٣٨) كما يضيف "ابن حوقل" في نفس المدينة إذ يقول:

"ولسلطانها بها وجوه من الأموال كثيرة كالخراج والجوالي والصّدقات والأعشار ومراصد على المتاجر الدّاخلة والخارجة والصّادرة والواردة".[٣٩] فمن خلال هذين النّصين يستشفّ أنّ الطّرق التّجارية كانت تستعمل لتسويق المنتوجات المحلّية إلى الأصقاع المختلفة، ونستنتج هذا من خلال ضرب أيّ حصار على أيّ مدينة فإنّ المسالك التّجارية تعطّل وبالتّالي تتأزّم الأوضاع وتظهر المجاعة والأوبئة ولنا في حصار تلمسان من قبل المرينين أكبر دليل على ذلك،[٤٠] فكانت المنفذ والمتنفّس الوحيد لعيش سكّان مدن وأرياف المغرب الأوسط بحكم امتهانهم وممارستهم التّجارة، فقد كانت الطّرق والمسالك العامل الرّئيسي في ازدهار الحركة التّجارية وذلك بتوافرها وتعدّد مسالكها بالإضافة إلى استقرارها وأمنها.

لم تقتصر الحركة التّجارية على مدينة فحسب، بل اعتمدت في أغلب مدن المغرب الأوسط، فمع توفّر الأمن والاستقرار على الطّرق البحرية والبرّية، كانت وجوه موالية شطر المغرب الأوسط، إذ كانت وقتئذ هنين وأرشقول ووهران ومرسى الخرز ومرسى الدّجاج وبونة وتنس أهمّ موانئه في التعامل مع البلدان المجاورة، فكانت السّفن المشحّنة تقصدها مستوردة أهمّ المنتوجات، قاصدة بها الأندلس وجنوة وبيزا وتعود محمّلة ببضائع مرّة أخرى، وينطبق نفس الشّيء على القوافل البرّية الصّحراوية.[٤١]

## ثالثا: المراكز التجارية في المغرب الأوسط

**١/٣- المراسي التجارية:**

**(١/٣)١- ميناء هنين:**

يعتبر ميناء هنين من أشهر المراسي التّجارية في المغرب الأوسط ويقع هذا الميناء على بعد حولي ٣٠ ميلاً[٤٢] شمال تلمسان وهو بالقرب من مدينة ندرومة،[٤٣] وقد لعب دورًا هامًّا في تنشيط الحركة التّجارية حيث يقول شكيب أرسلان في الحلل السندسية: "عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء وخارجها زراعات كثيرة"،[٤٤] وكان هذا المرسى يحادي مراسي أخرى تقربه مثل مرسى الوردانية وأرشقول وكان مرسى هنين يقابل مرسى ألمرية على الضّفة الأخرى من الأندلس فعرض البحر بينهما مجريان.[٤٥]

**(١/٣)٢- مرسى الخرز:**

يقع هذا المرسى شرق بونة،[٤٦] وهي مدينة قد "أحاط بها البحر من كلّ جهة إلاّ مسلك لطيف"،[٤٧] وقد كان هذا المرسى في عهد بني حمّاد منطقة صناعية وبها مرفأ لصناعة السّفن" الّتي تغزى بها بلاد الرّوم"،[٤٨] وكان يوجد بها المرجان وهو أنفس مرجان الدّنيا،[٤٩] حيث كان يقصدها التّجار من كلّ حدب وصلب في استخراجه وبباع بالأموال الطّائلة.[٥٠] ويضيف الحميري في هذا الصّدد قائلاً: "وبينها وبين سردانية مجريان في البحر" ومن خلال هذا النّص يفهم أنّ العلاقات التّجارية بين مرسى الخرز وسردانية كانت على أحسن أحوالها، بحكم موقعهما الاستراتيجي وربّما أنّ تبادلها التّجاري كان متعدّدًا من حيث الصّادرات والواردات، وذلك نظرًا لما كانت ينتجه مرسى الخرز من سفن ومراكب بحرية.[٥١] هذا فيما يخص المعاملات التّجارية الخارجية، أمّا فيما يخصّ المعاملات التّجارية الدّاخلية فإنّها عُرفت بقلّة زرعها ومنتجاتها الزّراعية فكانت تعتمد على استيراد قوتها من بوادي العرب المجاورة لها، ولم يقتصر مرسى الخرز على منتجات هذه القبائل في تغطية حاجاته الغذائية بل كان يستوردها من بونة القريبة منه وتكون بهذا قد ساهمت في تنشيط الحركة التّجارية على الصّعيدين الدّاخلي والخارجي.

**(١/٣)٣- مرسى الدّجاج:**

هو مرسى قريب من مدينة أشير،[٥٢] وهي مدينة "قد أحاط بها البحر من ثلاث جهات"،[٥٣] وبها مرسى مأمون، وهي تُعرف بامتداد أراضيها الزّراعية حيث توفّر بذلك الزّرع والفواكه لسائر سكّانها، كما اشتهر مرسى الدّجاج بتنوّع لحومه ويسر ثمنه.[٥٤] ومن خلال المصادر الإخبارية يتبيّن لنا أنّ مرسى الدّجاج كان يحتوي على مرفأ وأسواق كانت مقصد التّجار من كلّ الأقطار المجاورة.[٥٥] ويجدر بنا الإشارة إلى؛ أنّ هذه المدينة كان يغلب عليها الطّابع التّجاري إذ كان تقابلها من الضّفة الأخرى جزيرة ميورقة، وهذا ما سمح لها من أن تبرز على الواجهة التّجارية لبحر الرّوم وتكون قبلة للتّجار الأندلسيين وغيرهم من أصقاع العالم الإسلامي وغيره بحكم موقعها الفريد.[٥٦]

**(١/٣)٤- مرسى الزّقاق (مدينة بونة):**

تعتبر مدينة بونة من المدن السّاحلية التّجارية في المغرب الأوسط "وهي من أنزه البلاد"،[٥٧] لما اشتملت عليه من الأمن والاستقرار، ويجدر بنا الإشارة إلى؛ أنّ في هذه المدينة مرسى عرف بـ "مرسى الزّقاق" وهو من المراسي المشهورة وتوجد به مراكب كثيرة حسب ما تشير إليه المصادر وذلك ربّما لغرض التّجارة والارتحال، بالإضافة إلى احتواء هذه المدينة على عدّة أسواق؛ وهو ما كان يوفّر لها أرباحًا طائلة يساهم بها التّجار في إنعاش الحركة التّجارية إذ يقول الإدريسي: "وكان بها أسواق حسنة"،[٥٨] و"تجارة مقصودة وأرباح متوسّطة".[٥٩] وإذا نظرنا برؤية تأمّلية إلى سبب هذه المساهمة في تنشيط الحركة التّجارية نجد أنّ بونة كانت مدينة زراعية حسنت المنبت كثيرة الخيرات مقصد كبار التّجار إذ "تنتج الفواكه الدّواني والقمح والشّعير والكتّان، وبها معادن الحديد الجيّد والعسل والخشب ومن الأنعام البقر".[٦٠]

**(١/٣)٥- مرسى مدينة وهران:**

تقع هذه المدينة على ساحل المغرب الأوسط، وهي من أشهر وأهمّ المراكز التّجارية، وذلك نظرًا لما تميّزت به من حيث موقعها الاستراتيجي والواقعة بين تلمسان على بعد ثلاثة مراحل كأقصى تقدير.[٦١] وقد اشتهرت هذه المدينة بجناتها وبساتينها الباسقة وكثرة ثمارها وخيراتها، حيث توجد بهذه الحاضرة أنهار كثيرة وأرحاء وعيون،[٦٢] وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على اهتمام أهلها بالزّراعة والتّجارة عمومًا، حيث يقول الإدريسي في هذا الصّدد: "وبها أسواق مقدّرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة".[٦٣]

إنّ هذه المدينة من أعزّ البلاد في المغرب الأوسط لما اشتملت عليه من خيرات وبحيّزها السّاحلي، فهي تملك مرسى ضخمًا تفتح التّجارة منه إلى ما سواه حيث يقابله في الضّفة الأخرى من الأندلس مرسى ألمرية بالإضافة إلى مرساها الصّغير يوجد بها مرسى كبير على بعد ميلين، ويُعَدّ هذا الأخير إلى جانب كبره وانفتاحه على التّجارة الخارجية من أحصن المراسي جغرافيًا وطبيعيًا خاصّةً وأنّه لا يتعرّض للرّياح القوية الّتي تهدّد السّفن، فهذه الميزة جعلته أكثر استقبالاً للسّفن المارّة به سواء التّجارية أو السّفرية.

**٢/٣- الحواضر التّجارية:**

**(٢/٣)١- مدينة تلمسان:**

تُعَدّ تلمسان واحدة من أكبر الحواضر التّجارية في المغرب الأوسط، فقد لعبت دورًا هامًا على الصّعيدين الدّاخلي والخارجي حيث يقول الإدريسي: "هي رصيف للدّاخل والخارج لابدّ منها وللاجتياز بها"،[٦٤] فموقعها الاستراتيجي الّذي يجمع فيه بين التّل والصّحراء مكّنها من أن تكون قبلة للقوافل التّجارية السّائرة بين المحورين الرّئيسين بين الواحات الصّحراوية من جهة وبحر الرّوم والمغرب الأقصى من جهة أخرى، فهي تُعَدّ بذلك "قاعدة المغرب الأوسط."[٦٥] وما يلاحظ هو أنّ إقليم تلمسان كان سببًا في استقطاب الدّخلاء والغرباء، حيث اجتذبت عرب بني هلال وبني سليم خاصّةً[٦٦] الّذين ساهموا في تنشيط الحركة التّجارية، وقد عرف عليهم تاريخيًا أنّهم كانوا يستحوذون على أهمّ الطّرق التّجارية.

كما أنّ تلمسان كانت حاضرة في مجال التّصدير والاستيراد، إذ كانت بها أسواق عُرفت برخائها وازدهارها وتنوّع منتجاتها ساهمت بذلك في تنشيط وتفعيل الحركة التّجارية، إذ يقول العبدري: "وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية وبها أسواق قائمة."[٦٧] ولعلّ ما يميّز طرقها التّجارية الخارجية منها والدّاخلة إليها هو الأمن والاستقرار نظرًا لما عرف على سكّانها من ليانة وحسن الأخلاق، الّتي يكتسبون من خلالها ودّ واحترام التّجار الّذين يقبلون عليها وهذا حسب ما يذكره العبدري في رحلته إلى تلمسان حيث يقول: "وأهلها ذو ليانة ولا بأس بأخلاقهم"، كما لا يستبعد أنّ السلاطين الّذين تعاقبوا على حكم تلمسان في عهد الدّولة الزّيانية كانوا مهتمّين بربط علاقات تجارية مع الدّول المجاورة، حيث شهدت تلمسان في عهدهم كلّ هذه العوامل مجتمعة جعلت من تلمسان منفذًا تجاريًا هامًا إلى البلدان المجاورة، إذ تجمع جلّ النّصوص التّاريخية للرّحالة الجغرافيين، بأنّها بلغت مبلغ التّاج عند السّلطان بالنّسبة للمغرب الأوسط، ناهيك عن الدّور الكبير الّذي قامت به موانئها المعروفة مثل: "أرشقول، هنين، ندرومة" في ربطها بالموانئ الخارجية المقابلة لها من الضّفة الأخرى.

**(٢/٣)٢- المسيلة:**

بعد أنّ أسّس هذه المدينة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة ٣١٣هـ، عرفت المدينة ازدهارًا كبيرًا ونموًّا مستمرًّا في المجال التّجاري.[٦٨] وبعد أن ولّي عليها وعل الزّاب علي بن حمدون،[٦٩] استطاع بحنكته وذكائه وتجربته، نشر الأمن والاستقرار اللّذان ساهما في تفعيل الحركة التّجارية الّتي لا يمكنها أن تتحرّك من دون هذين الشّرطين الرّئيسيين، أضف إلى ذلك موقعها الاستراتيجي حيث أنّها تمتلك سهولاً خصبة مثل سهل الحضنة كما هو معروف، ويشتمل هذا السّهل على أراضي زراعية واسعة، ممّا جعل الجغرافيين العرب يؤكّدون على أهمّية موقعها الاستراتيجي والاقتصادي ويبرزون دورها كنقطة مركزية تراقب المسالك الطّبيعية.[٧٠] فمثلاً ابن حوقل يولي للمسيلة أهمّية خاصّة بها فمن خلال ما يورده لنا في رحلته، يمكن التّعرف وبسهولة على أنّ مدينة المسيلة تتحكّم في الكثير من الطّرق التّجارية، ويجعل منها نقطة التقاء هذه الطّرق، حيث يمرّ بها مسلكان هامان الأوّل من القيروان إلى المسيلة مرورًا ببلاد كتامة والأربس، والثّاني يمرّ من القيروان على طبنة وبسكرة وبلاد الجريد، وطريق آخر يمرّ إليها ويعبر إلى فاس مباشرة.[٧١]

فمن خلال تحكّمها في هذه الطّرق التّجارية الخارجية، استطاعت أن تفرض نفسها على السّاحة التّجارية كحاضرة من العيار الثّقيل، وساهمت بدور فعّال في إنعاش الحركة التّجارية خاصّةً إذا قلنا أنّها كانت تحتوي على أسواق، يرجّح أنّها استُغلّت في تصدير واستيراد السّلع والمنتجات، إذ يقول ابن حوقل: "ولهم من السّفرجل المعنّق ما يحمل إلى القيروان"،[٧٢] وهذا يُعَدّ نصًّا صريحًا يدلّنا على أنّ عملية التّصدير كانت تتمّ عبر طرقها التّجارية إلى مدن المغرب الإسلامي المتعامل معها.

ومن خلال النّصوص التّاريخية يمكن رصد بعض المنتجات الزّراعية الّتي كانت تنتجها هذه المدينة وربّما ما زاد عن حاجتهم كان يوجّه للتّصدير، فيورد لنا الحموي أنّ "لأهلها سوائم وخيل وأغنام وأبقار ونبات وعيون وفواكه ومزارع قطن وقمح وشعير"،[٧٣] كما أنّ سكّان المسيلة كانوا من تجّار البربر، فقد اهتمّ أهلها بالزّراعة واتّخذوها مهنة لهم وبزغوا فيها، ويحتمل أنّهم كانوا يتبادلون السّلع في أسواق المدينة أثناء مرور القوافل التّجارية عبرها.

**(٢/٣)٣- تاهرت:**

من خلال الاطّلاع على المصادر التّاريخية للرّحالة الجغرافيين يمكننا الخروج بفكرة عامة حول مدينة تهرت ودورها الكبير في تنشيط الحركة التّجارية، فمن خلال ما ذكره المقدسي حول هذه المدينة في قوله: "هو بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيّب رشيق الأسواق"،[٧٤] يتبيّن لنا أنّ المدينة تميّزت بطابعها الزّراعي، وذلك تبعًا لطبيعة سكّانها الّذين يميلون بدورهم إلى امتهان الزّراعة، ومع مرور الوقت أصبحت تاهرت مقصد العديد من التّجار قصد المتاجرة فيها[٧٥] سواء لبيع منتجاتهم أو لشراء ما يحتاجونه حتّى أنّ المقدسي يقول في هذا الشّأن: "وانتعش فيها الغريب واستطابها اللّبيب"،[٧٦] وهذا دليل على الازدهار التّجاري الّذي عُرفت بها، كما أنّها تحكّمت في الكثير من الطّرق التّجارية الّتي كانت تمرّ بها أو

تنطلق منها إلى ما سواها إذ يورد لنا ابن الصّغير في قوله: "وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتّجارة وضروب الأمتعة".(٧٧) لم تقتصر تاهرت على الطّرق التّجارية الدّاخلية فحسب، بل استولت على الطّرق التّجارية الخارجية إلى سجلماسة والمشرق وما دون ذلك، فقد نشطت تجارتها وشارك فيها كل الرّعايا بمختلف اتّجاهاتهم وانتماءاتهم فشارك فيها النفوسيون والعرب وحتّى الفرس.(٧٨)

**(٣/٢)٤- وارجلان:**

لقد كانت وارجلان حاضرة تجارية، نظرًا لطبيعتها الصّحراوية، فقد لعبت أدوارًا هامّة حيث أنّها كانت تتحكّم في الكثير من الطّرق التّجارية الّتي تنفذ إلى بلاد السّودان، ويجدر بنا الإشارة إلى؛ أنّ هذه المدينة امتلكها الرّستميون في عهدهم واتّخذوها قاعدة تجارية لهم وهذا حسب ما يورده في شأن هذه المدينة حيث يقول: "والسّفرجل منها (وارجلان) في الصّحراء إلى بلاد السّودان كثير".(٧٩) وإذا قارنا النّصوص التّاريخية الّتي تحدّثت عنها فأنّه يمكننا أن نحكم حكمًا نسبيًا على أنّ وارجلان كانت مركزًا تجاريًا تربط الطّرق التّجارية ببعضها البعض، نذكر على سبيل المثال أنّ طريق المسيلة الّتي كانت تبعد عنها حوالي(١٢) مرحلة،(٨٠) كان يلتقي بالطّرق الّتي تصل وارجلان بغانة وكوغة وقفصة.(٨١)

ومن العوامل الّتي ساعدت وارجلان على كسب هذه المكانة بين كلّ المدن الصّحراوية، هو طبيعة أهلها الّذين تمرّسوا على عبور الطّرق والمسالك التّجارية ومرافقة القوافل التّجارية العابرة والآيبة من بلاد السّودان، إضافة على ذلك أنّ غالبية أهلها كانوا يتشكّلون من عدّة قبائل عرفوا باحترافهم للتّجارة وبغناهم وثرائهم، فكانوا يتجوّلون في بلاد السّودان وبلاد غانة وونقارة، حيث يجلبون منها التّبر ويضربونه في بلادهم، ولا نستبعد أنّهم قد يتاجرون به مرّة أخرى مع النّواحي والأقاليم المجاورة الّتي كانت تتعامل معها.

لم يقتصر أهل وارجلان في تجارتهم بين مدينتهم وبلاد السّودان فحسب، بل كانوا يشكّلون عنصر الوساطة بين بلاد السّودان وبين سجلماسة وبلاد الزّاب،(٨٢) فكانت المنتجات الواردة من بلاد الجنوب تصل إلى أهلها في المناطق السّالفة الذّكر على أيدي تجّار المدينة، وهكذا نلاحظ مدى مساهمتها في تنشيط وتفعيل الطّرق والمسالك التّجارية الّتي تعتبر شريان المغرب الأوسط، وبالتالي ازدهار الحركة التّجارية.

## رابعًا: المبادلات التجارية في المغرب الأوسط

**٤/١- الصّادرات:**

إنّ حواضر المغرب الأوسط لعبت دورًا كبيرًا في ازدهار النّشاط التّجاري بفعل منتوجاتها وقوافلها التّجارية سواء العابرة إلى البلاد الخارجية أو الرّاجعة منها، وعلى رأس هذه الحواضر نجد المسيلة حيث يقول ابن حوقل: "ولهم عليه كروم واجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم"،(٨٣) ممّا يدلّنا على أنّ هذه المدينة كانت تصدّر منتوجاتها إلى الأمصار المجاورة على غرار تحقيق حاجاتها ومتطلّباتها، ويورد نفس المصدر في هذا الشّأن حيث يقول: "ولهم من السّفرجل المعنّق ما يحمل إلى القيروان وأصله من تنس"،(٨٤) فكانت مدن المغرب الأوسط تقوم بعمليّة التّبادل التّجاري فيما بينها وفيما بينها وبين البلدان المجاورة، وهذا فإن يدّل فإنّما يدلّ على تنوّع منتوجاتها وسلعها الموجّهة للتّصدير، ممّا يجعلها قبلة للتّجار الوافدين إلى المغرب الأوسط، وبالإضافة إلى تلك المحاصيل السّابقة الذّكر نجد زراعة القطن والحنطة والشّعير حاضرا عندهم بالإضافة إلى تربية المواشي ولم نلمس في كتب الرّحالة والجغرافيين أنّها كانت موجّهة للتّصدير.

لم تقتصر المبادلات التّجارية على مدينة بعينها فحسب، بل عرف المغرب الأوسط عدّة مدن وحواضر ساهمت بدور كبير في إنعاش التّجارة، فكانت تاهرت وما جاورها هي الأخرى حاضرة، ومن أهمّ منتوجاتها الّتي كانت تحمل إلى بلاد السّودان الأكسية القطنية والكتّانية وأثواب الصّوف والعمائم وأصناف من الزّجاج الأزرق والأصداف والأحجار، كما يحمل إليها النّحاس الأحمر الملوّن ومنتجاته من الأساور والخواتم والخزف ذي البريق المعدني والملح؛ وتعتبر هذه المادّة أهمّ السّلع المتعامل بها مع أهل السّودان إذ يقوا ابن بطّوطة في هذا الصّدد: "وبالملح يتصارف السّودان كما يتصارف بالذّهب والفضّة يقطّعونه قطعًا ويتبايعون به".(٨٥)

إنّ صادرات مدن المغرب الأوسط تنوّعت من حيث المنتوجات ومن حيث الأقاليم المتعامل معها، وذلك نظرًا لموقعها الاستراتيجي الّذي يسمح لها بالقيام بهذا الدّور، فمن خلال المصادر التّاريخية نستنتج أنّ التعامل مع المغرب الأقصى كان يحتل مركزًا هما من حيث التّصدير، فنجد أنّ بونة مثلاً الّتي اشتهرت بإنتاج الحنطة والشّعير،(٨٦) لكن لا نملك نصًّا صريحًا يدلّنا على أنّ هذه المادّة كانت تصدّر إلى المغرب الأقصى، ولكن يبدوا أنّ الفائض منه يسوّق إليه بحكم قرب المسافة وكثرة التّعامل مع هذا الإقليم ولكن الّذي بين أيدينا من الدلائل هو ما أورده ابن حوقل حيث يقول: "ما يحمل منه إلى البلاد النّائية عنه"،(٨٧) كما أنّ جزائر بني مزغنّاي اشتهرت بإنتاجها العسل والسّمن والتّين، ومدينة تنس الّتي ذكرها صاحب الاستبصار بكثرة الزّرع وبخس الأثمان وذكر لنا أنّ منها تؤخذ المنتوجات إلى سائر بلاد المغرب ومن ضمنها المغرب الأقصى.(٨٨)

هذا فيما يخصّ المنتوجات الزّراعية، أمّا فيما يخصّ المنتوجات الحيوانية فقد اشتهرت تهرت بتربية المنتوجات عمومًا الّتي كانت تساق إلى بلاد المغرب حيث يقول الحميري: "وبأراضيها مزارع وضياع جمّة وبها من نتاج البراذين والخيل كلّ شيء حسن، وبها البقر والغنم كثير جدًّا".(٨٩) كما اشتهرت مدينة بونة في المغرب الأوسط بتجارة الصّوف والماشية من الدّواب، أمّا فيما يخصّ المعادن فإنّ هذه المدينة السّالفة الذّكر اشتهرت بمعادنها الوافرة، فحسب ابن حوقل فإنّ يذكر لنا أنّ معدن الحديد كان متوفّرًا جدًّا في هذه المدينة،(٩٠) وقد دخل ضمن صادراتها ولكن لم يحدّد لنا

الأقطار الّتي كانت تتعامل معها في تصدير هذه المادّة، ومن الرّاجح أنّها كانت تصدّره إلى كافة المغرب بما فيه الأدنى والأقصى، أمّا من مدينة تلمسان فكان يحمل منها إلى الخارج الصّوف وسروج الخيل إلى أقاليم المغرب.[٩١] ومن صادرات المغرب الأوسط ما يورده الإدريسي حول مدينة تنس الّتي تصدّر منها سائر الحبوب، حيث يخرج منها إلى كلّ الآفاق في المراكب حيث يقول: "وبها من الفواكه كلّ طريفة ومن السّفرجل الطّيب المعنّق ما يفوت الوصف في كبره ووصفه"، وليس بالغريب إذا قلنا بأنّ السّلعة الأكثر جودة، هي الأكثر طلبًا وتسويقًا وتصديرًا، وهذه الميزة هي الّتي أفصحت المجال لمدن المغرب الأوسط للمساهمة في الحركة التّجارية النّشيطة آنذاك.

من خلال طريقة الأعمدة البيانية الّتي عمدنا إليه في دراسة أهم المنتجات الموجّهة للتّصدير في بلاد المغرب الأوسط يستنتج أنّ القمح والحنطة والشّعير والصّوف يتقدّم في المركز الأوّل من صادرات المدن بمعدّل (٢٦,٩٢) بالمائة، في حين أنّ تصدير المواشي من الأغنام والأبقار يقدّر بحوالي (١٥,٣٨) بالمائة، وهناك صادرات أخرى تراوحت بين الفواكه كالسّفرجل والتّين والتّمور والمعادن بنسبة (٧,٦٩) بالمائة، أمّا المرجان فكان تصديره قليلاً إذ كان معدّله حوالي (٣,٨٤) بالمائة وذلك نظرًا لقلّة المدن السّاحلية الّتي يوجد بها هذا الأخير ولصعوبة صيده، فمجمل الصّادرات كانت عبارة عن المنتجات الزّراعية، وهذا دليل على أنّ أهل هذه المدن كانوا يمتهنون الزّراعة والتّجارة.

**٢/٤- الواردات:**

بما أنّ مدن المغرب الأوسط كانت مدنًا تجارية فبطبيعة الحال كانت تستورد سلعًا، كما كانت تصدّر منتجاتها، ولعلّ أنّ بين هذه المدن والّتي تأتي في المرتبة الأولى تيهرت. فإذا تحدّثنا عن وارداتها في عصر الدّولة الرّستمية فيمكن أن نستخلص ممّا يورده البكري أنّها كانت تتعامل في غالب الأحيان مع سجلماسة، حيث كانت القوافل التّجارية تعبر عبرها أو تستقرّبها وتحمل منها بعض المنتجات والسّلع،[٩٢] ومن بين ما اشتهرت به سجلماسة ما يذكره الحميري "وعندهم غلاّت القطن والكمّون والكرويا والحنّاء".[٩٣]

كانت المنتجات تصل إلى مدن المغرب الأوسط عن طريق القوافل التّجارية الّتي كانت تتجوّل في بلاد السّودان أو في المغربين الأدنى والأقصى فيأخذون السّلع والمنتوجات ذاهبين ويرجعون بسلع أخرى آيبين، وخاصّةً المدن الواقعة على الطّرق التّجارية مثل وارجلان، حيث يقول الإدريسي: "فيها قبائل مياسير وتجّار أغنياء يتجوّلون في بلاد السّودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التّبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم"،[٩٤] فكان التّبر أهمّ واردات المغرب الأوسط من بلاد السّودان لاشتهارهم به ولجودته، ولقد برز أهل وارجلان في التّجارة مع بلاد السّودان لأنّهم أعرف النّاس ببيئتها لتشابه نمط العيش وتشابه جغرافية المسالك التّجارية.

ويتصدّر معدن الذّهب قائمة السّلع الّتي تصل إلى المغرب الأوسط من بلاد السّودان ونلمس هذا من خلال ما أورده البكري حيث يقول: "وأفضل الذّهب في بلاده ما كان بمدينة غياروا وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يومًا في بلاد معمورة بقبائل السّودان".[٩٥] وبالإضافة إلى الذّهب كان الرّستميون يستوردون من بلاد السّودان الغربي الأحجار الثّمينة والشّب والعنبر وريش النّعام وغير ذلك من المواد، كما أنّ التّجار الرّستميين أولوا اهتمامًا بالغًا بتجارة العبيد فجلبوا عددًا كبيرًا منهم إلى درجة أنّهم صاروا يشكّلون طبقة اجتماعية لا بأس بها في المجتمع التّيهرتي، كما لا نستبعد أنّ هؤلاء التّجار عمدوا إلى المتاجرة بهذه البضاعة بتوزيعها إلى الحواضر الإسلامية الأخرى خارج التراب الرّستمي.[٩٦]

وقد اشتهر المغرب الأقصى ما بين القرن (٣-٥هـ) بإنتاج السّكر النّحاس الّذي يسمّيه الزّهري بـ "النّحاس المصبوغ السّوسي"،[٩٧] ومن خلال ما سيذكره الزّهري يمكننا رصد البلدان والأقاليم الّتي تساق له هذه المنتوجات حيث يقول: "ومن هذه البلاد يجلب السّكر السّوسي إلى إفريقية والمغرب والأندلس وبلاد الرّوم والإفرنج وكذلك النّيل الدّرعي والشّب".[٩٨] ومن خلال هذا النّص الصّريح يمكن لنا أن نحكم حكمًا نسبيًا أنّ هذه المنتوجات كانت تصل إلى المغرب الأوسط بحكم القرب الجغرافي والتعامل التّجاري الدّائم على الطّرق الرّابطة بينهما، كما اشتهرت بلاد السّوس بالألبسة الرّقاق والثّياب الرّفيعة والثّياب الصّوفية الّتي كانت تنسج في مدينة سجلماسة، والّتي كانت تحمل إلى سائر بلاد المغرب بحكم الصّناعة الجيّدة والمتميّزة.[٩٩] كانت تلمسان تستورد من بلاد السّودان الرّقيق والذّهب والملح والنّحاس وريش النّعام، وبعض البهارات مخاصّة الفلفل السّوداني،[١٠٠] أمّا السّلع الواردة من أوروبا فتنحصر في المنسوجات من الجوخ وغيرها، ومن الأسلحة من الرماح وسيوف وخناجر.[١٠١]

## خامسًا: عوامل ازدهار التجارة في المغرب الأوسط

اشتركت عوامل عديدة في تنشيط الحركة التّجارية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإن اختلفت هذه العوامل، إلاّ أنّ كلّ مدينة تميّزت بميزة انفردت بها عن سائر المدن الأخرى، وكلّ ذلك هو السّبب وراء ظهورها كحواضر تجارية، منّت على كثير من أصقاع العالم بخيراتها، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أنّ التّجارة في العهد الرّستمي (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٦-٩٠٩م) نشطت بشكل كبير، فمن خلال المصادر التّاريخية المعاصرة لها مثل ابن الصّغير، نستشفّ أنّ تيهرت كانت قبلة للتّجار الّذين كانوا يفدون إليها من كلّ أصقاع العالم الإسلامي فيقول ابن الصّغير في هذا الصّدد: "واستعملت السّبل من مشرق وغرب بالتّجارة وضرب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنتين أو أقلّ من ذلك أو أكثر والعمارة والنّاس والتّجار من كلّ الأقطار تاجرون".[١٠٢] فمن خلال هذا القول يستنتج؛ بأنّ إعمار المدن والحواضر وازدهار التّجارة وإقبال التّجار إليها لا يكون إلاّ إذا توفّر الأمن والاستقرار سواء عبر طرقها

ومسالكها التّجارية أو داخل المدينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ؛ أنّ الخوارج قد لعبوا أدوارًا تفوّقوا بها على الكيانات السّياسية الأخرى في إفريقية والمغرب الأقصى، حيث أنّهم ساهموا في تنشيط الحركة التّجارية بين بلاد السّودان وواحات الصّحراء والمغرب الأوسط إجمالاً، فقد ربطوه بالمشرق الإسلامي وبموانئ البحر المتوسّط.[١٠٣] ويرجع السّبب في ذلك إلى اهتمامهم بالعمارة والبناء وإحياء الموات من الأراضي وغرس البساتين وإجراء الأنهار، فكانت نتيجة ذلك أن أتتهم الوفود والقوافل التّجارية من كلّ أصقاع العالم.[١٠٤]

فمثلا في عهد الدّولة الحمّادية (٣٩٧-٥٤٧هـ/٩٩٧-١١٤٣م) قامت تجارة نشيطة يُعتقد أنّها كانت تتناقل داخليًا وخارجيًا، ففي مدينة جزائر بني مزغنّاي وقسنطينة والمسيلة وغيرها قامت بها أسواق كثيرة كما يحدّثنا الجغرافيون، والبعض منها كانت تتوفّر على طرق تجارية متنوّعة تساعد على إحداث تكامل اقتصادي بواسطة التّبادل التّجاري فيما بينها وفيما بينها وبين الأقطار الخارجية ويستطرد في هذا الشّأن الإدريسي قائلاً: "يُجلب إليها من أقاليمها الزّيت البالغ الجودة والقطران" وعن جزائر بني مزغناي يقول: "يتجهّز بسمنها وعسلها إلى سائر البلاد"،[١٠٥] ويضيف الإدريسي أنّ سمك المسيلة يصطاد ويحمل إلى قلعة بني حمّاد.[١٠٦]

فمثلاً في عهد الدّولة الزّيانية تكوّنت شركة صحراوية هي شركة المقرّين فقد نقل لسان الدّين الخطيب في الإحاطة عن شيخيه "أبي عبد الله المقرّي" أنّ لجدّه "أبي بكر بن يحيى بن عبد الرّحمان" أربعة إخوة اشتركوا في التّجارة، فمهّدوا طريق الصّحراء بحفر الآبار وتأمين التّجارة، واتّخذوا طبلا للرّحيل وراية تقدّم عند المسير، وكان "أبو بكر بن محمّد" في تلمسان، و"عبد الرّحمان" في سجلماسة، و"عبد الواحد وعلي" في إيوالاين الواقعة في الشّمال الغربي لتمبكتو على (٤٠٠) ميل، فكان التّلمساني يبعث إلى الصّحراء بما يرسم له من السّلع، وذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتّبر، والسّجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرّفهما بقدر الرّجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التّجارة والبلدان، فاتّسعت أموالهم وعظم شأنهم.[١٠٧] فمن خلال هذا يمكن أن نرصد أنّ لسلامة وأمن الطّرق وتمهيدها أكبر الأثر على حسن سير القوافل التّجارية وتنمية حركتها، وبالتّالي تصبح الحاضرة التّجارية مقصد الكثير من التّجار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نرصد من هذه الرّواية أنّ التّمرسّ على فنّ التّجّارة من الأمور الّتي تمكّن الدّول والقبائل والأمم من أن يبلغوا مبلغ التّاج عند السّلطان، حيث أهل الخبرة والثّقة والتّحكم في سير القوافل التّجارية، يلعبون الدّور الحسّاس في إبراز منتجاتهم إلى الدّول المجاورة والنّائية.

وممّا يلاحظ؛ أنّ تطوّر الحركة التّجارية تزامن مع الازدهار الحضاري والعمراني لمدن المغرب الأوسط، وهذا ما ينعكس إيجابًا على مداخيل المدينة نتيجة استقبال الوافدين من التّجار وغيرهم، وفي هذا الصّدد يشير عبد الرّحمن بن خلدون إلى العلاقة بين العمران والازدهار الاقتصادي حيث يقول: "ومتى عظم الدّخل والخرج اتّسعت أحوال السّاكن ووسع المصر"، حيث يكون للمدينة دور في تنمية النّشاط التّجاري على الصّعيد الدّاخلي والخارجي.

أمّا فيما يخصّ دور القبائل الهلالية  الّتي توزّعت في نواحي المغرب الأوسط، بما فيها قبائل رياح وزغبة والأثبج ، وحسب ما يورده ابن خلدون في شأنهم فقد كان تاريخهم قاتمًا ولم نجده يذكرهم في أيّ مقام بصفة تمكّننا من أن نحكم عليهم بالإيجاب إزاء تنشيط الحركة التّجارية،[١٠٨] ولم يخلف رأيه آراء المؤرّخين الآخرين إذ يمكننا أنّ نقول بأنّ "هجرة الهلاليين إلى المغرب الأوسط كانت نعمة ونقمة في آن واحد نعمة في تعريب اللّسان ونقمة في تخريب الدّيار"، فبمجرّد انتقالهم من القلعة إلى بجاية[١٠٩] ونحو الجزء الغربي من المغرب الأوسط اضطرت بعض القبائل البربرية للنّزوح نحو المراعي والأراضي ذات الكلأ.[١١٠] ولقد تأثّرت نتيجة ذلك كبرى الحواضر التّجارية مثال تاهرت والقيروان وسجلماسة، ونلاحظ بأنّ هذه المدن كانت من أهمّ المراكز الّتي تتحكّم في الطّرق التّجارية الدّاخلية والخارجية ويبقى السّؤال المطروح هو: هل تعمّدت القبائل الهلالية ذلك رغبةً وطمعًا في إضعاف الحركة التّجارية؟ أم أنّ ذلك جاء نتيجة مسبّبات أخرى لم يتحمّل الهلاليون مسؤوليتها؟

ويجدر بنا الإشارة إلى؛ أنّ التّغريبة الهلالية في المغرب الأوسط كانت أقلّ ضررًا ممّا شهدته طرابلس وبرقة وإفريقية، لأنّ المغرب الأوسط لم يكن هو المقصود بهذه الحملة،[١١١] ونتيجة لهذه الزّحفة -كما يطلق عليها الكثير من المؤرّخين- اندمج الهلاليون مع القبائل البربرية بمرور الوقت، وأصبحوا تجّار إقطاعيين وتخلّصوا من بداوتهم وظهرت عليهم علامات التّحضّر بعدما عرفوا بتعصّبهم للقبيلة،[١١٢] وكان من نتائج ذلك أن سيطروا على الطّرق التّجارية ومياه الآبار، ففرضوا الجزية على سكّان مدن المغرب الأوسط من محاصيل القمح والتّمور والزّيتون فأصبحت التّجارة خاضعة للتّسلّط الهلالي.[١١٣] ويستعرض لنا ابن خلدون عن حادثة تاريخية إذ يقول: "ولمّا ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره، دخل زغبة هؤلاء التّلول وتغلّبوا فيها ووضعوا الأتاوة على الكثير من أهلها". ولكن مع كلّ ذلك سارت الطّرق التّجارية حتّى في أسوء الظّروف. ومن هذا نستخلص بأنّ الهجرات الهلالية كانت نكبة على المغرب الإسلامي سياسيًا واقتصاديًا.

## خاتمة

تعدّدت الطّرق التّجارية في المغرب الأوسط وتشعّبت مسالكها، حيث سارت بين حواضرها ومراسيها، ويجد بنا الإشارة إلى: أنّ هذه الطّرق كانت تتعامل مع كلّ الأقطار والأقاليم سواء في البلاد الإسلامية، أو الدّول المقابلة له من الضّفة الأخرى، فالازدهار الحضاري الّذي شهدته دول المغرب الأوسط لم تكن بمعزل عن حاجتها للطّرق التّجارية الّتي مكّنته من ولوج صرح الحركة التّجارية، غير أنّ هذه الطّرق لم تكن وليدة العدم وإنّما تحكّمت في ظهورها

الكثير من العوامل الّتي لا نكاد نخصّ واحدًا منها إلاّ كان الثّاني مكمّلاً لها، فطبيعة الموقع الاستراتيجي الّذي تمتّع به جعله مركزًا تجاريًا مهمًّا ومنفذًا رئيسًا إلى الأقاليم الجنوبية والمغربين الأدنى والأقصى بحكم أنّه بوابة المغرب الإسلامي نظرًا لشاسعته وطبيعة مدنه وأقاليمه الّتي تتنوّع من حيث التّضاريس الجبلية والسّهلية والهضاب، الّذي ينعكس على تنوّع المنتجات والمحاصيل الزّراعية والّتي تُوجّه للتّصدير، بالإضافة إلى أنّ المغرب الأوسط انحصر بين المغرب الأقصى والمغرب الأدنى وبلاد السّودان، فمن الضّروري اتّخاذ طرقه دليلاً واصلاً إلى حواضر المغرب الإسلامي كفاس والقيروان وميورقة والمِيرية.

ومن العوامل الّتي ساعدت على إيجاد الطّرق التّجارية وتنوّعها هو وجود كيانات سياسية تمثّلت في الدّولة المستقلّة الّتي عملت على تنشيطها وأمنها واستقرارها من أجل قضاء ما تحتاجه من الواردات قصد دعم قوّتها السّياسية والاقتصادية، فحتّى مع وجود بعض الإضرابات والفتن والقرصنة فإنّ عمليات التّبادل التّجاري لم تركن عند نفسها. كما أنّ وجود الأسواق وبخس أثمان السّلع في حواضر المغرب الأوسط ونوعية منتجاتها ومصداقية تجارها جعلها تكسب ثقة التجار، وجعلت القوافل التّجارية تقفل صوبه.

## الهَوامِشُ:

(١) شقداد بسام كمال عبد الرّزاق، **تلمسان في العهد الزّياني (٦٣٣هـ-٩٦٢هـ/١٢٣٥م-١٥٥٥م)**، رسالة ماجيستير، جامعة النّجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٢، ص١٩٥.

(٢) الإدريسي، **المغرب وأرض السودان ومصر (مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٤، ص٢٥٠-٢٥٢.

(٣) بوزيان الدّراجي، **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٢١٥.

(٤) عبد الحميد حاجيات وآخرون: **كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط**، طبعة خاصّة، منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤، ٢٠٠٧، ص١٥٢.

(٥) البكري أبي عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د-ت)، ص٦٤-٦٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٦٥.

(٧) **الزّاب**: يضمّ الزّاب إقليمًا يضمّ خمسة مدن وهي: (بسكرة، البرج، نفطة، تلكة، دوسن)، وفي بلاد الجريد حاليًا نفس عدد المدن وهي: (توزر، قفصة، نفزاوة، الحمة، قابس)، ويجيء بعد هذا الإقليم إلى جهة الشّرق (جزيرة جربة، غريان، مسلاتة، مسراتة، تاورغة، غدامس فزان، أوجلة، برداي والواحات)، يُنظر: الفاسي الحسن بن محمّد الوزان: **وصف إفريقيا**، تر: محمّد حجّي، محمّد الأخضر، ج١، ط٣، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣، ص٣٢.

(٨) عبد الكريم يوسف جودة، **العلاقات الخارجية للدّولة الرّستمية**، المؤسّسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، ص٢٨٩-٢٩٣.

(٩) خالد بلعربي، **العلاقات التّجارية بين تاهرت ومراكز التّجارة في بلاد المغرب والأندلس حتّى أواخر القرن الثّالث الهجري**، "مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية"، ع٥، منشورات مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٢٣٧.

(١٠) ابن الصّغير: **أخبار الأئمة الرّستميين**، تحقيق، محمّد ناصر وإبراهيم بحّاز، مركز الوثائق الاجتماعية والاقتصادية، ١٩٨٦، ص١٢.

(١١) عبد الحميد وآخرون حاجيات، المرجع السابق، ص٧١.

(١٢) فطيمة مطّهري، **مدينة تهرت الرّستمية (دراسة تاريخية وحضارية القرن ٢هـ/٣هـ – ٨م/٩م)**، رسالة ماجيستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية– قسم التّاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص ١٧٤.

(١٣) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص٢٣٨.

(١٤) عبد الكريم يوسف جودة، المرجع السابق، ص٢٢٤.

(١٥) الإدريسي: المصدر السّابق، ص٨٢.

(١٦) البكري أبي عبيد، المصدر السّابق، ص١٥٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص١٤٩.

(١٨) **أودغست**: أو أودغشت، وهي مدينة بين صحراء لمتونة والسّودان، وهي بين جبلين شبه مكّة في الصّفة: يُنظر: الحميري محمّد بن عبد المنعم، **الرّوض المعطار في أخبار الأقطار**، تحقيق: إحسان عبّاس، ط٢، مطابع هيدلبرغ، ١٩٨٣، ص٦٣.

(١٩) محمّد عيسى الحريري، **الدّولة الرّستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وسياستها بالمغرب والأندلس ١٦٠-٢٩٦هـ)**، دار العلم للنّشر والتّوزيع، ط٣، ١٩٨٧، ص٢١٠.

(٢٠) **كوكو**: هي مدينة مشهورة الذّكر في بلاد السّودان: الحميري، المصدر السّابق، ص٥٠٢.

(٢١) بحاز إبراهيم بكير، **الدّولة الرّستمية ١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٦-٩٠٩م (دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية)**، ط٣، منشورات ألفا، الجزائر، ٢٠١٠، ص٢٦٠.

(٢٢) عبد الحميد حاجيات وآخرون، المرجع السابق، ص٧٢.

(٢٣) بحاز إبراهيم بكير، المرجع السّابق، ص٢٦٢.

(٢٤) الطّاهر قدوري، **المسالك البحرية في المغرب الوسيط خلال القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م**، "مجلّة التسامح"، جوان، ٢٠١٠، ص ٥-٦.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٦.

(٢٦) الحميري، المصدر نفسه، ص٥٦٨.

(٢٧) الإدريسي، المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٥٠.

(٢٩) بسام كمال عبد الرّزاق شقداد، المرجع السّابق، ص١٩٥.

(٣٠) بوزيان الدّراجي، المرجع السّابق، ص٢١٧.

(٣١) حسن أحمد خضيري، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، مكتبة مدبولي، (د-ت)، ط١، ص٩٥.

(٣٢) محمّد العبدري البلنسي، **الرّحلة المغربية**، تقديم، بوفلاقة سعد، منشورات بونة للبحوث والدّراسات، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٧.

(٣٣) ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٦، ص٧٧.

(٣٤) بوزيان الدّراجي، المرجع السّابق، ص٢١٥.

(٣٥) نفسه، ص٢١٦.

(٣٦) العبدري، المصدر السّابق، ص٢١.

(٣٧) عبد الرّحمان بن خلدون، **التّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرق**، تحقيق، محمّد بن تاويت الطّنجي، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٥-١٦.

(٣٨) مؤلّف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النّشر المغربية، الدّار البيضاء، المغرب الأقصى، ١٩٨٥، ص١٣٣.

(٣٩) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٧٨.

(٤٠) التنسي محمّد بن عبد الله، **تاريخ ملوك بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تحقيق، محمود بوعياد، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٣٠-١٣٢.

(٤١) محمّد الطّمار، **تلمسان عبر العصور (دورها في سياسة وحضارة الجزائر)**، تقديم عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٠٩.

(٤٢) الإدريسي، المصدر السّابق، ص١٧٢.

(٤٣) الحميري، المصدر السّابق، ص٥٩٧.

(٤٤) شكيب أرسلان: **الحلل السّندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، ج١، ط١، المطبعة الرّحانية، ١٩٣٦، ص٦٩.

(٤٥) مقديش محمود، **نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزّواوي ومحمّد محفوظ، المجلّد الأوّل، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ص١٦٤.

(٤٦) الحميري، المصدر السابق، ص٥٣٨.

(٤٧) البكري، المصدر السّابق، ص٥٥.

(٤٨) عبد الحميد حاجيات، المرجع السّابق، ص١٥٧.

(٤٩) الحميري، المصدر السّابق، ص٥٣٨.

(٥٠) مجهول، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٥١) الحميري، المصدر السّابق، ص٥٣٨.

(٥٢) المصدر نفسه، ص٥٣٩.

(٥٣) البكري، المصدر السّابق، ص٦٥.

(٥٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٩.

(٥٥) الحميري، المصدر السّابق، ص٥٣٨.

(٥٦) مجهول، المصدر السّابق، ص١٣١.

(٥٧) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(٥٨) ابن حوقل، **المسالك والممالك**، مطبع بريل، ١٨٧٢، ص٥١.

(٥٩) الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص – ص ١١٦-١١٧.

(٦١) الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٦٢) مجهول، المصدر السّابق، ص١٣٤.

(٦٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٢٥٠.

(٦٥) البكري، المصدر السّابق، ص٧٦.

(٦٦) ابن الأحمر، **تاريخ الدّولة الزّيانية**، تحقيق: هاني سلامة، مكتبة الثّقافة الدّينية، ط١، ٢٠٠٠، ص – ص٤٦-٤٨.

(٦٧) العبدري، المصدر السّابق، ص٢٧-٢٨.

(٦٨) صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، طبعة خاصّة، منشورات المركز الوطني للبحث والدّراسات في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤، ٢٠٠٧، ص٢٤٧.

(٦٩) الحميري، المصدر السّابق، ص٥٥٨.

(٧٠) عيسى بن الذيب، **الحواضر والمراكز الثّقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط**، منشورات المركز الوطني للبحث والدّراسات في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٨٧.

(٧١) ابن حوقل، المصدر السّابق، ص ٨٦-٨٨.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٨٦-٨٨.

(٧٣) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٥، دار صادر بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص١٣٠.

(٧٤) المقدسي، **أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبع بريل، ١٨٧٧، ص٢٢٨.

(٧٥) اليعقوبي، **البلدان**، تحقيق، محمّد أمين ضنّاوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ص – ص ١٩٥-١٩٧.

(٧٦) المقدسي، المصدر السّابق، ص٢٢٨.

(٧٧) ابن الصّغير، المصدر السّابق، ص٣٦.

(٧٨) عبد الحميد حاجيات، المرجع السّابق، ص٧٠.

(٧٩) محمّد عيسى الحريري، المرجع السّابق، ص٢١٠.

(٨٠) مقديش محمود، المصدر السّابق، ص١٢٨.

(٨١) الإدريسي، المصدر السّابق، ص١٢٠-١٢١.

(٨٢) الحميري، المصدر السّابق، ص٦٤.

(٨٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٨٥.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٨٥) محمّد عيسى الحريري، المرجع السّابق، ص٢٠٩.

(٨٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٧٧.

(٨٧) المصدر نفسه، ص٧٧.

(٨٨) مجهول، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٨٩) الحميري، المصدر السّابق، ص ١٢٦.

(٩٠) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٧٧.

(٩١) الزّهري أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق، محمّد حاج صادق، مكتبة الثّقافة الدّينية، (د- ت)، ص١١٣-١١٤.

(٩٢) محمّد عيسى الحريري، المرجع السّابق، ص٢٠٩.

(٩٣) الحميري، المصدر السّابق، ص٣٠٥.

(٩٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص١٢٠-١٢١.
(٩٥) البكري، المصدر السابق، ص١٧٦.
(٩٦) حاجيات عبد الحميد وآخرون، المرجع السّابق، ص٧٢-٧٣.
(٩٧) الزّهري، المصدر السّابق، ص١١٧-١١٨.
(٩٨) المصدر نفسه، ص١١٧-١١٨.
(٩٩) علي محمّد البياتي بان، **النّشاط التّجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (٣-٥هـ/٩-١١م)**، رسالة ماجيستير، جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص٧٧.
(١٠٠) بسام كمال عبد الرّزاق شقداد، المرجع السّابق، ص١٩٩.
(١٠١) بوزيان الدّراجي، المرجع السّابق، ص٢١٥.
(١٠٢) ابن الصّغير، المصدر السابق، ص٣٦-٣٧.
(١٠٣) عيسى قوراري، **تطوّر المدن بالمغرب الإسلامي وعلاقتها- العلاقات التجارية ببلاد السّودان خلال القرنين ٣هـ-٤هـ/٩م-١٠م**، المركز الجامعي بمدينة الجزائر، ص١٠.
(١٠٤) المرجع نفسه، ص٣٥-٣٦.
(١٠٥) عويس عبد الحليم، **دولة بني حمّاد (صفحة رائعة من التاريخ الجزائري)**، دار الوفاء، ١٩٩١، ط٢، ص٢٢٧-٢٢٨.
(١٠٦) الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٦.
(١٠٧) محمّد الطّمار، المرجع السّابق، ص٢٠٨-٢٠٩.
(١٠٨) عبد الرّحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر**، ج٦، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص١٧-٧٥.
(١٠٩) جورج مارسيه، **بلاد المغرب وعلاقته بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر، محمود عبد الصّمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص٢٣٠.
(١١٠) نجيب زبيب، **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، ج٢، تقديم، أحمد ابن سودة، ط١، دار الأمير، ١٩٩٥، ص٢١٨.
(١١١) عبد الحليم عويس، المرجع السّابق، ص١٧٨.
(١١٢) جورج مارسيه، المرجع السّابق، ص٢٣٩.
(١١٣) عبد الرّحمان بن خلدون: **ديوان المبتدأ والخبر**. المصدر السّابق، ص٥٤.

# الطرق التجارية ودورها في تطور عمران وعمارة المدن الإسلامية مدينة مليانة في الجزائر أنموذجًا

**عبد القادر قرمان**

أستاذ مساعد آثار إسلامية

جامعة معسكر

ولاية مستغانم – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخَصْ

إن الحديث عن البناء وتعمير المدن في شتّى أنحاء العالم، يكون دائمًا مرتبطًا بصفة أساسية بوجود شبكة من الطرق المستعملة من طرف الأهالي، وثانيًا باستحداث شبكة جديدة تفرضها الغاية المرجوة من ذلك، فإذا كان موقع المدينة على محور الطرق الكبرى، سيجعلها حتمًا من المدن التجارية المشهورة، التي تكون قِبلة للتجار من كل أنحاء الأقاليم والأمصار، وهذا ما يضفي عليها من النشاط التجاري، فتصبح ذات أسواق تُسَهل على أهلها جلب الميرة، وتدفع عنهم الفقر والحرمان، وكذلك يتطور ويتسع عمرانها، وخير مثال على ذلك مدينة مليانة التي تشكلت معالمها منذ العهد الروماني، ثم تطور واستبحر عمرانها خلال الفترة الإسلامية، حتى أضحت من المدن التجارية الكبرى، وكل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى وقوعها على محور الطرق التجارية الكبرى، وكذلك كحلقة وصل بين مدن المغرب الإسلامي، وسنحاول من خلال هذا المقال توضيح أهمية الطرق التجارية في تطوير عمران وعمارة المدن الإسلامية باتخاذ مدينة مليانة كنموذج.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ٢٤ نوفمبر ٢٠١٣

تاريخ قبـول النشـر: ١٨ يناير ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

المغرب الأوسط، العمارة الإسلامية، العمران الإسلامي، الطرق التجارية، مساكن مليانة

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

عبد القادر قرمان. "الطرق التجارية ودورها في تطور عمران وعمارة المدن الإسلامية: مدينة مليانة في الجزائر أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٢٩ – ١٣٤.

## مُقَدِّمَةُ

إن تأسيس المدينة الإسلامية في العصور الوسطى خضع لمجموعة من الشروط الأساسية، حددها مجموعة من العلماء وذوي الخبرة والتجربة، أمثال "ابن الربيع"، و"عبد الرحمن ابن خلدون"، و"ابن أبي زرع"، وقد اتفق كلهم عليها وفق معايير ومعطيات طبيعية وأخرى بشرية، وتنحصر هذه الشروط في خمس عناصر، لابد من توافرها لكي تعمّر المدينة مدة من الزمن، ولا تعجل في خرابها وزوالها، فأولها اعتدال المكان وجودة الهواء، ومعنى ذلك مراعاة الموقع الاستراتيجي المتصل بمختلف الطرق الرئيسة، وثانيها سعة المياه المستعذبة، وثالثها إمكانية الميرة المستمدة، ورابعها توفر مصادر الطاقة ووجود المراعي الواسعة، وخامسها وجود الحاكم العادل في السلطة.

وعند التمعن في هذه الشروط، نجد أن الموقع هو أول شرط يجب مراعاته نظرًا لأهميته، خاصةً المتصل بالطرق التجارية الكبرى، والذي يساعد على تطور المدينة واتساع عمرانها من جهة، وتنشيط الحركة التجارية في أسواقها من جهة أخرى، مما يضفي ذلك على سكانها عدة إيجابيات منها: تحسين القدرة الشرائية، والقضاء على الفقر المدقع وبالتالي رخاء العيش. لقد كانت مدينة مليانة من بين المدن التي خضعت لهذه الشروط، إذ أنّ موقعها الاستراتيجي جعلها مدينة تصنف في مصف المدن التجارية الكبرى، وانطلاقًا مما سبق يتبادر في الأذهان عدة تساؤلات، تدور حول: ما مدى أهمية موقع المدن على الطرق التجارية؟ وهل أثر موقع مدينة مليانة في توسع عمرانها وتعدد عمائرها وتطوير أسواقها، ما هي نوعية الطرق التجارية التي تمر على مدينة مليانة ؟

## أولاً: تطوّر المدن الإسلامية المغربية

لقد عرف المغرب الإسلامي منذ أن تم فتحه من قبل القائد عقبة بن نافع الفهري "رضي الله عنه"، وتأسيسه للقيروان المدينة الأولى عليه سنة (٥٠هـ)، تسابقًا ومنافسة كبيرة بين ملوك وأمراء الممالك والدول، التي تأسست على ترابه في مختلف الفترات الزمنية، فانتشرت هذه المدن في مختلف الأقاليم والأماكن، وفي مختلف المسالك التجارية، فكانت البداية بتأسيس مدينة "سجلماسة" عاصمة "بني مدرار" سنة (١٤٠هـ)، ثم تبعتها مدينة تاهرت عاصمة الرستميين سنة (١٦٠هـ)، وبعدها مدينة "فاس" عاصمة الأدارسة سنة (١٧٢هـ)، ومع تولي بنو زيري زمام حكم بلاد المغرب بعهد من الفاطميين، قاموا بإعادة تأسيس وتجديد بعض المدن منها مدينة مليانة والجزائر العاصمة والمدية. وقد شهدت هذه المدن تطورًا ملحوظًا، بسبب عدة عوامل، نتج عنه امتداد واتساع نسيجها العمراني وإنشاء وحدات عمرانية جديدة، تتماشي والحركية العمرانية المعهودة في المدن الإسلامية، سواء كانت مشرقية أو مغربية. وقد تسبب هذا التوسع أحيانًا في ازدحام عمراني، الذي دفع بدوره إلى تغيير طريقة البناء من التخطيط الأفقي إلى التخطيط العمودي، أي التوجه نحو بناء السكنات ذات الطوابق المتعددة، أو التوسع خارج أسوار المدينة.

## ثانيًا: دور الطرق في تطور العمران الإسلامي

قبل التطرق إلى تطور النسيج العمراني لمدينة مليانة، لابد من الإشارة إلى عامل مهم ومؤثر في ذلك ألا وهو الطرق، فالحديث عن التعمير في شتّ أنحاء العالم يكون دائمًا مرتبطًا أولاً بوجود شبكة من الطرق المستعملة من طرف الأهالي، وثانيًا باستحداث شبكة جديدة تفرضها الغاية المرجوة من ذلك. بمعنى أن الرومان في توسعاتهم وجدوا طرقًا فسلكوها إلى أبعد نقطة ممكنة، وحدّدوا عن طريق الليمس حدود مستعمراتهم، مما جعل مدينة مليانة إحدى أهم المستوطنات التي تم بناؤها،(١) وذلك لعدة اعتبارات منها إستراتيجية أمنية لمراقبة القبائل المتاخمة لوادي الشلف، وتأمين الحملات العسكرية والإمدادات بالمؤن، واقتصادية لتوفير المحاصيل الزراعية والمواد الأولية مثل الحديد، وهذا ما يزيد من أهمية موقع المدينة على الطرق الرئيسة. وقد تواصل مراعاة ذلك لدى المسلمين، بحيث أنهم وضعوا مخططات توجيهية لتسهيل عملية التوغل والتحرك والتوسع العسكري أثناء الفتوحات، مما أفضى إلى تعمير المغرب الأوسط تدريجيًا عبر مختلف المراحل اللاحقة.(٢)

وفي هذا المجال نجد أن المرحلة الأولى من الفتوحات اتخذت الطرق القديمة الموروثة عن العهد الروماني، وقد يكون تطور وسائل النقل قد ساعد في إيجاد شبكة جديدة من المواصلات. وعلى ضوء هذا نلاحظ: أن المسلمين عبروا المسلك المتجه من الشرق إلى الغرب، بحيث كانت القيروان المنطلق الرئيس لهم، سواء في بداية محاولات فتح شمال إفريقيا في عهد "أبي المهاجر دينار"، الذي وصل إلى بسكرة مرورًا بطبنة وباغاية وبلزمة وقسنطينة، ثم من بني بزاق حيث مركز قيادته، إلى تاهرت وتلمسان مرورًا بأوربة وسطيف،(٣) كذلك الحال بالنسبة لمرحلة عقبة بن نافع الذي سلك الطريق المؤدية من القيروان إلى تاهرت، مرورًا بسبيبة ومرمجانة ومسكيانة وباغاية وطبنة والمسيلة ومنها إلى تاهرت القديمة، ثم الوصول إلى تلمسان ليعبر بعد ذلك نحو طنجة في المغرب الأقصى، إلى أن وصل إلى شواطئ المحيط الأطلسي.(٤)

أما "موسى بن نصير" فيمكن أن يكون قد سلك الطريق نفسه من القيروان إلى طنجة،(٥) وعندما نتمعن في طرق الفتح نجد هناك انعدام لذكر مدينة مليانة، وهذا بالطبع راجع إلى خراب المدينة وتعرضها للهدم، إذ أنها كانت مسرحا لعدة ثورات وأحداث تاريخية، أدت إلى زوالها وهجرة سكانها، وقد أدت معرفة تضاريس المغرب الأوسط وتطور العلاقات التجارية بعد ذلك، إلى إيجاد مراكز عمرانية جديدة بالغة الأهمية، إذ أنها سهلت عملية تنقل القوافل التجارية داخل المغرب الأوسط. ومن بين هذه المراكز نجد مدينة مليانة التي أعيد لها الاعتبار مع تولي "زيري بن مناد الصنهاجي" ولاية المغرب من قبل الخليفة الفاطمي "المعز لدين الله الفاطمي"، إذ أنه أمر بإعادة بنائها وتجديدها، حيث أصبحت من أعظم مدن المغرب الأوسط،(٦) حين اتخذها "بلكين" كمقر لسكناه، وقد كان لهذا الحدث أثر كبير في المنطقة، إذ أنها أصبحت إمارة سياسية للمغرب الأوسط، ومركزًا عمرانيًا واقتصاديًا هامًا للزيريين، وكنقطة هامة لمراقبة تحركات الأعداء والطامعين في الملك، خاصةً منها قبيلة زناتة، التي حصد شوكتها فيما بعد.(٧)

وزيادة على ما سبق؛ نجد أن موقع مدينة مليانة يربطها بأكبر الطرق التجارية، منها على وجه الخصوص الطريق الرئيس الرابط بين مدن الجزائر العاصمة، وسهل متيجة،(٨) ومدينة تنس،(٩) وكذلك الطريق الذي يصلها مع مدينة شرشال، والطريق المؤدي إلى مدينة الخضراء (عين الدفلى)، وكذلك الطريق المتجه نحو مدينة أشير،(١٠) وهي طرق تجارية كبرى جعلت منها كمنطقة ومركز تجاري نشيط وسوق جامعة للجنسين، أي الرجال والنساء، لكل جنس مكان خاص به، خلق نوعًا من الحركة والنشاط للبيع والشراء،(١١) وهنا تبرز أهمية اختيار موقع المدينة على الطرق الرئيسة،(١٢) بالإضافة إلى أنها أصبحت كمكان التقاء القوافل التجارية الآتية من شتى الأمصار والنواحي، سواء من إفريقية أو المغرب الأقصى، وحتى الآتية من الصحراء.

لقد كانت للحالة الاقتصادية في المدينة تأثير بالغ في نموها وتطورها، وارتقائها من مدينة عادية إلى مركز سياسي هام، أو كمركز تجاري كبير، ففي هذه الحالة نلاحظ أن نموّ التجارة والصناعة وارتباطها بالتبادل التجاري من جهة، والتحكم في أسباب المعيشة مثل الزراعة والري وكذلك التحكم في تنقل السلع برًا وبحرًا عبر مدينة "شرشال" و"تنس" من جهة أخرى، أدّيا إلى توافد التجار إلى أسواقها التجارية، وانتقال مجموعات بشرية من مختلف المدن الأخرى الأقل أهمية، أو تلك التي تنعدم فيها مثل هذه الظروف، مما

جعل المدينة تتوسع داخل وخارج أسوارها،[١٣] بالإضافة إلى أن المدينة كانت تعتمد على إقليمها في ضواحي سهل الشلف الذي يمدها بما تحتاج إليه. كما كان لنظام الحكم أيضًا دوره في نمو المدينة، حيث العيش الرغيد والتسامح وتقدير أهل العلم والمعرفة، يؤدي إلى ارتقاء المدينة معنويًا إلى مركز فكري وعلمي، وتطورها ماديًا بإنشاء وحدات جديدة كالمدارس والكّتاب وغيرها من المؤسسات التعليمية.[١٤]

## ثالثا: النسيج العمراني لمدينة مليانة في العهد الإسلامي

يقوم النسيج العمراني في بلد من البلدان وفق التقاليد الحضارية السائدة في ذلك البلد، والتي غالبًا ما تكون صادقة إلى أبعد الحدود، كما أنها لا تكون إلا من خلال تفاعلات كثيرة، أهمها العوامل المشتركة في الحياة الاجتماعية والاستجابة للشروط الحضارية التي يسير عليها المجتمع،[١٥] وفقًا للتقاليد والنظم المتفق عليها في العمارة الإسلامية، سواء كان ذلك في الحواضر والأمصار الكبرى أو في المدن الصغيرة ذات النسيج العمراني الجديد. وعلى ضوء ما سبق؛ فإن النسيج العمراني لمدينة مليانة خضع لهذه الشروط، حيث تم وضع خِطتها وفقًا لنمط المدن الإسلامية المعروف، فنجد أن أول ما بني فيها هو المسجد الجامع الذي يسمى بجامع "البطحاء" في المركز، ولقد حكمت هذه الأهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، فقد كان أول ما يختط، ومن حوله كانت توضع خِطط المدينة وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها، وذلك لمكانته الدينية كمؤسسة متعددة الوظائف في المدينة من جهة، وإتباعًا لسنة النبي (ﷺ) من جهة أخرى، حيث كان مسجده في المدينة المنورة في مقدمة الأعمال المعمارية التي قام بها،[١٦] ويقع مسجد البطحاء في نواة المدينة أين يلتقي السكان من مختلف الأحياء والشوارع والضواحي. ونجد دار الإمارة المسماة حاليًا "دار الأمير عبد القادر" بالقرب من المسجد الجامع، لكننا نجهل هل كانت ملاصقة له أم لا، وذلك لتعرض المسجد إلى الهدم من طرف الاستعمار الفرنسي، كما أتبع في تأمين دار الإمارة عزلتها عن مساكن العامة والأسواق.[١٧]

عند الانتهاء من بناء هذين العنصرين، يتم بعد ذلك بناء المنازل والدور والحمامات والفنادق وغيرها من المباني المدنية المخصصة للرعية، وفق شروط حضارية تدعوا إلى المحافظة والتزام الحشمة، وتوفير أسباب الحصانة والراحة للمنازل وللخلية السكنية، عن طريق عزل المساكن ووضعها بعيدة عن مسالك التنقل الكبرى، حتى يتوفر لأصحابها مزيدًا من الأمن والراحة،[١٨] ولذلك شيدت مساكن المدينة بشكل أو بنمط النظام إلى بعضها البعض (مجمع سكني)، كأنها كتلة واحدة تتخللها إلتواءات الشوارع وضيقها وتشعبها إلى تفرعات كأنها شرايين قلب، ومنها التي تتوقف عند أحد المنازل وهذه تسمى الدرب.[١٩] (أنظر الشكل رقم١) وهذا ما أطلعنا عليه "لبران أكيلاس" (Lebrun Aquilas)،[٢٠] عند وصفه لمدينة مليانة في سنة ١٨٤١م، أي تزامنًا مع الاحتلال الفرنسي لها، حيث أنه قال: "وأما الديار فهي أدرب وأزقة ضيقة ملتوية، وهنا يقصد المنازل الموجودة في شرقها، وللديار طابق أرضي وطابق أول، وقد أُحرقت سنة ١٨٤٠، (هنا لا يقصد كل المنازل وإنما بعضها كمنازل القصبة)، وكان السكان فيما يبدو في الستر والرخاء، ولكل دار باحتها الداخلية وأروقتها على أساطين من حجر أو من آجر، وأما الرخام فنادر، والحيطان من تراب والسقوف من أخشاب مركبة ومن القصب على الأسلوب الإيطالي، والقصبة على شفاف صخرة وعرة في جنوب المدينة، بها بعض القاعات المقببة ولها مسجدها".[٢١]

ونستنتج من هذا الوصف المهم لمساكن مدينة مليانة؛ أنها بُنيت على نمط المساكن الإسلامية المعروفة، التي تتكون في العادة من طابق أو طابقين يتوسطها فناء مركزي كبير،[٢٢] بالإضافة إلى "الرواشن" التي هي عبارة عن جوانب بارزة للغرف الرئيسية في المنزل، مما نتج عن ذلك التصاق المباني فيما بينها، وبالتالي تغطية الطرقات والممرات التي تسمى "السَّباط"، وهذا ما جعل المدينة تتأثر بالظروف المناخية والاجتماعية وعوامل الأمن والدفاع، ثم بمدى ارتباط السكان بمدنهم، ومن هذه العوامل ما يوضح الأسباب التي جعلت عرض الشوارع يقل كثيرًا عن ارتفاع المباني على جانبيه لتوفير أكثر كمية للظلال للمارة فيه،[٢٣] وتلطيف الجو على المشاة أثناء فصل الصيف، نتيجة قصر المد الشمسي في الممرات الضيقة،[٢٤] كما أنها تعمل على تنشيط الحركة التجارية في الأسواق، ذلك أن للنشاطات التجارية علاقة وطيدة بشوارعها مشجعًا الباعة والحرفيين وغيرهم من ممارسي النشاطات بها، وقد انعكس ذلك انعكاسًا واضحًا على مواضع الأسواق في المدينة،[٢٥] التي أصبحت وجهة لأهالي المدينة لاقتناء ما يحتاجون إليه وكذلك قبلة للتجار المحليين والأجانب لترويج سلعهم، وتبادل المنتجات فيما بينهم، وهذا ما يساهم إلى حد كبير في القضاء على مشكلة نقص السلع، وكذلك تحقيق الاكتفاء الذاتي.

أما عن المساحات الفارغة، فمدينة مليانة تحتوي على ساحتين عموميتين، ساحة باب وهران في الغرب التي كانت سوقًا تجاريًا مشهورًا، فيها فندقًا ينزله التجار، وساحة في مركز المدينة، وعليه نستنتج مدى سلامة التخطيط العمراني لها، إذ لا نجد هناك عوائق تحد من ممارسة النشاطات التجارية، مما أدى ذلك إلى تواصل تطورها وازدهارها وجذب المزيد من القوافل التجارية على طول السنة. وللحفاظ على هدوء المدينة وحمايتها من الهجمات والاعتداءات الخارجية وجب تحصينها، وعكست نشأة المدينة أهمية التحصين لحمايتها من الأعداء وتنمية عمرانها وتجارتها،[٢٦] وانطلاقًا من أهمية الأمن الذي يتوفر بتحصين المدينة، أعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن،[٢٧] واعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل، التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض التي هي من مقاصد الإسلام.[٢٨]

ورغم الموقع الطبيعي المحصن لمدينة مليانة، الموجود فوق هضبة عالية بين جبال زكار وإشرافها على واد في غاية العمق، فإن ذلك لم يمنع من إقامة الأسوار حولها، لتحقيق غاية الأمن تحقيقًا سليمًا، حيث أنها كانت محاطة بأسوار عالية في كل جوانبها، منها ما يعود إلى الفترة الرومانية، ومنها ما يعود إلى الفترة العثمانية، الذين أعادوا بناءها لتحصين القصبة والمدينة ككل، هذا وقد أدت هذه الأسوار دورًا هامًا في تاريخ المدينة لضمان أمنها والتصدي لغارات وهجومات الأعداء[٢٩].

وللدخول إلى المدينة كان يجب اجتياز ثلاثة أبواب رئيسة: الباب الغربي المسمى (باب وهران)، وهو حاليًا مهدم تمامًا، إذ كان يقع في نهاية حدود المدينة من الجهة الغربية ومكانه يقع في مستوى درج مكان زاوية سيدي أحمد بن يوسف، من شارع الإخوة أولاد دران، وقد أنشأت السلطات الفرنسية بابًا آخر في الجهة الغربية عند توسيع المدينة أطلق عليه اسم "باب شلف". (انظر: الشكل رقم ١). والباب الشرقي المسمى (باب الجزائر)، يقع بالمدخل الشرقي للمدينة، هدم هو الآخر كليًا، كان يقع في مستوى الدرج المتواجد في شارع القاهرة بداية من نهج بلعباس محمد، والباب الشمالي المسمى باب زكار، يقع في الجهة الشمالية، كان يحتوي على ثلاث أقواس نصف دائرية، وهو يفصل المدينة عن الريف، وجاءت تسمية الأبواب حسب الأماكن التي تؤدي إليها، أي الطرق التجارية التي كانت تصل المدينة بالمدن الأخرى.

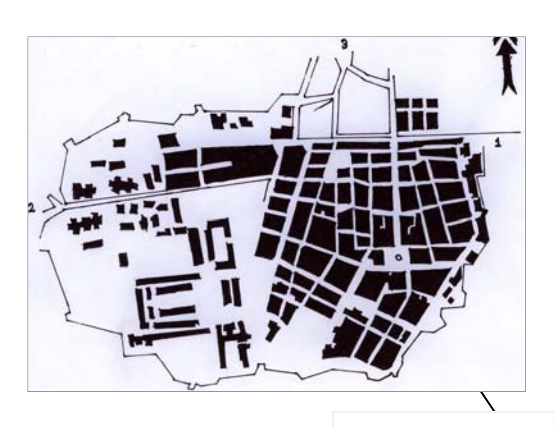
ويظهر تخطيط المدينة وتركيبها العمراني غير منتظم، وذلك لأنها مرت في تكونها بمجموعة تشكيلات يمكن حصرها فيما يأتي:

- **التشكيلة الأولى:** تضم القصبة وملحقاتها، وهي في الجهة الجنوبية من المدينة، وربما هي الأصل الذي بنيت عليه في العهد الزيري.
- **التشكيلة الثانية:** تضم الجامع والحمام، وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى العهد العثماني.
- **التشكيلة الثالثة:** تضم المنازل والدور التي تظهر في تجمعات سكنية والحديقة العامة للمدينة، والأسوار الخارجية،[٣٠] كذلك هي توسعات المدينة الذي جرى في مراحل مختلفة خلال الفترة العثمانية.

## خاتمة:

من خلال دراسة الموقع العام لمدينة مليانة، وكذا الظروف التي أدت إلى نشأتها والعوامل المتحكمة في اختيار موقعها استخلصنا عدة نتائج، منها على وجه الخصوص تأثير الطرق التجارية في اختيار موقع المدينة، والذي يمتد إلى فترات قديمة جدًا، وبالضبط خلال حكم الرومان، ورغم تخريبها، فإن ذلك لم يمنع من إعادة بنائها في العهد الزيري، الذين أعطوها مكانة هامة، نظرًا لأنها تعتبر بمثابة حلقة وصل بين مدن المغرب الأوسط، وهذا ما أدى إلى التوافد إليها من مختلف أصقاع المغرب، حتى أصبحت ملتقى التجار والعلماء والمفكرين، ووجهة لطلاب العلم، وهذا ما نتج عنه توسع نسيجها العمراني وتطور عمارتها، وبذلك تحسن الحالة المعيشية للسكان. إن دراسة التطور العمراني لمدينة مليانة سمح لنا بإبراز العلاقة بين التطور التجاري والتوسع العمراني من جهة، ومدى أهمية موقع المدن على الطرق التجارية من جهة أخرى، التي تعتبر بحق إحدى أهم العوامل الأساسية التي تحدد بقاء المدن إلى أمد بعيد أو نهايتها في أمد قصير.

## الملاحق:




موقع جامع البطحا

السلم: ١/٥٠٠٠
١- باب الجزائر (الباب الشرقي)
٢- باب وهران (الباب الغربي)
٣- باب زكار
٤- الأسوار

الشكل رقم (١): المخطط العمراني لمدينة مليانة
(عن عباس كبير بن يوسف)

٣

ش

٢

١

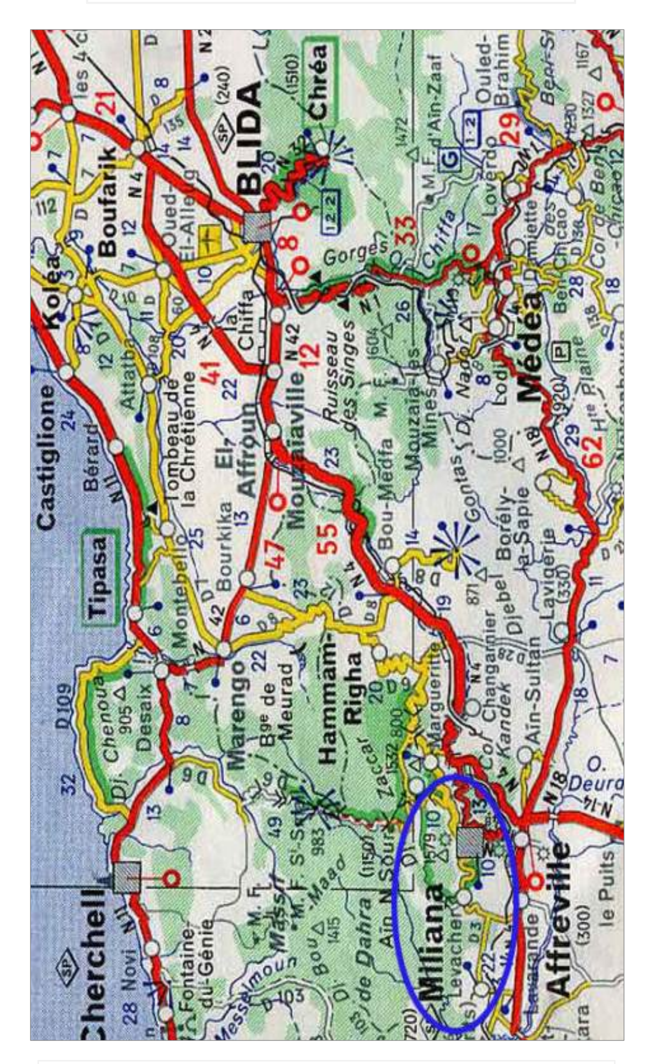
السلم: ١/٢٠٠٠

١- القصبة في العهد العثماني

٢- حدود المدينة قبل العهد العثماني

٣- توسع المدينة في العهد الفرنسي

الشكل رقم (٢):مخطط تطور مدينة مليانة
من بداية العهد العثماني إلى الفترة الفرنسية
(عن متحف الأمير عبد القادر بمليانة)




خريطة رقم (١) الموقع الجغرافي لمدينة مليانة

طرق رئيسة

طرق ثانوية

## الهَوامِشُ:

(١) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس الجزائر المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي ٦٤٧م**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، ط٤، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣، ص١٧١.

(٢) قرمان عبد القادر، **المنشآت المدنية في مدينة مليانة في العهد العثماني، دراسة أثرية**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص٢٢.

(٣) الجيلالي عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، ج٣، بيروت، ١٩٨٣، ص.١٥٠.

(٤) ابن عذارى المراكشي، **بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج١، ١٩٨٣، ص٢٦.

(٥) الجيلالي عبد الرحمن، **المرجع السابق**، ص١٣٥.

(٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج٦، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٢، ص١٨١.

(٧) الميلي مبارك بن محمد، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي،ج٢، مكتبة النهضة الجزائرية، ٢٠٠٤، ص١٦١.

(٨) **متيجة:** كلمة عربية أصلها متوجة، لأن الجبال تتوجها وتحيط بها من أغلب الجهات، وهي عبارة عن سطح مستوي ومنبسط حوضي ومنخفض طولي محصور في كل جهاته الغربية ومفتوح نحو البحر في جهاته الشرقية، تقرب مساحته ١٣٠٠٠٠ هكتار)، للمزيد من المعلومات ينُظر: حليمي عبد القادر، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل ١٨٣٠**، ط١، الجزائر، ١٩٧٢، ص١٥ - ١٦.

(٩) **تنس:** هي مدينتان، القديمة تقع على مسافة ٤ كيلومترات من البحر، وعلى مسافة ٢كلم منها تقع تنس الحديثة، التي بناها الأندلسيون حسب ما ذكره البكري سنة ٢٦٢هـ.

(١٠) البكري أبو عبد الله، **المسالك والممالك**، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان لبيفن وأندري فيري، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢.ص٧٠٥.

(١١) براح أحمد، **الوظيفة الاجتماعية للأسواق التقليدية في المجتمع الجزائري، دراسة سوسيولوجية لسوق نسوي بمنطقة مليانة**، رسالة لنيل دبلوم ماجستير، معهد علم الاجتماع، جامعة الجزائر ١٩٩٠/ ١٩٩١، ٧١.

(١٢) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩، ص٩٨.

(١٣) قرمان عبد القادر، المرجع السابق، ص٢٢.

(١٤) بوبحياوي عزالدين، **تطور عمران المغرب الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط**، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، قسم الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠١/٢٠٠٢، ص٩٦.

(١٥) محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص١٣٤.

(١٦) ناصف سعيد، **المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩، ص٥٥.

(١٧) قرمان عبد القادر، المرجع السابق، ص٢٣٩.

(١٨) الدولاتي عبد العزيز، "المدينة العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة"، **الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، مجلة نصف سنوية (مارس سبتمبر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)**، جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ص١٥٤-١٥٥.

(١٩) عقاب محمد الطيب، **قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني**، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٢٥.

(٢٠) لبران أكيلاس (Lebrun Aquilas): كان طبيبًا عسكريًا في فيلق الاحتلال الفرنسي.

(٢١) صادق محمد الحاج، **مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٩، ص٥٢.

(٢٢) ناصف سعيد، المرجع السابق، ص٦٢.

(٢٣) عبد الباقي إبراهيم، **تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة**، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، طبع بمطابع أنترناسيونال برسي، ١٩٨٢، ص٤٠.

(24) M, Kaddache, **La casbah sous les turcs, documents Algériens**, N55, série culturelle 1951.p211.

(٢٥) بورابة لطيفة، **الموضوعات الزخرفية في السقوف الخشبية بقصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني**، دراسة فنية تحليلية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠/٢٠٠١، ص١١.

(٢٦) ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ٣٢٢.

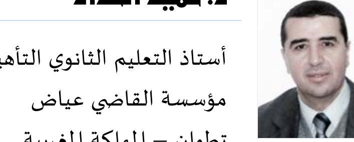
(٢٧) القزويني زكريا بن محمد، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر، لبنان، ١٩٦٠، ص ٧-٨.

(٢٨) محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص١٣٥.

(٢٩) قرمان عبد القادر، المرجع السابق، ص٢٤٠.

(30) M, Richa, **Identification de hypothèse de production du patrimoine architecturale et urbain de villes historique de Miliana**,thèse de magister, L.E.P.O.U, Alger juin 1996, p124.

# ثوابت عمرانية إسلامية
## بين ابن أبي الربيع وابن خلدون

**د. حميد الحداد**

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

مؤسسة القاضي عياض

تطوان – المملكة المغربية



### مُلَخّصْ

تتناول هذه الدراسة الفكر العمراني الإسلامي من خلال مصدرين هما: "سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال" لشهاب الدين أحمد سليمان ابن أبي الربيع (القرن الثالث الهجري)، والآخر "المقدمة" لعبد الرحمان ابن خلدون (القرن الثامن الهجري)، وهما يرشدان أولي الأمر إلى الأسس الواجب أخذها بعين الاعتبار عند الإقدام على إنشاء المدن لاسيما ما يتعلق باختيار الموضع والموقع. وقد اتضح تأثر ابن خلدون بابن أبي الربيع واطلاعه على مؤلفه، إلا أنهما ساهما كل من موقعه ومن تجربته الشخصية وممارساته المهنية ومن محيطه البشري والطبيعي ومن ظروفه التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى وضع الكتابة التاريخية في عصره، في بلورة فكر عمراني أصيل أرشد أولي الأمر إلى اعتماد أفكارهما في وضع معايير لتأسيس وتأهيل المدن.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٨ سبتمبر ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٩ ديسمبر ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

العمران الإسلامي, الماء والبيئة, المدن الإسلامية, الفكر العمراني, تخطيط المدن

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

حميد الحداد. "ثوابت عمرانية إسلامية بين ابن أبي الربيع وابن خلدون".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٣٥ – ١٤٠.


### مُقَدِّمَةُ

أنتج الفكر الإسلامي العمراني أفكارًا ومبادئ هامة توجيهية تتعلق بالأسس أو الثوابت التي يجب على أولي الأمر مراعاتها عند إقبالهم على إنشاء مدينة، لاسيما ما يتعلق باختيار موضعها وموقعها. وقد احتوت بعض المصادر على هذه الأفكار خاصةً كتب الجغرافيا والفقه والآداب السلطانية وتاريخ الاجتماع السياسي، ويبقى من أقدم المصادر حسب علمنا كتاب "سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال"،[١] لأبن أبي الربيع، والذي أشار إليه بعض الباحثين[٢] دون إعارته الاهتمام الذي يستحقه، ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ت. ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) للخليفة المعتصم العباسي (ت. ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) - ابن المنصور ومؤسس سامراء- ، ويحتوي الكتاب على أربعة فصول: (الأول مقدمة - الثاني في أحكام الأخلاق وأقسامها - الثالث في أصناف السيرة العقلية وانتظامها - الرابع في أقسام السياسات وأحكامها).[٣] ويمتاز الكتاب عن سائر الكتب الأخلاقية بأن صاحبه قد ضمنه من فن تدبير المنزل وفن السياسة جملة كبيرة، فجاء حاويًا لفنون الحكمة العملية الثلاثة: (فن الأخلاق، وفن تدبير المنزل، وفن تدبير المدينة) إلى غير ذلك من فوائد جليلة وأبحاث عالية مما لا يوجد إلا مشتتًا في أثناء كتب الفنون.[٤]

ثم برزت مصادر أخرى مثل: "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك"، لأبي الحسن علي الماوردي[٥]، وكتاب "المقدمة"[٦] لابن خلدون، و"بدائع السلك في طبائع الملك"[٧] لابن الأزرق، وغيرها. وقد اعتبرت هذه المصادر "تكثير العمارة" من أركان الملك، بل إن بعضها أشار تحديدًا إلى أنه الركن الخامس "بعد نصب الوزير وإقامة الشريعة وإعداد الجند وحفظ المال."[٨] وتناولت بعض الدراسات الحديثة التعريف ببعض هذه المصادر أو تحقيقها،[٩] إضافةً إلى دراسة بعض القضايا العمرانية.[١٠] فما هي

المعايير التي اقترحها ابن أبي الربيع في مجال العمران ؟ وهل تأثر ابن خلدون بما ورد في سلوك المالك؟ وما الجديد الذي حمله صاحب المقدمة مقارنةً مع سابقه؟

## أولاً: الفكر العمراني عند ابن أبي الربيع

حدد ابن أبي الربيع ستة شروط يجب مراعاتها في إنشاء المدن **(اختيار موقعها)**، وهي:

(١) سعة المياه المستعذبة.

(٢) إمكان الميرة المستمدة.

(٣) اعتدال المكان وجودة الهواء.

(٤) القرب من المراعي والاحتطاب.

(٥) تحصين منازلها من الأعداء والذعار.

(٦) أن يحيط بها سواد يعين أهلها".[١١]

نستنتج من ذلك؛ أن ابن أبي الربيع يعطي الأولوية في اختيار الموقع للماء باعتباره العصب الأساسي الذي تقوم عليه كل الحياة في الوجود، انطلاقًا من قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"،[١٢] كما أن المجال الذي عاش فيه المؤلف تميز بأهمية هذا العامل، فملوحة مياه مدينة البصرة انعكس على الاستقرار بها كما انعكس على مستقبل نموها وتطورها.

وفي هذا السياق استعمل المرابطون الخطارات لتزويد مراكش بالماء [١٣] لتسهيل الإقامة بها في حين جر الموحدون في اشبيلية المياه، وغرسوا البساتين، فزاد ذلك في حسن هذه المدينة،[١٤] وهو ما تميزت به جل المدن الأندلسية بالخصوص، والتي ارتبطت ظروفها الجغرافية بهذا المحدد الطبيعي، إما بالامتداد على طول الأنهار، أو النهوض قرب العيون والحامات، أو التموضع عند السواحل البحرية.[١٥] فالماء هو الذي يؤدي إلى استمرار الحياة بتوفير هذه المادة للشرب وللطهارة، وتوفير إنتاج زراعي، وبالتالي توفير الغذاء للسكان، وتوفير المراعي للماشية، والحطب للتدفئة وللبناء ولصنع المحراث والأثاث والأواني، إلخ.. "فالماء شكل إلى جانب الشرع والعرف والقدسي محددًا أساسيًا لفعالية تطور تمدين المجال".[١٦]

كما أن العامل البيئي من الشروط التي تؤثر في الاستقرار، إذ يركز ابن أبي الربيع على الابتعاد عن التلوث وذلك باختيار المواقع النقية الهواء نظرًا لتأثيرها على الصحة، فالهواء غير الصحي كان سببًا في مغادرة المسلمين لمدينة المدائن، كما كان التأكد من نقاوته وصفائه سببًا في اختيار أبي جعفر المنصور لموقع وموضع مدينة بغداد.. أما في الأندلس فقد "كانت مدينة بلنسية في غاية الخصب واعتدال الهواء، كان أهل الأندلس يدعونها فيما سلف من الزمان: مطيب الأندلس، .. لكثرة أشجارها وطيب ريحها".[١٧]

وأشار في الشرط الخامس إلى ضرورة تحصين المدينة بتشييد الأسوار والأبراج أو الخنادق، ويمكن اعتبار الأسوار زيادة على كونها رمزًا وتعبيرًا لقوة السلطة، من خلال مظهرها الخارجي وجودة بنائها، أنها كانت تؤدي في المدن دورًا فعليًا ذا طابع عسكري على وجه الخصوص، وذلك بهدف حماية السكان الذين يعيشون خلفها ويحتمون بها.[١٨] ".. لذلك كان يحتم على البناء إعطاء أهمية أكثر من الناحية العمرانية للمواقع التي تُعَدّ نقاط ضعف في الأسوار، ويمكن أن تصبح مصدر خطورة على المدينة مثل الأبواب".[١٩]

إضافة إلى هذا ينصح ابن أبي الربيع الخليفة أو السلطان بأن يحيط نفسه بعصبيته حتى تشكل شوكة ودعامة وقائية وسدًا بشريًا له، وذلك لتحصين مواقفه وتعضيده نفسيًا واجتماعيًا احتياطًا من تمرد أو ثورة أو اعتداء، وهذا ما قام به عبد المومن بن علي الكومي عندما جلب أفراد قبيلته إلى مراكش.

يمكن استخلاص أن ابن أبي الربيع استحضر من خلال هذه العوامل مختلف الجوانب البيئية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، مما يدفعنا إلى استنتاج المنظور الشمولي لهذا المفكر، خاصةً وأنه ربما كان وراء إرشاد المعتصم لاختيار موضع وموقع سامراء التي أسسها بعد بروز مشكل علاقة الجند الترك بسكان بغداد. وبالعودة إلى بعض المصادر نجد بعض المدن راعت فعلاً هذه الأسس أو المعايير، فمثلاً اختيار موقع فاس اعتبر من طرف ابن أبي زرع[٢٠] موفقًا، وهو ما أشار إليه أيضًا ابن خلدون، نظرًا لتوسطها بلاد المغرب ووقوعها على محاور الطرق التجارية ومحاطة بفحص سايس وبعيون غزيرة وبجبل زلاغ وجبال بني يازغة حيث خشب الأرز، فهي "قاعدة بلاد المغرب وقطره ومركزه".

يحدد ابن أبي الربيع شروطًا ثمانية يجب أن يراعيها الحاكم عند تخطيط **(موضع المدينة)**:

(١) أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل عليه تناوله من غير عسف.

(٢) أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

(٣) أن يبني فيها جامعًا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.

(٤) أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

(٥) أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة.

(٦) إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته.

(٧) أن يحوطها (يحيطها) بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

(٨) أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها".[٢١]

من الملاحظ أن هذه الأسس تشمل المجال البيئي (الماء)، والتخطيطي (تصميم الشوارع)، والاقتصادي (السوق والإنتاج)، والاجتماعي (توزيع العصبيات)، والديني (المسجد)، والعسكري (الأسوار)، مما يؤكد النظرة الشمولية لابن أبي الربيع في تخطيط المدينة واستحضار مختلف العوامل أو الثوابت المؤثرة في اختيار

موضعها. وتكشف هذه الشروط حسب أحد الباحثين[٢٢] "عن رؤية تخطيطية للمدينة الإسلامية اهتمت بالجوانب الوظيفية والاجتماعية والسياسية لمجتمع المدينة الإسلامية مما يؤكد أصالة المدينة الإسلامية، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن، وهو فكر تبلور وتوضح مع تقدم العصر، مستفيدًا في ذلك من التجربة". إن هذه الشروط التي ذكرها ابن أبي الربيع تؤكد خطأ ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين من أن المدن الإسلامية لم تكن تجسد تنظيمًا محليًا داخليًا، لأنها كانت تفتقر إلى قانون في هذا الشأن، وإلى بنايات إدارية معينة.[٢٣]

وبعودتنا إلى هذه المعايير نجد فاسا مثلاً "جمعت بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة، وسعة المحرث وقرب المحطب وكثرة عدده وشجره.. وبها أسواق مرتبة منسقة، وعيون منهمرة وأنهار متدفقة منحدرة..".[٢٤] لذلك قالت الحكماء: أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء "النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين والسلطان إذ به صلاح حالها، وأمن سبلها، وكف جبابرتها"،[٢٥] مما يؤكد أن الوزير عمير بن مصعب الأزدي كان موفقًا وناجحًا في نصحه المولى ادريس لاختيار موضع وموقع فاس. فالماء -كما سبق أن ذكرنا- كان جوهريًا، بل كانت مياه الأمطار تحفظ داخل جب معد لهذا الغرض داخل القصبات لاسيما في حال تعرضها لحصار طويل.[٢٦] وظلت المساجد -إضافة إلى دورها الديني- علامة حضارية كبرى ترمز إلى عظمة الدولة، وهذا ما دفع الموحدين إلى تأسيس مساجد لاخيرالدا والكتبية وحسان. واعتمد المرابطون والموحدون على التحصينات الدفاعية الموجودة آنذاك (القصبات)، وعززوا وظائفها العسكرية. وتم تشييد الأبراج الخارجية الملحقة بالأسوار المشيدة بالطوب بهدف تقويتها، كما هو حال قصبة بطليوس، ويؤيد هذا التوجه لاسيما في عهد الموحدين بناء أسوار ضخمة على الأسوار القديمة.[٢٧]

## ثانيًا: الفكر العمراني عند ابن خلدون

أما ابن خلدون فيشير في المقدمة[٢٨] -في فصل فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة- إلى أمرين أساسين هما "دفع المضار وجلب المنافع": ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية "طيب الهواء للسلامة من الأمراض"،[٢٩] ومما يراعى من المرافق في المدن "طيب المراعي لسائمتهم". ومما يراعى أيضًا "المزارع"، فإن الزروع هي الأقوات،[٣٠] ومن ذلك "الشجر للحطب والبناء"، فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا "سياج الأسوار".[٣١]

يتضح تشابه بل تأثر ابن خلدون بم جاء به ابن أبي الربيع دون إشارة إلى المصدر الذي اعتمد عليه، مع تسجيل أن الفارق الزمني بينهما يناهز ستة قرون، لكن سأعرض النص مفصلاً كما ورد عند ابن خلدون ليتضح الجديد الذي حمله صاحب المقدمة:

"ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكدًا خبيثًا، أو مجاورًا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورته، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب، وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه، ولقد يقال إن ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل، ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص، فلما فض ختامه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع، وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه، وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملاً على بعض أعمال الطلسمات لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن والوباء، وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة. والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه. والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر مما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودها، فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يمينًا وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات.... والبلاد القليلة الساكن أمراضها كثيرة، فلما كثر سكنها انتقل حالها عن ذلك،[٣٢] وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد.. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولابد لها من المرعى، فإذا كان قريبًا طيبًا كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضًا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ، والخشب أيضًا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم".[٣٣] فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو..".[٣٤]

فالنص يعكس بصفة عامة مدى اهتمام الفكر الإسلامي بالمدن، وإذا كنا قد أشرنا إلى تأثر ابن خلدون بما حواه مؤلف ابن أبي الربيع دون الإشارة إليه كمصدر،[٣٥] فإن عمله لم يكن مجرد اقتباس، وقد سبق أن أثير أمر تكتم ابن خلدون عن المصادر والمراجع، وعلل تعليلات مختلفة منها أنه لم يكن يتوفر أثناء خلوته لكتابة المقدمة على خزانته، فاعتمد اعتمادًا كبيرًا على ذاكرته،[٣٦] عكس ابن الأزرق الذي يذكر مصادره بأمانة وصدق والذي أورد النص بمنهجية أكثر وضوحًا وتصنيفًا.[٣٧]

وبالرغم من ذلك فإننا نسجل قدرة ابن خلدون على التفسير والتحليل والتعليل مستفيدًا من تجربته ومن رؤيته الشمولية أيضًا، ومن ممارساته للسياسة التي مكنته من الاحتكاك بأولي الأمر، كما مكنته من القيام برحلات وجولات شملت عدة مناطق. إضافة إلى نقده لمؤرخين - مثل البكري- اكتفوا بسرد الآراء كما سمعوها أو كما وردت عبر الإسناد أو السمع دون تمحيص ولا تدقيق، فإنتاجهم اتسم بالسطحية واللاعقلانية حسب صاحب المقدمة الذي "عمد إلى تحري صحة الخبر في ذاته. فكان هذا الاتجاه يعتبر مرحلة جديدة حاسمة في كتابة التاريخ .. وبسبب هذا الاتجاه الجديد في المنهجية التاريخية برز دور المؤرخ على أساس ما يضيفه إلى المادة التاريخية من حيثيات، قائمة على الدراسة والقدرة على التفكير؛ فهو الذي ينتخبها من المادة الأرشيفية الهائلة، وهو الذي يعرضها، ويحللها، وينتقدها؛ ليستنبط فيها، ويصل بها إلى نتائج. وبذلك أصبح للتاريخ نبض، وليس كالمومياء الهامدة في المتحف بدون حياة، أو اجترار للماضي فقط".[٣٨]

ذلك أن "مشكل التاريخ عند ابن خلدون يبدأ من نقد جذري للخطاب التاريخي التقليدي، ولكنه ينطلق أيضًا من اهتمام بموقعه الشخصي من التاريخ. فقد رفع مفهوم التاريخ إلى مستوى إنتاج التاريخ عوض الاعتماد على التقليد المتداول، ووضع حدًا لاستنساخ لا ينتهي لأنماط السرد والخبر، وتقريب الهوة بين "التاريخ"، و"الخطاب عن التاريخ".[٣٩] فهو حسب المرحوم محمد زنيبر[٤٠] "أعطى في مقدمته ما يكفي من الدلائل على أن التاريخ شيء آخر غير رصد الأحداث وجمع اليوميات والحوليات".

ويمكن أن نستخلص؛ أن النص يعكس التحول الذي حدث في إنتاج نص تاريخي بين عصر ابن أبي الربيع (القرن الثالث الهجري) بالرغم من ظهور مؤرخين مشارقة طبعوا الفترة بطابعهم، وعصر ابن خلدون (القرن الثامن الهجري) والذي اتسم ببروز مؤرخين كبار أيضًا في الغرب الإسلامي كابن عذاري (ت. بعد ٧١٢هـ)، وابن أبي زرع (ت. ٧٤١هـ)، وأبي الحسن علي الجزنائي (ت. ٧٦٦هـ)، وابن الخطيب (ت. ٧٧٦هـ)، وابن مرزوق التلمساني (ت. ٧٨١هـ).. فالنص مقتبس من المقدمة، و"المقدمة دفاع عن مشروعية التغير في التاريخ... فيكون هدفها هو إحداث تغيير جذري في الكتابة التاريخية (أي الخطاب التاريخي) ملائم للتغيير الجذري الذي وقع في التاريخ".[٤١]

## خاتمة

قصارى القول؛ رغم تأثر ابن خلدون بابن أبي الربيع واطلاعه على مؤلفه، فقد ساهما كل من موقعه ومن تجربته الشخصية وممارساته المهنية ومن محيطه البشري والطبيعي ومن ظروفه التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى وضع الكتابة التاريخية في عصره، في بلورة فكر عمراني أصيل أرشد أولي الأمر إلى اعتماد أفكارهما في اختيار مواقع ومواضع المدن التي شيدوها، آخذين بعين الاعتبار الأسس والمعايير التي تؤهلها للتطور والنمو، كما يمكن استنتاج أن ابن أبي الربيع اكتفى بتحديد الخطوط الكبرى للسياسة الشرعية التي ينبغي على الحاكم الاسترشاد بها في المجال العمراني، بينما ابن خلدون تطرق نسبيًا إلى تفسيرها وتوضيحها مع توجيه نقد عقلاني لبعض الاختيارات والمواقف، وتدعيم موقفه وتصوره بأمثلة إما من الماضي وإما من الواقع المعاش آنذاك.

## الهَوامِشُ:

(١) الطبعة الأولى، مطبعة كرستان العلمية، جمالية مصر المحمية، ١٣٢٩هـ، وهناك طبعة أخرى من تحقيق ناجي التكريتي، بيروت، دار الأندلس ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، (سنعتمد على طبعة ١٣٢٩هـ) وهناك مصدر أقدم هو **"كتاب البنيان"** لصاحبه عبد الله بن عبد الحكم (ت. ٢١٤هـ) والذي يندرج ضمن المصادر الفقهية.

(٢) عثمان، عبد الستار محمد، **المدينة الإسلامية**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، منشورات عالم المعرفة، غشت ١٩٨٨م، العدد (١٢٨)، ص ٢٣. فقد أشار إلى أهمية مؤلف ابن أبي الربيع دون الإشارة إلى اعتماد ابن خلدون عليه. نفس الأمر بالنسبة لتاوشيخت لحسن، **عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية**، الجزء الأول، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص١٥٣، والذي أرجع بعض النصوص إلى الماوردي مع العلم أن الأخير نقلها عن ابن أبي الربيع. وقد سار في نفس الاتجاه خالد عزب، **فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، (٥٨٠ صفحة).

(٣) ابن أبي الربيع، **نفسه**، ص ٤.

(٤) **نفسه**، ص ١٢١. (مصحح الكتاب).

(٥) تحقيق رضوان السيد، بيروت، ١٩٨٧م.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمان، **مقدمة ابن خلدون**، ٣ أجزاء، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

(٧) **بدائع السلك في طبائع الملك**، جزءان، تحقيق محمد عبد الكريم، نشر الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م، وهناك أيضًا: ابن الإمام التطيلي، **صنف في أحكام البناء**، ولقد حققت بعض مصنفاته بتونس، (انظر: دراسات أندلسية، العدد ٨، تونس ١٩٩٢م، وابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق: محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

(٨) ابن الأزرق، **نفسه**، ج١، ص٢٢٣ – ٢٣١.

(٩) ابن الرامي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق: عبد الرحمان بن صالح الأطرم: رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٣ هـ انظر: محمد بنعبد الجليل، **تنظيم العلاقات بمدن المغرب العربي من خلال كتاب "الإعلان بأحكام البنيان" كنموذج**، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، أشغال الندوة المنظمة من ٢٤ إلى ٢٦ نونبر ١٩٨٨م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢ ابن مسيك - الدار البيضاء، سلا، ١٩٩٠م. عبد الستار عثمان محمد، **الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي**، دراسة أثرية معمارية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م، (٣٣١ صفحة) **والمدينة الإسلامية**، المرجع السابق.

(١٠) انظر: مثلاً سعيد بنحمادة، **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و ٨هـ/ ١٣ و ١٤م : إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت، ٢٠٠٧م. ومحمد بن إبراهيم بن يوسف الفائز، **البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي**، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٦هـ، وخلاف محمد عبد الوهاب، **وثائق في شؤون العمران في الأندلس، المساجد والدور**، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م والشريف، محمد، **الماء في سبتة الإسلامية: تقنيات التجميع والتوزيع**، مجلة التاريخ العربي، العدد (٧)، صيف ١٩٩٨م، ص١٦٣ - ١٧٨.

(١١) **نفسه**، ص٩٣. أما لحسن تاوشيخت، **المرجع السابق**، ص١٥٣، فقد أرجع هذا النص إلى أبي الحسن علي الماوردي، **المصدر السابق**، ص٢٠٩، والواقع أن الماوردي نقل عن ابن أبي الربيع الذي عاش قبله بحوالي قرن من الزمن، وقد سبق للباحث أن أشار إلى ابن أبي الربيع في الصفحة ١٥١ عند تناوله المعايير التي يجب على ضوئها اختيار موضع المدينة. ونسجل نفس الأمر بالنسبة لتصنيف المدن وفق خمس خصوصيات، والتي كان ابن أبي الربيع سباقًا إلى تناولها والإشارة إليها، **المصدر السابق**، ص٩٣. كذلك بالنسبة لعبد الأحد السبتي وحليمة فرحات اللذان اعتبرا أن الماوردي هو صاحب هذا التصنيف ولم يشيرا إلى صاحبه الفعلي أي ابن أبي الربيع، انظر: **المدينة في العصر الوسيط_قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٤م، ص١٨.

(١٢) **سورة الأنبياء**، آية (٣٠).

(١٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج٣، ٢٣٣، نقلاً عن: أحمد قدور، **تأثير المدن الكبيرة على الشبكة الحضرية في العهد الموحدي (نموذج المغرب الأقصى)**، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، المرجع السابق، ص ١١٣.

(١٤) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة السابعة، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٨م، ص ٥٢٣.

(١٥) سعيد بنحمادة، المرجع السابق، ص١٠٧.

(١٦) نفسه، ص ١٠١.

(١٧) عبد الواحد المراكشي، نفسه، ٥١٧ – ٥١٨.

(١٨) ريكاردو إتكيبردو بنيتو، **باسكوس: الحياة اليومية في مدينة ثغرية في الأندلس**، ترجمه من الإسبانية وعلق عليه د.عبد الله بن إبراهيم العمير، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٩.

(١٩) نفسه، ص ٧ – ٨.

(٢٠) **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٣٨ و٤٠، انظر: أحمد قدور، المرجع السابق، ص١١١ – ١١٣.

(٢١) ابن الربيع، نفسه، ص٩٤ - ٩٥. هذا النص أورده لحسن تاوشيخت، المرجع السابق، ص١٥١ ناسبًا إياه إلى صاحبه الأصلي ابن أبي الربيع.

(٢٢) عبد الستار عثمان محمد، **المدينة الإسلامية**، المرجع السابق، ص٢٧.

(٢٣) ريكاردو إتكيبردو بنيتو، المرجع السابق، ص٨. ويضيف أنه بالرغم من وجود بعض الشخصيات التي كانت تقوم بوظائفها نيابة عن السلطة المركزية مثل (المحتسب وصاحب المدينة وصاحب الشرطة) بغية تحقيق الأداء الجيد داخل المجتمع... فإن الباحثة **مانويلا مارين** أشارت إلى أنه لا يوجد في بلاد الأندلس جهة ثابتة تأخذ على عاتقها الحفاظ على أسوار المدن التي تشيدها، وصيانتها وتخصيص مبالغ لهذا الغرض. ويبدو أن إصلاحات الحصون كانت تتوقف على الإمكانات المتوفرة لدى الخزينة العامة، وكذلك على المبادرات الشخصية التي كان يوصي بها بعض المحسنين... كما كان يلجأ إلى السكان أنفسهم حيث كانوا يساهمون بشكل تطوعي، أو تؤخذ منهم على هيئة جباية عامة، وفي حالات أخرى تقع الإصلاحات على عاتق سكان الحي المجاور للسور. ص٩، انظر أيضًا: عبد الستار عثمان محمد، المرجع نفسه، ص٥. فبلا نهول مثلاً يرى أن الإسلام لم يكن مشجعًا أو

دافعًا ايجابيًا لحركة التمدن، ويعضد هذا الرأي هاموند الذي يذكر أن حضارة الإسلام كانت ضد حركة التمدن رغم ما يذكره عن التطور الكبير الذي أحرزته بعض مدن العواصم الإسلامية... وقد نتج عن هذا الوصول إلى نتائج خاطئة. أما لحسن تاوشيخت، المرجع السابق، ص ١٥٣ فقد أورد هذا النص مقتبسًا إياه من مؤلف أبي الحسن الماوردي" المصدر السابق، ص٢٠٩، وكأن هذا الأخير هو صاحبه، في حين نجد أن ابن أبي الربيع قد عاش قبل الماوردي بحوالي قرن من الزمن.

(٢٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٧٨٥ – ٧٨٧.

(٢٤) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ٤٠.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) ريكاردو إثكييردو بنيتو، المرجع السابق، ص١٣.

(٢٧) نفسه، ص ١٨.

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) نفسه، ج٢، ص٧٨٦.

(٣٠) نفسه، ص ٧٨٧.

(٣١) نفسه، ص ٧٨٥.

(٣٢) نفسه، ص ٧٨٦.

(٣٣) نفسه، ص ٧٨٧.

(٣٤) نفسه، ص ٧٨٥ – ٧٨٦.

(٣٥) سبق لكثير من الباحثين أن أكدوا في دراساتهم وأطروحاتهم اعتماد ابن خلدون على مَنْ سبقه، بل هناك مَنْ اعتبر مجهوده وإنتاجه مجرد سطو وسرقة، انظر: محمود اسماعيل، **إشكالية المنهج في دراسة التراث**، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٤م. و**نهاية أسطورة، نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا**، عامر للطباعة والنشر ج.م.ع– المنصورة، الطبعة الأولى، نوفمبر١٩٩٦م. و**هل انتهت أسطورة ابن خلدون ؟ جدل ساخن بين الأكاديميين والمفكرين العرب**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ومحمد أسعد نظامي، **علم العمران والإبستيمولوجية الأرسطية: وقفة عند مقدمة ابن خلدون**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد٧٤. الكويت ١٩، ٢٠٠١م. ومحمد عابد الجابري، **نحن والتراث**، بيروت، ١٩٨١م، و**التراث والحداثة**، بيروت،١٩٩١م.

(٣٦) عبد السلام حيمر، "**هل هي نهاية أسطورة بالفعل؟**" جريدة العلم الثقافي، بتاريخ، ١١ –١٠ – ١٩٩٧م، ضمن محمود إسماعيل، **هل انتهت أسطورة ابن خلدون ؟ جدل ساخن بين الأكاديميين والمفكرين العرب**، المرجع السابق، ص٢٢١ – ٢٢٢.

(٣٧) أبو عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٧٦٤ – ٧٦٦.

(٣٨) عبد المنعم ماجد، **الإبداع عند المؤرخين المسلمين: إضافة في منهجية علم التاريخ**، مجلة التاريخ العربي العدد (٣)، صيف ١٩٩٧م، ص١٨٣.

(٣٩) علي أومليل، **الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون**، ط٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٦. "فابن خلدون انتقد بعنف مجموع التاريخ العربي، ودخل في محاسبة نقدية لكل المؤرخين بدون استثناء أي حتى الكبار منهم.. إذ أنتجوا حديثًا سطحيًا عن التاريخ، فأخبروا عن ظاهره، وسيظل الحديث عن حقيقة التاريخ غائبًا عن التأليف التاريخي برمته، ما لم يرد كل حديث عن التاريخ إلى التاريخ نفسه أو إلى شيء يشمل قوانين التاريخ وقوانين المجتمع وهو ما يطلق عليه ابن خلدون اسم طبائع العمران"، ص١١.

(٤٠) **تاريخ المغرب في العصر الوسيط، الدولة – المدينة– الاقتصاد**، "تنسيق محمد المغراوي، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم٢٤، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٩٣.

(٤١) أومليل، نفسه، ص ٦٢، إن ابن خلدون دعا إلى درس التاريخ بمنهج عقلاني، ذلك أن التاريخ – كالعلم الطبيعي– له قوانينه.

# الفكـــــــر المعمـــــــاري
## عند ابن الأزرق



**أ.د. بديع العابد**

رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم (سابقًا)
العميد الأسبق لكلية الهندسة_جامعة الإسراء
عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

**مُلَخَّصْ**

يتناول البحث الإسهام الفكري المعماري لابن الأزرق المتوفى (٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، الذي نَهَجَ نَهْجْ ابن خلدون في عرضه للعمران البشري، وحدد أنواعه وركز على العمرانيين: البدوي والحضري، واعتبر الثاني غاية وهدفاً للأول، وبين أن غاية العمران الحضري هو التساكن في المدن، وعرض للسياسة المدنية وعرفها بأنها كيفية تدبير المنزل وتدبير المدينة، ثم عرض لأسس إدارة المدن وبين مؤسساتها المدنية وسلطاتها الإدارية والقضائية والرقابية والأمنية، كما عرض للموارد الاقتصادية بالمدن وتناول الصنائع وقسمها كابن خلدون إلى: عملية وعلمية، ضرورية وكمالية، بسيطة ومركبة، وبالجملة فإن إسهامه كان تكرارًا لمعظم إسهام ابن خلدون في الفكر المعماري.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ٢٧ مايو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أغسطس ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

العمران البشري، العمران البدوي، العمران الحضري، التخطيط العمراني، الصنائع

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

بديع العابد. "الفكر المعماري عند ابن الأزرق".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٤١ – ١٤٦ .

### مُقَدِّمَةٌ

يتناول البحث الإسهام الفكري المعماري لابن الأزرق المتوفى (٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، والذي نَهَجَ نَهْجْ ابن خلدون في عرضه للعمران البشري، وحدد أنواعه وركز على العمرانيين: البدوي والحضري، واعتبر الثاني غاية وهدفاً للأول، وبين أن غاية العمران الحضري هو التساكن في المدن. وعرض للسياسة المدنية وعرفها بأنها كيفية تدبير المنزل وتدبير المدينة، ثم عرض لأسس إدارة المدن وبين مؤسساتها المدنية وسلطاتها الإدارية والقضائية والرقابية والأمنية. كما عرض للموارد الاقتصادية بالمدن وتناول الصنائع وقسمها كابن خلدون إلى: عملية وعلمية، ضرورية وكمالية، بسيطة ومركبة، وبالجملة فإن إسهامه كان تكرارًا لمعظم إسهام ابن خلدون في الفكر المعماري.

### الأهداف والمنهجية

يهدف البحث إلى التعريف بإسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري، وذلك في محاولة لتأصيل هذا الفكر واستكمال بنيته النظرية، ليتسنى توظيفه في الفكر المعماري المعاصر كإنجازات عربية إسلامية، وكإسهام حضاري عربي إسلامي.

ولتحقيق ذلك سأعرض لإسهام ابن الأزرق كما ورد في كتابه، **بدائع السلك في طبائع الملك**، ثم أعرض للمصادر التي استعان بها ابن الأزرق خاصة **مقدمة** ابن خلدون، وذلك في محاولة لبيان شيوع هذه المفاهيم وتداولها في الحضارة العربية الإسلامية، وتحديداً في التخطيط العمراني، ثم أقابل هذه المفاهيم بمثيلاتها المعاصرة، وذلك في محاولة لإعادة استعمالها وتداولها في الفكر المعماري المعاصر كإنجازات عربية إسلامية، لتأكيد حضورنا الحضاري العربي الإسلامي وتعزيز ثقة المعماريين والمخططين العرب بهذه الإنجازات. وسيحدد البحث مفهوم العمران ويركز على العمرانيين البدوي والحضري، وما يتضمنه الأخير من إنشاء للمدن، وأسس لاختيار مواقعها وموارد لاقتصادها، وصنائع لقوام حياة سكانها وطرق إدارتها وأسباب حفظ ديمومتها. وسيبين البحث أن إسهام ابن الأزرق في التخطيط العمراني (الذي أعقب إنجاز ابن

خلدون الذي ارتقى بعلم العمران وما يتضمنه من تخطيط عمراني إلى منظومة فكرية) يكتسب صفة التراكم المعرفي المعني إما: بتأكيد، أو تعزيز، أو تعديل الإسهامات السابقة، أو الإضافة إليها أو معارضتها ونفيها. وسأبدأ بالعمران.

## العمران

العمران عند ابن الأزرق علم قديم وليس جديداً كما يدعي إبن خلدون، وهو علم معني بالملك والإمارة والسياسة وصلاح المعاش، وهو يحوي القواعد الحكمية والاعتبار من التجربة الإنسانية. وبالجملة فهو علم مختص بالاجتماع الإنساني أو السياسي. ويرى بعض القدماء من المفكرين المسلمين[١] أن ابن الأزرق قام بتلخيص مقدمة ابن خلدون وزاد عليها زيادة كبيرة نافعة.

ويرى محقق[٢] كتاب ابن الأزرق بأن علم العمران، كما عرض له ابن الأزرق، أقدم من ابن خلدون. وأن ابن الأزرق قد كشف عن المصادر التي اعتمد عليها ابن خلدون في تصنيفه لهذا العلم في المقدمة، ومنهم ابن المقفع، والجاحظ، والمسعودي، والغزالي، وابن حزم، والماوردي وغيرهم. على أن ما يعنيني هنا هو رسوخ هذا العلم في الحضارة العربية الإسلامية، وبصفة خاصة المباحث المتعلقة بالعمران الإنساني بقسميه: البدوي والحضري، وما يتضمناه من صنائع، الذي ارتقى به ابن خلدون إلى مصاف العلوم المستقلة، فجعل منه منظومة فكرية ذات بناء منطقي. ثم قام ابن الأزرق بتأكيده وتعزيزه ومعارضته أحياناً، شأن كل متأخر في تناول أعمال المتقدمين. كما أن ابن الأزرق اختلف مع ابن خلدون في مفهومه للتاريخ وصحح خطأً وقع به ابن خلدون، وسأعرض لهذا التباين ثم أعرض لأنواع العمران البدوي والحضري ولما تضمنه الأخير من مؤسسات مدنية وصنائع.

## التاريخ

إن ابن الأزرق لم يعرض لبنية التاريخ كما عرض لها ابن خلدون، لكنه اختلف معه في اعتبار أن الدول لها أعمار طبيعة كالأشخاص، أي أن أبن الأزرق اختلف مع ابن خلدون في مفهوم التواصل التاريخي لفلسفة التاريخ الإسلامي. الذي يشكل مع باقي عناصر[٣] فلسفة التاريخ الإسلامي وهي: التفكر والتأمل، والدروس والعبر، والتنوع داخل الوحدة، أسس ومرتكزات دراسة علم العمران.

فابن الأزرق يصف ابن خلدون بأنه سلك مسلكًا غريبًا[٤] في تحديد أعمار الدول بثلاثة أجيال، أي بمائة وعشرين عامًا. وهذا الخطأ المنهجي الذي وقع فيه ابن خلدون بتحديده عمرًا للدول ومن ثَمَّ للمدن، وتشبيهها بالكائن الحي مخالفًا بذلك مفهوم التواصل التاريخي للحضارة العربية الإسلامية، وهذا يدل على وعي والتزام ابن الأزرق بفلسفة التاريخ الإسلامي، التي انطلق منها في تفسير العمران البشري، وتاريخ المدن، والمؤسسات المدنية والصنائع، التي سأعرض لها تباعًا فيما يلي من شرح وتحليل.

## العمران البشري

لقد عرض ابن الأزرق للعمران البشري مباشرة دون أن يوضح المرحلتين اللتين[٥] سبقته وهما: مرحلة العمران الشامل أو الاستخلاف في الأرض، ومرحلة العمران الانتقائي والاستقرار البشري في الأرض بعد الطوفان. كما اكتفى ابن الأزرق بتعريف محدود للعمران البشري وهو أن الاجتماع الإنساني هو عمران العالم، وصنفه إلى قسمين: بدوي وحضري، وربط بين كل عمران والبيئة التي يقطنها وبين كيفية تعامله معها، وسأعرض لهذين العمرانيين تباعًا.

## العمران البدوي

العمران البدوي هو جزء من الاجتماع الإنساني، وهو السكن في البوادي والقضاء وأطراف الرمال. وهذا العمران يقتصر على الضروري من أسباب الحياة، وهو متسع المسارح لتربية الحيوان والمزارع للغرس والزرع. وابن الأزرق يعرض لثلاثة أنواع من العمران[٦] البدوي طبقًا لأسباب المعاش: وأولها، الزراعة والمقام لأجلها ولو في الغيران والكهوف، وسكن المداشر والقرى، وهو حال البربر والأعاجم. وثانيهما، الشاوية وهم البدو الرحل الذين يعتمدون في معاشهم على الشاء والبقر، وسموا شاوية نسبة إلى الشاء، وهم لا يبعدون في القفار كالترك والصقالبة. وثالثهما، البدو الذين يعتمدون على الإبل والظعن، لعدم استغنائها في قوام حياتها عن المراعي وموارد المياه. ويصنفهم ابن الأزرق بأنهم الأشد وحشة ومنهم العرب.

وهنا يوضح ابن الأزرق تفاعل العمران البدوي مع البيئة بأنه مقتصر على الضروري، ويصف طبيعة توحشهم بأنها منافية للعمران، فهم دائمو الرحلة والتقلب، ولا يحتاجون إلا إلى الخشب والحجر لنصب الأثافي واتخاذ الأعمدة والأوتاد للخيام. فسكناهم الخيام وتفاعلهم مع البيئة تفاعل سلبي، ووضعهم الاجتماعي متدنٍ، لأنهم لا يعرفون الاستقرار ودوره في تعزيز القيم الحضارية. وبهذا يكون ابن الأزرق قد نهج منهج ابن خلدون في تقييم العمران البدوي بيئيًا. وهو في رأيي تقييم مجحف لأنه لم يتلمس الرؤيا البدوية للتفاعل مع البيئة. وهي رؤيا يعتبرها المسعودي[٧] (متوفى: ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ايجابية وذات أبعاد وفوائد نفسية وصحية واجتماعية وسياسية. وإن التفاعل مع البيئة كان وليد تفكر وتأمل وإمعان نظر، من أصحاب الخبرة والتمييز، أي أنه تم بوعي وقصد وسابق تفكير، وليس تلبية لضرورة واستسلام لعجز أو قصور في التفكير.

كما يرى المسعودي خلافًا لابن خلدون وابن الأزرق أن تفاعل العمران البدوي مع البيئة كان موافقًا للشروط الصحية للسكان، كصلاح الأرض، واعتدال الهواء، وعدم توطن الأوبئة لابتعاد هذه المواقع عن المستنقعات. وإن تبديلهم لمواقع سكنهم يعود لهذه الأسباب ولعدم استنزاف البيئة واستهلاك مصادرها، كما إنه أحفظ للصحة ولمصادرهم الاقتصادية. وأهم من كل ما سبق هو أن

العمران البدوي لم يكن نتاج جهل البدو بالعمران الحضري، بل ترفعًا وتميزًا عن استكانة الحضر ودعتهم، وتفادياً لعيوب العمران الحضري البيئية وانعكاساتها الصحية السلبية على السكان.

وبهذا يتضح أن العمران البدوي له فلسفته القائمة على التفكر والتأمل[٨] والاستجابة لمتطلبات نفسية وبيئية وصحية واقتصادية، وليس نتاج عجز فكري أو استكانة نفسية أو انكفاء اجتماعي، أو الاكتفاء بما هو ضروري. وأن التفسير الاجتماعي الذي اقتبسه ابن الأزرق عن ابن خلدون هو تسطيح لمعاني هذا العمران وانتقاصًا من مقوماته الفكرية التي تستند إلى منهجية واعية في التفاعل مع البيئة. كما يوضح عدم صحة ادعاء ابن الأزرق الذي اقتبسه عن ابن خلدون أيضًا بأن طبيعة العرب منافية للبناء الذي هو أصل العمران. فالمسعودي[٩] بين أن العرب (البدو) على دراية ومعرفة بأحوال العمران الحضري وخصائص مبانيه الذي سيكون موضوعنا التالي.

## العمران الحضري

العمران الحضري عند ابن الأزرق عملية تطورية عن مرحلة البداوة كما هو الحال عند ابن خلدون. لكن كلاهما تجاهل حقيقة إلمام البدو بالعمران الحضري، وترفعهم عنه للأسباب النفسية والبيئية التي وضحها المسعودي، واكتفيا بتفسيرهم الاجتماعي للعمران، وانكفاء البدو على الضروري من أسباب الحياة، وتطلع الحضر إلى الحاجي وغير الضروري فقط.

إن التفسير الاجتماعي للعمران الحضري سواء كان في الحضارة الواحدة، وهو مرحلة الانتقال من البداوة إلى الحضارة، أو التواصل بين الحضارات من خلال المضاهاة والتقليد، والتأثير والتأثر، يرتقي بالعمران الحضري ويعمل على تنوعه، وزيادة أهله إلى الحاجي وعدم اقتصارهم على الضروري.

فتكثر الصنائع وتزدهر الحياة الاقتصادية في المدن، وتزداد الحاجة إلى إنشائها، ويرى ابن الأزرق أن الدول أقدم من المدن والأمصار، وأن البناء واختطاط المنازل من منازع الحضارة.[١٠]

وأنه لا بد من تمصير الأمصار واختطاط المدن. كما يرى أن بقاء المدن ليس مشروطًا بزوال الدولة التي اختطتها، بل بانعدام تواصل المدينة مع محيطها العمراني،[١١] أي بانقطاع التعاون مع الظهير الاقتصادي للمدينة من سكان القرى والبوادي المحيطة بها، الذين يعتمدون على معاشهم بما يرفدون به المدينة من منتجات زراعية. فليس بالضرورة إذن أن يكون عمر المدينة هو عمر الدولة التي اختطتها كما يقول ابن خلدون، لأنه في الأعم الأغلب، أن دولة أخرى تنزل في المدينة التي اختطتها دولة سابقة، فتبقى المدينة عامرة وتزيد مبانيها، وتتسع خططها، وهذا الأمر ظاهر في المدن العربية كالقاهرة، ودمشق، وفاس، وبغداد وغيرها. فبقاء المدن وأعمارها إذن مرتبط بتواصل ارتباطها مع ظهيرها الاقتصادي وليس بعمر الدولة التي اختطتها.

وهنا يعارض ابن الأزرق ابن خلدون في مسألة أعمار المدن. ويرفض الأول رأي الثاني في أن الدول لها أعمار طبيعية[١٢] كالأشخاص تنعكس على أعمار المدن وازدهارها ونموها، على الرغم من أن ابن الأزرق يتفق مع ابن خلدون في شروط اختيار مواقع المدن، لكنه لا يعتبر العامل السياسي المحدد الأهم لأعمارها، بل العوامل الاقتصادية والبيئية والاجتماعية التي يجب أن تراعى في اختطاطها كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل.

## التخطيط العمراني

إن اختطاط المدن عند ابن الأزرق هو قرار سياسي،[١٣] وهو نفس رأي ابن خلدون وهذا مفهوم قديم حصل في الإسلام وقبل الإسلام، وهو ما يحصل في عصرنا الحاضر. فتخطيط مكة[١٤] قبل الإسلام تم بقرار سياسي من قصي ابن كلاب، الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم، وإعادة تخطيط مركزها التقليدي أو التاريخي تم بقرار من الخليفة عمر بن الخطاب[١٥] (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، وإعادة تخطيطه مرة أخرى تم بقرار من الخليفة عثمان بن عفان[١٦] (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) وإعادة تخطيطه مرة ثالثة تم بقرار من الخليفة المهدي[١٧] (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م)، وإعادة تخطيطه مرة رابعة تم بقرار من الدولة العثمانية[١٨]، وإعادة تخطيطه حاليًا تم بقرار من الحكومة السعودية. كما أن إنشاء مدن البصرة والكوفة والفسطاط تم بقرار سياسي من الخليفة عمر بن الخطاب، وكذلك باقي المدن العربية.

إن المدن بحاجة إلى تدبير، والتدبير يتطلب وجود مؤسسات إدارية وقضائية وأمنية ورقابية تعنى بأحوال المدينة للحفاظ على استقرارها وازدهارها وتواصل عمرانها. كما أن اختطاط المدن وتشييدها يتم وفقاً لرؤى في اختيار مواقعها وتأمين حاجة قاطنيها من الطعام والأمن وحفظ الصحة. وهذا لا يتم إلا بتفكير وإمعان نظر، أي بمنهجية التفكر والتأمل، التي تتضح في اختيار مواقع المدن الذي سيكون موضوعنا التالي.

## اختيار مواقع المدن

إن اختيار مواقع المدن عند ابن الأزرق لا يختلف عنه عند ابن خلدون لكنه يستند إلى قاعدة شرعية في اختيار مواقع المدن وهي[١٩]: "دفع المضار وجلب المنافع"، التي صيغت فيما بعد بمجلة الأحكام العدلية كالتالي: "درء المفاسد أول من جلب المنافع". فموقع المدينة إذن يجب أن يدفع المضار ويجلب المنافع، ويتم ذلك بالأسباب التالية:[٢٠]

١- أن يكون موقع المدينة في مرتفع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر، حتى لا يوصل إليها الأعداء إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، وأن يدار عليها سور لتحصينها، وهذا يدفع المضار الأرضية عنها (أي وصول الأعداء إليها).

٢- أن يكون الموقع خاليًا من الآفات وبعيدًا عن الأمكنة المتعفنة والمروج الخبيثة، طيب الهواء وفسيح الأرجاء، وهذا يدفع المضار "السماوية"، أي البيئية، عنها.

٣- أن يكون الموقع على نهر أو به عيون عذبة، لأن الماء حاجة ضرورية ومرفقًا رئيسًا لسكان المدن، ويجب أن يكون عذبًا جاريًا وغير راكد للسلامة من الأمراض وهذا أيضًا يدفع المضار "السماوية" البيئية ويجلب المنافع الصحية والاقتصادية.

٤- أن يكون الموقع مجاورًا للأراضي الخصبة الصالحة للزراعة والمرعى، لتوفير الأقوات للسكان ولثروتهم الحيوانية، ولتوفير الخشب لمبانيهم والحطب لإبقاء النيران للاصطلاء والطبخ، وهذا جلب للمنافع.

٥- قرب الموقع من البحر لتسهيل المبادلات التجارية على أن يكون الموقع على جبل، أو قريب من التجمعات الحضرية، غير معزول ليسهل الدفاع عنه، وهذا جلب للمنافع الاقتصادية ودفع للمضار الأمنية.

وبالجملة فإن حضور ابن خلدون في اختيار مواقع المدن واضح كل الوضوح في كتاب ابن الأزرق[٢١]، حتى في تحامله على العرب ووصفهم بأنهم لم يراعوا فيها إلا المهم عندهم من مراعي الإبل، وما يصلح لها من الشجر والماء المالح، وأنهم، أي العرب، لم يراعوا الماء ولا المزارع والحطب.

وهذا تحامل وتعريض بالعرب، وجهل بالجغرافيا، فالبصرة تقع على شط العرب وهي من أغنى المناطق في العالم بزراعة النخيل. والكوفة تقع على نهر الفرات، والفسطاط تقع على نهر النيل، ومدينة الرقة تقع على نهر الفرات، وسر من رأى أو سامراء تقع على نهر دجلة. وهكذا في باقي المدن التي اختطها العرب في القرون الثلاث الأولى للهجرة، وهي عامرة بأهلها، وبعضها كان وما زال يشكل حضورًا حضاريًا مميزًا كالكوفة والبصرة، اللتان خرج منهما تقعيد اللغة العربية، ناهيك عن بغداد والقاهرة فهما من أشهر عواصم الدول في العالم.

هذه المدن وغيرها لم يسارع إليها الخراب فمكانتها الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية تتعزز باستمرار، وحضورها الحضاري متواصل بجهود سكانها العرب، فليس ثمة مبرر لهذا التحامل، سوى، ربما حالة الإحباط التي كان يعاني منها كل من ابن خلدون وابن الأزرق في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين اللذان شهدا تراجع الدول الإسلامية في مصر وشمال أفريقيا وانهيارها في الأندلس.

أما زعم ابن الأزرق بأن اختيار المواقع عند العرب في بداية الإسلام كان محدود الرؤى ويفتقر إلى بعد النظر، فهو أيضا اتهام غير صحيح وينم عن تحامل وجهل في آن واحد. فرؤى عمر بن الخطاب التي تم وفقًا لها تخطيط مدن البصرة والكوفة والفسطاط، ما زالت تشكل نظريات فاعلة في التخطيط العمراني المعاصر لأنها تستند إلى اعتبارات: بيئية، وصحية، واقتصادية، وأمنية، شكلت الشروط التي عرض لها ابن الأزرق وقبله ابن خلدون في اختيار مواقع المدن. ومن هنا يتضح تحاملها على العرب. فهما يعرضان لأسباب وشروط سبقهم إليها عمر بن الخطاب والجغرافيون العرب التي عرضت لها في بحث سابق[٢٢]. وعليه؛ فإن تعريض كل من أبن الأزرق وابن خلدون بالعرب وبنظريات التخطيط العمراني العربية غير مبرر علميًا ولا عمرانيًا ولا حتى تاريخيًا.

وأن إسهامهما في التخطيط العمراني لا يقارن بإسهام عمر بن الخطاب، بل إن إسهامهما ليس إلا اجترار لنظريات عمر بن الخطاب الذي فعل دور المؤسسات السياسية والإدارية في المدن، خاصة مؤسسة القضاء التي وضح دورها في رسالته المشهورة لأبي موسى الأشعري واليه على البصرة، والتي اقتبسها ابن الأزرق[٢٣] وبنا عليها دور مؤسسة القضاء، وسأعرض فيما يلي لدور هذه المؤسسات.

## المؤسسات السياسية والإدارية في المدينة

عرض ابن الأزرق لمؤسسات الدولة المختلفة كسلفه ابن خلدون، فتناول الخلافة وإمامة الصلاة، ومؤسسة القضاء، ومؤسسة الشرطة، ومؤسسة الاحتساب، ومؤسسات أخرى لا تعنيني في هذا البحث. وبين ابن الأزرق أن وظيفة الخليفة هي النيابة عن صاحب الشرع في أمرين[٢٤] هما: حفظ الدين وسياسة الدنيا. وبين أن سياسة الدنيا تعني رعاية الخليفة لمصالح الرعية، الأمر الذي أسفر عن فن تدبير المدن ونشوء المؤسسات لهذا الغرض، ومنها إمامة الصلاة[٢٥] التي لم يُفَصِّلْها ويبين انعكاساتها على التخطيط العمراني كما فعل ابن خلدون فلم يشر إلى مركزية المسجد الجامع في المدينة، ولا إلى دور مساجد المحال (الخطط) بها، ولم يبين العناصر الخدمية، كالساحات المكشوفة لربط الدواب، التي يجب إلحاقها بالمسجد المركزي وبمساجد المحال. وعليه فإن ابن الأزرق قد أغفل نقاطاً تأسيسية في التخطيط العمراني للمدن كالموضعة الحضرية للمسجد الجامع ولمساجد المحال، وعلاقاتها بشبكة المواصلات.

أما باقي المؤسسات كالقضاء[٢٦] والشرطة، والاحتساب، فلم يتعمق ابن الأزرق في عرضه لها كما فعل ابن خلدون، ولم يبين دورها الفاعل في تدبير المدينة وحسن إدارتها وبصفة خاصة لدور المحتسب، ولم يوضح أيضا حضورها في التخطيط العمراني للمدن، فكان عرضه من الناحية التخطيطية ناقصًا ومبتورًا، واكتفى بالتعريف بضرورة وجودها كمؤسسات تسهم في تدبير شؤون المدينة وإداراتها، وكذلك بالنسبة للعمران الشجري فقد اعتبره عنصر من عناصر الترف ومن توابع الحضارة، لكنه لم يركز على دوره الإيجابي في منظومة التخطيط العمراني، بل ركز على كونه يمثل الطور الذي يخشى منه هلاك المدينة وخرابها، وهو على

النقيض من ابن خلدون يرى أن سكان الحواضر (المدن) تتجنب زراعته لأنه مؤذن بخرابها، بينما يرى ابن خلدون أن سكان المدن يتنافسون في زراعته فيزهو منظر مدنهم، وتكثر المتنزهات العامة بها، فهو ينوه بدوره في منظومة التخطيط العمراني كعنصر جمالي وتكميلي. وبهذا أكون قد وصلت إلى آخر إسهامات ابن الأزرق في التخطيط العمراني وهو العنصر الاقتصادي المتمثل بالصنائع الذي سيكون موضوعنا التالي.

## الصنائع

إن إسهام ابن الأزرق هو نقل مقتضب عن ابن خلدون. فيعرف الصنائع بأنها "ملكة في أمر عملي فكري"[٢٧]، فالعملي يكون جسمانيًا ومحسوسًا، وإنتاجه يتم بمنهجية التجربة والخطأ إلى أن يتم الوصول إلى منتج محكم الصنعة، فيتم بعد ذلك إنتاجه بمنهجية التكرار. أما الفكري فيتأتى بالتعليم والتعلم ويتحصل بإخراج الصورة من "القوة إلى الفعل"[٢٨] بالاستنباط الفكري على التدريج، أي بمنهجية التفكر والتأمل.

وقسم ابن الأزرق الصنائع تمامًا كما قسمها ابن خلدون إلى قسمين[٢٩] وهي: عملية وفكرية (علمية)، بسيطة ومركبة، ضرورية وغير ضرورية (كمالية)، شريفة وممتهنة. فالعملية والبسيطة والضرورية والشريفة معنية بأساسيات المعاش ومتطلباته الرئيسية، كالزراعة والحياكة، وإنتاجها لا يكون كاملاً ولا مستجادًا وإنما على قدر الضرورة. أما العمران الحضري فصناعته ترنوا إلى الكمالي، فيزداد فيها الإتقان والتأنق، وتزدهر الصناعات الترفيهية كالغناء والرقص وتربية الحيوانات والطيور وصناعة الأثاث وتنضيد الفرش وتزيين المباني... الخ.

وحقيقة الأمر؛ أن مصدر هذا التصنيف هو إخوان الصفا، فقد نقل عنهم ابن خلدون وأغفل الإشارة إليهم، بينما اعترف ابن الأزرق بأن مصدر معلوماته هو ابن خلدون. وإن كان الأخير قد توسع في عرضه للصناعات فعرض لصناعة البناء ولأعمال الطوبار ولتقانات البناء ولصناعة النجارة ولأعمال التنميق والتزويق في المباني، أما ابن الأزرق فقد اقتصر عرضه على الصناعات بصورة مجردة.

وبهذا أكون قد استكملت عرضي لإسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري، الذي شمل مواضيع متعددة أكد فيها إسهام ابن خلدون النوعي في الفكر المعماري. ولقد تميز إسهام ابن الأزرق عن إسهام ابن خلدون بأنه كان ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي فقد عارض ابن خلدون في أعمار الدول وتشبيهها بالكائن الحي، وتبنى مفهوم التواصل التاريخي خلافاً لابن خلدون. كما تميز ابن الأزرق عن ابن خلدون بأمانته العلمية فقد كشف عن مصادره بينما أخفاها ابن خلدون. وهذا يوضح أن العمران ليس علماً جديدًا[٣٠] كما ادعى ابن خلدون، بل هو علمٌ قديم. ابتدأه كمشروع فكري تحت التأسيس كلٍ من ابن المقفع والجاحظ والمسعودي وغيرهم، ناهيك عن جذوره في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم شكل فكره نخبة من العلماء مثل الغزالي والطرطوشي وابن الأكفاني وابن رضوان، ثم جاء ابن خلدون وتوسع في مباحثه وكون منه منظومة فكرية وظاهرة ثقافية دونها في مقدمته المشهورة، وهنا يتميز دوره عن غيره من العلماء الذين سبقوه بجمعه واستكمال بنيته النظرية.

## خاتمة

تناول هذا البحث إسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري العربي الإسلامي، فشمل العمران وبين أنه علم قديم معني بالملك والإمارة والسياسة وصلاح المعاش، وإنه علم يختص بالاجتماع الإنساني. ثم عرض للعمران البشري وقسمه إلى قسمين: بدوي وحضري. ثم عرض لكل منهما وبين أن تفاعلهم مع البيئة تفاعل سلبي مقتصر على الضروري. ثم عرض البحث لرأي المسعودي الذي بين النواحي الإيجابية للعمران البدوي سواء في تفاعله مع البيئة أو في ترفعه عن العمران الحضري لأسبابٍ نفسية وصحية وبيئية، ثم بين البحث أن العمران البدوي وظف منهجية التفكر والتأمل في اختيار مواقع سكناه، طبقاً للمسعودي.

ثم تناول البحث العمران الحضري الذي عرفه ابن الأزرق بأنه عملية تطورية عن مرحلة البداوة. وهي المرحلة التي يرتقي بها السكان من الضروري إلى الحاجي، ويعمدون فيها إلى المضاهاة والتقليد، والتأثير والتأثر، كما بين البحث ان الحياة الاقتصادية تزدهر في هذا وتكثر الصنائع، وتزداد الحاجة إلى إنشاء المدن. ثم بين البحث أن أعمار المدن ليس مربوطًا بالدولة التي أنشأتها بل بتواصل المدينة مع محيطها العمراني الذي يشكل ظهيرها الاقتصادي.

ثم انتقل البحث ليعرض لمفاهيم أساسية في التخطيط العمراني، فبين دور القرار السياسي في عملية التخطيط العمراني، ثم عرض البحث لشروط اختيار مواقع المدن: الأمنية، والبيئية، والصحية، والاقتصادية، والاجتماعية. ثم فند البحث تعريض ابن الأزرق وقبله ابن خلدون بشروط اختيار مواقع المدن في بداية الإسلام. ثم واصل البحث عرضه للتفسير الاجتماعي للعمران فبين دور المؤسسات السياسية والإدارية، في تدبير المدينة، ونوه بدور المؤسسة القضائية، ومؤسسة الشرطة، ومؤسسة الاحتساب كما نوه البحث بمفهوم ابن الأزرق لدور العمران الشجري في التخطيط العمراني.

ثم تناول البحث العرض المقتضب لابن الأزرق للصنائع وبين أن مصدره هو ابن خلدون وأن مصدر ابن خلدون هو إخوان الصفا. كما بين البحث أن الصنائع ترتكز على ثلاثة منهجيات: منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار للصنائع العملية، ومنهجية التفكر والتأمل للصنائع العلمية، ثم بين البحث تصور ابن الأزرق في عرضه للصنائع، وانه لم يتوسع بها كما فعل ابن خلدون.

ثم خلص البحث إلى أن ابن الأزرق عرض للعمران وللتخطيط العمراني ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي خلافًا لابن خلدون

الذي شد عن مفهوم التواصل التاريخي لفلسفة التاريخ الإسلامي في عرضه للعمران وللتخطيط العمراني. كما بين البحث أن العمران ليس علماً جديداً كما أدعى ابن خلدون، بل هو علم قديم يمر بمراحل: البداية، والتشكل ثم التكوين والتصنيف الذي تم على يد ابن خلدون.

بقي أن أضيف أن إسهام ابن الأزرق جاء بعد تكوين علم العمران كمنظومة فكرية ضمن بنى وتراكيب ومفاهيم وأفكار تفرض حضورها على كل إسهام لاحق، فتحدد مساره وتحصره إما ضمن دائرة تنقيح الأفكار، أو الإضافة النوعية لها، أو تأكيدها وتكرارها، وإما معارضتها جزئيًا أو كليًا وطرح بدائل لها. وإسهام ابن الأزرق كان في أغلبه تكرارًا وتأكيدًا لابن خلدون ومن سبقوه، مع معارضة جزئية، ولكن نوعية، تتعلق بأعمار المدن كما بينت في متن البحث. فصحح ابن الأزرق مفهومًا أخطأ به ابن خلدون بتجاوزه على مفهوم التواصل التاريخي بفلسفة التاريخ الإسلامي، وإغفاله لدور العامل الاقتصادي في ازدهار المدن. وبهذا يكون ابن الأزرق قد وضع علم العمران والتخطيط العمراني ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي وهذا ما يميز إسهامه الذي غلب عليه التكرار والتأكيد.

## الهوامش:

(١) انظر: ابن الأزرق، (متوفى ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، جزءان، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، جمهورية العراق، ١٩٧٧، ج١/٢٠-٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٠-٢٢.

(٣) انظر: العابد، بديع، دكتور، (٢٠٠٩)، الفكر المعماري العربي الإسلامي – التفسير التاريخي، **مجلة المدينة العربية**، منظمة المدن العربية، الكويت، العدد ١٤٣، ص: ٣٤-٥٩.- العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٧) الفكر المعماري عند ابن خلدون، **كتاب أبحاث المؤتمر ٢٣ لتاريخ العلوم عند العرب**، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ص: ٤٥٣-٤٨٦.

(٤) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٢.

(5) *See*: Al-Abed, B. (1992), **Aspects of Arabic Islamic Architectural Discourse**, Published by The Technical University of Delft, The Netherland, P. 29.

(٦) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج١/٦٦.

(٧) انظر: المسعودي، (متوفى ٣٤٦هـ/٩٥٧)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ أجزاء، الطبعة الرابعة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١، ج٢/٦٩-٩٧.- العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٥٩-٤٦٠.

(٨) انظر: العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٦٠.

(٩) انظر: المسعودي، مرجع سابق، ج٢/٦٩-٩٧.

(١٠) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٣-٢٧٥.

(١١) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٤-٢٧٧.

(١٢) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٥.- العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٦١-٤٦٢.- ابن خلدون، **المقدمة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر، ص: ١٧٠، ٣٧٤.

(١٣) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢\٢٧٤.

(١٤) انظر: الأزرقي (متوفى ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، **أخبار مكة وما جاء بها من الآثار**، جزءان، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣م، ج٢/٢٥٣.- الحموي، ياقوت، (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، بيروت، ج٥/١٨٦.

(١٥) انظر: الأزرقي، مرجع سابق، ج٢/ ٦٩.- الزركشي، (٧٥٤-٧٩٤هـ/١٣٤٤-١٤٩٢م)، **اعلام الساجد بأحكام المساجد**، تحقيق أبو الوفا المراغي، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٥٧.

(١٦) انظر: الأزرقي، مرجع سابق، ج٢/٦٩.

(١٧) انظر: المرجع السابق، ج٢/٧٤-٨١.

(١٨) انظر: دهيش، عبد اللطيف، دكتور، (١٤١٩هـ-١٩٩٩م)، **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي**، منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة السعودية، الرياض، ص: ٧٣-٨٢.

(١٩) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٧.- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ٣٤٧-٣٤٩.

(٢٠) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٧-٢٨٠.

(٢١) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٧-٢٧٩.

(٢٢) انظر: العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق.

(٢٣) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج١/٢٥٥-٢٥٦.

(٢٤) انظر: المرجع السابق، ج١/٩٠-٩٧.

(٢٥) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٣٦-٢٤٠.

(٢٦) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٤٩-٢٦٨.

(٢٧) انظر: المرجع السابق، ج٢/٣٢٢.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٣٩٩-٤١١.

(٢٨) انظر: ابن الأزرق، ج٢/٣٤٤.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص:٤٠٠.

(٢٩) انظر: ابن الأزرق، ج٢/٣٢٤-٣٢٥.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٣٠) انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٣٨-٤١.- العابد، بديع، الفكر المعماري عند ابن خلدون، مرجع سابق، ص:٤٠٤.

# المسالك في المدينة الإسلامية

د. محمد بن حمو
أستاذ بقسم التاريخ وعلم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تلمسان
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

هناك ثلاث أنواع من المسالك في المدينة الإسلامية منها الكبيرة كالمحجّات والشوارع والطرق، ومنها المتوسطة كالأزقة والزنقات، ومنها الصغيرة كالروائغ والدروب، وفي هذا المقال ذكرت حجمها وأماكنها وما هي الأضرار التي تُنزَّه عنها كعدم الإنقاص منها فضلاً عن قطعها، وأن لا تجري فيها الأوساخ والقاذورات والتي يجب أن تكون في قنوات تحت الأرض، ومن الأضرار التي يُحترز منها إخراج بعض الإخراجات في الطريق كبناء المراحيض فيها، والحوانيت وخاصة مصاطبها ودكاكينها، وإخراج الرواشن والأجنحة فيها وتغطيتها بالساباطات، وقد ذكرنا أن الحكم على مثل هذه الأضرار يختلف من مسلك لآخر بسبب حجم الضرر وثبوته من عدمه، وعليه فقد كانت المسالك الصغيرة أشد ضبطًا من هذه الناحية لأنها اعتبرت بمثابة المنزل وسكانها بمثابة سكان المنزل الواحد، ولا أدل على ذلك من وجود تلك الأبواب على مداخل هذا النوع من المسالك.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام البحث: ١٨ مايو ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ يوليو ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

المسالك، الأحكام، المدينة الإسلامية، المحجة، الروائغ، الدروب

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

محمد بن حمو. "المسالك في المدينة الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص١٤٧ - ١٥٣.

## مُقَدِّمَةٌ

نريد في هذا المقال معرفة أنواع المسالك في المدينة الإسلامية وأحكام كل منها، فلقد ذكرت المصادر عدة أنواع منها كالمحجة والشارع والطريق وطريق الزروع، بالإضافة إلى الأزقة والزنقات والروائغ والدروب، وتتداخل هذه المصطلحات فيما بينها أحيانًا كما تختلف أحيانًا أخرى، وعلى هذا نريد معرفة أنواعها والضوابط الإسلامية المتعلقة بكل واحدة منها. لقد اختلفت أنواع المسالك في المدن الإسلامية من مسالك كبيرة وأخرى متوسطة تتفرع عنها، وتتفرع عن هذه الأخيرة أخرى أصغر حجمًا وهكذا، حسب حجم المدينة وكثافة ساكنيها، وكانت هذه المسالك معروفة في المدينة النبوية، فعن أنس بن مالك قال: أتانا رسول الله (ﷺ) ونحن صبيان فسلّم علينا وأرسلني في حاجة، وجلس في الطريق ينتظرني حتى رجعت إليه،[1] وعن أبي سعيد الخدري أن النبي (ﷺ) قال: "إياكم والجلوس في الطرقات" قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله(ﷺ): "أما إذ أبيتم فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله، قال: "غض البصر وكف الأذى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"،[2] وقد أمر النبي (ﷺ) بإماطة الأذى عن الطريق.[3]

وكانت الطرق أحيانًا تحدد قبل بناء المدن والعمائر كما حدث ذلك في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها من المدن المنشأة، فقد حددت الشوارع واتجاهاتها وأيضًا اتساعها قبل إنشاء المسجد الجامع والمنازل، ولقد كانت كل قبيلة تسكن حيّا خاصًا بها، حسب قرابتها وتجانسها حفاظًا على الجوار والتعايش، ودرءً للخلافات والنزاعات، وكان لهذا الحيّ طريقه الخاص به وتتفرع عنه طرق أخرى حسب عدد أفراد القبيلة الواحدة أو البطن أو الفخذ،[*] ويضاف إلى هذا النظام أهل الذمة الذين وجدت لهم أحياء خاصة بهم في الكثير من المدن وبالتالي لهم طرقهم الخاصة بهم. يقول توفيق حمد عبد الجواد أن من العوامل الأساسية التي تأثر على نظام المدينة الإسلامية هو بنيتها الاجتماعية، التي تتكون في

غالب الأحيان من جملة من المجموعات البشرية المختلفة الأصل واللغة، وفي حالات أخرى اختلاف الدين مما يشجع على نشوء أحياء مغلقة جزئيًا اتجاه بعضها البعض.(٤)

وفي كثير من الأحيان لم تكن اتجاهات الطرق في المدينة عفوية، بل كانت تحدد بشكل يساعد السكان في حرية التنقل مراعية اتجاه الشمس والريح، وقد ذكر ابن خلدون أن من أسباب حدوث الأمراض في المدن ركود هوائها إذا لم تنجز الطرق بشكل صحيح يساعد على سريان الهواء بيسر،(٥) بل وحتى الهواء فليس لهواء الشمال نفس خصائص هواء الجنوب، والشيء نفسه بالنسبة لهواء الشرق والغرب،(٦) وأكد هذا توفيق عبد الجواد حيث قال: "ويؤخذ أيضًا عرض الطرق واتجاهها بحيث توفر الظلال للمصلين في أيام الصيف أثناء تنقلهم من المسكن إلى المسجد، ومفهوم الظل مقرون بزراعة الأشجار في الطرقات والشوارع لهذا الغرض ولغرض التأثير على مناخ البيئة وتحسينه بأمر الله".(٧)

ولعل ما ذكرناه أعلاه ينطبق على المسالك التي في المدن التي يبنها الحكام والتي تحدد مساحات مسالكها قبل البناء، ولكن في المدن التي لم يبنها الحكام يضطر الناس إلى تحديد مثل هذه المسالك أيضًا، فتكون المسالك في البليدة الصغيرة بقدر حاجاتهم من دخول وخروج بالدواب والأنعام، ولا شك في هذا أن المسالك الكبرى المشتركة المنافع بين أهلها تكون أكبر من التي تختص به الجماعة الواحدة، وهذه إنما تتفرع عنها مسالك أخرى أصغر بحسب الأسرة الواحدة، وهكذا تصبح البليدة بلدة مع كثرة سكانها والواردين عليها، فإذا انتقلت من الرعي والزراعة إلى التجارة فستنمو إلى أن تصبح مدينة، ومثل هذا التطور ينعكس على مسالكها فتحدث مسالك أخرى أكبر وأوسع تسمح بمرور التجار بدوابهم المحملة بالبضائع، وهذا ما يؤدي إلى تنظيم هذه المدينة وفق إطارها الجديد، ولا شك أن مثل هذا النشاط يصحبه ورود العلماء والصناع وظهور طبقات جديدة وبالتالي مجموعة حاكمة للفصل بين المتنازعين والمتخاصمين، سواءً كانت هذه المجموعة من السكان بحد ذاتهم كشيوخ القبائل أو تكون معينة من السلطة الحاكمة لعاصمة المدينة.(٨)

وقد ذكر ابن حجر كلاما مثل هذا عند شرحه لحديث النبي(ﷺ) الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قضى النبي(ﷺ) إذا تشاجروا في الطريق الميتاء بسبعة أذرع،(**) قال: قيل الميتاء أعظم الطريق وهي التي يكثر مرور الناس بها، وقيل هي الطريق الواسعة وقيل العامرة، قال الطحاوي لم نجد لهذا الحديث معنى أولى من حمله على الطريق التي يراد ابتداؤها إذا اختلف من يبتدؤها في قدرها، كبلد يفتحها المسلمون وليس فيها طريق مسلوك، وكموات يعطيه الإمام لمن يحيها إذا أراد أن يجعل فيها طريقا للمارة ونحو ذلك، وقال غيره مراد الحديث أن أهل الطريق إذا تراضوا على شيء كان لهم ذلك، وإن اختلفوا جعل سبعة أذرع، وكذلك الأرض التي تزرع مثلاً إذا جعل أصحابها فيها طريقًا كان باختيارهم، وكذلك الطريق التي لا تسلك إلا في النادر يرجع في أفنيتها إلى ما يرضى عليه الجيران، والحكمة في جعلها سبعة أذرع لتسلكها الأحمال والأثقال دخولاً وخروجًا، ويسع ما لا بد لهم من طرحه عند الأبواب، ويلتحق بأهل البنيان من قعد للبيع في حافة الطريق، فإن كانت الطريق أزيد من سبعة أذرع لم يمنع من القعود في الزائدة، وإن كان أقل منع لئلا يضيق الطريق على غيره.(٩)

وقال النووي: "... وإن كان الطريق بين أرض لقوم وأرادوا إحياءها فإن اتفقوا على شيء فذاك، وإن اختلفوا في قدره جعل سبعة أذرع، وهذا مراد الحديث، أما إذا وجدنا طريقًا مسلوكًا وهو أكثر من سبعة أذرع، فلا يجوز لأحد أن يستولي على شيء منه وإن قل، ولكن له عمارة ما يواليه من الموات ويملكه بالإحياء بحيث لا يضر بالمارين، قال أصحابنا ومتى وجدنا جادة مستطرقة ومسلكًا مشروعًا نافذًا حكمنا باستحقاق الإستطراق فيه بظاهر الحال، ولا يعتبر مبدأ مصيره شارعًا، قال إمام الحرمين وغيره: ولا يحتاج ما يجعله شارعًا إلى لفظ في مصيره شارعًا ومسبلاً، هذا ما ذكره أصحابنا فيما يتعلق بهذا الحديث"، وقال آخرون هذا في الأفنية إذا أراد أهلها البنيان، فيجعل طريقهم عرضه سبعة أذرع لدخول الأحمال والأثقال ومخرجها وتلاقيها، قال القاضي هذا كله عند الاختلاف كما نص عليه في الحديث، فإذا اتفق أهل الأرض على قسمتها وإخراج طريق منها كيف شاؤوا فلهم ذلك ولا اعتراض عليهم لأنها ملكهم، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.(١٠)

## أنواع المسالك

وعلى كل فهناك أنواع من المسالك وجدت في المدن الإسلامية منها المحجة وهي المسالك الكبرى للمدينة، وذكرت أيضًا الشوارع والطرق وهي الأصل داخل المدن، وذكرت إلى جانب هذا مسالك تحمل أسماءً معينة منها المسالك والأزقة والزنقات والروائغ والدروب،(*) وأحيانًا تتداخل هذه التسميات، وقبل البدء في الكلام على هذه الأنواع من المسالك وعلى جملةٍ من أحكامها فلا بأس أن أسوق هنا كلاما للفرسطائي يساعدنا أكثر على فهم بعض أنواع الطرق داخل المدن مع حجمها واستعمالاتها، وهو هنا بدء بالطرق الأصغر إلى الطريق الأكبر فالأكبر، قال فأولها طريق الرجالة (المشاة) وحريمه ثلاث أذرع (حوالي١,٥٠م)، ثم تليه طريق السقاية وهو خمس أذرع (حوالي٢,٥٠م)، ثم طرق الحطابة خمسة مثلها ومنهم من يقول للسقاية والحطابة ست أذرع (حوالي٣م)، وطريق محامل الحمير والزنابل والغرائر والروايات سواء وهو سبع أذرع (حوالي٣,٥٠م)، وكذلك تلاليس الحمير والبغال وأحمال الحطب وشباك الحمير أيضا على هذا الحال، وكذلك طريق الحمير كلها على اختلاف ما يحمل عليها سبعة أذرع، وكذلك البغال والخيل والبقر مثل الحمير، وطريق الجمال كلها على اختلاف ما يحمل عليها إثنا عشر ذراعًا (حوالي٦م) ما خلا طريق الجوائز والمحامل (القافلة الكبيرة التي تحمل المتعة) فلها أربع وعشرون ذراعًا (حوالي١٢م)، وأما طريق المواشي كلها فهو أربعين ذراعًا (حوالي٢٠م) إلى الماء

والمراعي، كذلك طريق قوافل الحجاج أربعين ذراعًا، والطريق الذي تختلط فيه هذه الأصناف فإنهم يأخذون بالأكثر فيها،[١١] وليس علينا أن نذهب بفكرنا بعيدًا فهذه طرقنا فلنقس عليها، فالطرق المخصصة للشاحنات والحافلات والسيارات (الطريق السريع) تكون هي الكبيرة في المدينة، والطريق داخل المدينة تكون أصغر منها لأنها مخصصة لسكان المدينة، وتتفرع عنها طرق أصغر حسب سكان مجموعة من الأحياء، حتى نصل إلى طرق صغيرة غير نافذة لأهل الحي الواحد. ولقد تميزت طرق المسلمين وساحاتهم بالليونة، ولذلك كثرت التعديلات عليها بزحف المباني المجاورة إليها.[١٢]

**١- المحجة**

أول هذه المسالك المحجة، والمحجة جادة الطريق،[١٣] وهي الطريق المستقيم جمعها محاج، وهو الطريق النافذ،[١٤] وهي الأكبر في المدينة. والمحجة مسلك واسع يمكن أن نجده خارج المدينة بحيث يخرج الناس منها إلى الغابة، وأيضًا يكون هذا النوع من المسالك رابطًا بين المدينة وغيرها من المدن، كما أننا نجد أيضًا أن المحجة توجد داخل المدينة وهي طريق واسع، وفي كل حال يمنع أي شخص من الإنقاص منها والإقتطاع حتى ولو كانت واسعة جدًا، كما يمنع فيها أيضًا أن تجري فيه الأوساخ والقاذورات، بل وحتى ماء المطر يجب أن يكون في قناة تحت الأرض.

**٢- الشوارع**

**الشوارع** لها أهميتها في المدن الإسلامية، بحيث أن الواجب فيها أن تكون واسعة كبيرة تلاءم المارين بها كما تسهل مرور الحيوانات المحملة.[١٥] ولفظ الشوارع يُطلق أيضًا على المحجات، وقد يطلق على المسالك الكبيرة جدًا خارج المدينة، كما توجد أيضًا داخل المدينة شوارع رئيسة كبيرة، ورأى بعض العلماء أن مثل هذه الشوارع الواسعة إذا أُنقص منها جزء يسير لا مانع ومعظمهم رأى المنع، وقد تكثر الشوارع الكبيرة في المدينة المتبحرة العمران ويتفرع عنها سكك كثيرة، وقد نجد في بعض هذه الشوارع ساباطات تغطها وهذا إنما نجده في الشوارع المتوسطة الاتساع وليس الكبيرة، كما يمكن أن نجد في بعض هذه الشوارع بعض الإخراجات والمتمثلة في بعض المراحيض وقد أجاز بعض العلماء مثل هذه الأعمال في الشوارع الكبيرة، ولعل هذا أحد الأسباب التي قد أدت إلى ضيق الشوارع في المدن الإسلامية القديمة.

**٣- الطريق**

الطريق: السبيل يذكر ويؤنث، يقال الطريق الأعظم والطريق العظمى، والجمع أطرقٌ وطُرقٌ وأطرِقاءٌ وأطرِقةٌ، وجمع الجمع طرقات.[١٦] نريد هنا معرفة معنى الطريق هل يختص بمسلك معين في المدينة؟ أو أنه يطلق ويراد به الشارع أو الدرب؟ وبمعنى آخر هل يقصد بالطريق ذلك المسلك الذي يتفرع عن الشوارع الكبرى والمحجات؟ وتتفرع منه مسالك صغيرة كالدروب والزنقات؟ أو أن المحجات والشوارع والأزقة والرّوائغ والدروب يطلق عليها اسم الطريق من باب التغليب؟

ما يمكن أن نستخلصه هنا؛ هو أن الطريق حبس على المسلمين لا يجب قطعه أصلاً، بل ولا حتى الإنقاص منه بأي نوع من أنواع الإنقاص، ومن ذلك خروج المراحيض ببنائها إلى الشارع، وأيضًا الحوانيت والدكاكين التي تكون بين يديها، بالإضافة إلى تلك الإخراجات التي تخرج في الطرق كالأجنحة وما إليها والتي يجب أن تكون عالية لا تضر بالناس ولا بالركاب، كما يمنع أيضًا ضرر القنوات والسواقي على الطرق، والطريق بهذه الأوصاف متوسط الاتساع فلا فهو كبير جدًا كالمحجات والشوارع الكبيرة، ولا هو صغير جدًا كالروائغ والدروب.

**٤- السكة:**

السَكُوك من الطرق المنسد،[١٧] وقد يكون غير منسد أيضًا، والسكة لا يقصد بها نوع من أنواع الطرق وإنما هي وصف عام ينطبق على كل مسالك المدينة النافذة منها وغير النافذة الواسعة منها والضيقة.[١٨]

**٥- الزقاق:**

الزُقاق: هو السكة يذكر ويؤنث وجمعه زقّان وأزقة،[١٩] وهو الطريق الضيق نافذ أو غير نافذ ويجمع أيضًا على زقاقات، والزقاق دون السكة،[٢٠] وقد ذُكر هذا النوع من المسالك في قصة غزوة الخندق، وذلك بعد ما تفرّق الأحزاب المحاصرون للمدينة المنورة ورجع النبي(ﷺ) إلى منزله ووضع سلاحه واغتسل، فجاءه جبريل عليه السلام وأشار عليه بالخروج إلى يهود بني قريضة الذين نبذوا العهد وساعدوا الأحزاب، قال أنس بن مالك "رضي الله عنه": "كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله (ﷺ) إلى بني قريضة، وعلى هذا فقد كان هذا المصطلح معروفًا في عهد النبي(ﷺ).[٢١]

إن الزقاق على أنواع منه الزقاق الضيق والواسع، ومنه النافذ وغير النافذ، وقد وجد على بعض هذا النوع من المسالك دروب أي أبواب تغلق ليلاً، ويمكن اعتبار وجود أبواب على مداخل الأزقة أحد المؤشرات التي يمكن من خلالها وصف مسلك ما بالزقاق، وهنا نشير إلى شيء آخر مهم في عمارة المدن الإسلامية وهو أن بعض المسالك غير النافذة كانت تُجعل على مداخلها أبواب تغلق عليها ليلاً، وهذا ما يمكن وصفه في وقتنا الحاضر بالأبواب التي في مداخل العمارات فإن العمارة عبارة عن زقاق غير نافذ والباب لها هو الدرب.

**٦- الزنقة:**

تأتي بمعنى حشد وحشر، الزنق بمعنى الضيق والزنقة مسلك ضيق، ومصطلح "الزنقة" منتشر في بلاد المغرب الإسلامي، وانتقلت إلى الإسكندرية من بلاد المغرب، حيث مازال هذا المصطلح يطلق على موضع تجاري في المدينة يسمى زنقة الستات.[٢٢] والزنقات على نوعين نافذة وغير نافذة، ويمنع من الضرر عليها، وذلك بالتضييق وكأن يجلس عليها الناس حتى يؤذوا المارين بها، والزنقات غير النافذة كانت تجعل فيها أحيانًا مطامير وأحيانًا أخرى تغطى

بساباطات، وفي كل حالة لا يجب إحداث الضرر عليها، وبهذا الوصف فإن مسالك المدينة تشابهت في أنها سالكة وغير سالكة وانطبق عليها عدة تسميات فلفظ السكة والزقاق والزنقة إذا ذكرت إنما يقصد بها هذا النوع من المسالك، وقد تكون هذه الأسماء تؤدي المعنى نفسه، واختلفت التسمية من مكان لآخر ومن لهجة لأخرى، كما قد لا تكون تؤدي المعنى نفسه وهو الظاهر، إذ لماذا يسمى شيء واحد بعدة تسميات، إذا كان اسم واحد يؤدي هذا المعنى.

**٧- الرائغة:**

يقال راغ الفرس يمنة ويسرة ولم يسر في الطريق، ويقال حاد يمنة ويسرة، ويقال طريق رائغ أي مائل، وفي حديث الأحنف فعدلت إلى رائغة من روائغ المدينة أي طريق يعدل ويميل عن الطريق الأعظم.[٢٣] قال محقق كتاب البرزلي، أن الرائغة هي الطريق المائلة عن الشوارع الكبيرة في المدينة،[٢٤] ولعل الرائغة بالراء هي نفسها الزائغة بالزاي التي ذكرها صاحب كتاب الحيطان وذكر أنها على نوعين منها الدائرية ومنها المستطيلة الشكل ولكل واحدة حكم، وصورتها سكة غير نافذة فيها سكة أخرى من جانب اليمين أو من جانب اليسار فأراد رجل داره في السكة الأولى وبعض حوائطه إلى السكة الأخرى أن يفتح له بابًا إلى السكة الأخرى، ليس له ذلك لأنه ليس لهم شركة ولا حق المرور في السكة الأخرى، ولو بيعت منها دار كان حق الشفعة لأهل تلك الزائغة لا لأهل الزائغة الأولى، ولو أراد واحد من أهل تلك الزائغة أن يفتح بابًا إلى الزائغة الأولى وهي الزائغة العظمى فإن له ذلك لأن الزائغة العظمى حقهم جميعًا، وإن كانت مستديرة قد لزق طرفاها فلكل واحد منهم أن يفتح بابًا في أي موضع شاء لأنها زائغة واحدة من أولها إلى آخرها ولهم حق المرور فيها.[٢٥] وبالجملة يمكن القول: بأن الرائغة هي تلك الطريق غير النافذة الموجودة في المدينة، وهي تشبه من هذا الوجه الزنقات والأزقة، وليس لدينا هنا ضابط نستند إليه في تسمية مسلك ما غير نافذ رائغة، أو زقاقًا، أو زنقة.

**٨- الدرب:**

الدرب هو المدخل بين جبلين والجمع دروب، وليس أصله عربيًا، والعرب تستعمله في معنى الباب، فيقال لباب السكة درب وللمدخل الضيق درب، لأنه كالباب يفضي إليه، والدرب هو الباب الذي يجعل على فم السكة...، وقد انسحب مصطلح "الدرب" فأصبح يطلق على الطريق كلها التي يُعلَّق عليها.[٢٦]

الدّروب التي لا تنفذ مشتركة المنافع بين ساكنيها، ولعلها على هذا تعتبر أصغر مسلك في المدينة، وقد مرّ معنا أن المدن الإسلامية كانت تقسم إلى أحياء، لكل حيّ مكانه الخاص به، وعلى هذا فهذه المسالك تختص بها العائلة الواحدة أو الجماعة التي تجمعهم روابط مشتركة كرابط القرابة والدم أو رابط المصاهرة، وقد يكون منها رابط الموالاة، والطريق بصفته هذه خاص بالجماعة الواحدة فقط وبالتالي لا يسلكه غيرهم، وكما وصفه بعض العلماء فالطريق مشترك المنافع بين ساكنيه،[٢٧] يقول توفيق عبد الجواد: "من العوامل الأساسية التي تؤثر على نظام المدينة الإسلامية هو بنيتها الاجتماعية التي تتكون في غالب الأحيان من جملة من المجموعات البشرية المختلفة الأصل واللغة، وفي حالات أخرى اختلاف الدين مما يشجع على نشوء أحياء مغلقة جزئيًا باتجاه بعظها البعض وازدياد استقلاليتها الداخلية".[٢٨]

الدروب تشترك في صفة واحدة وهي أنها غير نافذة، ولا يوجد منها ما هو نافذ، وقد تسكنها الفئة الواحدة التي تجمعها خصائص مشتركة، كما يمكن أن يوجد بينها غريب كأهل الكتاب مثلاً، ثم إن هذه المسالك مشتركة المنافع بين ساكنيها فلا يجب لأي أحد أن يحدث فيها شيئًا إلا برضى أصحابه، وهناك أمر آخر وهو أن هذه الدروب وضع على مداخلها أبواب سُميت دروبًا أيضًا، وكانت تغلق، وعلى هذا يصبح الدرب بهذه الطريقة بمثابة منزل مغلق لا يجوز لأي شخص أن يسلكه، وبهذا يصبح هذا النوع من الطرق أكثر حرمة، كما أن هذه الأبواب التي على مداخل الدروب لا يجب أن تحدث أذى بالساكن الذي في بداية الدرب، وينطبق هذا الأمر على الرحاب، ويمكن أيضا الإشارة إلى أمر آخر وهو أن الدرب يشبه من جِهَةِ أنه غير نافذ الزقاق والزنقة والرائغة، كما أنه يشبه تمامًا الرائغة من حيث أنهما غير نافذين، بالإضافة إلى أننا يمكن أن نجد على مداخلهما أبواب تغلق عليهما ويشترك معهما في هذه الصفة الزقاق،[***] وعليه لا يمكن لنا من خلال هذا أن نفرق بين الرائغة والدرب لأن لهما الوصف نفسه.

## خاتمة

من خلال هذا المقال: استطعنا أن نميز ثلاث أنواع من المسالك منها الكبيرة كالمحجّات والشوارع والطرق، ومنها المتوسطة كالأزقة والزنقات، ومنها الصغيرة كالروائغ والدروب، فذكرنا حجمها وأماكنها وما هي الأضرار التي تنزه عنها كعدم الإنقاص منها فضلاً عن قطعها وأن لا تجري فيها الأوساخ والقاذورات، والتي يجب أن تكون في قنوات تحت الأرض، ومن الأضرار التي يُحترز منها إخراج بعض الإخراجات في الطريق كبناء المراحيض فيها، والحوانيت وخاصةً مصاطبها ودكاكينها، وإخراج الرواشن والأجنحة فيها وتغطيتها بالساباطات، وقد ذكرنا أن الحكم على مثل هذه الأضرار يختلف من مسلك لآخر بسبب حجم الضرر وثبوته من عدمه، وعليه فقد كانت المسالك الصغيرة أشد ضبطًا من هذه الناحية لأنها اعتبرت بمثابة المنزل وسكانها بمثابة سكان المنزل الواحد، ولا أدل على ذلك من وجود تلك الأبواب على مداخل هذا النوع من المسالك.

## الملاحق:



صورة رقم (١)

مسلك نافذ بدرب مسوفة بتلمسان، نلاحظ سقوط الملاط، والحشائش، وكذا استعمال سقف للتظليل



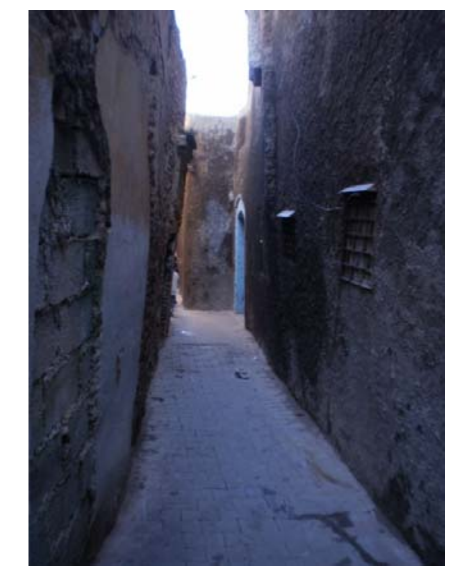
صورة رقم (٢)

مسلك غير نافذ بدرب مسوفة بتلمسان، ساباط منخفض، ويقابله مكان مهدم وبه قاذورات مكدسة



صورة رقم (٣)

مسلك غير نافذ بدرب مسوفة بتلمسان، نلاحظ الإنقاص من الطريق في جهتها اليسرى، وسقوط الملاط من الجدار



صورة رقم (٤)

مسلك نافذ بدرب السلسلة بتلمسان، نلاحظ ميلان الجدار الأيسر وبنائه بمواد حديثة، كما نلاحظ الإنقاص من الطريق في جهتها اليمنى



صورة رقم (٥)

مسلك غير نافذ بدرب السلسلة بتلمسان، لاحظ إنخفاض الساباط الذي الأصل فيه أن يكون مرتفعا حتى لا يمسه رأس الرجل الراكب على دابة.



صورة رقم (٦)

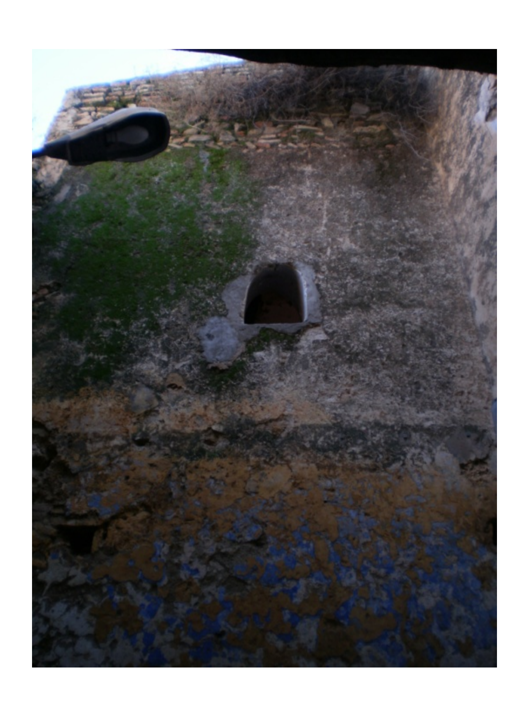
درب السلسلة، نلاحظ سقوط الملاط، وتشقق الجدران،
مما سيؤدي حتما إلى سقوطها مستقبلا



صورة رقم (٧)



مسلك نافذ بدرب السلسلة، نلاحظ تهدم الجهة العلوية من الجدران وسقوط الملاط، وأيضا نمو الحشائش بالأعلى، بالإضافة إلى الكتابة على الجدران.



صورة رقم (٨)

مسلك نافذ بدرب السلسلة، نلاحظ سقوط الملاط، ونمو الحشائش بالأعلى، ووجود الطحالب، مما سيؤثر سلبا على الجدران

## الهَوامِشُ:

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **الأدب المفرد**، خرج أحاديثه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٣٣٢.

(٢) انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت. ٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، طبعة فريدة مصححة مرقمة مرتبة حسب المعجم المفهرس وفتح الباري ومأخوذة من أصح النسخ ومذيلة بأرقام طرف الحديث، ط٢، دار الفيحاء-دمشق، دار السلام-الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٣٩٧:- المنذري (زكي الدين عبد العظيم)، **مختصر صحيح مسلم**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط١، طبعة جديدة منقحة ومزيدة، دار بن عفان-المملكة العربية السعودية، المكتبة الإسلامية-عمان، قصر الكتاب-البليدة، ١٤١١هـ، ص٣٦٩:- العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (ت.٨٥٢هـ)، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه وتحقيقه محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه قصي محب الدين الخطيب، ط١، ج٥، دار الريان للتراث، القاهرة-مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص١٣٤-١٣٥: - النووي (مُحي الدين يحي بن شرف) وآخرون، **شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية**، اعتنى بها أبو عبد الله محمود بن الجميل، ط٢، ج١٤، دار الإمام مالك باب الوادي-الجزائر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٦٧، ٢٩٧.

(٣) انظر: البخاري، **الصحيح**...، مصدر سابق، ص٣٩٨:- البخاري، **الأدب المفرد**...، مصدر سابق، ص٧٧-٧٨، ٢٦٢-٢٦٣:- ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ج٥، ص١٣٦:- النووي، **المنهاج**...، مصدر سابق، ج١٦، ص١٣٠-١٣١.

(*) أنظر تفصيلاً أكثر عن هذا في مقال للدكتور لعرج:- عبد العزيز لعرج، **"تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية"**، مجلة الوعي، مجلة فكرية ثقافية تصدر عن دار الوعي للنشر والتوزيع، العدد المزدوج ٣-٤، جمادى الأولى والثانية، أفريل-ماي، الجزائر، ٢٠١١م، ص٢٨-٣١.

(٤) توفيق حمد عبد الجواد، **العمارة الإسلامية فكر وحضارة**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م، ص٣٠١.

(٥) ابن خلدون: عبد الرحمان (ت.٨٠٨هـ)، **المقدمة**، وهي مقدمة كتابه المسمى كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٦) نفس المصدر سابق، ص٦٨.

(٧) توفيق حمد عبد الجواد، مرجع سابق، ص٧٦.

(٨) ابن خلدون، مصدر سابق، ص٢٧٠، ٣١٥.

(**) البخاري، الصحيح...، مصدر سابق، ص٤٠٠. وقد بوّب البخاري لهذا الحديث بقوله: إذا اختلفوا في الطريق الميتاء-وهي الرحبة تكون بين الطريق-ثم يريد أهلها البنيان فتترك منها الطريق سبعة أذرع، وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أيضا أن النبي(ﷺ) قال: **"إذا اختلفتم في الطريق جعل عرضه سبع أذرع"**، انظر:- المنذري، مصدر سابق، ص٢٥١.

(٩) ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ج٥، ص١٤١-١٤٢.

(١٠) النووي، مصدر سابق، ج١١، ص٢٢٧.

(*) وقد ذكر هذه الأنواع جميل أكبر.- جميل عبد القادر أكبر، **عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية**، ط٢، دار البشير، عمان-الأردن، مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م.ص٢٧٨.

(١١) الفرسطائي: أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي (ت.٥٠٤هـ)، **القسمة وأصول الأرضين**، كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق وتعليق

وتقديم الشيخ بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد صالح الناصر، ط٢، مزيدة ومنقحة، المطبعة العربية جمعية التراث القرارة-غرداية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٥٣٣-٥٣٤. وانظر كلامًا قريبًا من هذا عند:- أحمد بن القاسم العنسي اليماني الصنعاني، **التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار**، ج٣، دار الحكمة اليمانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص١٩٨.

(١٢) جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢٤٩.

(١٣) الرازي: زين الدين محمد بن أبي عبد القادر (ت.٦٦٦هـ)، **مختار الصحاح**، ط٣، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٢٠.

(١٤) عبد الستار عثمان، **الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي دراسة أثرية معمارية**، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية-مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٥٥.

(15) Marçais. G; **Mélanges D'Histoire et D'Archéologie de L'Occident Musulman**, T1, Imprimerie Officielle-Alger, 1957, P227.

(١٦) الرازي، مصدر سابق، ص٣٦٤.- الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت.٨١٧ هـ)، **القاموس المحيط**، رتبه ووثقه، خليل مأمون شيحا، ط٤، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٨٠٠.

(١٧) الفيروز آبادي، مصدر سابق، ص٦٢٦.

(١٨) انظر تأكيد هذا عند القيرواني: القيرواني: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبو زيد (ت.٣٨٦هـ)، **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م.، ج١١، ص٤٤-٤٥:- الفرسطائي، مصدر سابق، ص١٧٢. – الثقفي: الشيخ المرجي (توفي في القرن الرابع هجري)، **كتاب الحيطان، أحكام الطرق و السطوح و الأبواب و مسيل الماء و الحيطان في الفقه الإسلامي**، مع شرحه وتهذيبه والزيادات عليه، حققه محمد خير رمضان يوسف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص١٧٠-١٧١.

(١٩) الرازي، مصدر سابق، ص٢٤٧-٢٤٨.

(٢٠) عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٢١) البخاري، الصحيح...، مصدر سابق، ص٦٩٨. وانظر:- ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ج٧، ص٤٧٠.

(٢٢) عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٢٣) نفس المرجع، ص١٧٧.

(٢٤) البرزلي: أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت.٨٤١هـ)، **فتاوي البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تقديم محمد الحبيب الهيلة، ط١، ج٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م، ص٣٨٠.

(٢٥) المرجي الثقفي، مصدر سابق، ص١٦٩-١٧١.- الأَدَرْنوي: القاضي كامي محمد بن أحمد بن إبراهيم الحنفي أفندي (ت.١١٣٦هـ)، **رياض القاسمين أو فقه العمران الإسلامي**، دراسة وتحقيق أحمد بن حموش، ط١، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سورية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٢٤.

(٢٦) ابن منظور: عبد الرحمن بن مكرم (ت.٧١١هـ)، **لسان العرب**، ط٣، دار صادر بيروت-لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٣٧٤.- البستاني: المعلم بطرس (ت.١٣٠٣هـ)، **محيط المحيط**، قاموس مطول للغة العربية طبعة جديدة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٧٤:- غالب: عبد الرحيم، **موسوعة العمارة الإسلامية**، ط١، بيروت-لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.ص١٨٤: - عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص١٦٥-١٦٦.

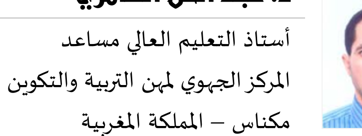
(٢٧) انظر: القيرواني، مصدر سابق، ج١١، ص٤٥:- الفرسطائي، مصدر سابق، ص١٧٨:- الونشريسي: أحمد بن يحي (ت.٩١٤هـ)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٨، ص٤٢-٤٣، ج٩، ص٥٠-٦٠.

(٢٨) توفيق حمد عبد الجواد، مرجع سابق، ص٣٠١:- جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(***) يقول جميل أكبر بأن الفقهاء استخدموا وصف غير نافذ أو المشترك مع أسماء الزنقة والزائغة والرائغة والدرب والزقاق والسكة والطريق، أنظر: جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص٣٧٨.

# المدينة الإسلامية
## الوظائف والتنظيمات





**د. عبد الحق الطاهري**

أستاذ التعليم العالي مساعد

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

مكناس – المملكة المغربية



### مُلَخّصْ

المدينة الإسلامية كيان حضري، اكتسب طابعه الإسلامي من مجموعة من الخصائص، بعضها مادي محسوس، وبعضها معنوي يتعلق بأنماط السلوك والقيم والعلاقات بين السكان. مع اختلاف بين المدن الإسلامية في الحجم والأهمية باختلاف المجتمعات والعصور. وللمدن الإسلامية في العصر الوسيط الإسلامي وظائف متنوعة، سمحت لها بالتميز، وجعلت لها نفوذا و إشعاعا في محيطها. ومن أهم هذه الوظائف: الوظيفة الدينية، والوظيفة السياسية والإدارية، والوظيفة الاقتصادية، والوظيفة الدفاعية والعسكرية، ثم الوظيفة العلمية والثقافية. وكان لوظائف المدن تأثير في الطابع المعماري للمدينة. أما تنظيمات المدينة الإسلامية فتهتم الحياة الداخلية للمدينة، وأشكال وآليات تنظيم الحياة العامة داخل المدينة. ومن أهم التنظيمات: التنظيم السياسي والإداري، والتنظيم الاجتماعي، والتنظيم الاقتصادي، ثم التنظيم العمراني. وقد شكلت المدينة الإسلامية، بوظائفها وتنظيماتها، كيانًا مستقلاً، فتمتعت بخصوصياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في إطار وحدة الدولة الإسلامية. كما أن تطور الحضارة الإسلامية، وتنوع مشاربها وروافدها أغنى المدينة من كل النواحي، وجعلها تعكس تنوع وامتزاج عناصر هذه الحضارة. وبشكل بديع جمعت المدينة الإسلامية بين حسن التخطيط وجودة ومتانة البناء وجمال ورونق الزخرفة، ومراعاة الشروط الصحية من جهة، وبين الوظيفية من جهة ثانية. كل ذلك مع احترام تعاليم الدين، وتقاليد المجتمع، وخصوصيات الساكنة، مع أن غير المسلمين وجدوا في المدينة فضاء لأنشطتهم الدينية ولاجتماعية، وهو ما يعكس تساكن وتعايش سكان المدن وطوائف المجتمع.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٢ أبريل ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ يوليو ٢٠١٤

**كلمات مفتاحية:**

المدن العواصم، المرافق العامة، التجمعات المهنية، التشريعة الإسلامية، النشاط الإنساني

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

المدينة الإسلامية. "المدينة الإسلامية: الوظائف والتنظيمات".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٥٤ – ١٦٣.


### مُقَدِّمَةٌ

تتعدد جوانب البحث في موضوع المدينة الإسلامية، وتختلف محاوره، ويمكن أن يبحث من الناحية العمرانية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الدينية، وقد تدرس هذه الجوانب منفصلة عن بعضها في مرحلة تاريخية معينة، كما يمكن دراسة تطوراتها عبر العصور، ومقارنتها مع مثيلاتها في العالم. بيد أن طبيعة المدينة الإسلامية، وفهم الموضوع على الوجه الصحيح، يقتضيان عدم الفصل بينها في الدراسة، نظرا لترابطها وتكاملها وتأثيرها المتبادل. فبين الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة، والتكوين المادي للمدينة الإسلامية من جهة ثانية ترابط كبير، ولذلك قيل: "إن المدينة الإسلامية هي الوعاء الذي يشمل أنشطة الحياة الإسلامية". ولما كان بحث مثل هذا ينوء بحمل كل المعطيات والتفاصيل؛ فإنه تم الاقتصار على وظائف المدينة الإسلامية وتنظيماتها الداخلية بصفة مجملة، وأثر ذلك على تكوينها المادي العمراني.

## أولاً: المدينة الإسلامية ووظائفها

**١/١- تعريف المدينة الإسلامية:**

تختلف معايير تعريف المدينة وتعتمد محددات متنوعة: سياسية، اقتصادية (نوع النشاط الذي يمارسه السكان)، ديموغرافية (عدد السكان)، وقد ألفت في تعريفها كتب مثل كتاب "معنى المدينة"[١]. وتكاد كل التعاريف تتفق على أن المدينة "هي قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه"[٢]، وأنها كيان عمراني وإداري يخضع في تنظيمه لمجموعة من القوانين، ويتطور عبر الزمان والمكان.

وقد اعتنى المسلمون باختطاط المدن وبنائها، "والاختطاط عطية الإمام لهم موضعًا يبنون فيه وإباحة ذلك لهم... ومنه خطط الكوفة والبصرة"[٣]. وتكتسب المدينة صفتها من ملامحها ومميزاتها الخاصة، فوصف المدينة بالإسلامية يعتمد على معايير تبين أهم الملامح التي يجب أن تتوفر في المجتمع الحضري حتى يمكن وصفه بـ"المدينة الإسلامية". فصحيح أن صفة "الإسلامية" بالنسبة للمدينة لا تقتصر على تاريخ الإنشاء، بحيث لا يمكن إطلاق هذه الصفة فقط على المدن التي نشأت بعد مجيء الإسلام، فكثير من المدن التي تعرف بالإسلامية كانت قبل الإسلام، واستمرت ولم تزل لتحل محلها مدن بملامح أخرى. ومدن العالم الإسلامي المعاصر توصف بالإسلامية وهي لا تكاد تختلف عن المدن العالمية إلا قليلاً. ذلك أن كل المدن اليوم تكتسي طابعًا موحدًا هو طابع الحياة الحضرية الحديثة. غير أن هذا لا ينفي أن للمدن الإسلامية خصائص ومظاهر أساسية تحافظ عليها على مر العصور، رغم تطورها، فهي تعكس مظاهر حضارية وثقافية واجتماعية، قد تختلف عما كان عليه الأمر في السابق، ولكنها تحافظ على الأسس الضرورية. ولعل الأساس المشترك المستمر بين المدن الإسلامية هو الإسلام، وإن اختلفت في الزمان والمكان والثقافة الفرعية، واكتسبت نوعا من الخصوصية.

وليس المقصود بالإسلام الذي تنسب إليه المدينة مجرد العقيدة الدينية، أو ممارسة السكان للشعائر، بل لا بد أن تكون الشريعة هي الحاكمة لسلوك الناس ومعاملاتهم، والثقافة الإسلامية متجلية في سلوكهم، بمعنى أن يكون الإسلام أسلوب حياة الناس. ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود مجموعة من المعالم تكتسب من خلالها المدينة طابعها الإسلامي، وتميزها عن غيرها من المدن، وبعض هذه المعالم مادي محسوس، يتمثل في وجود المساجد وفي طبيعة المعمار، لكن البعض الآخر معنوي يتعلق بأنماط السلوك والقيم والعلاقات الاجتماعية بين السكان، ذلك أن المدينة تختط بحسب "ما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية"[٤]. ومن الشروط الضرورية في تأسيس المدن عند ابن خلدون:[٥] (الموضع المحصن الممتنع على العدو، توفر الموارد المائية، والشجر للحطب والبناء، طيب الهواء وملاءمته للحياة، قرب المزارع للتزود بالمواد الغذائية، توفر المراعي للسائمة، الضرورية للضرع والركوب) وتتفاوت ضرورة هذه الشروط "بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن"[٦].

وهذه الشروط إما أن تكون ملائمة فتساعد على توسع المدن ونموها، أو غير ملائمة فتعرقل النمو والتوسع.

لقد حاول بعض الدارسين حصر مميزات المدينة الإسلامية، ومع إقرارهم بعدم وجود مدينة إسلامية نموذجية، لخص بعضهم الملامح الأساسية للمدينة الإسلامية في خمسة:[٧] (وجود القلعة التي تقوم في موقع له طبيعة دفاعية- وجود مدينة ملكية أو حي ملكي - وجود مركز يضم المسجد الجامع والمساجد الكبرى والمدارس الدينية والأسواق - وجود منطقة تضم أحياء سكنية تتميز بالاستقلال النسبي - وجود الضواحي أو الأحياء الخارجية التي حيث يقيم الوافدون الجدد).

فصحيح أن هذا جزء من التكوين المادي للمدينة الإسلامية، لكن الصفة لا تكتمل إلا بالشق المعنوي الذي يقتضي التزام الإسلام منهاج حياة داخلها. هذا مع وجود اختلاف بين المدن الإسلامية في الحجم والأهمية، باختلاف المجتمعات والعصور، فلا ينبغي تعميم نموذج الغرب الإسلامي، أو النموذج المصري أو الشامي أو غيرها من النماذج. فالمدن الإسلامية ليست مدنا مستنسخة بالرغم من وجود خصائص مشتركة بينها. ولذلك نشأت مجموعة من المدارس والطرز في فن العمارة الإسلامية بحسب المناطق والأقطار التي ظهرت فيها[٨]. فهناك حفاظ على التصميم العام، لكن في انسجام وتكامل مع الخصوصيات الطبيعية والبشرية. وبناءً عليه فإنه لا ينبغي النظر إلى المدينة كمجموعة سكنية فوضوية كما عرفها ودرسها جل الدارسين الغربيين، ولكن كمجموعة لها مميزاتها وخصائصها، تتغير وتختلف باختلاف مناطقها وأزمنتها.[٩]

**٢/١- وظائف المدينة الإسلامية:**

إن المدينة المراد تحديد وظائفها هي المدينة الإسلامية في العصر الوسيط الإسلامي، أما المدن الحديثة فتكاد تفقد خصوصياتها، لأن وظائفها ونمط الحياة بها لا يكادان يختلفان عن المدن العالمية.

والوظيفة هي النشاط أو الدور الرئيس الذي تضطلع به المدينة داخل المناطق المحيطة بها، وفي علاقتها بالمدن الأخرى. وتسمح هذه الوظيفة بأن يكون للمدينة نفوذ أو إشعاع على هذه المناطق أو المدن. ولا عبرة في الوظائف بالوظيفة الداخلية للمدينة لأنها نتاج الحياة المدنية كالسكن مثلاً، ذلك أن "البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف"[١٠]، وإنما العبرة بالوظائف الخارجية، تلك التي قامت من أجلها وتميزها عن مثيلاتها وتجلب لها أسباب الثروة[١١]. والحديث عن وظائف المدن الإسلامية وتخصيص مدينة ما بوظيفة معينة، لا يعني أن هذه المدينة لا تؤدي غيرها، فقد تتعدد الوظائف في المدينة الواحدة في العصر الواحد، وقد تتغير وظائف المدينة عبر العصور. فمن المدن الإسلامية ما بدأ على هيئة معسكرات حربية ثم تحول إلى مدن وحواضر كبرى مثل البصرة والكوفة والقيروان، ومنها ما أنشئ كعواصم للدول المتتابعة كبغداد والقاهرة وفاس ومراكش...، ومنها ما نشأ ونما مرتبطًا بعوامل دينية كالنجف وكربلاء وغيرها. ولذلك

فوظائف المدن متداخلة، وليس من السهل تحديد أي وظيفة تتصدر وظائف المدينة، خاصةً وأن المدن تسعى إلى تنويع وظائفها تدريجيًا.

**(٢/١) ١- الوظيفة الدينية:**

ليست المدينة ذات الوظيفة الدينية هي التي يؤدي أكثر سكانها شعائرهم الدينية، أو التي تتوفر على بعض أماكن العبادة، إنما التي يحج إليها الناس ليؤدوا شعيرة مخصوصة من شعائر دينهم. وهذه الوظيفة قديمة، وكانت المدن التي تؤديها تسمى "مدن العبادة"[١٢]. و"قد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان، وبيوت العرب في الحجاز"[١٣]. وفي الإسلام "فضل الله بقاعا اختصها بتشريفه، وجعلها مواطن لعبادته، يضاعف فيها الثواب وينمي بها الأجور"[١٤]. وإذا كانت الطبيعة والبيئة أو الظروف الجغرافية تتدخل بشكل أساسي في اختيار مواقع المدن، فإن الدين يشكل العامل الحاسم في اختيار موقع المدينة الدينية. فالمدن عامة تحتاج إلى بيئة مساعدة على الاستيطان ومشجعة على إقامة الأنشطة الاقتصادية، وعلى التوسع، غير أن هذا الشرط قد يكون ثانويا، أو لا اعتبار له، في اختيار موقع المدن الدينية و نشأتها، فقد يستغني بعضها عن الشروط الطبيعية والظروف الجغرافية تمامًا.

ومن المدن الدينية ما كان أصل نشأتها دينيا، وأمر بنائها توقيفيًا، ولم يكن لموقعها قيمة جغرافية، مثل مكة التي أنشئت بواد غير ذي زرع. ومنها ما نشأ قديما نشأة طبيعية مرتبطة بالتجارة، ثم تطور في ما بعد لارتباطه ببعض الأحداث الدينية، مثل القدس التي بنى بها داود وسليمان المسجد ونصبا هياكله، وهي مدفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق، وشكلت في الإسلام مسرى النبي صلى الله عليه وسلم، وبها المسجد الأقصى. ومنها المدينة المنورة التي تحولت بعد الهجرة من مجرد قرية "يثرب" إلى مدينة متكاملة.[١٥]

وفي عهود لاحقة ظهرت بعض المدن التي نمت حول مدافن أئمة وعلماء وصلحاء، فكانت هذه المدافن نواة مدن كبيرة ككربلاء والنجف والكاظمية والأعظمية وغيرها[١٦]. ويدرج بعض الباحثين هذه المدن ضمن المدن الدينية لأنها تمارس فيها شعائر وطقوس يقيمها من يعتقد في هؤلاء الأئمة والعلماء والصلحاء، وهي الصفة التي تميز المدينة عن باقي المدن. وقد تصبح لهذه المدن وظائف أخرى ذات أهمية ثقافية واقتصادية، نظرا للتطور الديموغرافي والعمراني الذي تعرفه، لكنها غالبًا ما تحافظ على إشعاعها الروحي، ولا تتأثر بالتحولات السياسية، لأنه وظيفتها مرتبطة بالمجتمع أكثر من ارتباطها بالدولة والحكم والسياسة. وللمدينة الدينية قدسيتها في نفس حجيجها، إلا أن المكان الذي اكتسبت منه هذه الميزة يظل أكثر قدسية، وربما شكل مركز المدينة وأهم مكان فيها.

**(٢/١) ٢- الوظيفة السياسية والإدارية:**

تختار في الغالب، المدينة التي يراد لها أن تقوم بهذه الوظيفة، على خلاف بقية الوظائف، بمعنى أن هذا النوع لا ينمو ويتطور طبيعيًا كالمدن التجارية والصناعية، أو حتى الثقافية، غير أنه تراعى فيها الشروط الطبيعية والجغرافية. وتمارس المدينة وظيفتها الإدارية والسياسية، غالبًا، إلى جانب وظائف أخرى: علمية وتجارية، مثل فاس ومراكش ودمشق وبغداد. وقد تنشأ المدينة أساسًا لهذا الغرض، كما أنها قد تختار من بين باقي المدن لأداء هذه الوظيفة، إلا أنه غالبًا ما توكل هذه الوظيفة للمدينة الرئيسة في الدولة[١٧]. إلا هذا النوع من المدن يتراجع ويندثر بتراجع وتدهور الدولة التي اتخذت منه عاصمة لها، ذلك "أن الدولة إذا اختلت وانتقضت، فإن المصر الذي يكون كرسيًا لسلطانها ينتقض عمرانه، وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب، ولا يكاد يتخلف."[١٨]

وتمثل "المدن العواصم" أهم مدن هذا النوع باعتبار أهميتها السياسية، إذ يعتبر توفر السلطة السياسية من المعايير الحضرية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان. كما أن الدولة القائمة لا تستقر دواليبها وتستقيم أمورها إلا ببناء عاصمة جديدة أو إحداث تغيير في المدينة التي كانت عاصمة لدولة قبلها، مثل فاس في عصر المرينيين.[١٩] وقد كانت المدينة المنورة عاصمة للدولة الإسلامية ومركز إدارتها، ومع اتساع الفتوحات كانت الحاجة ماسة إلى تأسيس مراكز إدارية تشكل عواصم الأقاليم المفتوحة، يعين الخليفة ولاة عليها. وكان لهذا النظام أثره في تخيط المدن الناشئة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، إذ أنشئت في كل منها دار للإمارة، هي بمثابة المركز السياسي والإداري للمدينة وإقليمها، وأصبحت دار الإمارة عنصرًا أساسيًا في تخطيط المدينة الإسلامية.[٢٠]

وتنعكس الأهمية السياسية للمدينة إيجابًا وسلبًا على الجانب العمراني، فقد تزدهر المدينة بسبب الحظوة والرعاية اللتان تنالهما أكثر من غيرها من المدن عندما تكون عاصمة أو مركزًا إداريًا، كما يتأثر عمرانها بزوال أهميتها السياسية الناتج عن تغييرها بأخرى أو عن زوال دولتها، فعمر المدينة هو نفسه عمر دولتها، "فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح...، ومثال ذلك ما وقع في بغداد والكوفة في المشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد في المغرب"[٢١]. وقد تحتفظ بدورها السياسي حتى بعد سقوط الدولة التي أنشأتها لما تتخذها الدولة الجديدة عاصمة لها "وربما ينزل بالمدينة بعد انقراض مختطها ملك آخر ودولة ثانية، يتخذها قرارًا وكرسيًا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها، فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتجد بعمرانها عمرا آخر، كما وقع بفاس والقاهرة"[٢٢] ومراكش. ومن أهم المنشآت

الإدارية في المدينة الإسلامية قصر الحاكم، وسكنى أعوانه، والإدارة والدواوين والقلعة العسكرية.

**(٢/١) ٣- الوظيفة الاقتصادية:**

تقتصر الوظيفة الاقتصادية للمدينة على النشاط التجاري والصناعي، أما الزراعة فلا تدخل ضمن وظائفها، وإن وجدت فهي تمارس في ظروف خاصة وفي أماكن محدودة[٢٣]. ولا تدخل في تحديد الوظيفة الاقتصادية للمدينة الأنشطة الضرورية، فهذه تمارسها كل المدن، إنما تعتبر المدينة اقتصادية إذا كانت تحترف نشاطًا اقتصاديًا معينًا تعرف به ويمكنها من الإشعاع الاقتصادي. ولا تعتبر الأنشطة الاقتصادية الضرورية وظيفة للمدن، وإنما هي شرط من شروط إنشائها، لأنه لابد من توفير حاجات السكان، وفي توفيرها قد تعتمد على إقليمها أو على أقاليم بعيدة عن طريق التبادل التجاري.

ويعتبر النشاط التجاري من أهم أنشطة المدينة الإسلامية الاقتصادية ولذلك كان اختيار موقع المدينة، في الغالب، مرتبطًا بالإقليم وما يوفره من إمكانات اقتصادية، وبالطرق التجارية الهامة التي تمكن المدينة من توفير احتياجاتها وتصدير منتوجاتها، لاسيما وأن المدينة لا يمكن أن تعيش على وظائفها المحلية فقط، بل لا بد لها من إقامة علاقات مع غيرها من المدن. والموقع المتميز هو الذي يسهل عملية التواصل، وقد كان لموقع بغداد على الطرق الرئيسة اعتبار في اختيار المنصور لها[٢٤]. ومن المدن التي مارست وظيفتها التجارية أغمات وسجلماسة وفاس، ومدن المغرب الأوسط وإفريقية، هذه المدن التي أنشأت على طول المسالك التجارية، وازدهت نتيجة الرواج التجاري. وتزداد المدينة ازدهارا في أدائها الاقتصادي بما يوفره لها إقليمها من إمكانات فلاحية وتجارية.

وينعكس المستوى الاقتصادي للمدينة على توسعها العمراني سواء من حيث الحجم أو الوثيرة. فالازدهار الاقتصادي للمدينة يستقطب الناس ويجذبهم إليها، رغبة في رغد العيش وتنمية الثروات. فمراكش مثلاً احتكرت أهم الأنشطة الاقتصادية التجارية والصناعية، مما دعا الفئات الغنية المستقرة في المدن المجاورة إلى أن تنتقل إليها، وكذلك فاس زمن الأدارسة حيث "كثرت العمارة بها، وقصدها الناس من إفريقية والأندلس، وجميع بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنى الناس الأرباض بخارجها، وبنى الأمير (يحي بن إدريس) بها الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم"[٢٥]. وترجع أهمية فاس إلى أنها كانت محطة للقوافل التجارية المتجهة من الجنوب نحو الشرق والشمال نحو سبتة والأندلس، وبذلك غدت فاس عاصمة اقتصادية لمنطقة واسعة من الغرب الإسلامي[٢٦]. وليست الطرق البرية وحدها تؤهل المدينة للقيام بالوظيفة التجارية، فالمدن المرفئية كان لها حضور ووزن في الحياة الاقتصادية لا يقل أهمية عن الذي كان للحواضر الداخلية، ومنها سبتة وبجاية والمهدية.[٢٧]

أما النشاط الصناعي، فقد ظل مرتبطًا في العصور الأولى بالنشاط التجاري، حيث استفادت الصناعة من توفر المواد الأولية، وتنوع الثروات المعدنية، فتنوعت الصناعات في المدن الإسلامية حتى صارت مظهرًا من مظاهر ازدهارها. ويؤكد ذلك ما كتبه الرحالة والمؤرخون في وصفها، فكان "في مدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية، ودور وقصور، ولأهلها اهتمام بحوائجهم، وجميع آلاتهم"[٢٨]، وما تحتفظ به المتاحف الإسلامية والدولية. ومن بين الصناعات الذي ازدهرت آنذاك صناعة الأسلحة (المنجنيق والسيوف والرماح والدروع)، وصناعة الأواني المنزلية، وصناعة الزجاج والعطور والأصباغ، والنسيج والملابس والسكر والورق...[٢٩]، ومن أهم المدن الصناعية: (دمشق وبغداد والموصل والقاهرة).. وكانت المدن الاقتصادية بمثابة سوق كبير أبوابه مشرعة في كل الاتجاهات يقصده الأجانب عن المدينة، وداخل المدينة هناك أسواق ومحلات مختصة في تجارة ومصنوعات بعينها.[٣٠]

**(٢/١) ٤- الوظيفة الدفاعية والعسكرية:**

تمارس المدينة الإسلامية حدًا أدنى من الوظيفة الدفاعية العسكرية، ذلك أن الأمن والحماية من الشروط الضرورية في المدينة. ولذلك فمن أهم مميزات المدينة الإسلامية توفر القلاع والحصون للحماية. لكن هناك مدن أنشأت لغرض عسكري، لا لحماية نفسها، بل لحماية الدولة ككل، وهذه هي المدن الدفاعية العسكرية. ومن أهمها مدن الأمصار، التي أنشئت على حدود الدولة، وارتبطت نشأتها بالجهاد والفتح، وكانت بمثابة معسكرات حربية لـ "دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين، لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم، والخروج عليهم"[٣١]. وفي هذا النوع من المدن يحتل الموضع أهمية كبرى، فيحتاج إلى المواضع المحصنة تحصينا طبيعيا، لأن "المصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران، من غير كثير عدد ولا عظيم شوكة."[٣٢]

غير أن مواضع المدن الدفاعية العسكرية اختلفت بتطور وسائل الدفاع وقوتها، وباختلاف ظروف نشأتها، فالمدن التي نشأت في مرحلة اشتد فيها الصراع والحروب كان موقعها أكثر حصانة من تلك التي نشأت في مرحلة أمن وسلام. ومنذ العصر الإسلامي الأول برزت أهمية الموقع المحصن تحصينا طبيعيا بالنسبة للمدن الدفاعية[٣٣]، كما هو الحال بالنسبة لمدن الهجرة التي اتخذها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعدة للفتح الإسلامي، ومنها القيروان التي أنشئت في موقع يسهل على الجند التزود بالماء. ونظرًا لملائمة الموقع فقد تحولت المراكز الدفاعية إلى مدن كبرى لتوفر الشروط الضرورية للمدينة. وأول هذه المدن هي البصرة التي أسسها عقبة بن غزوان سنة (١٢هـ/٦٣٣م)، والكوفة التي أسسها سعد بن أبي وقاص سنة (١٧هـ/٦٣٨م)، والفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص سنة (٢١هـ/٦٤٢م)، والقيروان التي أسسها عقبة بن نافع

سنة (٥٤هـ/٦٦٥م)[٣٤]. ومثال ذلك مدينة الرباط، ومدريد (مجريط العربية)[٣٥].

وفي المشرق أقامت السلطة مراكز إدارتها في قلاع محصنة ومواضع مرتفعة لتشرف منه على مدن العامة القريبة منها، ومثال ذلك قلعة صلاح الدين في القاهرة، وقلعة الموصل في العراق[٣٦]. ولم تكن تتخذ لمدن الأمصار في البداية أسوار لأنها كانت بمثابة معسكرات حربية، وإنما أنشئت الأسوار بعد ذلك لتأمين المدينة، كما حصل بواسط وبغداد والقاهرة والمهدية والقيروان وقرطبة[٣٧]. وفي المغرب بنى الموحدون المعمورة على مصب نهر سبو لحمايته من دخول السفن المعادية.

**(٢/١) ٥- الوظيفة العلمية والثقافية:**

مارست المدن الإسلامية الأولى كلها حدًا أدنى من التربية والتعليم في المساجد والكتاتيب، وكان التعليم يبتدأ بتعليم القرآن واللغة العربية. وعندما ينهي الطالب تحصيل العلوم المتوفرة في بلده يرحل في طلب العلم إلى مدن وأقطار أخرى، حيث تشكل المساجد الجامعة جامعات كبرى، ينتصب فيها كبار العلماء للإقراء والتدريس، ومنها المسجد النبوي، والمسجد الأموي، ومساجد العراق، وجامع القرويين والقيروان والأزهر، ومساجد الأندلس، وغيرها، وكان يدرس بها جميع العلوم[٣٨]. وظهرت فيما بعد المدارس المتخصصة في شتى أنواع العلوم كالمدرسة النظامية ببغداد التي بناها الوزير نظام الملك، واستغرق بناؤها عامين (٤٥٧-٤٥٩هـ/١٠٦٥- ١٠٦٧م)، والكاملية في القاهرة، والنورية في الشام، ومدارس المغرب الأقصى في عصري الموحدين والمرينيين، وبذلك ازدهرت كل أصناف العلوم في الدولة الإسلامية[٣٩].

وقد ازدهرت الرحلة العلمية في ذلك العصر، إذ قلما توفرت العلوم كلها في مدينة أو بلد واحد، فكان "لابد منها (الرحلة) في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[٤٠]. ومن أهم المدن التي اشتهرت بالعلم المدينة المنورة التي كان يقصدها طلاب الحديث وعلومه وبغداد التي انتشر به علم اللغة والكلام، والقاهرة، وقرطبة واشبيلية بالأندلس، ومراكش وفاس وسبتة في المغرب الأقصى، والقيروان، وتلمسان التي ازدهرت بها العلوم والفنون، وأنجبت العلماء والرجال الأفذاذ الذين طار صيتهم وراء الحدود[٤١].... وانعكست وظيفة المدينة العلمية على عمرانها فكثرت في المدن التي اشتهرت بالعلم المدارس وما يرتبط بها من دور الطلبة، ونفقت سوق الكتب، وازدهرت النساخة[٤٢]. وغالبًا ما كانت العواصم تضطلع بهذه المهمة، نظرًا لتشجيع الحكام للعلم ورغبتهم في تقريب منهم واستفادتهم وأبنائهم وحاشيتهم من علمهم، مثلما حدث في مراكش في عصري المرابطين والموحدين[٤٣].

خلاصة القول: إن الخدمات الضرورية وفي كل المجالات ليست من وظائف المدينة، فتلك وظيفة كل مدينة التي لا تكون كذلك إلا بها، أما الوظيفة فهي التي تميز المدينة عن غيرها من المدن، وتجعلها تمارس إشعاعها من خلالها. وقد تنوعت هذه بتنوع المدن الإسلامية ذاتها.

## ثانيًا: تنظيمات المدينة الإسلامية

تهتم التنظيمات بالحياة الداخلية للمدينة الإسلامية، ويقصد بها أشكال وآليات تنظيم الحياة العامة داخل المدينة، وليس الحياة العامة نفسها، لأن دراسة الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية في المدينة يقتضي تقصي كل أوجه أنشطة السكان في كل مجال من المجالات. وفي المدينة الإسلامية تنظم الحياة وفق مقتضيات الشرع الإسلامي، والمصلحة العامة المعتبرة شرعًا والمراعية للمقاصد الكبرى للدين. وكما أن بناءها يكون بحسب "ما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية"، فكذلك التسيير فيها والتدبير، شأنه شأن الأحكام السياسية في الإسلام. ولا يمكن الحديث عن التنظيم الديني في المدينة الإسلامية، إذ الدين هو الإطار العام الذي تنتظم فيه كل التنظيمات، وهو متضمن فيها، وسوف ينصب الحديث عن التنظيم العمراني، والتنظيم السياسي والإداري، و التنظيم الاجتماعي، ثم التنظيم الاقتصادي.

**١/٢- التنظيم الإداري:**

عمدت الكتابات الاستشراقية إلى إلغاء ذاتية المدينة الإسلامية، وادعت أن نظمها تذوب في النظم المركزية للدولة. ولما كانت الدولة الإسلامية –في نظرهم– بيروقراطية فقد أفقدت المدينة استقلالها وذاتيها،[٤٤] واعتقد المستشرقون أن الإسلام يعترف بالوجود الديني للمدينة، ولا يعترف بوجودها السياسي، وبالتالي فهي خالية من المؤسسات المدنية والإدارية.[٤٥]

إن المدينة في الحضارة الإسلامية تجسد السلطان وتؤكد الملك، وتبرز عظمته وقوته، وفي الوقت نفسه تبرز ارتباط الحاكم بالرعية، ويتجسد ذلك في البيعة والولاء، وفي صلاة الجمعة التي يتم الدعاء فيها للخليفة أو الأمير[٤٦]. وقد شكل الإسلام دستور المدينة الإسلامية، كما شكل الفقه الإسلامي مرجعًا للسكان في أحكامهم. وتتشابه في هذا المدن الإسلامية مع بعضها، وتنتفي خصوصياتها، بل لهذه الاعتبارات تشترك في الصفة "الإسلامية"، غير أنها تحتفظ باستقلاليتها وبحق إدارتها المحلية، في إطار النظام العام للدولة الإسلامية. وتختلف في هذا مدن المشرق عن مدن المغرب، نظرًا لاختلاف أشكال التنظيم السياسي والإداري للدولة الإسلامية هنا وهناك. بل تختلف مدن المشرق عن بعضها وكذلك مدن المغرب، ولذلك فإن المتتبع للمراحل التي عاشتها الحواضر المغربية يلاحظ تكرار "الملك الأصغر"، حسب تعبير ابن خلدون، بشكل لا يواكب بالضرورة دورة الحكم المركزي.[٤٧]

عملت المدينة الإسلامية على إيجاد بنيات ومؤسسات تنفذ من خلالها نظمها وقوانينها الإسلامية. وقد جعل ابن سهل للحكم ست خطط، وفصل فيها، وهي: "القضاء والشرطة والمظالم والرد، والمدينة والسوق"[٤٨]. وتعتبر الإمارة من الوظائف الهامة والأساسية في النظام السياسي الإسلامي، شأنها شأن الوزارة. ويعتبر الوالي أو

الأمير نائبًا عن الخليفة في نطاق إقليمه وإمارته، يتولى شؤون المدينة كلها، ويناط به الحفاظ على استقرار الأمور وضمان مصالح السكان. وقد حدد فقهاء السياسة أنواع الإمارة وحدود صلاحية الأمير في كل نوع(٤٩). ومن صلاحيات الوالي الإشراف على جميع المصالح والمؤسسات والسلط في المدينة، ومن هذه السلط: السلطة القضائية، وأجهزة الأمن والمراقبة مثل الشرطة والحسبة، وأجهزة التسيير المالي، مثل العامل...(٥٠).

وقامت هذه المؤسسات بإدارة المدينة ورعاية شؤونها، وتوجيه تخطيطها، وحل مشاكلها في إطار القوانين الإسلامية. لكن المدن الإسلامية لم تماثل "المدن الدول" في استقلالها، كما كان عند اليونان، لأن النظام السياسي الإسلامي يعتبر الخلافة إطارًا جامعًا، ويعطيها حق التصرف "في أصول الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ الشرع فيها على العموم"، وجميع الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة، والدنيوية "كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها، وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية".(٥١)

وعلى هذا النحو تشكلت المؤسسات في المدينة الإسلامية، غير أن مدن العواصم تميزت بوجود مستويين من التنظيم: عام يشمل التنظيم المركزي للدولة التي تشكل المدينة عاصمتها، وخاص يهم التنظيم المحلي. فكانت المدينة تضم الوالي والقاضي والمحتسب والشرطة، وما يساعد هؤلاء من أجهزة إدارية تنظم الحياة في المدينة وتدير شؤونها الإدارية. واتصلت سلطات المدينة بالسلطة المركزية اتصالاً مباشرًا، فهذه الأخيرة هي مصدر الولايات المختلفة، ومنها يكون التعيين والعزل. ورغم أن النظم المحلية اختلفت باختلاف المدن والأعصار والسياسات، وتطورت بتطور الحياة فإن النظم الإدارية المدنية ظلت مرتبطة بالخطط الدينية، ولم تنفصل عنها إلا في العصر العثماني تأثرًا بالاتجاهات السياسية المعاصرة.(٥٢) وقد ازدهرت المدن الإسلامية مع الاستقرار السياسي، أما عندما يكون هناك صراع سياسي فإنه غالبًا ما يتبعه صراع اجتماعي يفتت الوحدة الاجتماعية، وتتضرر منه المدينة على كافة المستويات، وذلك حال مدن الأندلس في عصر الطوائف.(٥٣)

**٢/٢- التنظيم الاجتماعي:**

اهتم المسلمون بتنظيم المجتمع بالقدر الذي اهتموا به بتنظيم الدولة أو أكثر، وعملت النظرية الاجتماعية الإسلامية على تنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع من جهة، وبين المجتمع والدولة من جهة ثانية، بما يكفل العدالة الاجتماعية، ويضمن مصالح الفرد والجماعة، ويحافظ على وحدة المسلمين. فالمدينة هي التعبير المادي عن وجود الجماعة الأمة، والفرد يندمج في الجماعة تمامًا كما تختفي المنازل الخاصة في الكتلة المتراصة للنسيج العمراني، لكن مع الاحتفاظ بذاتية كل فرد.(٥٤)

وقد تميزت المدن الإسلامية بتركيبتها الاجتماعية التي تعتمد على الانتماء القبلي أو الديني أو الحرفي. وإلى جانب الأسرة والعشيرة، والقرابة، والجوار قامت مجموعة من التنظيمات الاجتماعية. وقد جعل أهل البصرة" المدينة خططًا بحسب القبائل لكل قبيلة خطة... ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبول موتاهم، وتلاصقوا في المنازل".(٥٥) وإلى جانب التنظيمات الحضرية الرسمية توفرت في المدينة الإسلامية تنظيمات اجتماعية، شعبية وأهلية غير رسمية، أسهمت في تماسك المجتمع وتنظيمه، وأظهرت قدرة السكان على تنظيم أنفسهم، والمحافظة على وجودهم الجماعي، والدفاع عن مصالحهم المشتركة، عن طريق المطالبة الجماعية المنظمة، والوقوف في وجه كل تعسف محتمل من السلطة.

ومن هذه التنظيمات الطرق الصوفية التي كانت تجمع بين المريدين وتنظمهم في ممارسة بعض الطقوس الدينية، وتستنفرهم للجهاد إذا اقتضى الحال، وتستعملهم في الثورة على الحكم مثلما وقع مع المريدين في مدينة شلب غرب الأندلس وزعيمهم ابن قسي لما ثاروا على المرابطين في القرن (٦هـ/١٢م).(٥٦)

وأما الطوائف المهنية فكانت تجمع بين أصحاب المهنة أو الحرفة الواحدة تجارة كانت أو صناعة، وتنظم المهنة، ويبث رئيسها في كل ما يتعلق بالمهنة من مشاكل وخلافات الشغل، وجودة المنتوج وثمنه... إلخ. ويؤدي دور الوسيط بين أصحاب المهنة والسلطات المعنية، فيرفع إليها طلباتهم، ويبلغ أوامر الحكم، ويساعده في ذلك رؤساء الأحياء. وبتنظيم المنافسة ومعاقبة المسيئين كانت الطوائف تسهم في إدارة المدينة وتنظيم الحياة، وبذلك شكلت الطوائف روابط مهنية إدارية تنظم العلاقة بين المهنيين والسلطة.(٥٧)

إضافة إلى هؤلاء وجدت في المدينة الإسلامية فئات أخرى لها خصائص وأدوار متميزة، مثل العلماء والأعيان الذين كانوا يمثلون المجتمع ويعبرون عن آماله وآلامه، وفي الوقت نفسه يتعاونون مع الحكام في تطبيق النظام وإجراء الأحكام، ويراقبون مدى موافقة أحكامهم لمقتضيات الشريعة، فكانوا زعماء وقادة للسكان وممثلين لهم ومسؤولين عنهم وأمامهم. وكان أهل الذمة من اليهود والنصارى يشكلون طوائف قائمة الذات تتمتع بحرية اتباع نظامها الخاص، ويرأسها مقدم مسؤول عنها.

**٣/٢- التنظيم الاقتصادي:**

يعتبر السوق من المرافق العامة الأساسية في المدينة الإسلامية، وقد حرص المسلمون على تنظيم الأسواق لأنها "تشتمل على حاجات الناس"(٥٨). ومع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية عامة، ونظم التجارة بوجه خاص. تنوعت الأسواق بتنوع أصناف التجارة والصناعة والحرف، فكان لكل حرفة أو تجارة سوقًا خاصًا بها. وتوزعت في المدينة بشكل يسر عملية التبادل التجاري، ومن غير ضرر أو إعاقة لحركة المرور، واتخذت بعض الأحياء أسماء الحرفة أو الصناعة التي عرفت بها كالنجارين، والنحاسين، والفخارين،

الزجاجيين.. وبتوزيع التجارات والحرف ظهرت طوائف وهيئات حرفية لها هيكلها التنظيمي وأنشطتها الاجتماعية الخاصة، وبتطور هذه التنظيمات ظهر ما يعرف بـ"النقابات". وسهل تصنيف الأسواق مراقبة السلطة لها، والتقليل من الازدحام في شوارع المدينة الضيقة. ووراء هذا التصنيف طبيعة السلع، فالسلع الضخمة الثقيلة الوزن تستقر عند الأطراف حتى لا يتسبب نقلها إلى وسط المدينة في عرقلة حركة السير وأذى المارة.

وشكل السوق مرآة الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة، يظهر رخاءها أو عسرها، و مدى التزام الإسلام في المعاملات الاقتصادية، والحياة العامة. وتشابه شكل أسواق المدن الإسلامية، إذ كان جزء من السوق مسقوفًا ومحميًا من عوامل الطبيعة، والجزء الأخر مكشوفًا.[٥٩] وأقيمت أسواق المدينة بجوار المسجد الجامع، واصطفت على جانبي الشوارع الرئيسة النافذة دون الطرق الخاصة، تيسيرًا لحركة المرور، وتسهيلاً للمراقبة.

واهتمت السلطة بنظام الحسبة بهدف تنظيم الأنشطة التجارية ومراقبة الأسواق، سلعها ومعاملاتها، ومنع الاختلالات والتجاوزات التي من شأنها أن تضعف الثقة بين المتعاملين، وتفسد التجارة. "وكان صاحب السوق يعرف بصاحب الحسبة، لأن أكثر نظره إنما كان فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودين، وتفقد مكيال وميزان وشبهه"[٦٠]. فكانت بذلك الحسبة نظامًا رقابيًا، يستوعب المبادلات التجارية كلها، يقر الحقوق، وينصف الناس، ويمنع الضرر، ويحمي السوق من كل أشكال العبث والفوضى. والحسبة هي واسطة بين أحكام القضاء والمظالم[٦١]. ولتحقيق الأهداف المرجوة من نظام الحسبة غالبًا ما كان المحتسب يستعين ببعض العرفاء من أصحاب المهن والحرف لكشف أنواع التلاعب والغش، لأنه "إذا فسدت أحوال الأشخاص واحدًا واحدًا، اختل نظام المدينة وخربت".[٦٢]

ومع توسع أنشطة التجارة الخارجية، واتصال المدن الإسلامية بغيرها من مدن العالم، أنشئت فنادق خاصة لإيواء التجار الأجانب، ومن هذه الفنادق ما كان بمثابة قنصلية لدولة أجنبية. وقد التزم الأجانب في تجارتهم مع المسلمين بما تقتضيه الأحكام الإسلامية.

**٤/٢- التنظيم العمراني:**

إن الهدف من تخطيط المدن هو إعطاء تعبير مادي للحقيقة الروحانية والمجردة التي تسمى المدينة، والتي هي في جوهرها رمز لنظام سياسي واجتماعي وديني[٦٣]. كما أن العمارة وفن التشييد تعتبر أحد الروافد الأساسية لتتبع تاريخ البشرية، وتطور ثقافتها، وتلاقح تأثيراتها مدًا وجزرًا[٦٤]. وتتحكم في العمارة عدة عوامل، منها ما يرتبط بالضوابط الشرعية، ومنها ما له علاقة بالمستلزمات والروابط الاجتماعية، ومنها ما تكون له دوافع ذاتية وفطرية[٦٥].

ولذلك تأثر تخطيط المدن الإسلامية بطبيعة الحياة العامة في المدينة (دينيًا، سياسيًا، اجتماعيًا، اقتصاديًا)، وسعى المخططون إلى تنظيم العمران بشكل يحفظ للمجتمع خصوصيته الإسلامية، ويسهل ممارسة الأنشطة الحياتية العامة. وشكلت المدينة بتخطيطها العمراني الهيكل الذي يحوي كل أنشطة السكان، وقد تميزت المدينة الإسلامية بمرفلوجيتها (Morphology) الحضرية الخاصة، وخصائصها البنيوية. واعتمد هذا التخطيط على قواعد ومبادئ كبرى، أهمها وأعمها مبدأ "لا ضرر ولا ضرار"، و"الأخذ بالعرف". فكان تفادي الضرر والإضرار من أهم المبادئ التي اعتبرت في هيكلة المدينة، سواء كان الضرر ماديًا أو معنويًا. وحدد الفقهاء مظاهر الضرر المادي الناتج عن تفاعل النشاطات داخل التكوينات المعمارية للمدينة. وقرروا قاعدة عامة أوردها صاحب "المعيار" قائلاً: "والقاعدة أن المرافق التي لا ضرر فيها لا يمنع منها من أراد إحداثها، لأنه ينتفع هو، وغيره لا يستضر".[٦٦]

والمدينة إما أن يكون لها منشئ يفرض تصميمها كما هو الحال بالنسبة للكوفة والبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد ومراكش وفاس... فتسمى "مدينة جديدة"، أو لا يكون لها منشئ، فيتوقف شكلها على قدرة الموقع على الوفاء بالحاجات الطبيعية الضرورية للساكنة، وهذا النوع يسمى "المدن التلقائية".[٦٧] لقد توصل بعض علماء السياسة الشرعية[٦٨] إلى تحديد أهم الأسس التي ينبغي أن تراعى عند إنشاء المدن، وهي:

- توفير ماء الشرب العذب بها حتى يسهل تناوله من غير عسف.
- تقدير طرقها وشوارعها حتى لا تضيق بالمارة.
- بناء الجامع في وسطها حتى يكون قريبا من جميع أهلها.
- توفير الكفاية من الأسواق لينال السكان حوائجهم من قرب.
- تمييز الساكنة وعدم جمع الأضداد المتباينة، حتى لا يقع الهرج.
- تسويرها وتحصينها من الأعداء، لأنها في جملتها دار واحدة.
- توفر أهل الصنائع بها بقدر حاجة سكانها.

وقد اعتنى المسلمون في تخطيط مدنهم بجميع الوحدات المعمارية، صغيرها وكبيرها، وخضع تصميمها المنظم والمنطقي لأهمية الوظائف ودرجة ارتباطها بالمجتمع.

ففي المركز الأول **المسجد الجامع في الوسط**، وفي ملتقى الطرق الرابطة بين أبواب المدينة، فهو النواة والمحور، ويجتمع فيه مختلف مكونات المجتمع، ومركزيته تسهل الوصول إليه من جميع الأطراف.

وفي المركز الثاني **البناية الأميرية** (دار الإمارة أو الخلافة)، وقد جرت العادة في القرون الأولى أن تكون مجاورة للمسجد الجامع ملاصقة له أو قريبة منه، وذلك اعتبار للتكامل الوظيفي بين الديني والسياسي، وعدم الفصل بين الدين والدولة. وأصبح هذا التخطيط تقليدًا، وإن تغيرت أشكاله بتغير الظروف السياسية والأمنية، للدولة، حيث انتقلت البناية الأميرية تدريجيًا إلى هامش المدينة أو خارجها، وانعزلت في قلع محصنة على شاكلة حلب ودمشق في المشرق الإسلامي، والقيروان وفاس ومراكش في الغرب الإسلامي[٦٩].

ووافق ذلك طغيان الاعتناء بالأشكال المادية التي تضفي على الملوك

والحكام هالة من العظمة تتناسب وهيبة الدولة. فتم عزل مركز السلطة عن سكنى العامة، واستقر الأعوان في مراكز قريبة من الحاكم. وسوغ لهم بعض الفقهاء ذلك مثل ابن الربيع الذي اقترح أن يسكن الحاكم في أفسح أطراف المدينة، ويجعل خواصه محيطين به حتى لا تتسبب مواكبه في أذى العامة والمارة، وحتى لا يتعرض لأذى الثائرين، وهناك مدن لم تكن مفتوحة للعامة، وكانت لها نظم ومراسيم خاصة مثل مدينة القاهرة الفاطمية.(٧٠)

وفي المركز الثالث هناك **المحلات التجارية والتجمعات المهنية** حسب أهميتها ونوعيتها: فالمهن النبيلة والنظيفة تكون بجار المسجد وحوله، ثم الملوثة في الهوامش أو بجار الأبواب. وفي المركز الرابع والأخير هناك التجمعات السكنية والمساحات الخضراء وأحيانًا الجبانات (المقابر).(٧١)

يمثل المنزل أهم أوعية أنشطة الحياة الاجتماعية في المدينة، ففيه تجتمع الأسرة، وإليه تأوي النساء، وفيه يربى الأولاد، وتقام مجموعة من الأنشطة الدينية، والتعليمية، والترفيهية، والإنتاجية. وقد حددت الشريعة الإسلامية نظام الحياة الأسرية بما يحفظ الحرمات والعرض، وبين الفقهاء أحكام البناء وشروطه، وطبق القضاة هذه الأحكام، ولم يتسامحوا في كشف حرمات المنازل بالنظر من أبوابها، أو الإطلاع عليها من خلال الأسطح المجاورة، والكوى التي تكشف بيوت الآخرين. وتجسدت حرمة المسلم وأسرته وممتلكاته في الطابع الذاتي للمنزل المحمي داخل محيطه والمفتوح على السماء. وفي تخطيط البيوت اعتبر التطاول في البنيان وحجب الشمس عن الجيران، وكشف عورات البيوت… من الضرر المؤذي، كذلك الدخان الضار والرائحة الكريهة، والصوت المزعج. وكان من اختصاص المحتسب "النظر والحكم في عيوب الدور وشبهها، إذا جعل له ذلك في تقديمه".(٧٢)

وتضافرت جهود السكان والسلطة في الحرص على التستر على الحرمات، وظهر ذلك في الشكل المادي للمدينة الإسلامية، وأخذ مظاهر متعددة، من بينها: تحديد مقدار ارتفاع المباني، وتنظيم المطلات على الشوارع، وفتح الأبواب، ووردت في ذلك نوازل وأحكام(٧٣)، بل نشأ نوع من الفقه سمي "فقه العمارة الإسلامية"، ومن أشهر الكتب في هذا الباب "الإعلان بأحكام البنيان" للفقيه المالكي ابن الرامي، وبموازاة ذلك حافظت البيوت على الشروط الصحية في تلقي أشعة الشمس والتهوية، وذلك من خلال الفناء الذي يعتبر مرفقًا ضروريًا في تصميم البيت الإسلامي.(٧٤)

ومنعًا للضرر تم إبعاد المنشآت الصناعية المسببة له، كأفران الفخار والجير، والمدابغ، والصناعات المزعجة عن الوحدات السكنية، وإقامتها على أطراف المدينة. ولما كانت الشوارع والأسواق مجال الاتصال والتعامل بين الناس فقد تدخلت سلطة المدينة في تنظيمها ومراقبة ما يجري فيها من نشاطات ومعاملات وسلوكات، وكان ذلك دور المحتسب من جهة،(٧٥) والعلماء من جهة ثانية، هؤلاء الأخيرين الذين لم يسوغوا بحال التصرف في الشوارع العمومية والمحجات بشيء يلحق الضرر بالناس،" ولا يسوغ ذلك في المحجات ولا في الطريق غير المتملكة بإذن ولا بغير إذن، لأن المنفعة غير خاصة بالإذن".(٧٦)

وحظرت الشريعة الإسلامية إنشاء المراقص والملاهي والحانات ودور البغاء، وغيرها من المنشآت التي تتعارض مع أحكام الشريعة ومقاصد الدين، ولذلك عرفت المدينة الإسلامية نوعًا من التراجع في مثل هذه المنشآت والمرافق العامة مقارنة مع المدينة اليونانية أو الرومانية. هذا في الوقت الذي تكاثر فيه في المدينة الإسلامية نوع آخر من المؤسسات الدينية كالمساجد، وهي كثيرة، والعلمية والثقافية كالجامعات، والمدارس، والاجتماعية كالمارستنات (المستشفيات)، ودور الأيتام، والزوايا.

## خاتمة

لقد شكلت المدينة الإسلامية كيانًا مستقلاً في هياكلها وتنظيماتها، فتمتعت بخصوصياتها الطبيعية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتاريخية في إطار وحدة الدولة الإسلامية. واختلفت ظروف نشأتها، وتنوعت وظائفها، وتطورت بحسب إمكاناتها المادية والبشرية، واعتناء السلطات بها. كما أن تطور الحضارة الإسلامية، وتنوع مشاربها وروافدها أغنى المدينة من كل النواحي: العمرانية والاجتماعية والتنظيمية…، وجعلها تعكس التنوع والامتزاج الذي حرفته هذه الحضارة. كما جعلها تتفوق عن مثيلاتها في حضارات العالم القديم الأخرى. وقد استطاع المسلمون أن يجمعوا في مدنهم بين ما يقتضيه الهيكل المادي للمدينة من حسن التخطيط جودة ومتانة البناء وجمال ورونق الزخرفة، ومراعاة الشروط الصحية من جهة، وبين الوظيفية التي تقتضي تسهيل وتسريع النشاط الإنساني داخل المدينة من جهة ثانية، وبين ما تقتضيه الحياة الإسلامية، وما توجبه تعاليم الدين، وتقاليد المجتمع، وخصوصيات الساكنة التي تنوعت أصولها الإثنية والاجتماعية، واختلفت مستوياتها الاقتصادية والثقافية. بل إن غير المسلمين وجدوا في المدينة فضاء لأنشطتهم الدينية والاجتماعية، وهو ما يعكس تساكن وتعايش سكان المدن وطوائف المجتمع على الرغم من بعض الاستثناءات في الزمان والمكان.

## الهوامش:

(١) **معنى المدينة** لمؤلفيه ف.شواي- ر.بنام- ج.بيرد- أ.فان ايك- ك.فرامبتو ر.ريكورت- ن.سيلفر، ترجمة د عادل عوا، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨. وانظر ملخص الكتاب عند محمد حمود، **في مسألة المدينة والمدينة العربية**، ج٢، مجلة الفكر العربي، ع٣٠، دجنبر١٩٨٢، صص١٢٢-١٣٣. انظر: محمد ناصح، **محددات نشأة المدينة وتطورها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، ندوة **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، ص٨٤. الحبيب الجنحاني، **ابن خلدون والتطور العمراني في المغرب الإسلامي**، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع٩ ، ١٩٨٠، ص٢٢٩. أحمد قدور، **تأثير المدن الكبيرة على الشبكة الحضرية في العهد الموحدي**، ندوة **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، ص١١٠.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٩٩٩، ص٣٢١.

(٣) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، بيروت، دار الغرب الإسلامي،١٩٨١، ج٢، ص ٢٢٧.

(٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣١٧.

(٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣٢١-٣٢٢.

(٦) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٢٢.

(٧) ألبيرت حوراني، **المدينة الإسلامية**، مجلة عالم الفكر، مجلد١١، ع١، ١٩٨٠، ص١٠-١١.

(٨) م. يحيي وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي**، عالم المعرفة، ع٣٠٤، يونيو ٢٠٠٤، ص٥٥. وقسم مدارس وطرز العمارة الإسلامية إلى ١٠ هي: الطراز الأموي، المغربي الأندلسي، العباسي، الفاطمي، السلجوقي، الأيوبي، المملوكي المغولي والتيموري، الهندي، والعثماني، ص٦٢-٨٣.

(٩) عبد العزيز توري، **إنجازات حضرية ومعمارية في العهدين الموحدي والمريني: مدينتي مراكش وفاس الجديد**، محاضرات لم تنشر، ١٩٩٦-١٩٩٧، ص٣.

(١٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣١٧.

(١١) عبد الفتاح وهيبة، **في جغرافية العمران**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠، ص ٨٤.

(١٢) وهيبة، **في جغرافية العمران**، ص ١٣٦.

(١٣) **المقدمة**، ص٣٣١.

(١٤) **المقدمة**، ص٣٢٣.

(١٥) **المقدمة**، ص ٣٢٣.

(١٦) محمدعبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، ع ١٢٨، س ١٩٨٨، ص ١٠٩-١١٠.

(١٧) وهيبة، **في جغرافية العمران**، ص٩٠.

(١٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٤٧.

(١٩) محمد نصيح، **محددات نشأة المدينة وتطورها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- بن مسيك، الدار البيضاء، ص٨٠.

(٢٠) عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص١١٦-١١٧.

(٢١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢٢) **المقدمة**، ص٣١٨.

(٢٣) وهيبة، **في جغرافية العمران**، ص ٨٥.

(٢٤) عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص ٩٧-٩٨.

(٢٥) علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور،١٩٧٢، ص٨٥.

(٢٦) أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، ج٢، الطبعة التونسية، القسم الخاص بالمغرب، ص ٧٩٨.

(٢٧) الحسين بولقطيب، **النشاط الاقتصادي لبعض حواضر المغرب الإسلامي في أواخر القرن الخامس وبداية السادس الهجري**، المدينة في تاريخ المغرب العربي، ص١٧٩.

(٢٨) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٤٢.

(٢٩) أحمد مختار العبادي، **الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية: الصناعة والأصناف**، مجلة عالم الفكر، المجلد١١،ع١، ١٩٨٠.

(٣٠) عن أنواع الأسواق أنظر عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال ق ٦ هـ**، بيروت، دار الشروق، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٩٣-٢٩٥.

(٣١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣١٨.

(٣٢) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣١٨.

(٣٣) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٧٧.

(٣٤) خالد محمد مصطفى عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، سلسلة كتاب الأمة، رقم٥٨، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨، ص٥٩.

(٣٥) عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص ١٠٨.

(٣٦) نفسه، ص ١١٨.

(٣٧) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣١٨ و٣٧٧.

(٣٨) فتحية النبراوي، **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٤،١٩٨٧، ص١٧٩-٢٢١.

(٣٩) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٩، ص١٨-٢٠.

(٤٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٥٤٠.

(٤١) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢،ج٧، ص. إسماعيل الخطيب، **الحركة العلمية في سبتة خلال ق٧ هـ**، تطوان، مطبعة النور، ط١، ١٩٨٦، ص٥٢ و ٢٣٨-٢٤٢.

(٤٢) المنوني، **حضارة الموحدين**، ص١٤.

(٤٣) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء دار الكتاب، ط٧، ١٩٨٧، ص ١٠٤.ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٥.

(٤٤) **مجلة عالم الفكر**، ع١١، ١٩٨٠، ص٥.

(٤٥) انظر مثلاً: آراء هاموند وبرناند لويس وبلانهول وكارديت وشتيرن، **المدينة الإسلامية**، ص ٣٠١.

(٤٦) عبد العزيز توري، **إنجازات حضرية ومعمارية**، ص٦.

(٤٧) عبد الأحد السبتي، **المدينة الخلدونية بعد عصر ابن خلدون**، ضمن المدينة في تاريخ المغرب العربي، ص ١٤٢.

(٤٨) الونشريسي، **المعيار**، ج١٠،ص٧٧.

(٤٩) أبو الحسن الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق سمير مصطفى رباب، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٠، ص ٤١-٦٨.

(٥٠) ج.ف.ب. هوبكنز ، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة توفيق أمين الطيبي، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠. عز الدين عمر موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩١، ص ١٨٤. النبراوي، **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، ص٧٧-٧٩.

(٥١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٢٠٢.

(٥٢) عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص٢٩٧-٢٩٨.

(٥٣) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ط١، ١٩٧٩، ص ٣٤-٣٥.

(٥٤) فتحية النبراوي، **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، ص١٦٢.
(٥٥)أبو الحسن الماوردي، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، تحقيق رضوان السيد، بيروت ١٩٨٧، ص٣٥.
(٥٦)عن ثورة المريدين أنظر: عصمت عبد اللطيف دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨، ص٤٩-٧٥.
(٥٧) عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص ٣٦٦.
(٥٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٢٦.
(٥٩)سارة منية، **التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية**، مجلة الفكر العربي، ع٢٩، ص١٤٩.
(٦٠) الونشريسي، **المعيار**، ج١٠، ص٧٧.
(٦١) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص٢٦١.
(٦٢) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٤٦.
(٦٣) توري عبد العزيز، **إنجازات حضرية ومعمارية**، ص٣.
(٦٤)عبد العزيز توري، **العمارة المغربية: مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور**، مجلة المناهل، ع٧٣-٧٤، فبراير٢٠٠٥، صص١١-٤١.
(٦٥)الحسن تاوشيخت، **المعمار بالمغرب الأقصى بين أحكام البنيان وشح المظان**، مجلة المناهل، ع٧٣-٧٤، فبراير٢٠٠٥، صص ٢٨٧-٣٣١.
(٦٦) الونشريسي، **المعيار**، ج١٠، ص٢٧٧.
(٦٧) عبد العزيز توري، **إنجازات حضرية ومعمارية**، ص٤.
(٦٨)ابن الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق ناجي التكريتي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨١، ص ١٩٢.
(٦٩) توري، **إنجازات حضارية**، ص٨. م يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية**، ص٩٥.
(٧٠) عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، ص١٢٠.
(٧١) توري، **إنجازات حضرية**، ص٨.
(٧٢)الونشريسي، **المعيار**، ج١٠، ص٧٧-٧٨. م يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، ص٩٥.
(٧٣) الونشريسي، **المعيار**، ج١٠، ص٢٧٣ –٢٨١.
(٧٤) يحي وزيري، **العمارة الإسلامية**، ص١١٠-١١١.
(٧٥) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص٢٦٩-٢٧٦.
الونشريسي، **المعيار**، ج١٠، ص٢٧٧.




www.kanhistorique.org